

تاريخ مصر الحديث

مع فُزُلكَته في تاريخ مصر القديم

المُجزء الأول

تأليف

جرجي زيدان

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

⑪

تَارِيخُ مِصْرَ الْحَدِيثِ

من الفتح الاسلامي الى الآن

مع

نذلكة في تاريخ مصر القديم



تأليف

عرجي زيدان

منشء الهلال



الجزء الاول

من الفتح الاسلامي الى آخر دولة المماليك الثانية

وفي اوله فذلكة التاريخ القديم



الناشر

مكتبة مدبولي

١٩٩٩

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٩ م - ١٩٩٩ م

مكتبة مدبولي - ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١ - تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

فاتحة الكتاب

للطبعة الاولى

حمداً لمن جعل اقايص الاولين عبرة للآخرين . أما بعد فلا ازيد اتمارى .
 علماً بمد انتاريخ ولا بما له من المنزلة الرفيعة بين سائر العلوم ولا بما يترتب على الاقبال
 دليه من اصلاح الشؤون . وانما اكتفي بكونه أكثر ارتباطاً بمصالح خاصة الناس منه
 بمصالح عامتهم . فقادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصالحين احوج الى معرفته من
 سائر افراد الامة . ولذلك رأينا ولادة الامور على اختلاف الازمان والاحوال يصرفون
 العناية في مطالعته وتفهم خفاياه ويبدلون النفيس في استطلاع مكنوناته وجمع شظاياه
 فتكاد لا ترى مؤرخاً من القدماء الا وقد أوعز اليه ولي الامر او من جرى مجراه
 ان يضع في التاريخ كتاباً . بل كثيراً ما رأينا من ولادة الامور انفسهم من ألف فيه كتاباً
 غير مبال بما يقتضيه ذلك من تجشم المشاق ولا مستنكف من ان يقول الناس انه اعتنى
 بما هو دون مقامه

ذلك كان شأن هذا العلم في الازمنة الخالية يوم لم يكن يتيسر لضعيف مثلي ان
 يطرق بابه او يخوض عبابه لقصر باعه عما يحتاج اليه في ذلك من المادة التي تمنع الا
 على الملوك او المقرئين منهم

أما الان فما يتباحث فيه الملوك صباحاً في مؤتمراتهم السرية باقاصي المغرب لا يأتي
 عليه الضمحي حتى يذبح بين الصانع والتاجر في اقاصي المشرق . والفضل في ذلك لاسلاك
 البرق وصحف الاخبار التي لم تغادر بين الخاصة والعامة حجاباً . فلا غرو والحالة هذه
 اذا تجرأ من كان عاجزاً مثلي على ان يضع في مثل ذلك كتاباً

ولما كانت المملكة المصرية من اقدم الممالك تمداً وأكثرها حوادث وطوارئ

ومحناً لكثرة ما تداول عليها من الدول المتباينة نزعة ولغة ووطناً كانت اجدرها بتدوين تاريخها عبرة للذين يمتبرون

وبما ان تاريخها بعد الفتح الاسلامي اكثر ارتباطاً بحالتها الحاضرة من تاريخها قبله كان اكثر فائدة واحوج الى التدوين وهذا ما ندعوه بتاريخ مصر الحديث وقد قام من كتبه العرب وافاضلهم كثيرون اعتنوا بالكتابة عن مصر وتاريخها القديم والحديث وسيأتي ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام عن مصادر تاريخ مصر الحديث . وحدث هذه المؤلفات « الخلط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » تأليف العلامة الفاضل صاحب السعادة علي باشا مبارك فانظر عموم المعارف جملة عشرين جزءاً كبيراً وهو من التأليف التي لا يقدم على كتابتها الا اصحاب الهمم العالية والمعارف الواسعة . وقد كان عليه معتمدي واليه مرجعي في كثير من المواضيع ولا سيما فيما يتعلق بالشوارع والجوامع

ومن الغريب اني لم ار بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف على اسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموماً وسائر الدول المعاصرة . واغرب من ذلك اني لم ار بين مدارس القطر السعيد من اميرية وغير اميرية مدرسة تعني بتدريس هذا التاريخ الذي هو تاريخ بلادها . ولعل السبب في ذلك عدم وجود الكتب الموضوعه على اسلوب مناسب للتدريس

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد الى مثل هذا التاريخ . فاخذت على نفسي مع علمي بعجزني ان ابذل الجهد في سد هذا العوز معتمداً على اصح الروايات واصدق الكتب من ثقات المشرق والمغرب ملتزماً في كل ذلك صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام العقلية واغفال كل ما هو مقول بغير قياس من التقاليد والخرافات

وقد عثيت اتماماً لمعدات التأليف بفقْد الآثار العربية بنفسني باذن من نظارة الاوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ولا سيما ما كان منها قديماً

كجامع عمرو وجامع ابن طرلون والجامع الازهر وجامع السلطان حسن وجامع السلطان برقوق وجامع قايت باي وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقاعة وما جرى بجراها وتسلفت ما صعب مسلكه منها ولا سيما اسوار القاهرة القديمة وابوابها كباب النصر وباب الفتوح وباب الشعيرة وغيرها . ومن هذه الاماكن ما قد تداعت اركانه وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت اخطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار العربية التي تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكايات والشوارع قصر الشمع او دير النصارى في مصر القديمة ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين وغير هذه من الاماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها

اما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها ايضاً ولا سيما ما هو منها في مصر العليا مبتدئاً من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيان المالك وجبل السلسلة وانس الوجود واباسنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية فانريب فميرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحکامات وبنيات بناها المماليك أو غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها

كل هذه الاماكن تفقدتها جيداً تماماً لمعدات التأليف . ولما توفرت لدي المواد اللازمة باشرت تأليف هذا الكتاب ودعوت « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الايام . ثم رأيت ان الفائدة لا تتم الا اذا جعلت في مقدمته ملخص تاريخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها ببعض وتزيينه بالرسوم والخرائط وايضاحات اخرى . فجاء بحمد الله كتاباً في جزئين كبيرين وهما ملخص ما تضمنته :

١ فذلكة في تاريخ مصر القديم من أول عهدها الى الفتح الاسلامي

٢ تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى هذه الايام وهو مقسوم الى دول تحتها خلافتان او سلطنات او امارات مرتبة حسب ازمان حكمها فيبدأ بدولة الخلفاء الراشدين فبنو امية فالعباسيين وهكذا حتى العائلة المحمدية العلوية الحاضرة

٣ وفي الكتاب زهاء مائة رسم بينها رسوم الجناح العالي والمغفور له محمد علي

باشا والخليوي السابق و بونا برت ورعسيس الثاني ونحوتمس الثالث وامنوفيس الثالث وغيرهم . وبين هذه الرسوم أيضا معظم النقود الاسلامية ولا سيما المضروبة في مصر منذ صدر الاسلام الى اليوم . ورسوم اخرى كحجر رشيد وآلة المصريين وخرائب المطرية وانس الوجود وادفو وغيرها

٤ وفي ذيل الكتاب جدول عام لاسماء الذين تولوا مصر من الامراء والخلفاء والسلاطين والباشوات من الفتح الاسلامي الى اليوم مرتبة حسب ازمان حكمهم وبجانب ذلك عدد الصفحة التي ذكرت فيها تولياتهم من هذا الكتاب . ثم اذا كانوا امراء أو ولاية يذكر بازاء ذلك اسماء الخلفاء أو السلاطين الذين تولوا البلاد باسمهم

٥ في خاتمة الكتاب فهرس ابجدي عام لكل ما ورد في هذا الكتاب من المواضيع المهمة كالفتوحات والحروب والبنائات والثقلبات واسماء الخلفاء والسلاطين والامراء والباشوات وغيرهم ممن حكموا مصر . هذا فضلاً عن فهرس خاص لكل من جزئي الكتاب

٦ قد جعلت للكتاب فضلاً عن الرسوم المتقدم ذكرها اربع خارطات وهي : اولاً خارطة مدينة القاهرة كما هي الان . ثانياً خارطة مصر السفلى . ثالثاً خارطة مصر العليا . رابعاً خارطة القطر المصري قبل الفتح الاسلامي

وقد عنيت في ضبط هذا التاريخ وربط حوادثه جهد الطاقة مغفلاً كثيراً من الروايات التي ترجح فسادها بعد النظر والتروي متحاشياً الالفاظ المستهجنة والتعابير الممقدة ما امكن متخذاً افضل اسلوب تفهيمه العامة وترضاه الخاصة بنير اخلال ولا امال . راجياً من اصحاب النقد ان ينظروا اليه بعين الرضى اذ العصمة لله وحده سبحانه وتعالى

يقال في الامثال « من الف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اساء فقد استقذف » اما انا فان احسنت فان الفضل لافضل الكتبة وثقات الرواة الذين سبوني لاني لم ات بشيء من عند نفسي ما خلا الحوادث التي قدر لي ان اكون فيها شاهد عين وما تفقدته بنفسني من الاثار العربية والمصرية . وان اسأت فذاك دأب العاجز . وليكني ارجو الي من يعثر لي على خطأ ان ينهني اليه فاشكر سعيه واثني عليه

لاني استحيي من الحق اذا عرفته ان لا ارجع اليه . او يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا اقول ان كل خطي سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما اجعل اكثر مما اعلم . وما تمام العلم الا لمن علم الانسان ما لم يعلم

هذا وارجو ان تصادف خدمتي هذه لدى اخواني ابناء هذا القطر السعيد قبولا واقبالا واتقدم الى رجال العلم منهم ان يتحفونا بنفثات اقلامهم بما هو أوفر مادة واجزل نفعا . لاني اعلم ان بين ظهرانيهم رجالا لهم من العلم وسعة المعرفة ما يوهبهم لما هو افضل من ذلك كثيرا . فتم سعادة البلاد ونكون قد فئنا ببعض الواجب علينا نحوها ونحو اميرها الخطير سمو خديونا المعظم محمد توفيق باشا الاخفم ادام الله ايامه باسمه الثغور في ظل صاحب الخلافة العظمى مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان ايد الله ايام دولته بالعرز والاقبال وادام شوكرته واقتداره ما تكرر الجديدان

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ فلاقته اقبالا حسنا نشطنا على المثابرة في خدمة العلم . وما زلنا من ذلك الحين ونحن نزداد معرفة في احوال مصر وتتبع تاريخها . فلما عزمنا على اعادة الطبع اضفنا الى الطبعة الاولى زيادات هامة في مواد ورسومه فضلا عن زيادة التدقيق والتحري وهالك مزيات هذه الطبعة

١ انها اقرب الى الدقة والتحقيق

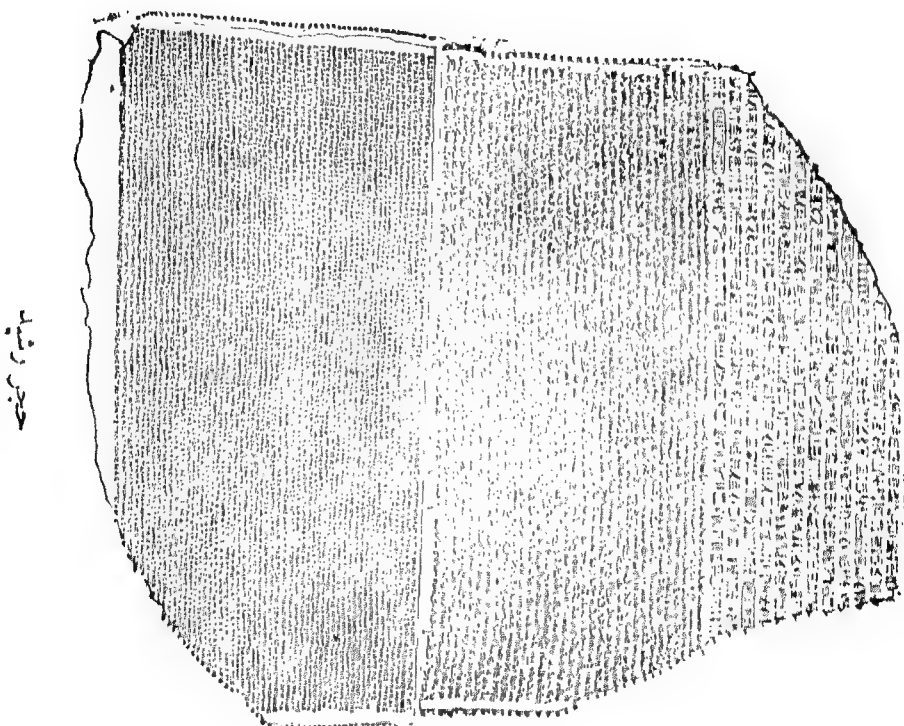
٢ تحتوي على تاريخ بضع وعشرين سنة لم تدركها الطبعة الاولى

٣ قد توسعنا في اكثر المواد وخصوصا في القسم الاخير وعلى الاخص في تاريخ الاسرة الخديوية وما جرى في ايامها من الحوادث العظام . كالتقلبات السياسية التي جرت في زمن محمد علي . وما ادخله هذا الرجل العظيم من الاصلاحات العلمية والاقتصادية والسياسية والتجارية . وفعلنا مثل ذلك في ازمنة خلفائه الى اليوم . ويدخل فيه علاقات مصر مع الدول على زمن اسماعيل باشا والحوادث العربية والسودانية في

زمن الخديوي السابق وما كان من النهضة العلمية والمالية والسياسية في زمن سمو الخديوي الحالي . ويصح ان يقال اننا كتبنا تاريخ الدولة الخديوية ثانية ونظرنا فيه من الوجهة السياسية والعلمية والاقتصادية مع التوسع والتدقيق . فاصبح الكتاب اكبر حجماً واوسع مادة

٤ زيناہ بنيف ومثتين من الرسوم والخرائط وبينها رسوم مشاهير مصر وغيرها في السياسة والعلم والاصلاح وصور اهم المواقع التي جرت فيها الحوادث بمصر والشام . وآلات الحرب والحصار واشهر الآثار البنائية فضلاً عن النقود الاسلامية والآثار المصرية القديمة . ومن الخرائط خريطة مصر في زمن الفراغة والوجه البحري اليوم ورسم القاهرة على اختلاف اعصرها وخرائط بغداد والخرطوم وام درمان وغيرها فنرجو ان تصادف خدمتنا قبولاً والله حسبنا ونعم الوكيل





حجر رشيد



كاتب مصري قديم

اقسام تاريخ مصر العام

يبدأ تاريخ مصر العام عند اقامة اول حكومة نظامية فيها وقد علم من مصادر مختلفة سياثي ذكرها . ان اول حكومة اقيمت من هذا النوع كانت في اول القرن الستين قبل المسيح اي منذ نحو سبعة الاف سنة على وجه التقريب
اما قبل ذلك الحين فكانت قبائل مستقلة تحت سلطة فئة من الكهنة يقال لهم باعة مصر القديمة « حورشسو » وهم آخر من حكم المصريين قبل الدولة الملكية الاولى التي اول ملوكها « مينا » وهو اول من اقام في وادي النيل حكومة نظامية ومنه يتبدى تاريخها

وقد قسم المؤرخون تاريخ مصر العام بالنسبة الى ثلثتها الى ثلاثة ادوار كبرى وهي:
١ الدور الجاهلي . يتبدى عند اول دخولها في سلك الممالك سنة ٥٦٢٦ ق م او ٥٠٠٤ ق م وينتهي سنة ٢٤١ ق م او ٣٨١ ب م . وذلك عند ما نهى الامبراطور ثيودوسيوس عن عبادة النصب والتماثيل وامر بتابع الدين المسيحي
٢ الدور المسيحي . يتبدى عند شيوع سنة ثيودوسيوس وينتهي عند فنوح الاسلام سنة ١٨ ب م او ٦٤٠ ب م
الدور الاسلامي . يتبدى عند فوح الاسلام ولا يزال

اقسام الدور الجاهلي

يقسم هذا الدور الى خمس دول تسلط في انائها على مصر ٣٤ عائلة وهي :
١ الدولة الملكية القديمة — تتبدى بتسلط العائلة الاولى وتنتهي بانتهاء العائلة العاشرة اي (من ٥٦٢٦ — ٣٦٨٦ ق م) او من ٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق م ومدة حكمها ١٩٤٠ سنة
٢ الدولة الملكية الوسطى — تتبدى بالعائلة الحادية عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة السابعة عشرة (من ٣٦٨٦ — ٢٣٢٥ ق م) او (من ٣٣٢ — ١٢٠٣ ق م) ومدة حكمها ١٣٦١ سنة
٣ الدولة الملكية الاخيرة — تتبدى بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة الحادية والثلاثين من ٢٣٢٥ الى ٩٥٤ ق م) او (من ١٢٠٣ — ٣٣٢ ق م) ومدة حكمها ١٣٧١ سنة

- ٤ الدولة اليونانية - تبتدى بالعائلة الثانية والثلاثين وتنتهي بانتهاء العائلة الثالثة والثلاثين (من ٩٥٤ - ٦٥٢ ق هـ) او (من ٣٣٢ - ٣٠ ق م) ومدة حكمها ٣٠٢ سنة
- ٥ الدولة الرومانية - ويسمى بها العرب دولة الروم وهي العائلة الرابعة والثلاثون الرومانية (من ٦٥٢ - ٢٤١ ق هـ) او (من ٣٠ ق م - ٣٨١ ب م) ومدة حكمها ٤١١ سنة

الدور المسيحي

اما الدور المسيحي فهو عبارة عن استمرار الدولة الرومانية بعد ثيودوسيوس الى فتوح الاسلام (من ٢٤١ ق هـ - ١٨ ب هـ) او (من ٣٨١ - ٦٤٠ ب م) ومدة ٢٦٠ سنة

اقسام الدور الاسلامي

يقسم الدور الاسلامي الى اثنتي عشرة دولة وهي

- ١ دولة الخلفاء الراشدين (من ١٨ - ٤١ ب هـ) او (من ٦٤٠ - ٦٦١ ب م)
- ٢ الدولة الاموية (من ٤١ - ١٣٢ ب هـ) او (من ٦٦١ - ٢٥٠ ب م)
- ٣ الدولة العباسية للمرة الاولى (من ١٣٢ - ٢٥٧ ب هـ) او (من ٧٥٠ - ٨٧٠ ب م)
- ٤ الدولة الطولونية (من ٢٥٧ - ٢٩٢ ب هـ) او (من ٨٧٠ - ٩٠٥ ب م)
- ٥ الدولة العباسية في المرة الثانية (من ٢٩٢ - ٣٢٣ ب هـ) او (من ٩٠٥ - ٩٣٤ ب م)
- ٦ الدولة الاخشيدية (من ٣٢٣ - ٣٥٨ ب هـ) او (من ٩٣٤ - ٩٦٩ ب م)
- ٧ الدولة الفاطمية (من ٣٥٨ - ٥٦٧ ب هـ) او (من ٩٦٩ - ١١٧١ ب م)
- ٨ الدولة الايوبية (من ٥٦٧ - ٦٤٨ ب هـ) او (من ١١٧١ - ١٢٥٠ ب م)
- ٩ دولة المماليك الاولى (من ٦٤٨ - ٧٨٤ ب هـ) او (من ١٢٥٠ - ١٣٨٢ ب م)
- ١٠ دولة المماليك الثانية (من ٧٨٤ - ٩٢٣ ب هـ) او (من ١٣٨٢ - ١٥١٧ ب م)
- ١١ الدولة العثمانية (من ٩٢٣ - ١٢١٦ ب هـ) او (من ١٥١٧ - ١٨٠١ ب م)

١٢ الدولة المحمدية العلوية (من ١٢١٦ - ب هـ او ١٨٠١ ب م ولا تزال)
ويقسم تاريخ مصر العام ايضاً الى قسمين عظيمين قديم وحديث . اما القديم فمن
اول تاريخها الى الفتح الاسلامي ويشتمل على الدورين الاولين الجاهلي والمسيحي .
والحديث منذ الفتح الاسلامي الى هذا اليوم ولا يزال

مصادر تاريخ مصر القديم

ما زال تاريخ مصر القديم محجوباً عنا حتى اتيح لابناء القرن الماضي حل رموز
الكتابة الهيروغليفية (القلم المصري القديم) على ان تاريخ العهد القديم لم يخل من بعض
التاميع الى ذلك مما لم يكن من النصوص التاريخية ما يعضده وما زال ذلك شأن تاريخ مصر
القديم الى القرن السابع قبل المسيح عند استيلاء اليونان على وادي النيل . ومن مصادر
تاريخ مصر القديم :

١ نصوص المؤرخين القدماء

ان هيرودوتس الرحالة المؤرخ اليوناني هو اقدم من كتب عن مصر ما يصح ان
يسمى نصاً تاريخياً وقد جال هذا المؤرخ في وادي النيل سنة ٤٥٥ قبل الميلاد
وبعد هيرودوتس ظهر سبانيوس احد كهنة المصريين العظام في القرن الثالث قبل
المسيح وكتب تاريخاً نفسياً عن مصر لكنه فقد ولم يصلنا منه الا بعض ما ذكره
يوسيفوس في آثار الاسرائيليين وما كتبه سنسوس احد كتبة القرن الثامن . ثم جاء
ثيودوروس من صقلية سنة ٨ قبل المسيح . ومن هؤلاء الثقات سترابو العالم الجغرافي
وبلوتارخس المؤرخ الذي ظهر في القرن الاول المسيحي . واما قائمة اسماء الملوك المائثون
فقد وجدت بين ما كتبه بعض المؤرخين المسيحيين . ويقال بالاجمال انه لم يكتب عن
مصر شيء جدير ان يدعى نصاً تاريخياً الا منذ القرن الخامس قبل المسيح

٢ الآثار

واعلم ان ما كتبه اولئك المؤرخون لم يفدنا شيئاً صريحاً عما وراء القرن السابع قبل
المسيح . اما الآثار - تلك الاطلال البالية التي تراها مبعثرة لا حراك بها وقد بقيت رغم

تقلبات الزمان وافعال العناصر فانها تنطق بافصح لسان وتنادي باجلى بيان عن عظمة صانعيها فتخبرنا عن تاريخهم وتوضح اماننا ايضاً عاداتهم واخلاقهم ومكانتهم من الحضارة وعلو الهمة ورفعة المنزلة . فقد نقشوا عليها من الرسوم والرموز ما جعلها كتاباً مزيناً بالرسوم والاشكال لا تحرقه النار ولا يخرقه الفار

هذه الهياكل العظيمة والمسلات الشاخنة والتماثيل الهائلة هذه المدافن هذه الاهرام هذا ابو الهول بل هذه الجثث البالية نراها صماء وقد افعم الاحياء نطقها وقد كلفت بالحياة وعلفت آمالها بالمعاد فابتنت لانفسها البنايات الشاهقة القوية العماد تبقى معها في عالم الخلود تقص على القادمين اقايص الاقدمين . وجميع هذه تعد من وثيق المصادر التاريخية

الكتابة الهيروغليفية

يظهر ان ملوك الروم اثناء تسلطهم على مصر لم يكتثروا بهذه الكتابة بل اهملوها شأن اكثر المفتحين بلغة من يتسلطون عليهم فبقيت محجوبة تغشاها دواعي الجهل الى ايام الحملة الفرنسية في اوائل القرن الماضي اذ أتيح لاحد رجالها ان يحل بعض رموزها . وقام بعده جماعة اعتنوا بحلها فأثروا على فهمها جيداً بحيث امكنهم قراءة ما كتب بها على البردي (البايروس) والاحجار فقدموا التاريج خدمة تستحق الاعتبار وهالك كيفية توصلهم الى حلها بالايجاز

لما قدم نابوليون الاول الى مصر اكتشف احد رجاله سنة ١٧٩٩ بالقرب من نعر رشيد حجراً اسود غير منتظم الشكل الاسطحاً منه كان مستويّاً أملس في اعلاه كتابة بالقلم المصري القديم (الهيروغليف) تحتها كتابة اخرى بالقلم العباسي او الديموطيقي وتحت هذه كتابة ثالثة باليونانية القديمة فأهدي هذا الحجر الى مجمع العلوم الفرنسي في القاهرة ولما تغلب الجنرال هتشنسون الانكليزي على جنود بونابرت وضع يده على ذلك الحجر ثم اهدي الى المتحف البريطاني في لندن ولا يزال هناك . وقد شاهدناه في ذلك المتحف سنة ١٨٨٧ في صدر الآثار المصرية محفوظاً في صندوق غطاءه من زجاج اما طول ذلك الحجر فتلات اقدام وقيراطان وعرضه قدمان وخسة قراريط

وفي سنة ١٨٠٢ رسمت جمعية العاديات صورته وفرقتها في جمهور العلماء لينظروا في قراءتها فقرأوا أولاً الكتابة اليونانية بسهولة فاذا مفادها ان كهنة منف كتبوها

الملك بطليموس ايفائيس سنة ١٩٤ ق م يشكرون لما اسبغه عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منها نسخة في كل هيكل من هياكل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

ثم ان العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرنسي ديه ساسي حاولوا قراءة الكتابة الديموطيقية وغاية ما وصلوا اليه انهم عينوا مواقع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية . ثم عين العلامة اكربلاد الاسوجي لفظ بعض الاعلام في القلم المصري العامي . اما الهيروغليف فلم يطمع احد منهم في حله الى ذلك الحين وفي سنة ١٨١٨ شرع العالم فرنسوا شمبيليون الفرنسي في حل هذه الكتابة بعد ان درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة وكل ما كتبه المتقدمون عن مصر والمصريين . وكان بلزوني الايطالي قد عثر في جزيرة البربة على مسلة مصرية عليها كتابة يونانية وارسل صورة الكتابة الى اوربا . فلما رآها شمبيليون ارتأى ان الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية . ثم رأى في الكتابة اليونانية اعلاماً واسماً الاعلام لا تترجم فتوسم في ذلك سيلاً الى معرفة لفظ بعض الحروف المصرية . ووجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهليجي وقرأ في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكرراً مراراً كثيرة فاستنتج من ذلك ان النقوش الهيروغليفية المتقدم ذكرها هي اسم بطليموس وزاد تأكيداً عند ما رأى ذلك الاسم وارداً في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدى ويقابله في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهليجي كالنقوش التي على المسلة تماماً وبناء على ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط اهليجي



ش ١ - كليو يطرأ



ش ٢ - بطليموس

تقابل الحرف الاول من بطليموس اي الباء والثانية تقابل الحرف الثاني اي الطاء وهلم جرا . ووجد ايضاً في الكتابة اليونانية اسم كليو يطرأ ويقابله في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهليجي . فقال شمبيليون بنفسه اذا كانت الاولى بطليموس فتكون

هذه كليوبيطرا واخذ بالمقابلة مستعيناً باللغة القبطية لانها بقية اللغة المصرية القديمة فرسم امامه الشكين اللذين نطهما اسمي بطليموس وكليوبيطرا وجعل يقابل الاحرف المماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرها فاذا بها متماثلة تماماً في الشكين بمواقعها في الاسمين وترى في الشكل الاول والثاني صورتني اسم كليوبيطرا وبطليموس في القلم الهيروغليفي

فالحرف الاول من اسم كليوبيطرا صورة ركية . واسم الركية في اللغة القبطية يبتدىء بحرف الكاف فهو حرف الكاف . والحرف الثاني صورة اسد . واسم الاسد يبتدىء في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة . والحرف الثالث من اسم كليوبيطرا صورة قصب . وهو الحرف السادس والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف او الياء . واسم القصب في اللغة القبطية يبتدىء بالالف . والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو . والحرف الخامس مثل الحرف الاول من اسم بطليموس فهو حرف الباء . والسادس صورة لسر . واسم السر في القبطية يبتدىء بالالف فهو حرف الالف . والسابع صورة يد واسم اليد في القبطية يبتدىء بحرف الطاء . والثامن صورة قم . واسم القم في القبطية يبتدىء بحرف الراء فهو حرف الراء . والتاسع تقدم ذكره والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء . والحادي عشر لاحرف له باليونانية وقد عرف بعد ذلك انه علامة تلحق آخر الاسماء المؤنثة . وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كليوبيطرا . فالاول هو ايم والثاني هو السين . وعلى هذه الصورة تمكن شمبيليون من معرفة كثير من حروف الهجاء وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في تسع سنوات كلها بحث وجد . واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صورها ما هو حروف ومنه ما هو مقاطع او كلمات . ومبلغ عددها كلها

هذا من قبيل حل الالفاظ اما المعاني فعرفت بالمقابلة باللغة القبطية نحو الالف وبعض ما كان يكتبه المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

ومن المؤلفات الحديثة التي استعنت بها في فدايكة تاريخ مصر القديم كتاب العقدة الثمين لاحمد بك كحل ومصر لمري وعادات المصريين لويلكنس وغيرها

جغرافية مصر القديمة

وهي جغرافيتها في أيام الدول المصرية القديمة

تدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية « خم » او « ارض خم » ومعناها الارض السوداء نسبة الى لون تربتها وهذا ما يذكرنا بحمام ونسله . وكان يدعوها الشعب العبراني « مصر ايم » ومعناها « المصران » ومنها اسمها في العربية اليوم . اما معنى تسمية العبرانيين لمصر فنظنه مشتقاً من قولهم « صر » في العبرانية ومعناها الشدة والضيق « ومصر » اسم مكان من صر اي مكان الشدة . ولعلها اشارة الى ما قاساه الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . اما كونها على صيغة المثنى فربما نتج عن تسميتهم اولاً احد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوه على صيغة المثنى للدلالة على القسمين معاً والله اعلم . اما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايجبتوس » ومنها اسمها في لغات اوروبا الحديثة « ايجبت »

ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القديم ان القطر المصري كان يقسم الى قسمين عظيمين الواحد يدعى ارض الشمال او الوجه البحري والآخر ارض الجنوب او الوجه القبلي . وكان الوجه البحري ممتداً من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر المتوسط ويدعوه اليونان « الدلتا » لمشايعته بحرف الدال . عندهم . اما الوجه القبلي فيمتد جنوباً من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ما ندعوه اليوم بارض الصعيد . وكان من القاب ملوك مصر القدماء قولهم « سلطان البرين » اشارة الى تسلطه على الوجهين البحري والقبلي

وكل من هذين القسمين يقسم عندهم الى اقسام دحاها اليونان « نومس » اي مقاطعات ومجموعها في الوجهين معاً يختلف عدداً باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة انها ٤٤ وقال استرابو وديودورس انها ٣٦ والماعول عليه انها ٤٢ منها ٢٠ في الوجه البحري و٢٢ في القبلي ولكل منها حاصمة مختصة بها فيها مقر الحاكم ومركز العبادة . وهناك جدولاً يتضمن اسماء المقاطعات باليونانية واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية

مقاطعات الوجه القبلي

عواصم

بالعربية	باليونانية	بالمصرية القديمة	اسماء المقاطعات باليونانية
كوم امبو	امبوس	ابو	١ اوبيتس
ادفو	ابولينوبولس مانيا	تب	٢ ابولينوبوليتس
اسنا « الكب »	لانوبولس (ايليثيا)	نخب	٣ لاتوبوليتس
ارمنت	هرمونثس	هرمونت	٤ هرمونثيتس
القرنة			٥ باثرييتس
الكرنك والاقصر	ديوسبولس مانيا	نوامن	٦ ديوسبوليتس
قفط	كوبتوس	كوبتي	٧ كوبتيتس
دندره	تنتيرا	تنتيرير	٨ تنتيريتس
هو	ديوسبولس بارفا	ها	٩ ديوسبوليتس
البرية . العراة	ئيس . ابيدوس	ابدو	١٠ ثينيتس
المدفونة			
اخميم	بانوبولس	ابو	١١ بانوبوليتس
العطف	افروديتوبولس	تبو	١٢ افروديتوبوليتس
قاو الكبير	انتوبولس	نيا تيباك	١٣ انتوبوليتس
شذب	هيسيليس	شاسحوتب	١٤ هيسيليتس
اسيوط	ميكوبولس	سوت	١٥ ليكوبوليتس
الشميخ عباد	التيونوبولس		١٦ اثينويتس
اشمونين	هرموبولس مانيا	خنونو	١٧ هرموبوليتس
القيس	سينوبولس	كوسا	١٨ سينوبوليتس
بهنسا	او كسير نخيس	پاسا	١٩ او كسير نخيتس
اهناس المدينة	هيراكليوبولس	خينسو	٢٠ هيراكليوبوليتس
مدينة الفيوم	كروكودينوبولس		٢١ ارسينويتس
عطفية	افروديتوبولس	تياها	٢٢ افروديتوبوليتس

مقاطعات الوجه البحري

عواصم

بالعربية	باليونانية	بالمصري القديم	اسماء المقاطعات باليونانية
ميت رهينة	ممفيس	منوفر	١ ممفيتس
	ليتوبولس	سوخم	٣ ليتوبوليتس
	ايبس	نيا تهاي	٣ ليليا
	كانوبوس	زوكا	٤ سايتس
صا الحجر	سايس	صا	٥ سايتشس
سخا	خويس	خسون	٦ خوييتس
فوم	متليس	سونتينوفر	٧ متايتس
	سيتروي	ثوكوت	٨ سيثروييتس
بو صير	بوسيرس	بيوسير	٩ بوسيريتس
تل اتراب . بها	اتريس	حاتا حيراب	١٠ اثريبيتس
العسل			
كوم شباس	كاسا	كاهيس	١١ كاسايتس
سمنود	سبنيتوس	ثنوتر	١٣ سبنيتس
المطرية	اون . هيلوبولس	انو	١٣ هيلوبوليتس
سان	تالس	زوان	١٤ تانبتس
دمهور	هرموبولس بارفا	يثوت	١٥ هرموبوليتس
اشيون	مندس	بيينبداد	١٦ منديسيوس
	ديوسبولس	بيخون ان امن	١٧ ديوسوليتس
تل بسطة	بوابستس	بياست	١٨ بوابستيتس
(زقازيق)			١٩ ثينستس
	بوتو	بيوتو	
هربت	فاريثوس	كوسم	٢٠ فورثيتس

ويظهر ان هذين القسمين الكبيرين جعلا بعد ذلك ثلاثة عرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى . فمصر العليا تدعى ايضاً باليونانية « ثيبايد » نسبة الى ثيبس (طيبة) وتمتد من آخر الحدود القبلية الى ديروط . والوسطى يدعوها اليونان « هبتانومس » اي ذات السبع المقاطعات وتمتد من ديروط الى رأس الذلتا . والسفلى تمتد من رأس الذلتا الى البحر المتوسط . وقسمت مصر السفلى في آخر عهد اليونان الى اربعة اقاليم كبيرة تحت كلٍ منها عدة مقاطعات

ودعيت مصر السفلى في ايام اركاديوس ابن ثيودوسيوس الاعظم « اركاديا » نسبة اليه . وقسمت مصر العليا ايضاً الى قسمين او اقليمين دعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخيم او مايجاورها . وتكثر عدد المقاطعات في آخر ايام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعة منها ٣٤ في الذلتا فقط

ثم ان بن ملوك مصر القدماء من وسع نطاق المملكة الى ما وراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لان ملوكها كانوا اثيوبيين فامتد حكمهم الى جبل برقل . اما في حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية الى موغراكا وراء وادي حلفا

ديانة المصريين القدماء

زعم بعض قدماء المؤرخين ان المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستدلين على ذلك بما شاهدوه من التماثيل العظيمة التي اقيمت للعبادة . ولكن ظهر بعد استطلاع اسرار لغتهم وقراءة ما كتبوه على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيء وان هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات اله حقيقي غير منظور ولكن الزمان ارخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فأصبح القوم لا يعرفون من معبوداتهم الا تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع ايديهم . على ان الحقيقة لم تكن محجوبة عن حكمائهم وكهنتهم

اما آلهتهم فعديدة واسماؤها مختلفة وصورها متنوعة مرجعها جميعاً الى الهين اصل هذه التنوعات وهما « فتاح » في منف ويقصدون به الخالق العظيم و « رع » في طيبة (الأقصر) وهو الشمس . وهذا الالهان هما اقدم آلهة المصريين ويرجعان الى اولها

لانهم يعتبرون الشمس تمثالاً للاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم انتشرت هذه الديانة واتقنت صناعة البناء والرسم فاقاموا في كل مدينة تمثالاً لاحد هذين الالهين او لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة . فتعددت الاشياء ثم لسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر ومن جملة دواعي تعدد الالهة انهم كانوا يجعلون للشمس مثلاً اسماء تختلف باختلاف مواقعها من خط مسيرها فدعوها « هر نخس » عند شروقها واقاموا لها ابا الهول تمثالاً . و « رع » عند ما تكون في خط الهاجرة . و « توم » عند الغروب و « اوزيريس » عند الظلام اي عند ما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكل من هذه الحالات تمثالاً مخصوصاً . وقس على ذلك ما بقي من الالهة الكثيرة التي اقاموا منها محاكم سماوية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنوداً

وفي اثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى اله واحد . منها مثلث مؤلف من الآلهة اوزيريس وايزيس وهوروس وهو المعروف بثلاث منف والمتأمل في صورها يرى ان الاول اشبه برجل والثاني باسرة والثالث بصبي وبين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتفنووست ونوت واوزيريس وايزيس وهوروس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها اخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما نذكر فيها



يلي اسماء اهم الالهة المصرية مع ذكر مميزات كل منها بقدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الآثار المصرية ان يميز احدها من الاخر وتسهيلاً لفهم تلك المميزات نقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

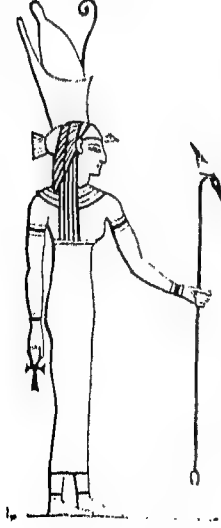
اولاً . ذوات الرؤوس البشرية . ثانياً . ذوات الرؤوس الحيوانية . والرؤوس البشرية اما ان تكون رؤوس ذكور او اناث . والرؤوس الحيوانية اما ان تكون رؤوس طيور او حيوانات اخرى

فالآلهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي
١ « فتاح » يمتاز بكونه على شكل جثة محنطة (موميّة)
وفي يديه صولجان وليس على رأسه شيء يمتاز به

٢ « أمّن » او « رع » على هيئة رجل منتصب وعلى رأسه قبعة مبلطحة تنتهي برشتين غليظتين مستطيلتين بيده

ش ٣ — أمّن رع

الواحدة مفتاح وبالأخرى عصا كما ترى في الشكل الثالث وقد يكون على شكل جثة مخنطة جالساً على كرسي وعلى رأسه القبعة المتقدم ذكرها وفي يده نمشة وعقافة وصولجان. ويدعى في هذه الحالة « امن اوزيريس » (ش ٥)



ش ٤ - ايزيس

٣ « هوروس » صبي على رأسه تاج مزدوج يراد به تاجا الوجهين القبلي والبحري . يده اليسرى في فيسه وفي يده اليمنى مفتاح صليبي الشكل وقد يكون هوروس برأس طير كما سيجيئ
٤ « خم » جثة مخنطة ويده اليمنى مرفوعة وحاملة زاوية كبيرة

٥ « اوزيريس » جثة مخنطة على رأسه تاج مصر العليا بريشتي لعام واحياناً بغير ريش . وفي يده النمشة والعقافة واحياناً الصولجان ايضاً . وقد يكون على رأسه هلال فية قرص الشمس كما ترى في الشكل الخامس
٦ « سب » يمتاز ببطة واقفة على رأسه

٧ « توم » على رأسه شعر طويل مكلل بزهرة جبقوق او بريشة . وقد يكون على رأسه تاجا مصر العليا والسفلى

اما الآلهة ذوات الرؤوس البشرية الانثوية فهي



ش ٥ - اوزيريس

١ « ايزيس » على رأسها طاقية تشبه النسرة فوقها تاجا مصر العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح وبالأخرى صولجان كما ترى في الشكل الرابع وقد يكون على رأسها قرنان بينهما قرص الشمس وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر

٢ « ما » آلهة الصدق على رأسها ريشة واحدة منتصبه وعلى عينيها غالباً غطاء يشبه العوينات

٣ « موت » (ام الجميع) على رأسها طاقية بشكل النسرة وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها راس لسري

٤ « نيت » على رأسها احياناً مكوك واحياناً تاجا مصر العليا والسفلى

٥ « نفثيس » على رأسها الطاقية النسرية وفوقها ما يشبه البرج

والآلهة برؤوس الطيور هي

- ١ « هوروس » قد تقدم ذكره بين ذوي الرؤوس البشرية وقد يكون ذا رأس حيواني كراس الصقر وفوقه الناجان
- ٢ « خولس » (الشمس المشرقة) رأسه كراس الصقر وفوقه هلال فيه قرص الشمس
- ٣ « رع » (شمس الهاجرة) رأسه كراس الصقر أيضاً عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
- ٤ « توت » (اله القلم) رأسه كراس الاقلى عليه احياناً هلال في وسطه ريشة

وهذه آلهة برؤوس حيوانات اخرى

- ١ « بشت » (حبيبة فتاح) تمتاز برأس الهر واحياناً برأس الاسد عليه قرص الشمس فوقه ثعبان
 - ٢ « عنور » يمتاز برأس كراس البقرة بين قرنيها دائرة البدر
 - ٣ « كنوم » او « كنف » يمتاز برأس كبش عليه اكاليل وتيجان
 - ٤ « انويس » يمتاز برأس كراس ابن آوى
- وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسكنا عن ذكرها حياءً بالاختصار



فذلكة

في تاريخ مصر القديم



لما فكر قدماء المصريين في وضع تاريخ لامتهم تتبعوا الحوادث الى مصادرهما وجمعوا ما كان لديهم من التقاليد الموروثة بالتلقين ابا عن جد واستطلعوا سير ملوكهم الاقدمين فوصلوا الى الملك «منا» فاذا هو اول من حكم ونظم . ولما لم يعثروا على ما كانت عليه مصر قبله فرضوا ثلاث عائلات وهمية زعموا انها تسلمت على مصر بالنوالي وانتهت ببداية الدولة الملكية القديمة التي اول ملوكها «منا» ودعوا العائلة الاولى عائلة المعبودات ويقال لها العائلة المقدسة . والثانية دعوها الشبيهة بالقدسة والثالثة الكهنة «الحورشسو» ويزعمون انهم اجدادهم

ونقتصر في ما يلي على خلاصة تاريخ مصر القديم ونبدأ بالملك منس . ونجري في بوبيه على مقتضى التقسيم المتقدم ذكره فنبدأ بالدور الجاهلي فالمسيحي ونقسم كلا منهما الى عائلات كما ستراه



الدور الجاهلي

الدولة الملكية القديمة

العائلة الاولى الطينية

حكمت من سنة ٥٦٢٦ — ٥٣٧٣ ق م او من ٥٠٠٤ — ٤٧٥١ ق م وعدد ملوكها ٩.

اول ملوكها الملك «مينا» او «مينس» — وهو اول من حكم مصر بعد الكهنة «الحورشسو» نشأ في طينة (بقر العرابة المدفونة بجوار جرجا) والظاهر انه كان من الكهنة فنار في خاطره امر الاستقلال بالملك فقاومه الكهنة فتغلب عليهم فترك وطنه واسس مدينة «منف» (البدرشين وميت رهينة) وجعلها سرير ملكه وانشأ حولها جسراً يعرف الآن بجسر قشيشة وحوّل مجرى النيل الى شرقها وكان يجري لجهة صحراء ليبيا. فعمرت منف واخصبت فساد فيها الهياكل والمعابد واقام تماثيل الالهة. فاذا زرت خرائب سقارة وشاهدت تمثال رمسيس الثاني ملقًى في البركة الشرقية اميت رهينة اعلم ان بقر ذلك التمثال كان باب الهيكل الذي بنى هذا الملك لمعبوده «فناح» وما زالت منف مركز التمدن الى عصر اليونان. ومما يذكر عنه انه فتسح ليبيا فاتسعت مملكة مصر في ايامه وكان رفيقاً برعاياه على ما اعتادوه ولم يسلب الكهنة شيئاً من حقوقهم في قبائلهم. على انه لم ينبج من ايقاعهم به فزعموا انه اضرّ بالعبادة من حيث تقاعد الناس في ايامه عن الزهد وحدثوا انواع الترف فكانوا يتناولون طعامهم وهم مضطجعون على اسرّتهم

وقام بعد «مينا» اخوه «تنا» فأسس القصر الملوكي في منف وكان عالماً بالطب ولا سيما التشريح فكتب فيه رسالة جددت كتابتها في عهد رمسيس الثاني ومن ملوك هذه العائلة «ونفس» حصلت في ايامه جماعة وهو الذي بنى هرم «كوكه» بقر الهرم المدرج في سقارة لدفن ما كانوا يعبدونه من الثيران في عصره فان صح ذلك كان هذا الهرم اول ما بني من الاهرام في مصر ولم يبق من العائلة الاولى من يستحق الذكر

العائلة الثانية الطينية

حكمت من ٥٣٧٣ — ٥٠٧١ ق هـ او من ٤٧٥١ — ٤٤٤٩ ق م وعدد ملوكها ٩

نشأت في طينة ايضاً والمظنون ان بينها وبين العائلة الاولى قرابة من ملوكها « كايه خوس » اجاز عبادة الحيوانات فاقام الثور « أيبس » في منف والثور « منفس » في مدينة الشمس (المطرية) . وقام بعده « ينوتريس » لجعل للنساء حق الحكم على سرير الملك اذا لم يكن للملك المتوفى اولاد ذكور . وزعم ان الملك نائب الالهة في الاحكام ولدعى ان بينه وبين الالهة نسباً وما زال الملوك بعد ذلك يدعون مثل دعواه الى عهد اليونان

ومن ملوكها « استنس » كان عالماً وطيباً فاتم الرسالة الطبية المتقدم ذكرها . واعلم ان الملك « منا » لم يقو في حياته على اخضاع جميع القبائل المصرية لحكمه ولا ان يجعل مصر امة واحدة . اما العائلة الثانية فلم تنته حتى جعلت ذلك امراً مفعولاً

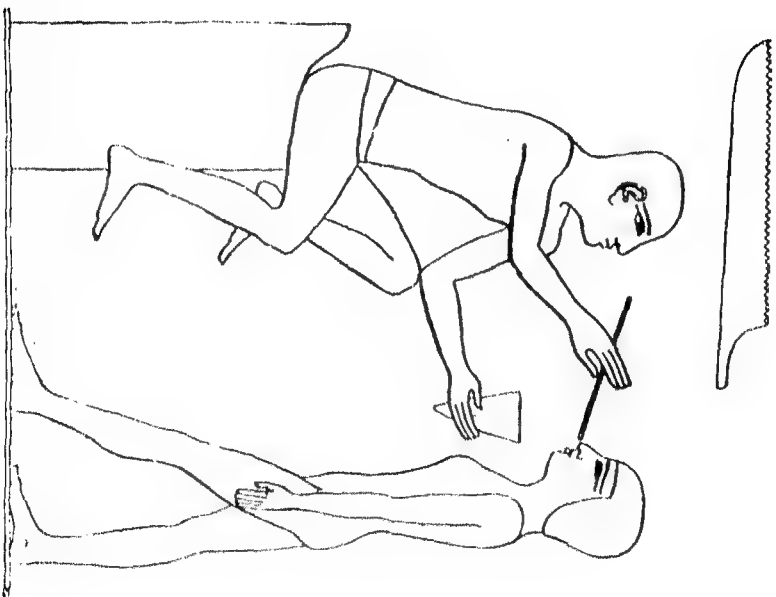
العائلة الثالثة المنفية

حكمت من ٥٠٧١ — ٤٨٥٧ ق هـ او ٤٤٤٩ — ٤٢٣٥ ق م وعدد ملوكها ٩

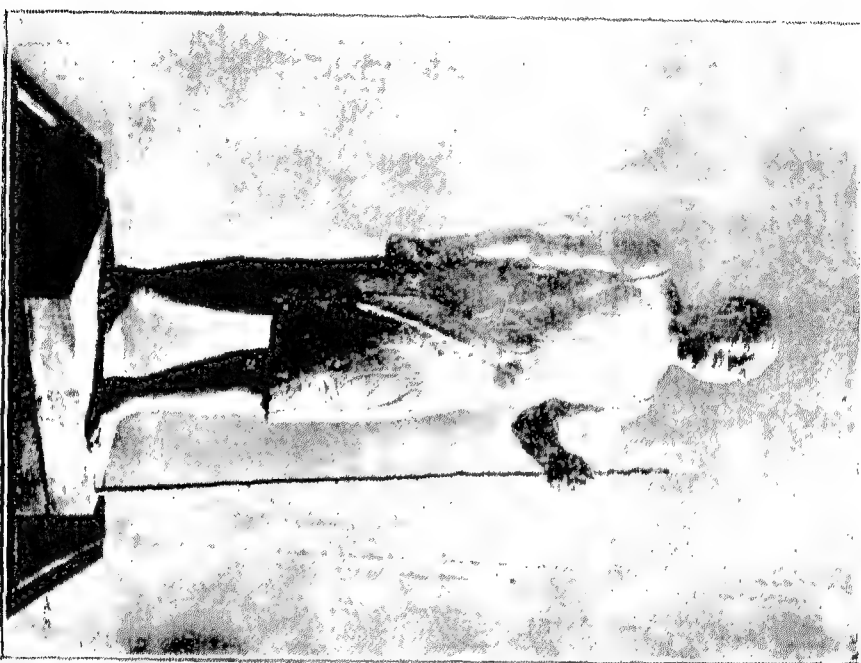
كانت طينة قبل ظهور الملك « منا » مدينة العلم والحكمة ومحط رحال المنعة والسلطة . فلما بنيت منف تحول كل ذلك تدريجاً اليها وما زالت تخط شيئاً فشيئاً حتى انقرضت باقراض العائلة الملكية الثانية

اما العائلة الثالثة فاوّل ملوكها « نخر وفتس » وفي اول حكمه تمردت ايبيا وشقت عصا الطاعة فسامها الرضوخ فابت فادى به الامر الى تحكيم السيف وكانت المعركة في ليلة مقمرة يقال ان الليبيين راوا تلك الليلة دائرة القمر تتسع على غير المعتاد فخيّل لهم ان ذلك من غضب الالهة على اعمالهم فلقوا السلاح وساموا . وقام بعده الملك « توسرتس » وكان عالماً بالطب فوضع فيه كتباً تداولها الناس الى القرن الاول للتاريخ المسيحي

اما من بقي من ملوك هذه العائلة فلم يصلنا من اخبارهم سوى ان المملكة زهت في ايامهم فتكاثرت مبانيها واقامت فيها النصب الهائلة اعظمها ابو الهول القتال المشهور بعظمه القائم الى هذا العهد قرب اهرام الجزيرة ويسمى بلغتهم « خورميخي » اي شمس الافقيين جعلوا جسمه اسد ورأسه رأس انسان اشارة الى اجتماع القوة والتعقل



مصور مصري يلون تماثلاً حجريا



منبع اللب

واشياء هذا القنثال كثيرة في الآثار المصرية بين ما حجبته هائل الكبركاني الهول الذي يبلغ طوله ٢٠ متراً تقريباً وعرضه اربعة امتار وما لا يزيد عن حب المرجان حجماً كانوا يصنعونه من العقيق حلية للمقود . ومن آثارهم ايضاً الهيكل الكائن الى جنوبي اهرام الجيزة بجوار ابي الهول ويعرف بالكنيسة وهو مبني من الحجارة الصوانية الضخمة ولهم ايضاً آثار اخرى كمدافن ومحاريب وغيرها
ومن ملوك هذه العائلة ايضاً « سنغرو » صمدت الى ذكره لما عرف به من العدل والبر وما اوتي من العزم والقدرة على الفتوح فقهر اهل جبل الدور واستولى على ارضهم وبنى فيها حصوناً ومعاقل واحتفر آباراً جعل فيها رجلاً يستخرجون معادهم ونقش رسمه على حجر في وادي مغارة . ويقال انه لما طرد الى مصر ابنتى لنفسه هرما لم يعلم مقره الى الآن

العائلة الرابعة المنفية

حكمت من ٤٨٥٧ - ٤٥٧٣ ق م او من ٤٢٣٥ - ٣٩٥١ ق م وعدد ملوكها ١٤
اعظم ملوك هذه العائلة واحقها بالذكر الملك « خوفو » كان بناء ماهاً ومحارباً باسلاً فبنى اعظم اهرام الجيزة الذي تفتخر به مصر على سائر الامصار . ويقال ان الذين اشتغلوا في بنائه مائة الف رجل في ثلاثين سنة كانوا يتناوبون كل ثلاثة اشهر . وبنى له جسراً موصلاً بينه وبين ضفة النيل لنقل الحجارة . وارتفاع هذا الهرم ٤٥٠ قدماً وبعض القدم وعرضه ٢٤٦ قدماً وهو من جملة عجائب الدنيا يقصده السياح والمتفرجون الى هذا العهد
ونحت « خوفو » عدة تماثيل للآلهة ورم بعض الهيكل وقال بعضهم انه كان طائفاً يبغض الناس حقهم ويهتضم اجورهم لانه ابنتى هرمة على نفقة الفعلة المساكين على انه لم يكن على شيء من ذلك وربما بنى المنفون قولهم على انه كان يستخدم الاسرى بجاناً وتلك عادة كانت متبعة في ذلك العهد

ومن ملوك هذه العائلة « خفرع » وهو الذي بنى الهرم الثاني في الجيزة بجانب هرم « خوفو » وسماه « أر » اي العظيم ارتفاعه ٤٤٢ قدماً وعرض قاعدته ٦٩٠ قدماً وبعض القدم . ولم ينج هذا من السنة القاذفين فقد كان وسلفه « خوفو » مضغاً في افواه المرجفين وقد بلغت قوتهم الى ان اخرجوا جثتيهما من هرميهما وكسروا تابوتيها ورموا بالجثتين الارض اهالة واحتقاراً . وقد وجد في المعبد بجوار الاهرام

سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعة على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في المتحف المصري

ومن ملوكها « منكورع » بنى الهرم الثالث من اهرام الجيزة وسماه « حور » اي الاعلى جعل ارتفاعه ٢٠٣ اقدام وعرض قاعدته ٣٥٢ قدماً وبعض القدم . وقد كان حفظ هذا الملك من الشعب غير حظ سالفه لانهم بالغوا في مدحه كثيراً . ويقال انه ارسل ابنه ليطوف في الهياكل المصرية ويرمم ما كان منها في احتياج الى الترميم وكان « منكورع » عالماً عاملاً في الدين والادب وقد وجدت جثته محنطة في تابوت من الصوان في هرمه المتقدم ذكره فحاولت الدولة الانكليزية نقلها وتابوتها الى متحفها فغرقت بها السفينة على مقربة من البورتغال ولم يبق الا الجثة وغطاء التابوت وهو مصنوع من خشب الجوز

ومن ملوكها ايضاً « سبسكاف » ويسميه مانيثون « سبرخرس » وهذا بنى الايوان الغربي بمعبد فتاح بنف وهو اعظم ايوان فيه وكان محباً للعلوم فقيهاً . ويقال انه ابتدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسن قانوناً للقرض من مقتضاه انه يجوز للانسان ان يرهن مدين اباه على مبلغ يستدينه وللدائن الحق في استخدام المدفن حتى يفنيه

الخير

العائلة الخامسة الاصوانية

تكت من ٤٥٧٣ — ٤٣٢٥ ق م او من ٣٩٥١ — ٣٧٠٣ ق م وعدد ملوكها ٩ منهم « سحورع » او « سفرس » بنى هرمًا شمالي قرية ابي صير وله في وادي سفارة لوح لا يزال هناك محفورة عليه صورته منصوراً على أعدائه . وبعد وفاته عبده المصريون زمناً طويلاً

ومن ملوكها « نفراركارع » او « نفرخرس » اتسع نطاق العلم في ايامه وعمرت البلاد وقد بنى هرمًا لا يعرف مقره

ومن ملوكها « عنوسر » وهو اول من اضاف الى اسمه لقب عائلته « آن » فصار « عنوسر آن » غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها ونقش صورته على حجر هناك وبنى هرمًا في ابي صير ودفن فيه بعد موته . وكان في عصر هذا الملك رجل يدعى « تي » بنى مقبرة بديعة الاتقان وهي المقبرة المشهورة في سقارة على يسار المدفن المعروف بـ « ايس » يقصد المتفرجون من كل الأنحاء لما فيها من الدقة وبديع الصنعة وجبل

النقوش وتعداد الرسوم . وكان هذا الرجل صهر الملك وصاحب دولته وله رسم محفوظ في المتحف المصري

ومن ملوكها « ددكارع » اكتشف المعادن في وادي مغارة وابقى هرماً لم يعلم مكانه ولرجال دواته عدة مقابر في سقارة

ومن ملوكها « اوناس » او « انوس » بى هرماً في سقارة الى الجنوب الغربي من الهرم المدرج ترى حوله كثيباً من الرمال والحصى قد تراكت هناك عند ما حاولوا فتحه سنة ١٨٨١ مما تساقط من كسائه الخارجي . وكان عرض قاعدته ٢٢٠ قدماً ولا يبلغ هذا القدر الآن لما لحقه من الهدم والتساقط وذلك لانهم كانوا يعتقدون ان في هذه الاهرام كنوزاً فيحاولون فتحها هدماً . ولما هدموا هذا الهرم بعد المشقة لم يجدوا فيه الا تابوت الملك من المرمر الاسود وذراعه الايمن وساقه وقطعاً من اكفانه

العائلة السادسة الاصوانية

حكمت من ٤٣٢٥ — ٤١٢٢ ق م او من ٣٧٠٣ — ٣٥٠٠ ق م وعدد ملوكها ٦

من ملوك هذه العائلة « مريرع » اتخذ جزيرة اصوان سريراً املكته التي كانت شاملة لسائر القطر المصري . ومن ذلك الحين جعلت منف تخط . وكان له وزير اشهر بالدراية والحكمة فمهد اليه بنظارة الاشغال فقام باعبائها حق القيام فتضاعفت المحصولات ولهذا الوزير حجير في متحف بولاق منقوش عليه ما يفهم منه شيء من سيرته . ومن اعمال « مريرع » انه فتح طريقاً تجارية بين قفط والبحر الاحمر وخط مدينة في مصر الوسطى واصاح معبد دندره وفتح بلاد الشام واستولى عليها كل ذلك بدون نقشاً على حجير وزيره المتقدم ذكره . وخضعت له النوبة وليبيا والحبشة وطورسينا وهو اشهر ملوك هذه العائلة

ومن ملوكها « مرنرع » الاول ابن المتقدم ذكره ويسمى « سوكر مساف » وهو اول من اصطنع سفينة في مصر بهمة ودراية وزيره الذي كان وزيراً لابيه قبله ومن ملوكها ايضاً الملكة « نيتو قريس » كذا دهاها مانيثون وقال انها كانت اجمل واكمل اهل عصرها . وكانت مع ذلك ذات حيلة ومكر فكان لها اخ اتخذته بعلاً فقتله بعض رجال دولته قبل توليتها الملك . فلما تولت اخذت تسمى في طلب الثرافا صطنعت سرداً تحت الارض يصل بين النيل ومحل اعدته لولية دعت اليها نفرأ من الاعيان ورجال الدولة ومن جملتهم القاتل فلما التأم الجمع واشتغلوا بالولية فتبحت باب السرداب

من جهة النيل فسار الماء فيه الى قاعة الوليمة فاغرق جميع من كان هناك . أما هي فأسرعت من غيظها والقت نفسها في الرماد الحار فماتت
وفي ايام هذ العائلة أُنقنت الرسوم على اسلوب خاص بحيث ان من تعود معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين اي رسم كان من رسوم هذه العائلة

العائلات السابعة والثامنة المنفيتان والتاسعة والعاشره الاهناسيتان

حكمت من ٤١٢٢ — ٣٦٨٦ ق هـ او من ٣٥٠٠ — ٣٠٦٤ ق م
لم يعلم ما الداعي لطموس اخبار هذه العائلات على انه قد علم ان قاعدة العائلتين الاوليين كانت منف والأخريين اهناس وربما وجد في اهناس المدينة شيء من آثارهم الا انها على كل شيء لا تستحق الذكر

الدولة المملوكية الوسطى

العائلتان الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتان سريرهما طيبة

حكمتا من ٣٦٨٦ — ٣٤٧٣ ق هـ او من ٣٠٦٤ — ٢٨٥١ ق م وعدد ملوكها ٢٤
اول ملوك العائلة الحادية عشرة « انتف عا » لم يكن من ذوي العصبية المملوكية انما كان من عمال ملوك اهناس المدينة في الوجه القبلي . على انه كان مهوباً لسطوته وعلوهمته . بنى هرمًا من الطين في الجهة المعروفة بذراع ابي النيجا بمديرية قنا وجعل في وسطه ضريحاً متقناً دفنت فيه جثته في تابوت غطاؤه مغطي بالذهب استخرجه اهل تلك الناحية وذهبوا به . فلما توفي قام ابنه « منتوحتب » فجعل نفسه من مضاف المملوك وليس له من الآثار ما يذكر به

ومن هذه العائلة ايضاً « انتف الرابع » تمكن بحكمته وبطشه من الاستيلاء على الوجه القبلي رغماً عن ملوك اهناس واستقل بالحكم عليه وعلى آسيا الشمالية . وقد قال « اني استوليت على الوجه البحري » ولا مثبت لقوله . ومن ما أثره انه جدد بنايات رقيقة العماد في جهة فقط استعمات انقاضها في هذه الايام لبناء قنطرة . واما مات دفن في ذراع ابي النيجا . وقد وجدوا من آثاره مسلة بالقرب من العراية المدفونة

وتولى بعده « منتوحتب الرابع » ولقب « بتخررع » وهذا بالحقيقة نزع الوجه البحري من ملوك اهناس وما زال يقاثلهم حتى استقل بالملك جميعه فكل من قبل هذا من هذه العائلة لم يكونوا ملوكاً مستقلين

وتولى بعده « سنخ كارع » ومن عظيم اعماله انه انفذ « حنو » احد رجاله فاقم الطريق الموصلة بين مصر وبلاد العرب التي شرع فيها مبرع المتقدم ذكره جعل فيها خمس محطات فيها عيون من الماء فيتم بها التواصل مع بلاد العرب والهند وشبه جزيرة العرب وما زالت هذه الطريق كذلك الى عصر اليونان فالروم

ومن خصائص ملوك هذه العائلة انهم كانوا يرسمون فوق توابيت موتاهم اشكالاً مجنحة يلونونها بالوان مختلفة زعماً منهم ان احدى معبوداتهم « ايزيس » كانت ترف على اخيها « اوزيريس » ناشرة جناحيها حنوًا ومعظم آثار هذه العائلة في ذراع ابي النجا لا يزال محجوباً

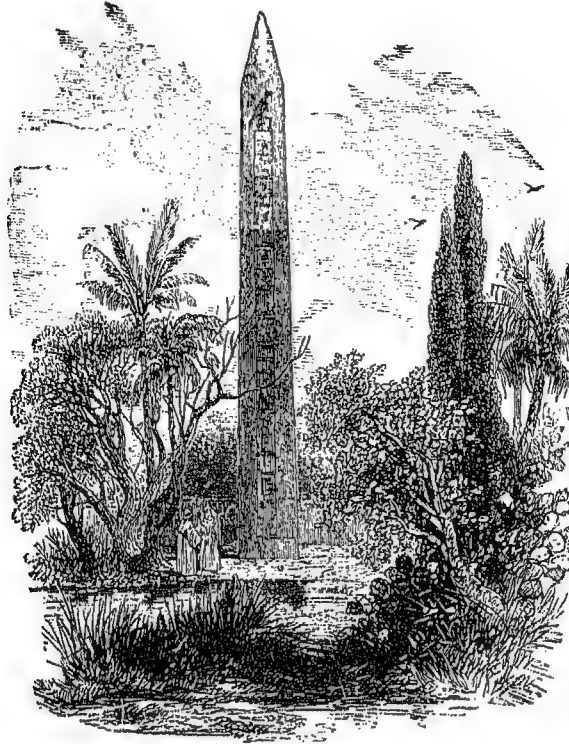
اما العائلة الثانية عشرة فابتدأت بدور جديد . فقد كانت مصر قبها منقسمة غالباً الى حكومات متعددة في وقت واحد اما في ايامهم فاندمنت جميعها تحت لواء واحد قاعدته مدينة طيبة

اول ملوك هذه العائلة « امنمحات الاول » كان من اتباع الملك منتوحتب الثالث وبسميه ما نيشون « امنميس » فلما استتب له الملك قاتل الذين كانوا يكفرون صفو راحة مصر وهم عصب من اهالي ليبيا والنوبة وآسيا تجمعوا لقتاله حول قاعة ثانوى غربي منف فخار بهم حتى انتصر عليهم وطردهم واستولى على منف . وكان عاقلاً حكماً وشجاعاً مدرباً استخرج المعادن من بلاد النوبة واخضع عدة اقاليم من بلاد الزنوج وغيرها

وقبل وفاته ولى ابنه « اوسرتسن الاول » وبدعوه مانيثون « سيسونخوسيس » وهو صاحب المسلة المشهورة في المطرية التي طولها عشرون متراً وبعض المتر نصبها امام هيكل الشمس المدعو « اتوم » اجلالاً لذلك الهيكل ومعبوده ونصب بجانبها مسلة اخرى شاهدها عبد اللطيف البغدادي وقد فقدت ولم يبق لها اثر الآن . اما الاولى فلا تزال باقية منقوشاً عليها بالقلم المصري القديم ما ترجمته ملخصاً « ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والبحري (خبر كارع) صاحب التاجين وسلالة الشمس (اوسرتسن) الحب لمعبودات المطرية دام بقاء قد نصب هذا الاثر في مبدأ العيد الرسمي تخليداً لذكره واحياء لهذا العيد » انظر الشكل السادس

فاذا زرت قرية المطرية الان ووقفت بجانب مسلتها ترى حولك بقعة من الارض

فيها بعض الزرع طولها ٤٥٦٠ قدماً بعرض ٣٥٦٠ حاطة بتلال متلاصقة كانها سور من تراب . يقول ماريت ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وانما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بادلة تقرب من الصواب ونصب اوسرتسن ايضاً مسلة اخرى فيما يحاذي قرية بيجيج بجهة الفيوم وقد ظن بعض المؤرخين مستنتجاً من سباق حكاية كتبها احد معاصري هذا الملك انه الفرعون الذي حصلت في ايامه المجاعة على عهد يوسف بن يعقوب غير ان الجمهور على خلاف ذلك لعدم مطابقة الزمن بين ما هو في العهد القديم وهذا التاريخ . ويقال بالاجمال ان



ش ٦ — مسلة المطرية

هذا الملك يعد من اول المؤسسين لهيكل طيبة « الاقصر » وقبل وفاته امر مهندسه الخاص ان يبني له مقبرة فبنّاها وجعل في داخلها عدة غرف اقامها على اعمدة وجعل فيها حوضاً متصلاً بالنيل وصنع لها ابواباً ومسلات ووجهة من حجر طرا الابيض ومن ملوك هذه العائلة « اوسرتسن الثاني » ويسميه مانثون « سينوستريس »

ترك آثاراً كثيرة قلما يستفاد منها شيء عن تاريخه وغاية ما علم منها ان مملكة مصر كانت في عصره محافظة على شوكتها متسعة النطاق ومن ملوكها ايضاً « اوسرتسن الثالث » وكان رجلاً حازماً مقداماً واشتهر بهذه الصفات فارتفعت منزلته في قلوب الاهلين فعبدوه ومن اعماله انه جرد على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكته . وشاد في وادي حلفا قلاعاً منها قلعتان تعرفان الآن « بقمنة » و « سمنة » لمنع الاعداء من مصر لا تزال تشاهد في اطلالها الجدران الشائخة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعمدة مساكن دُمرت الآن

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية . ذلك ما فهم مما هو مكتوب عليهما . وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرناً اي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد « تحوتمس الثالث » معبداً في سمنة وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين . ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة « امنمحات الثالث » . ولهذا الملك يد بيضاء في امر النيل وفيضانه في اقليم الفيوم . وذلك ان للنيل كما لا يخفى ارتفاعاً معاوماً اذا بلغه كان غيئاً وحياة لارض مصر واذا زاد عنه كان ضربة ودماراً فتسقط الجسور وتغرق البيوت . واذا نقص لا تكون مياهه كافية للري فيخشى من المجاعة . فلما علم هذا الملك بذلك هم بتدارك الامر . فرأى في الصحراء الغربية من مصر بادية شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الآن بوادي الفيوم يفصلها عن وادي النيل الاصلي برزخ قليل الارتفاع . وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعاً عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربعة . وبجانبه الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه البحيرة الطبيعية المعروفة الآن ببركة قارون « او القرون » طولها يزيد عن عشرة فراسخ فأمر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احدهما كانت تبتدىء من النيل بجانبه الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي . والاخرى كانت تجري شمالاً . وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاهما قناطر بحواجز تسد وتفتح حسب الازوم . فكانت تلك البقعة بصفة حوض عظيم تجتمع فيه مياه النيل عند فيضانه عرفت ببركة موريس

فان كانت زيادة النيل اقل من احتياج الارض انصرف اليها من مياه مايس

احتياجها . واذا كانت اكثر من الحاجة صُيرف ما يزيد الى ذلك الحوض فان طفق
ماؤه انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تسد وتفتح على قدر الحاجة . وكانت
الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنتدب من يسير الى النوبة لاستكشاف مقدار
زيادته في جهة سمنة وقنة وفي تلك الجهات الان كتابات هيروغليفية تشير الى شيء
من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمان في كل منهما تمثال . واصل كلمة موريس
« مري » ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انها دعيت
بذلك نسبة الى اسم احد الفراعنة . واصل كلمة الفيوم « بايوم » ومؤداها باللغة
المصرية بلد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناء هائل يعرف باسم « لابرانتسا » واسمه بالمصرية
« لابوراخونت » اي معبد فم البحر بناء هذا الملك لاجتماع مجالس الاعيان من الكهنة
وفي هذا البناء رحبات الى كل من الجانبين فيها من الغرف نحو من ثلاثة آلاف غرفة
ويحيط بالبناء من الخارج سور عليه نقوش

اما بركة موريس فقد جفت ولم يعد لها اثر الان . اما موقعها فقد اختلف المهندسون
في حقيقته ومن راي المستر كوب وايتيهوس انه واقع في واد وسيع الى جنوبي بركة
قارون بعرض ٤٠ ٤٨ و ٣٠ ٢٩ ذملاً وهو المعروف الان بوادي الريان . وقد
اقترح وايتيهوس على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذخراً لماء النيل
كما كان قديماً

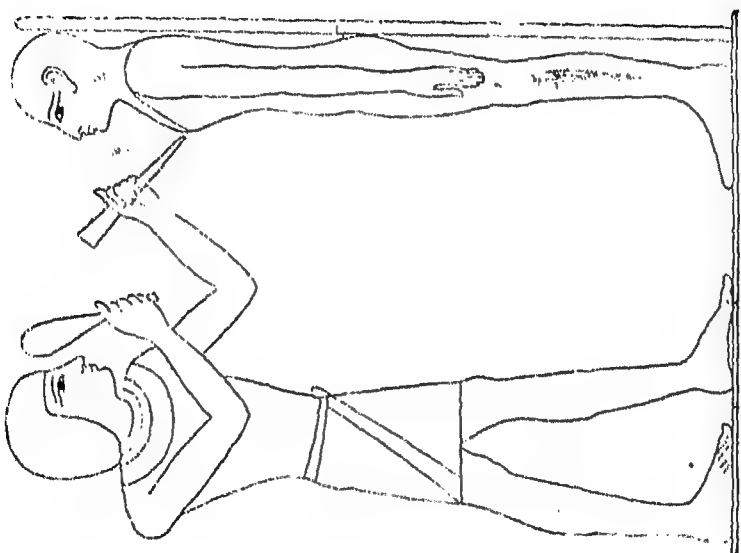
وامتدت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها وبين ليبيا الشمالية
واسيا علاقات تجارية محورها ما بين بني سوينف واهناس المدينة . وبسبب هذه العلاقات
تعلم المصريين من الليبيين علم الرياضة الجسدية (الجباز) اما صناعة البناء في ايام هذه
العائلة فقد كانت من الاتقان والتفنن على غاية حتى قيل ان معظم الاعمدة الحلزونية
الشكل في الاثار المصرية انما من مصنوعات هذه العائلة

العائلة الثالثة عشرة الطيبية

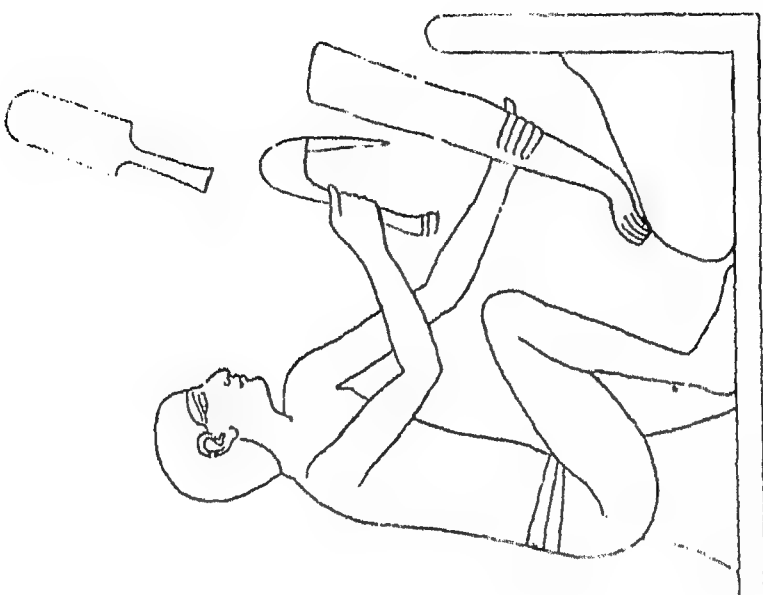
تست من ٣٢٧٣ - ٣٠٢٠ م او من ٢٨٥١ - ٢٣٩٨ ق م وعدد ملوكها ٨٧

من ملوك هذه العائلة « سبك حتب الثالث » له آثار كتابية على صخور شائعة
صعبة التساق عنه خفة النيل بقرب سمنة مفادها ان ماء النيل بلغ هذا الارتفاع في

حفار مصري يصنع تماثلاً



حفار مصري يذبح ذراعاً



السنة الثالثة من حكم الملك سبك حشب الثالث واوطاً جزء من هذه الكتابة يعلو أعلى نقطة يبلغها النيل عند ارتفاعه في هذه الايام بنحو سبعة امتار . وذلك من الادلة على ان النيل كان اكثر ارتفاعاً في الاعصر الخالية منه في هذه الايام بما يستحق الاعتبار . وهذه العائلة على كثرة عدد ملوكها قلّ ما يعرف عنها ، ويظن ماريت ان اكثر آثارها مردوم في اسيوط

العائلة الرابعة عشرة السخاوية

حكمت من ٣٠٢٠ — ٢٨٣٦ ق م او من ٢٣٩٨ — ٢٢١٤ ق م وعدد ملوكها ٧٥

بسقوط العائلة الثالثة عشرة سقطت طيبة بعد ان كانت سريراً للدول المصرية نحواً من سبعمائة سنة . على ان ملوك العائتين الثانية عشرة والثالثة عشرة لم يكونوا في اهتمام لحفظ رونقها وافضليتها على سائر القطر المصري وانما صرفوا اهتمامهم في تعمير الدلتا ورفع شأنه فزهت منديس وسائس وبوباستس وعلى الخصوص تالس ولكنهم مع ذلك لم يتخذوا غير طيبة سريراً للملكهم . اما العائلة الرابعة عشرة فجعلت عاصمتها في الوجه البحري في مدينة خيس (سخا) في منتصف الدلتا . لا يعلم عن ملوك هذه العائلة ما يستحق الذكر سوى ان اسماءهم وجدت مكتوبة على صحيفة من البايروس (البردي) حفظت في متحف تورين

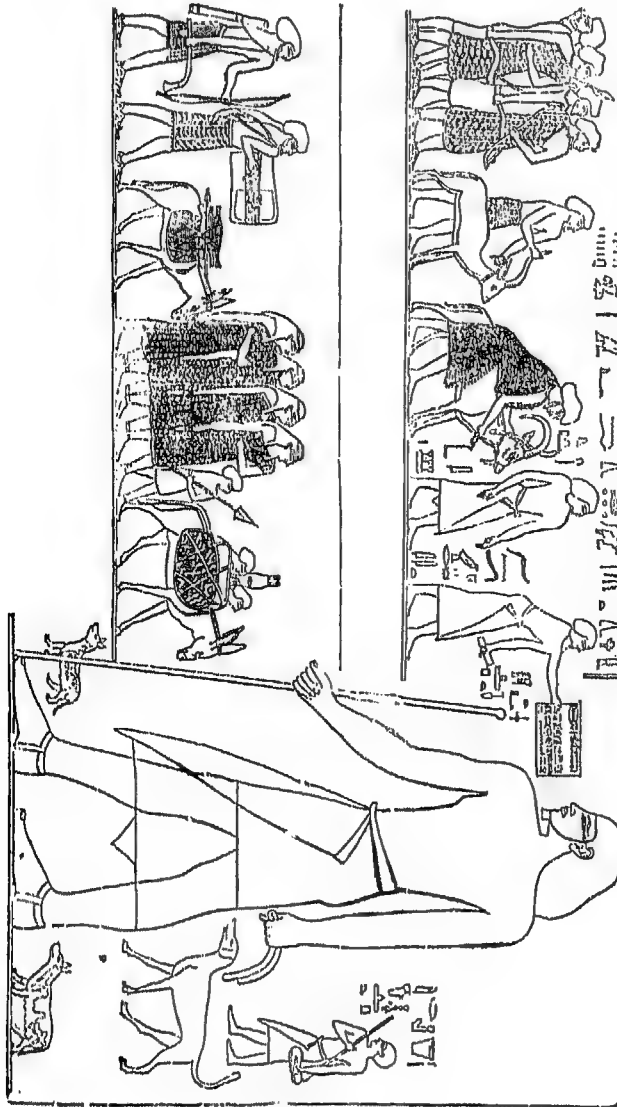
العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (الرعاة)

حكمت من ٢٨٣٦ — ٢٣٢٥ ق م او من ٢٢١٤ — ١٧٠٣ ق م

فالعائلة الخامسة عشرة مؤلفة من ملوك الرعاة الذين افتحوا مصر واتخذوا « اوريس » سريراً للملكهم وكان معظم سلطتهم في الوجه البحري . اما القبلي فكان يحكمه بعض الملوك الوطنيين . اما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون « هيكسوس » فقد اختلف المؤرخون في حقيقته وقد عقدنا فصلاً في كتابنا تاريخ العرب قبل الاسلام بينا فيه ارجحية كون الرعاة عرباً من القبائل التي يسميها العرب « العمالة » فايراجع هناك . ويقال انهم جاؤا مصر من جنوبي اسيا ففاجأوا المصريين في الوجه البحري وافتتحوا بلادهم وتقاطروا اليها افواجاً حتى انتشروا فيها كالجراد وجعلوا يعيشون استبداداً فاحرقوا المعابد ونهبوا ما فيها واتخذوا منف قاعدة لحكمهم

ففرَّ الملوك المصريون الى الصعيد

واول من ملك من العالقة « سلاطيس » شاد قلاعاً حصينة في اماكن مختلفة وجعل في السويس جنداً عظيماً خيفة ان يهاجه كنعانيو الشام والعراقيون . وفي ايامه تقاطر اهل اسيا الى مصر اسراباً يطلبون ملجأ ورزقاً فبنى لهم في اواريس معسكراً



ش ٧ — مهاجرو اسيا

عظيماً يسع نحواً من مائتين واربعين ألفاً وجعل حوله خندقاً ورتب لهم ارزاقاً فصاروا له اعواناً فها به المصريون

ثم تداول خلفاؤه على سرير الملك الواحد الآخر . وعددهم ٦ ومدة حكمهم جميعاً ٢٦٠ سنة وقد كانوا في اول امرهم مستبدين يسومون المصريين شر المعاملة ولا يستخدمون في مصالح حكومتهم الا الاجانب من ابناء جلدتهم . لكنهم في آخر الامر قربوا الوطنيين منهم واستخدموهم في مصالح الدولة وصرقوا اهتمامهم الى احياء البلاد وتجديد ثروتها فبنوا المعابد

ودانوا بديانة اهل مصر . نخضع لهم الوجه القبلي فاصبحت مصر جميعها في ايديهم .

أيديهم . ثم خلفتهم دولة الرعاة الثانية وهي العائلة السادسة عشرة وعدد ملوكها اثنتان وثلاثون لم يعرف منهم الا ملك واحد يدعوه المصريون « اياي اعاكين » والعرب يدعونه « الريان بن الوليد » ومايثون يدعوه « ابوفيس » وفي ايامه نزع كثيرون من اهل الشام الى مصر واستوطنوها لكنهم حافظوا على لغتهم ولم يبدلوها . وفي ايامه ايضاً وفدت السيارة الذين باعوا يوسف بن يعقوب الى قطفير وزير مصر الذي يدعى بلغة مصر القديمة « بدفير » اي هدية الشمس وقصته مشهورة . وقد وجدت في الآثار حكاية استنتج منها بعضهم ما يؤيد قصة المجاعة التي حصلت في ايام يوسف والله اعلم

واما العائلة السابعة عشرة فكانت مصر في ايامها تحت حكومتين وطنية بيد المصريين واجنبية بيد الرعاة . وبلغ عدد ملوك كل من الحكومتين نحواً من ٤٣ ملكاً قلما يعرف عنهم . وكانت قاعدة مملكة الرعاة « صان » والوطنيين « طيبة » وغاية ما يقال في هذه العائلة انها لم تنته حتى انتهى معها الرعاة وبانقضائه انقضت الدولة الملكية الوسطى

الدولة الملكية الاخيرة

حكمت من ٢٣٢٥ — ٩٥٤ ق م وعدد عائلاتها ١٤

العائلة الثامنة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٣٢٥ — ٢٠٨٤ ق م او من ١٧٠٣ — ٤٦٢ ق م وعدد ملوكها ١٤

ولهذه العائلة شأن عظيم في تاريخ مصر القديم لان البلاد في ايامها نشطت وامتدت سطوتها الى انحاء بعيدة

اول ملوكها « احمس » ويسميه مايثون « اموزيس » تزوج بابنة ملك اتيوبيه وتحالف معه على طرد بقية الهالقة من مصر . وكانوا متحضرين في قلعة اوريس برّاً وبحراً فحاصروهم ثم طردهم منها . وما زال يتبعهم بجنوده حتى نهر الفرات فتخلصت مصر منهم بعد ان استبدوا فيها ستمائة سنة . وبقيت منهم بقية رضخت لاحكامه قهراً وما لبث ان عاد من هذه المحاربة حتى عصته اهل النوبة فجرد اليها وظهر عليها . اما الاثوبيون فدخلوا في طاعته بغير حرب وامتدت سلطته الى البحر المتوسط . وفي

السنة الثانية والعشرين من حكمه استعمل العمالة لقطع الحجارة من محاجر طره لتجديد معبد « فتاح » في منف ومعبد « امون » في الكرنك ولانشاء معابد اخرى وقد وجدت جثة هذا الملك في الدير البحري بجبل القرنة وهي الآن في المتحف المصري ومن ملوكها « امنحسب الاول » ويسميه مانثون « امنوفيس » كان ملكاً عادلاً

مسالماً تزوج بامنة ملك اثيوبيا وجثتاها في المتحف المصري

ومن ملوكها ايضاً « تحوتمس الاول » رغب في توسيع دائرة ملكه فجعل يحارب جنوباً وشمالاً فامتدت سلطته الى محاجر مدينة « انبو » في وسط النوبة ويستدل على ذلك بوجود اسمه منقوشاً على حجر هناك . وقد وجدت نقوش اخرى في جهات اصوان تشير الى شيء من ذلك . وامتدت مملكة مصر في ايامه جنوباً الى جبل « ابته » في الحبشة . وشمالاً الى اقصى اسيا المعمورة من ضمنها فلسطين وابل وغيرهما . اما معظم ثروة بلاده فكانت من اثيوبيا التي كانت تأتي منها البضائع مشحونة في مراكب النيل الى مصر وفيها الحيوان والحب والجلد والعاج والخشب والحجارة الكريمة والمعادن كالذهب وغيره ويقال ان اسم النوبة مأخوذ من « نب » اي ذهب . ومن آثاره انه شاد معبد امون في الكرنك ومسلتين احدهما لا تزال الى الان عند باب المعبد المذكور اما الثانية فقد ذهبت بها يد الزمان

ومنهم الملكة « حمتشبو » ويسميا مانثون « مفرس » ساست الاحكام بتدير وحزم ورسمت صورتها على الآثار بهيئة رجل ذي لحية ملوكية مهيبه . وقد سعت هذه الملكة في نشر سطوتها ففتحت بلاد « بون » جنوبي بلاد العرب فكانت باباً للتجارة وكانت تأتي منها بالخشب والعطريات والصمغ والذهب والفضة والحجارة الكريمة وغير ذلك من لوازم بناء الهياكل . ومن آثار هذه الملكة مسلتان نصبتا في الكرنك لم تزل احدهما قائمة الى هذه الغاية عليها كتابة بالقلم المصري القديم تفيد انها اقامت هاتين المسلتين تذكاراً لوأدها . وكان على قمة كل منهما اكليل هرمي الشكل مصنوع من الذهب المعتم من الاعداء . والمسلة الواحدة قطعة واحدة مقطوعة من محاجر اصوان استغرق صمليها معاً أربعة عشر شهراً وارتفاع كل منهما ثلاثون متراً

ومن ملوك هذه العائلة « تحوتمس الثالث » وهو شقيق الملكة المتقدم ذكرها . لم يمكنه الملك الا بعد وفاتها ولم يكن راضياً بحكمها الا رغم ارادته فلما تولى بحكم اسمها من اكثر الاماكن التي ذكرت فيها انتصاراتها وكتب اسمه مكانه لتنسب تلك الانتصارات اليه

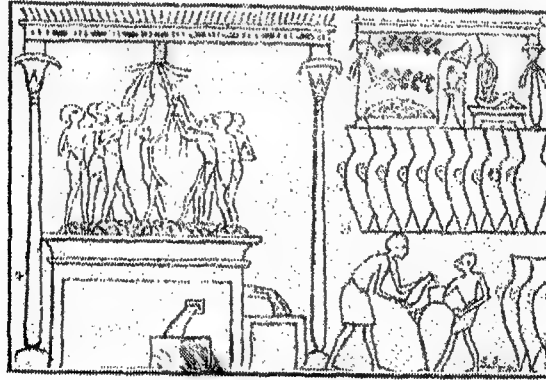
وفي ايامه استقلت اسيا من ساطلة المصريين الا غزوة وضواحيها . ثم ظهر
التمرد في الشام فثار اهالها وحرضوا سكان شمالي سوريا على مثل ما فعلوا . فقاتلهم
وظهر عليهم وسلبهم مدينة حلب ومدناً اخرى ثم سار الى الفرات فاخضع العراق
والجزيرة وبعد انتصاره اراد اكرام جيشه فصرح لهم ان يصطادوا من حيوانات تلك
البلاد ما شاؤا . وكان في جملة صيدهم مائة وعشرون فيلاً فعاد الى مصر ظافراً . ثم لم
يمض يسير حتى عادت اسيا الشمالية الى الثورة فشقت عصا الطاعة وتمرد اهالها وتابعهم اهل
الجزيرة . فعاد الى قتالهم وما زال حتى استظهر عليهم وعاد الى مصر ثم خرج عليه الزنج
والعبيد من النيل الاعلى فخاربهم ونهب بلادهم وهدم مساكنهم وحرقها وقادهم اسرى
الى مصر . (انظر ش ٨) ويقال بالاجمال ان اكثر ايام هذا الملك كانت حروباً وشدائد
ولذلك لقبوه بالسلطان الاكبر . وفي المتحف المصري حجر جيء به من الكرنك عليه
من الأعلى صورة الملك المذكور كأنه يقرب القرابين لبعض الالهة وهم وقوف بين يديه
وتحت ذلك كتابة هيروغليفية بين نثر ولظم كتبت عن لسان امون اله طيبة يخاطب بها
الملك بما يشبه المدح والتنشيط



ش ٩ - اسرى الزنوج

وكان في حوزته عند وفاته الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة
والعراق العربي وكردستان وارمينيا وقبرس اما جثته فتشاهد في المتحف المصري . ومن
آثار تحوتمس الثالث مسئلتان اقامهما في المطرية حتى اذا كانت ايام الملكة كليوباترا
نقلتا الى الاسكندرية وجعلتا امام هيكل القيصر وعرفنا بعد ذلك بمساق كليوباترا
وعليهما كتابة هيروغليفية كثيرة بينهما اسماء تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني وسيتي
الثاني ولا وجود لاسم كليوباترا عليهما . وفي سنة ١٨٧٧ ب م نقلت احدهما الى لندن
واقبعت على ضفاف النيمس ثم نقلت المسلة الاخرى الى اميركا بعد حين

ومن ملوكها الملك « امنوفيس الثاني » استلم زمام الاحكام وسلطة مصر منتشرة في اقاصي الارض فاجتهد في حفظها الا ان اشور نظراً لبعدها من مصر ثارت واستبالت اليها ما حولها من المدن فجهاز اليها امنوفيس وما زال يحاربها ومن تابعها نحواً من سنتين كان يتردد اثناءهما بين العراق والجزيرة واكاد . واخيراً عاد الى مصر بجراً غانماً ظافراً . وفي جملة ما جاء به من الغنائم سبع جثث ممن قتلهم في تلك الحملة فعلق ستاً منها على سور طيبة . ولهذا الملك رسم منقوش على مقبرة في القرنة هو فيه على هيئة ملك عظيم الشأن جالس على كرسي قد نقش على قاعدته اسماء البلاد الخاضعة له



ش ٨ — معاصر العنب عند المصريين

ومن ملوكها ايضاً الملك « تحوتيس الرابع » ومن اعماله اعادة عبادة الشمس الى مصر . ففكرهم ابا الهول المرموز به عنها . ومن يزر هذا القنال العظيم في الجزيرة يري في صدره لوحاً ارتفاعه اربع عشرة قدماً انكليزية في اعلاه الى اليمين رسم هذا الملك يقدم العبادة لابي الهول والى اليسار رسم الشمس . وبلي ذلك نقوش كتابية تفيد ان ذلك الملك لم يذخر وسعاً في تحسين مدينتي منف والمطرية واعطاء المرتبات المقررة للمعابد او لانشاء الهياكل والتماثيل والمعبودات وكان ملكاً قوياً مهاباً

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الثالث » لما تولى الاحكام كانت حدود مملكة مصر ممتدة شمالاً الى نهر الفرات وجنوباً الى جلة ولسعة شهرته في الاقطار الغربية دناه اليونان بالمانون . وله تمثال عظيم في طيبة مشهور بهذا الاسم . وقد كثرت في ايامه القلاقل والفتن فسمى في اخذها بعزم ونشاط وكان ذا وقار ومهابة وفي الحروب باسلاً مقداماً . كل ذلك تراه مكتوباً نقشاً على تاج هيكل الاقصر لانه جدد فيه قسماً عظيماً وكان يلقب نفسه بسلطان البرين وامير العالمين (يريد عالمي اسيا وافريقيا) وكان حسن

السياسة فزادت مصر في ايامه سطوة ومملكتها اتساعاً ومن آثاره هيكل في « نبتة » جعل في الطريق الى بابيه صفيين من الكباش الراقدة على مثال ابي الهول وحسن معبد تحوتس الثالث في سولين بين الشلال الثاني والثالث وشاد هيكلًا غربي الكرنك خدمة للمعبود امون . وهناك اصلاحات اخرى اجراها في هياكل ومعبودات اصوان وجزيرتها وجبل السلسلة وغيرها . وانشأ على ضفة النيل الغربية تجاه الاقصر معبداً طالما كان من اعظم الاثار القديمة اما الان فقد اصبح خراباً لاسباب لا نعلمها الا صنيين كبيرين كانا على بابيه ولا يزالان قائمين رغم مصادمة الايام ويعرفان بشامة وطامة وكل منهما تمثل امنوفيس الثالث . وبقيتا الى سنة ٥٩٥ قبل الهجرة ولم ينتبه اليهما حتى حصلت زلزلة اسقطت جزء احداهما الاعلى وبقيت قاعدته في مكانها فلو حظ ان هذه القاعدة اذا سقطت عاينها المدي ثم اشرقت عاينها الشمس اخرجت صوتاً يستقر مدة فيجعلوا يقولون في شأنه اقوالا شتى اكثرها: بني علي الوهم والخرافات ثم اهتم القوم بإعادة الجزء الساقط الى قاعدته فأعادوه وملطوا مكان الالتحام جيداً فلم يعد يسمع له صوت فعلموا ان ذلك الصوت كان يحدث من تأثير اشعة الشمس على نقط الندى بعد تخللها بجسم ذلك الحجر

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الرابع » رغب في عبادة الشمس فابتنى في محل تل العمدانة على مقربة من المنيا مدينة جديدة جعلها سريراً للملك بدلا من طيبة ونقل اليها معبود قرص الشمس وسماه (اتن) على مثال اله اليهود (ادوناي) اقامه في معبد ابتناه من اجله . وقد نقبوا اطلال تلك المدينة فوجدوا بينها بقية ذلك المعبد على دهليزين وستة اعمدة مدرجة الوضع يظهر انها كانت منصوبة في تحته وشاهدوا على جدرانها رسم الشمس مشرقة على الملك ورجاله وهم وقوف يقربون القرابين اليها وبين اشعتها ايدي ممتدة كأنها تنثر الحياة على المخلوقات وحول هذه الرسوم ادعية وقصائد كان يتلوها المرتلون على نغمات الاوتار . وعلى جدران الهيكل ايضاً رسم هذا الملك ورجاله على هيئة غير مصرية . ويشاهد ايضاً في مقبرة بتل العمدانة نقوش بينها صورة الملك واقفاً على عربته الحربية وبجانبه بناته السبع يقفان معه . وله آثار في سوليب وهيكل ومسلة بمدينة طيبة

ومن ملوكها ايضاً الملك « حور محب » وهو من اقارب « امنوفيس الرابع » نارت عليه الرعية عند اول حكمه فارضاهم بمحو عبادة الشمس وهدم معبدها والمدينة جميعها واعادة الديانة المصرية . ولما خمدت الثورة بنى الوجهة الرابعة من معبد الكرنك

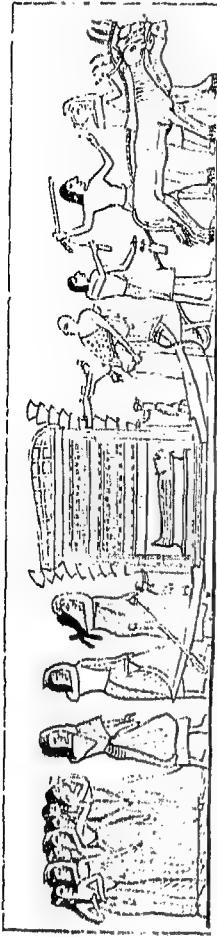
وفي ايامه خرجت اسيا من ساطة المصريين وما زالت كذلك الى ان جاءت العائلة
التاسعة عشرة

العائلة التاسعة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٠٨٤ — ١٩١٠ ق هـ او من ١٤٦٢ — ١٢٨٨ ق م وعدد ملوكها ٨
اول ملوكها « رعسيس الاول » ولم يتحقق حتى الآن اذا كان مصري المولد او
اسيويه تبوا كرسي الملك شيخاً وكانت المملكة المصرية تثن لخروج معظم ايلاتهما
من طاعتها على اثر الحرب الدينية فجدد شبابها ونهض لاجهاد فخارب الاثيوبيين والحثيين
وكانوا امة عظيمة تحتها عدة طوائف قد تحالفوا معاً على قتال المصريين . ويقال ان

هذا الملك هو اول من ناهض الحثيين واخترق بلادهم
وجال في اسقاعهم حتى ضفاف نهر العاص

وخلفه ابنه « سيني الاول » فسعى سعياً حميداً لتوسيع
مملكته فغزا بعضاً من بلاد اسيا الغربية . ذلك ما يستفاد
مما كتب على هيكل الكرنك فغزا غزوات عديدة الى
الشام والعراق وغيرها ففتح بلاداً تمتد من جنوبي الشام
الى ارمينيا . وقد كانت قبلاً لا يطلب منها الا جزية
تدفعها وحكامها من ابنائها . اما هذه المرة فادخل اهلها
في طاعته وجعل عليهم حكماً من امرائه واحاطهم بنقط
حصينة كغزة وعسقلان جعل فيها حاميات من رجاله
فامن طغيانهم الا ما جاور الفرات فانه عجز عن ابقائه
في حوزته وعصته الجزيرة والعراق ولم يعد قادراً على
مقاومتها فوقف عند حده ولذلك كانت فتوحاته كبيرة
في الظاهر حقيرة في الباطن . ولما عاد من تلك المحاربات
جعل يكثر العلاقات مع ايلاتهم بواسطة النقط العسكرية
التي كان قد جمعها فيها فزاد الارتباط بين المصريين والامم
المتعابة ولا سيما الكنعانيين فادخل المصريون معبود
الكنعانيين (بعلا) في عداد معبوداتهم ومثلوه بالشمس
وكان لهذا المعبود زوجة اسمها استارته (عشروت) مثلوها
بالتمسك واتخذوا من اسيا ايضاً آلهة اخرى



ش ١٠ — جنازة مصرية قديمة

ومن آثار هذا الملك هيكل في القرنة وآخر في رداسية وآخر في العرابية المدفونة وقد نحت اعمدة كثيرة اقامها في النوبة وحجراً جعله في اصوان . وفتح ترعة بين النيل والبحر الاحمر تبثدى من تل بسطة ونجري شرفاً في وادي الطملات الى ان تصب في البحيرات المرة وبنى خط دفاع شرقي مصر وشاد محراباً في القرنة وفتح طريقاً للقافلة بين قرية رداسية باقليم اسنا ومعدن الذهب بجبل اتوكي حيث اصطنع عيناً صناعية ينفجر منها الماء غزيراً . واصلاح الغار الذي في بني حسن للمعبودة « بشت » ويعرف الآن بغار « اتيميدس » واخيراً بنى لنفسه ضريحاً في ببيان الملوك يعجب له كل من عاينه لدقة صنعه وبما فيه من المناظر الفلكية البديعة

ومن ملوك هذه العائلة « رمسيس الثاني » المشهور باسم « سيزوستريس » ويقال له « رمسيس الاكبر » لانه في الواقع اعظم من ملك مصر حكمة وبطشاً حكم مدة طويلة كلها فتوحات وحروب ومبان ونقوش فلا يكاد يوجد اثر من الآثار المصرية القديمة الا وعليه اسمه ورسمه . ولي الملك صغيراً فشب معتاداً على الاعمال السياسية وكان متوقد الذهن وفيه فطنة ونباهة منذ حداثة . ولما توفي والده قام باعباء الملك بنفسه فاخذ في توسيع لطاقه بالفتوحات . واول غارة شنّها كانت على الشام فسار بجيشه وما بلغ نهر الكلب بقرب بيروت حتى خمدت الفتنة فعاد الى مصر تاركاً اثراً منقوشاً على صخر هناك . وفي السنة الرابعة من حكمه ثار عليه سكان شمالي اسيا وهم الحيثيون وكاتي وكركاميش وكوش وكانوا اقواماً من الشجاعة على جانب عظيم فانضموا لمحاربه وساروا جميعاً حتى وادي الارونط بقرب حدود مصر في ذلك العهد . فبلغ رمسيس خبرهم فجمع اليه امرأه ورجال دولته وقوّاده وجنوده وسار في مقدمتهم وما زالوا يخترقون سوريا حتى اتوا نهر العاص قرب مدينة قادس فاذا هي على جانب من المنعة ففرق رجاله فرقاً في نقط معينة ثم سار في حاشيته منفرداً فلقىه جواسيس الحيثيين فانغروه على التقدم نحو المدينة فسار في حاشيته تاركاً جيشه في اماكنهم فلما اقترب من المدينة علم انها دسيسة اوقع فيها فالتفت واذا ببركات الحيثيين حوله لا اعداد لها فلما رأى ذلك رجال حاشيته طلبوا النجاة بانفسهم وبقي رمسيس وحده فاستنجد الهه وهاجم الحيثيين بفردده على مركبته ففرقهم وفاز بهم . وبعد يسير عاد اليه رجال حاشيته وقد كادوا يذوبون خجلاً لما كان من فرارهم اما هو فاكتفى بتوبيخهم ثم اجتمع بجيشه ثانية وهاجم العدو فهزمهم وانتهى الامر بعقد معاهدة بينه وبينهم ثم هم بالجلاء من اسيا



ش ١١ - رعمسيس الثاني

وبما هو في طريقه الى مصر ثار عليه الكنعانيون وانضم اليهم الحثيون ناقضين العهد وثار غيرهم معهم فاصبح جميع من قطن ما بين ضفاف الفرات وضفاف النيل يقاتلون المصريين الا اهل اسيا الصغرى فانهم هجروا اوطانهم ولم يظهروا للقتال . وما زالت هذه الحروب متواصلة يتخللها هدنات وفترات مدة خمس عشرة سنة فاستولى رعمسيس على مدينتي نابور وميروم وقاعة اورشليم وعسقلان . ثم سار شمالاً وقاتل هناك حتى اخذ من الحثيين مدينتين وجد في احدهما الان تمثله . وما زالت الحرب سجلاً حتى اضطر ملك الحثيين الى المصالحة فطلبها فقبل رعمسيس ذلك في السنة الحادية والعشرين من حكمه ف عقدوا معاهدة كتبت اولا بلغة الحثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت الى رعمسيس ومفادها ان الحثيين يتعهدون انهم لن يعودوا بعد ذلك الى حمل السلاح ضد المصريين وعلى مثل ذلك يتعهد المصريون وان يكون الفريقان متحالفين الى الابد وجعلوا في وسط لوح الفضة وعلى جانبه الاعلى صورة تمثال (ست) معبود المصريين معانقاً تمثال (خيتا) معبود الحثيين . وما زالت هذه المعاهدة مرعية مدة ست واربعين سنة كانت الراحة في اثنائها مستتبة وتصاهر الممسكان توطيداً للعلاقات الودية فاصبح المصريون والحثيون قلباً واحداً وبعد التوقيع

على المعاهدة يسير دعا رعمسيس الثاني ملك الحثيين لزيارته الى مصر فزاره
فاكرم مشوا.

ولما سكنت الحروب اخذ رعمسيس في تشييد المباني فشاد في كل مدينة معبداً
وتعم معبد القرنة في الاقصر وكان قد شرع فيه ابوه . ومن آثاره ايضاً هيكل بناء في
شرقي الشيخ عبد القرنة بطيبة سماه شامبليون « رامسيون » منقوش فيه تفاصيل
احدى وقعاته ومنها معابد في العراة المدفونة ومنف وتل بسطة وغيرها وأسس في
الوجه البحري مدناً عديدة دعاها باسمه . وكان لهذا الملك العظيم في قلوب رعيته من
الحبة الى حد الشغف وكان لهم فيه من الثقة الى حد العبادة . ولما مات دفن في مقبرة
يبدان الموك ثم نقل الى الاقصر لاسباب غير معلومة . ثم نقل الى المتحف المصري وهو
هناك الى هذه الغاية

ومن ملوك هذه العائلة « منفناح الاول » ابن رعمسيس الثاني اتبع خطوات ابيه
فجعل يزيد في بنايات الدلتا وتحسينها ثم ثار عليه اهل اسيا الصغرى وطائفة الليبيين
فانفذوا اليه بوارجهم في البحر المتوسط الى سواحل ليبيا مملوءة بالعدو والرجال من
قبائل مختلفة وما زالوا حتى اتوا السواحل المصرية ودخلوها من غربي الدلتا كل ذلك
والمصريون لا يبدون حراكاً الا اذا كان للتسليم . ولم يمض كثير حتى اصبح معظم الوجه
البحري في ذمة اولئك الوافدين . فلما علم منفناح بذلك تجند في منف وارسل فرقة
من فرسانه لمقابلة العدو ثم امر بتحصين جميع المراكز الواقعة على ضفتي فرع رشيد .
فتناقل الليبيون فانفذ اليهم فرقة شتتهم وعد المصريون فائزين ظاهرين بعد ان احرقوا
معسكر العدو فعاد الامن الى بلادهم . ويقال ان الاسرائيليين هاجروا مصر في ايام هذا
الملك ولهم على ذلك ادلة أعرضنا عن ذكرها لضيق المقام

العائلة العشرون الطيبية (وتسمى الرعمسية)

حكمت ن سنة ١٩١٠ — ١٧٣٢ ق م ارم من ١٢٨٨ — ١١١٠ ق م وعدد ملوكها ١٢
من ملوكها « رعمسيس الثالث » وهو اخر من اشتهر من ملوك مصر القدماء وفي
اول حكمه ثار عليه اهل البادية فهددوا استحكامات الدلتا واهانوا العملة الذين كانوا
يستخرجون المعادن من جبل الطور . وخرجت ولايات الشام من طاعته وسطا
اليبيون على ارضه فاحتلوا بعضاً من الدلتا من جهة الغرب
فلما علم رعمسيس بما كان من تلك الواقعة سار في جيش من رجاله على البدو

فهمزهم ثم على الليبيين فاقلمهم من محتاهم فعادوا على اعقابهم خاسرين . فلما علم اهل اسيا الصغرى والجزائر اليونانية بما كان جردوا جيوشهم متحالفين على محاربة رعمسيس وما زالوا حتى اتوا الذلتا فلاقهم الجيوش المصرية عند مصاب النيل بقلوب لا تهاب الموت وفي مقدمتهم رعمسيس الثالث غير مبال بما كان حوله من الاسهم المتساقطة عليه . من كل الانحاء . وما زالت الحرب سجالاً الى ان فاز المصريون فوزاً تاماً . ولهذا المعركة العظيمة رسم منقوش على جانب الحوش الاول من مباني مدينة (ابو) بطيبة . واستتببت الراحة في ديار مصر بعد ذلك نحو سنتين ثم عاد الليبيون الى الثورة ثانية وضموا اليهم بعضاً من القبائل المجاورة لبلادهم واغاروا على مصر من غربيها فقتلهم المصريون بشبات فانتهت الحرب بنصرة المصريين كل ذلك منقوش في مدينة (ابو) بطيبة ايضاً . فاضطر الليبيون بعد المعركة الثانية الى رعاية حقوق مصر عليهم فرضخوا لها صاغرين . ثم دخل في ذمة المصريين ايضاً اهل الشام وسكان سيسيليا وغيرهم . من الامم المتعاهدة فاصبحت مصر دولة مهيبة واسعة النطاق واستعز رعمسيس بالملك . الا انه لم ينجح من بعض المتاعب الداخلية لان اخاه ارمانيس كان يسعى فيه بدسيسة يذهب بها حياته ولم ينجح فعلم رعمسيس بذلك فأتى باخيه ومن شاركه وبعد تحققة ارتكابهم جازى كلا منهم بما فعل فسفاله الدهر فجعل يجدد المباني فبنى في مدينة (ابو) قصرأ كبيراً نقش على جدرانها ما كان من محارباته ووسع معبد الكرنك واصلح هيكل الاقصر وغيره من مباني الوجه البحري وكانت التجارة في ايامه رائجة ممتدة الاطراف

وتلا هذا الملك ملوك اخرون من هذه العائلة يعرفون برعمسيس الرابع والخامس الخ ويقال بالاجمال ان سطوة مصر اخذت بالسقوط في ايامهم الواحد بعد الاخر الى ايام رعمسيس الثالث عشر وهو اخر من ملك من هذه العائلة فاذا بمصر في ايامه منكسرة الشوكة محصورة الحدود يترصدها الاعداء يريدون النهامها فكانت غنيمة لاحد كهنتها الذي يدعى (حرحور) وهو اول من ملك من العائلة الحادية والعشرين

العائلة الحادية والعشرون الطيبة والطينية

حكمت من سنة ١٧٣٢ — ١٦٠٢ ق هـ او من ١١١٠ — ٩٨٠ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم الكاهن (حرحور) اختلاس الحكم اختلاسا من العائلة الرعمسيسية على اسلوب دنيئ منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم نفى من بقي من العائلة المذكورة الى الواحات في وسط الصحراء الكبرى

وتولى بعده ابنه الكاهن (يعنخى) وليس له ما يذكر به سوى انه تزوج بابنة ملك الشام

ثم تولى بعده ابنه الكاهن (بينوزم الاول) وفي سنة ٢٥ من حكمه قامت فتنة بين اهالي الوجه القبلي واهالي الوجه البحري بسبب نفي العائلة الرعميسية وانتهت باستدعاء اولئك المنفيين من الواحات الى طيبة

وفي ايامه اتى النمرود بحبيشه من اشور متظاهراً بالدفاع عن العائلة الرعميسية وانما كان قصده الاستيلاء على البلاد المصرية فتحققت اماله واخذها عنوة وضمها الى بلاده ثم توفي النمرود ودفنته امه في العرابية المدفونة وجعلت لمدفنه المرتبات المعتادة وتولى بعده ابنه (ششنق) على مصر واشور واتخذ مدينة (تائيس) مسيراً للملكه وسيأتي ذكره في الكلام على العائلة الثانية والعشرين

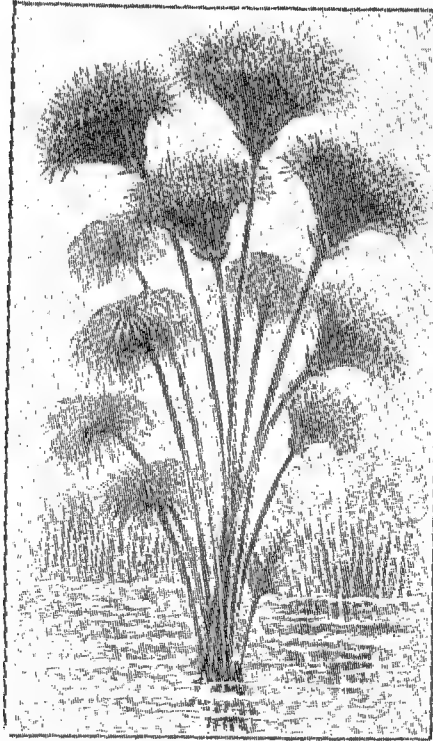
العائلة الثانية والعشرون البسطية

حكمت من سنة ١٦٠٢ - ١٤٣٢ ق م او من ٩٨٠ - ٨١٠ ق م

سميت بسطية لان قاعدة ملكها كانت في تل بسطة بالشرقية قرب الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم ١٢٠ سنة

اول ملوكها الملك « ششنق الاول » ويدعى في التوراة شيشاق وهو سامي الاصل ابن النمرود كما تقدم . ولد في مصر ونشأ فيها ولما استتب له المقام في عاصمته سار الى العرابية المدفونة لزيارة قبر ابيه فوجد خدمة القبر قد نهبوا ما كان في المعبد من الامتعة الفضية فامر بقتلهم بعد ان سار الى طيبة واستشار معبودها « امن رع » بذلك . واعاد الى المعبد منهباته ورتب لخدمة مرتباتهم . كل ذلك منقوش على حيجر في العرابية المدفونة ومن اعمال هذا الملك انه سار الى فلسطين ووضع يده على اموال المسجد الاقصى الذي بناه سليمان الحكيم وعلى اموال القصور الملوكية وفيها الدروع السلیمانية الذهبية المشهورة ثم سار الى الاسرائيليين فسلموا له القلاع بغير قتال . وبعد عوده من هذه الغزوة نقش صورته على الجدار القبلي لهيكل الكرنك بالقرب من ايوان البسايطه الذي اسسه هو وبجانب صورته اسماء المدن التي افتتحها مكتوبة في ست وتسعين منزلة ورسم صور الملوك الذين اصبحوا تحت حكمه وفي جهلهم الملك رجبعام ابن سليمان مكتوف اليدين وراء ظهره . وفي عنقه حبل . وفي عمارات كثيرة في طيبة بحجارة من جبل

السلسلة من اعظمها الايوان المتقدم ذكره ولا تزال اثاره باقية الى هذا العهد قبي
هيكل رعمسيس الثالث ويعرف هذا الايوان عند علماء اللغة الهيروغليفية بايوان
البسايطة وتوفي بعد ان حكم ٢١ سنة



ش ١٢ — نبات البردي الذي كانوا يصنعون منه البايروس

وتولى بعده ابنه « اوسوركون الاول » وليس له آثار تذكر وخالف هذا ثلاثة
ملوك ليس لدينا شيء من اخبارهم . ثم تولى الملك « تاكوت الثاني » وله لوح حجري
في رواق البسايطة بالكرنك منقوش عليه بالقلم الهيروغليفي شيء من سيرته وفي أيامه
ضعفت شوكة مصر فعصتها اعيالها واستقلت في سلطتها . فاصبحت مصر حقيرة وقد
ذهب نفوذها ولا شيء من العزة والمنعة فيها . ثم تولى بعد هذا « ششنق الثالث »
« وپيامي » « وششنق الرابع » وفي عهدهم تجزأت مصر الى أعمال متفرقة على كل
منها حاكم ايبى تحت ادارتهم فاستبد اولئك الحكام وتغافل عنهم ملوكهم فزادوا فجوراً
وما زالوا حتى ازالوا ساطة اولئك واخذوا الملك من ايديهم وقبوا انفسهم بالفراغة

ونزل الملوك الاصليون في بسطة ثم هاجروا منها خوفاً الى منف وانتهى الامر بعد موت ششنق الرابع بخروج الدولة من يدهم الى ملوك العائلة الثالثة والعشرين

العائلة الثالثة والعشرون الطينية

حكمت من سنة ١٤٣٢ — ١٣٤٣ ق م او من ٨١٠ — ٧٢١ ق م وعدد ملوكها ٤

قاعدة ملكهم « تانيس » المعروفة الان بصان في الوجه البحري بمديرية الشرقية وقد كانت عند اول استيلائهم على الوجه البحري مدينة بسطة وكانت طيبة في ايدي الاثيوبيين فزعمها منهم « بتوباستيس » وهو اول ملوك هذه العائلة . وفي ايام هذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين اقليماً تحت كل منها اقسام يتولى القسم منها امير يرجع في معضلات احكامه الى مركز الاقليم وما زال الامر كذلك حتى ظهرت العائلة الرابعة والعشرون

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٣٤٣ — ١٣٣٧ ق م او من ٧٢١ — ٧١٥ ق م وعدد ملوكها ٥

اولهم « تفنخت » وكان احد امراء الاقسام المتقدم ذكرهم . فقويت سطوته شيئاً فشيئاً حتى تمكن من جميع مصر قبايلها وبحريها الاقليم الشرقية فانه تركه للعائلة الملوكية السابقة ولا علم ملك اثيوبيا بما كان جرد اليه جيشاً وحاربه فقهره ونقش صورة الحاربه على حجر وجد في جبل برقل ثم نقل الى متحف بولاق . فلما دخلت مصر في سلطنة ملك اثيوبيا واسمه « يعنخي » جعلها ملحقه ببلاده لكنه ابقى لروسائها الامتياز وجعل « تفنخت » ملكاً عليهم بالاصالة وبعد سير مات يعنخي وخلفه آخر لم يكن اهلاً للحكام فتحرر المصريون من سلطته فالسحب برجاله الى بلاده وفي اثناء ذلك مات تفنخت فتولى بعده ابنه « باكوريس » وكان قوي الادراك فقيهاً بارعاً فجعل مصر الوسطى والسفلى تحت حكمه الا ان الدهر لم يدُم له لان الدولة الاثيوبية صارت الى « سباقون » فجاء مصر وافتتحها عنوة والتى باكوريس حياً في النار وبموته ماتت العائلة الصاوية وامست مصر ايلة اثيوبية

العائلة الخامسة والعشرون الاثيوبية

حكمت من سنة ١٣٣٧ — ١٢٨٧ ق م او من ٧١٥ — ٦٦٥ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم « سباقون » المتقدم ذكره تولى زمام مصر وجعل لنفسه القاب الفراعنة واخذ يثبت النظام في البلاد ويحسن سياستها فابقي كل رئيس على اقليمه مع حفظ

نفوذه عليهم جميعاً بمراقبة امراء اثيوبيين . ثم شاد الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد ان يمسيها غرق او شرق ورمم كثيراً من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة فاكسب ثقة المصريين واشتهر بالرافة وحسن التدبير

الا ان ذلك لم يدم له لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد قد امتدت سطوتها على الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين ورغب هؤلاء في التخلص من نير الاشوريين فاجمعوا على ان يستنصروا « سباقون » في ذلك . فانفذ هوشع ملك اسرائيل اليه هدايا فاخرة وسأله التحالف معه على « شلمنصر » ملك الاشوريين فاجابه سباقون الي طلبه طمعاً منه بالحصول على ما كان لاسلافه من ملوك مصر العظام . فبلغ خبر تلك المعاهدة مسامع شلمنصر فاحتال على هوشع حتى اسره وفاجأ قومه بالهجوم فظهر عليهم فاعترفوا له بالسيادة بعد ان قنطوا من مساعدة سباقون . ثم سار « شلمنصر » الى السامرة وحاصرها لكنه مات قبل افتتاحها وكان اخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فاقيم مكانه « سرجون » رئيس قواده فاقتدي به وسار على خطواته فاتم فتح السامرة ثم سار الى فلسطين وقتل الملك « يهوئيد » احد المتحالفين مع سباقون .



ش ١٣ — سرجون ملك اشور يده الصولجان

فلما راي سباقون ذلك خاف على بلاده فتقدم بمجنوده الى الشام لرد « سرجون »
عد ان انضم اليه « حانون » ملك غزة احد المتحالفين فالتقى بجيوش الاشوريين في

مدينة رفح وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهمزمت الجيوش المصرية والشامية وأخذ « حانون » اسيراً ونجا سباقون فضلاً في الصحراء الى ان وجد من اهداه الى طريق مصر . فكانت هذه المحاربة امثولة له لكي لا يطمع فيما هو عاجز عن نياله . ولم يكن ذلك كل شقائه فانه بعد هذه الهزيمة ثار عليه سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيس احد اقرباء الملك « باكوريس » سعيّاً في اصلاح شؤون البلاد فانهمزم سباقون الى الصعيد واستقل باكوريس بالوجه البحري لكنه لم ترسخ قدمه حتى انقسمت حكومته على نفسها وقام النزاع بين فئتين من طالبي السيادة وفي اثناء ذلك توفي « سباقون » وخلفه ابنه « سيخون » فاغتنم فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واستولى عليه . وهذا ما لبث ان ثبتت قدمه حتى قتله « طهراق » وتولى مكانه



ش ١٤ — اسرحدون يقود طهراق ملك مصر وبعل ملك صور بجيل

اما « طهراق » هذا فكان رجلاً محارباً نزع مدينة منف من « استيفانيس » ثم جاءه اسرحدون ملك اشور فاتحاً ففر طهراق (تهراكا او ترهاكه) الى النوبة واستولى ملك اشور على منف وطيبة ونهب امتعة هياكلها وقسوسها وارسلها الى بلاده لتتحفظ تذكاراً

لذلك الغلبة . ثم اشتغل في اصلاح شؤون مصر واعاد رؤساء الاقاليم كما كانوا كل واحد في اقلعه وضرب عليهم الجزية وبعد ان تم له ذلك سار الى « نينوي » تاركاً بعض جنوده حامية في قلاع خفافاً من غائلة الاثيوبيين فر في اثناء الطريق بنهر السكاب قرب مدينة بيروت فنقش على الحجر الذي كان نصبه رعمسيس الثاني نقوشاً كثيرة بين فيها فتحة بالمصريين والاثيوبيين

وفي سنة ٦٦٩ ق م اغتتم طهراق فرصة مرض اسرحدون وهاجم المصريين لاسترجاع البلاد اليه فلما علم اسرحدون بذلك وعلم بعجزه عن الدفاع تنازل عن الملك لابنه الاكبر « اشور بانبال » . فسار هذا الى مصر واخرج منها الاثيوبيين واعاد السلطة لرؤساء الاقاليم وعاد الى وطنه . فعاد طهراق الى مشروعه فتحالف مع المصريين سرّاً على ان يعضدوه فيما يريد فعلم ملك اشور بذلك فقبض على الخائنين من رؤساء الاقاليم وقادهم اليه اسرى الا ان ذلك لم يمنع طهراق مما اراد فهجم على مصر واستولى على منف وابطل عبادة الصنم « ايس » منها . اما ملك اشور فجعل يقرب منه رؤساء الاقاليم المأسورين عنده استسلاماً لرضاهم وطلباً لمساعدتهم نخلع عليهم واكثر من اكرامهم وارسلهم الى مصر فاخذوا الوجه البحري ثم القبلي ثم ما زالت مصر يتناوبها الاشوريون والاثيوبيون حتى انتهى الامر باغضاء الاشوريين عن تملكها لما يقتضي لذلك من المشقة فدخلت في سلطة « نوان ميامون » ملك اثيوبيا بدون كبير مشقة وترى كيفية استيلائه مكتوبة بالهيروغليف نقشا على حجر وجد في اطلال مدينة « نبتة » بجبل برقل وهو محفوظ في المتحف المصري

العائلة السادسة والعشرون الصاوية

حكمت من ١٢٨٧ — ١١٤٩ ق م و ٦٦٥ — ٥٢٧ ق م وعدد ملوكها ٦

اولهم « بسامتيك الاول » استولى على الوجه البحري والقبلي حتى الشلال الاول وكان اجنبياً وايس من العصية الملوكية الا انه اقترن بابنة من العائلة الملوكية فاكسب حق التملك بواسطتها . فتولى الملك ومصر تن ضعفاً وقتوطاً لما قاسته من الحروب التي توالى عليها اعواماً بين الاشوريين والاثيوبيين فاخذ في احياء ربوعها واعادة رونقها اليها فبنى المعابد في منف ووجهات معبد فتاح وفتح فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبيرة التي كانوا يملفون فيها العجل « ايس » ورمم ما

كان متهدماً من معبد الكرنك . وبأشر جميع هذه الاعمال دفعة واحدة فاصبحت مصر كأنها معمل عظيم للبناء والترميم ونشط على الخصوص صناعة الحفر والنقش فبلغت اوجاً رفيعاً . ثم نظر الى مناعة البلاد فرآها محاطة بأعداء كثيرين اشد بأساً منها كالاثوريين والاثيوبيين فأخذ في تحصينها فبنى القلاع والحصون في مضائق طرق الشام من الشرق وفي ضواحي بركة المنزلة وفي مدينة دفنة بالقرب من « تسال » لمنع اغارة الاثوريين وحصن اصوان لدفع الاثيوبيين

على انه عمد بعد الاكتفاء بالدفاع الى الهجوم فهاجم الاثيوبيين وحاربهم فظهر عليهم ثم سار الى الشام فاستولى على فلسطين واخذ مدينة اشدود من الكنعانيين ثم عاد الى بلاده قائماً بما اوتيته من النصر . وفي ايامه كثر تردد الاجانب الى مصر وفيهم اليونان فكان يكرم مثواهم ويقطعهم من بلاده على سواحل بحر طينة ما يبتنون فيه معاقل ويوتاقيمون فيها

اما اليونان فاعجبته مصر وطاب لهم المقام فيها فاخذوا يتعلمون علومها وصنائعها واعجبته الديانة المصرية فاصطنعوا آلهتهم على مثال آلهة المصريين . وادخلوا احداثهم المدارس المصرية فنبغوا وقام بينهم فلاسفة لا تزال نستفيد من تعاليمهم الى هذا العهد . ومن هؤلاء الفلاسفة سولون وفيثاغورس وافلاطون وغيرهم وقد كان المصريون قبل ذلك العهد ينظرون الى اليونان نظراً للاحتقار ويحتنبون معاشرتهم وكانوا يبالغون جداً في وجوب الابتعاد عنهم . اما « بسامتيك » فكان يحبهم ويقربهم منه حتى جعل بطانته منهم والف ميمنة جيشه من رجالهم فاصبحت مصر في قبضة يدهم . فعظم ذلك على المصريين الى حد لم يكنهم معه البقاء في بلادهم ولم يجدوا سبيلاً لشفاء ما في نفوسهم الا بالمهاجرة^١ من مواطنهم ومغادرتها لوائك الزلاء فاجتمع منهم نحو ٢٤٠ ألفاً . وهموا بالجللاء الى اثيوبيا فتبعهم الملك واستعطفهم ان لا يفعلوا فأتوا فقال لهم ولما تغادرون نساءكم واولادكم قالوا اينما ذهبنا نجد نساء واولاداً وما زالوا حتى دخلوا اثيوبيا فاستقبلهم ملكها واكرم مثواهم وادخلهم في جيشه فتألفت منهم جيوش عرفت بالاسماخ اي حجاب ميسرة الملك وسماهم اليونان بعد ذلك « انوبولس » . اما « بسامتيك » فعرف بعد ذلك خطأه فأخذ في اصلاحه فسمى في حشد الجيوش ولكن هيهات ان تعود مصر الى رونقها وكان هو الجاني على نفسه

والتوفي تولى ابنه « نحاو الثاني » فاتم تنظيم الجيوش وكان ذا نفس ابية وهمة عالية فانشأ معامل بحرية لتشييد السفن الحربية على نية افتتاح سواحل البحر الاحمر

والمتوسط وجعل رؤساء تلك المعامل من اليونان . ولاح له لاتمام مشروعه ان يوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط فحفر ترعة امتدادها اربع مراحل وعرضها يسع سفينتين اولها مدينة بسطة بقرب الزقازيق وآخرها بركة التمساح لان البحر الاحمر كان على مقربة من تلك الجهة وكان قد سبقه الى هذا المشروع (حسب قول بعضهم) ملوك العائلة العشرين ففتحوا هذه الترعة لكنها سدت بعد ذلك بالرمال . وسيأتي امامك كلام مفصل عن تاريخ الوسائل التي اتخذت لايصال البحرين عند الكلام على ترعة السويس من هذا الكتاب

ثم سار نحاو بجيش لافتتاح فلسطين وافتتح معها اكثر البلاد في طريقه اليها وكانت تحت سلطة الاشوريين ولما عاد الى مصر كافأ من كان في عساكره من اليونان ثم ان ملك الاشوريين « نبوخذ نصر » ارسل ابنه بختنصر في جيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين فسار ولم يبلغ مقصوده حتى بلغه موت ابيه فعاد الى بابل مسرعاً بعد ان استرجع الشام . وحاول « نحاو الثاني » بعد ذلك الاستيلاء على بلاد الشام ثانية فلم يستطع

ثم توفي وخلفه ابنه « بسامتيك الثاني » وهذا لم تطل ايام حياته فخلفه « وح ابرع » وهو الذي استنجد به « صدقيا » ملك اليهود على محاربة بختنصر ملك بابل في عصر ارميا النبي فسارت جيوش مصر وما لبثت حتى عادت منهزمة فاستولى الاشوريون على اليهود فالتجأت اليهود الى مصر فاقطعهم ملكها ارضاً بقرب دفنة فانتشروا في مجدل ومنف وبعضهم سكن الصعيد

وبختنصر لما استولى على الشام طمع بمصر فجاءها مهاجماً وقتل ملكها واستولى عليها واقام فيها عاملاً من امرائه وعاد الى بلاده وساق معه جميع من كان في مصر من العملاء الا ان هيرودوس المؤرخ يقول خلاف ذلك

ثم حكم مصر الملك « اموزيس » وهذا كان في خشية من غارات الفرس على بلاده ولذلك كان يحاذرهم لقوتهم على انه لم ينج من غائلهم فسلبوه بعضاً من بلاده لكنه بالسياسة وحسن التدبير أمن من اغارتهم على كرسي ملكه فارتاحت مصر في ايامه فاقام فيها البنايات والمعابد والمسلات واتسعت التجارة ولا سيما مع اليونان فانهم كانوا من البارعين فيها فزاد عددهم في مصر حتى بلغ ٢٠٠ الف نفس فاعطاهم اموزيس ارضاً ابثتوا فيها بيوتاً لهم بالغوا في اتقان بنائها فاصبحت مدينة من اجل مدن مصر ثم جعلوا يحصنونها . وبعد يسير سنوا لانفسهم قانوناً مخصوصاً . وكانت تجرة مصر في ايديهم فاتسعت وابتاعها

اتسعت شهرة مصر فطمع الناس فيها فاتاها الطلاب من كل الجهات بين فلاسفة وتجار واجناد . ثم راي « اموزيس » من الحكمة ان يتحالف مع اثينا لعابها تقيده ضد ملك فارس ففعل وتم التحالف

وفي اثناء ذلك مات « قورش » ملك فارس فقام ابنه « كمين » مكانه وكانت مطامعه لا تزال قوية في مصر فأخذ منذ توليته الملك يسعى في هذا السبيل فاستكشف انسب طريق يؤدي الى وادي النيل برًا ولزيادة التأمين عقد مع القبائل البدوية التي في طريقه ليمدوه بالماء الذي يحتاج اليه رجاله وبناء على هذه المعاهدات سارت الجيوش الفارسية وما زالوا حتي نزلوا امام طينة فبلغهم ان « اموزيس » توفي وتولى مكانه « بسامتيك الثالث » وهذا جهز جيوشه وعساكره عند طينة لدفع الفرس فحصلت موقعة كبيرة وكان الفرس لشدة مكرهم قد جعلوا امام جيوشهم عدداً عظيماً من القطط والبزاة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين فذهب هؤلاء ولم يجسروا على رمي السهام مخافة ان تصيب تلك الحيوانات المقدسة فلم يكن لديهم الا الفرار ففروا الى منف . فارسل اليهم « كمين » رسلاً في مركب يطلب اليهم التسليم فخرج المصريون الى ذلك المركب وكسروه ارباً وقتلوا من كان فيه جميعاً فاستشاط كمين غضباً وانتقاماً فسار بجيشه الى منف وفتحها عنوة وقبض على بسامتيك وقيده واهانه واودعه السجن ومن معه وكان بسامتيك صبوراً فاحتمل كل ذلك ولم يبد تضجراً فعجب كمين لصبره ثم اتفق بينا كان بسامتيك جالساً في السجن مقيداً وكمين بجانبه اذ مر به احد ندمائه السالفين متردياً بشوب خلق فتأفف بسامتيك وصفح بيده على جبهته متأسفاً فقال له كمين ما بالاك تتأسف وتتأفف الان وقد احتملت منا اهانة عظيمة ولم تبد في انائها اسفاً . فقال انما اتأسف على حالة هذا الرجل فانه كان في عز وقد اصبحت كما ترى والرجل اذا حلت به المصائب وتجرد من ذات يده واهين شرفه يحق عليه الاسف فتأثر كمين من ذلك واسرع الى حل قيوده واعاد اليه شرفه الا انه رآه بعد ذلك يسعى ضده فامر بقتله فانتهت هذه العائلة وابتدأت العائلة السابعة والعشرون

العائلة السابعة والعشرون

الدولة الفارسية الاولى

حكمت من سنة ١١٤٩ — ١٠٢٨ ق م او من ٥٢٧ — ٤٠٦ ق م وعدد ملوكها ٧ اولهم « كمين » المتقدم ذكره فهذا كان يراعي ميل الوطنيين فابغاهم على ما كانوا يعبدون واعاد الى اعيانهم امتيازاتهم وحقوقهم وتلقى اسرارهم اللاهوتية ليكون له الملم

فيها واذاف الى اسمه القاباً فرعونية وكان لفتح مصر عظيم هبة وتأثير عند الامم المجاورة فسمعوا جميعاً الى كمين بالهدايا والجزية وجعل كمين مصر حصناً يستعين به في فتح افريقيا . ثم جند اقرطاجنة فلم يفز بها فعاد وجند الى واحات سيوى فلم يرجع من رجاله مخبر ثم طمع في اثيوبيا وكانت اذ ذاك على جانب من المنعة والثروة فارسل اليها جواسيس معهم الهدايا فساروا وقدموها الى ملك اثيوبيا وكان فطناً نبيهاً فعرف مقاصدهم لسكرته اظهر استحساناً لهديتهم . ثم قال لهم وفي يده قوس كبيرة « انظروا الى هذه القوس » ورمى منها سهماً وقال « خذوا هذه القوس الى ملككم كمين واخبروه ان الانسب ان ياتي هو بمفرده فقط لفصل ما تحدث به نفسه حقناً لدم العباد وهذه القوس قولوا له اني اوترتها وحدي فاذا استطاع ذلك جاز له شيء مما يكنه ضميره والا فليحمد الالهة لاغضائنا عن بلاده » فلما باع كمين ذلك اخذت به سورة الغضب فجرد جيشه وطلب اثيوبياً من اقرب الطرق فسار في صحراء كروسكو وهو لا يدري مساقفها فعطش جيشه وجاع حتى اكل بعضهم بعضاً فاضطر الى العود وفي نفسه من الغيظ ما كاد يذنيه فجاء منف وكان اهلها في احتفال سنوي لاحد معبوداتهم فظنهم فرحين لخبيثته فامر بقتل كل الكهنة وشق صوف العجل « ايس » والقاه للكلاب تاكله ثم سخر بمعبوداتهم فجعل احدها فتاح على هيئة قرم زميم الخلق ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة وزاد فيجوره حتى قتل اخته وغيرها بمن هم بريئون الساحة وهو مشهور بالقسوة والعسف . وبقي على كرسي الملك ثلاث سنوات ثم قتله شعبه وتولى بعده « دارا » فاخذ يسعى في وسيلة يستعجب بهارضى المصريين فاتفق موت العجل ايس في اول حكمه فجاء بنفسه الى المعبد واظهر تأسفه الشديد لذلك ووعد بمبلغ وافر لمن ياتي بعجل اخر مثله فاحبه المصريون واتسعت مملكة الفرس في ايامه كثيراً فكان تحتها ٣١ ولاية وقبل ان يبارح مصر زار معبد فتاح بنفسه واراد ان يجعل تمثاله بجانب تمثال رعمسيس الثاني فمنعته الكهنة بحجة انه لم يأت بعد على ما اتمه رعمسيس الأكبر فقال لهم دارا « اني ارجو ان اسوي رعمسيس الأكبر ان طال عمري بقدر عمره » وأذن دارا لقول الكهنة بكل احترام

ومن مآثره انه مهد سبل التجارة فاتم طريق التواصل بين البحرين كما سترى عند الكلام على ترعة السويس وفتح طريق فقط للمواصلات براً وطريق اسبوط الممتدة الى العرابة المدفونة ومنها الى اصوان واكثر من العساكر للمحافظة على الواحات الكبرى . وكان الفرس القاطنون في مصر ميجوساً متعصبين فصرح لهم باتباع دينهم

على ان لا يستخدموا الكتابة الهيروغليفية على الاطلاق
ثم نار اليونان في اسيا فصار بجيش كبير لاقاعهم فاغتم المصريون فرصة غيابه
وشقوا عصا الطاعة وانزلوا ولاية « دارا » وعهدوا الحكم الى رجل يدعى « خيش »
من سلالة « بسامتيك » فعلم دارا بذلك فهم اليه لكنه توفي قبل اتمام مشروعه فأقيم
ابنه « شيارش » مكانه فجاء مصر واسترجعها عنوة الا انه كان فاجر الهمة فاطلق تدمير
الاحكام لولاية يعيشون بها كيف شاؤا وهكذا كان شأنه في سائر ولاياته فلم تبض مدة
من الزمن حتى تجرد من سائر تلك الايالات وقتله من هم حوله وتولى الملك بعده
الملك « ارتحشارشا » فاحب المصريون الخروج من طاعته فاستنجدوا عليه اليونان
فانجدوهم فخصات حروب طويلة انتهت بانهمزام المصريين وثبوت قدم الفرس
وفي سنة ٤٢٥ ق م توفي « ارتحشارشا » وخلفه الملك « شيارش الثاني » ثم
« سوغديالوس » ثم « دارا الثاني » وبه انتهت هذه العائلة وعادت مصر للمصريين

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٠٢٨ — ١٠٢١ ق م او من ٤٠٦ — ٣٩٩ ق م
ليس لهذه العائلة الاملك واحد يدعى « اميرتيوس » ولاه المصريون عند تخلصهم
من نير الفرس وحكم مدة سبع سنين كلها اصلاح وترميم

العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية

حكمت من سنة ١٠٢١ — ١٠٠٠ ق م او من سنة ٣٩٩ — ٣٧٨ ق م وعدد ملوكها ٤
وليس في تاريخها شي مهم سوى ان الفرس كانوا يهددونهم وقدموا يريدون
الاستيلاء عليها ولم يظفروا

العائلة الثلاثون السمنودية

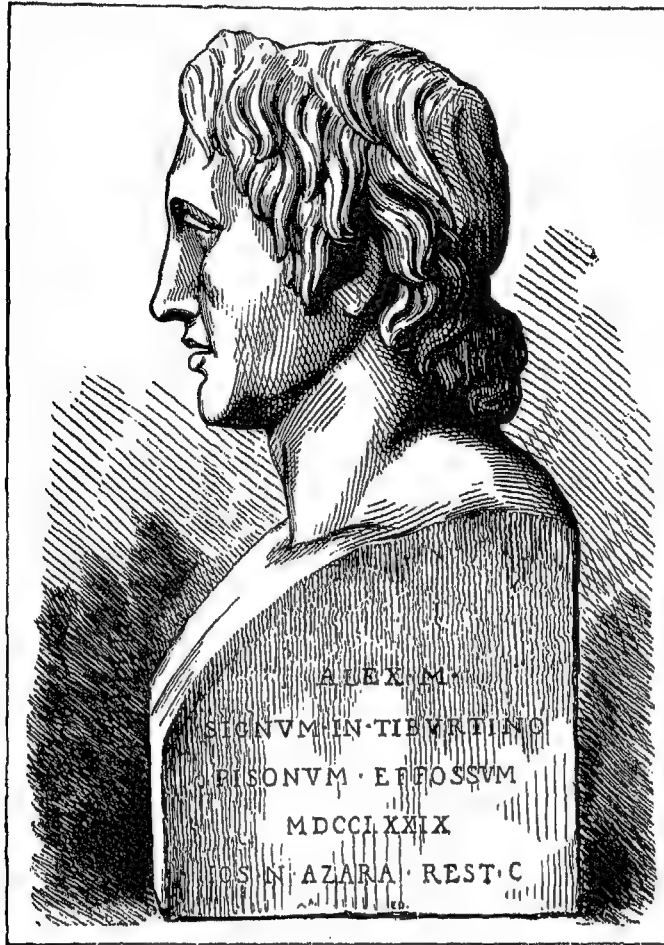
حكمت من سنة ١٠٠٠ — ٩٦٢ ق م او من ٣٧٨ — ٣٤٠ ق م وعدد ملوكها ٣
قضوا مدات حكمهم وهم بين دفاع وحذر من استيلاء الفرس وحصل بينهما عدة
وقائع كانت قيادة الجيوش المصرية فيها بيد قواد من اليونان مجريين ولم يفرز الفرس
الا في الواقعة الاخيرة . وكانت حكومة مصر بيد « نكتانييس » فانهزم الى النوبة وهو
اخر من حكم مصر من المصريين الاصليين لانها خرجت من يده الى الفرس ومنهم
الى اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك كما سترى

العائلة الحادية والثلاثون

الدولة الفارسية الثانية

حكمت من ٩٦٢ — ٩٥٤ ق م او من ٣٤٠ — ٣٣٣ ق م وعدد ملوكها ٣

اولهم الملك « اوخوس » الملقب « بارتخارشا الثالث » والذي نزع مصر من يد المصريين . مات مسموماً بخاء ابنه « اريسيس » وحكم سنتين ثم مات وخلفه احد اقاربه المدعو الملك « دارا الثالث » وكان يدعى قبل توليته « كودومانوس » وكان



ش ١٥ — اسكندر المقدوني

معاصراً الاسكندر المكدوني الشهير . وفي ايامه جعلت دولة الفرس تتقهقر
ويدا يحجم اليونان بالاشراق فاخذ الاسكندر في فتوحاته وتوسيع مملكة ابيه ففتح
الهند وفارس واستولى على مصر بعد موقعة انتتت بانهمزام الفرس ودارا الثالث .هم
وقتل كثير من رجاله ثم قتله احد نوابه فانقل بعده حكم مصر الى اليونان .

العائلة الثانية والثلاثون

الدولة اليونانية

حكمت من ٩٥٤ — ٩٤٥ ق هـ او من ٣٣٢ — ٣٢٣ ق م

اول ملوكها وآخرهم « اسكندر المكدوني » . تغلب هذا الفاتح العظيم على الفرس
واخرجهم من مصر ودخلها عنوة فمر ببقعة من الارض على شاطئ البحر المتوسط
من حدود مصر فاستحسن موقعها لانه رآها عبارة عن اسان من اليابسة داخل في
البحر وعلى احد جانبيه بحيرة مريوط المشهورة فلاح له ان يبني فيها مدينة فبناها على
رسم مخصوص رسمه بنفسه وعهد اتمام العمل الى المهندس « نيوكراتس » فلما تم
بناء المدينة دعاها الاسكندرية ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى هذا العهد . وفي
٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل في بابل وسنه ٣٣ سنة
فنقلت جثته الى الاسكندرية ودفنت فيها

العائلة الثالثة والثلاثون

البطالة

حكمت من ٩٤٥ — ٦٥٢ ق هـ او من ٣٢٣ — ٣٠ ق م

بطليموس الاول سوتر حكم ٣٢٣ — ٢٨٥ ق م

لما توفي الاسكندر جاء بطليموس الاول واسمه سوتر من بابل ووضع يده على مصر
وجعل يسعى في اكتساب ثقة اهلها ثم ارسل احد قواده المدعو « بيكانور » في
جيش لافتحاح سوريا فسار وحارب وفاز ولم تمض بضعة سنين حتى ضم الى مصر سوريا
وقبرص وفينيقية
ثم شرع في بناء المعابد في الاسكندرية واقام على جزيرة فرعون التي يصلها

بالاسكندرية برزخ صغير برجاً يباغ علوه الف ذراع على قمته نور يستضيء به القادمون
بحراً وقد هدم هذا البرج الآن ولم يبق له اثر . ومن مآثر هذا الملك مدرسة
الاسكندرية الشهيرة فانه جمع اليها العلماء والفلاسفة من اليونان وسائر بلاد العلم والصناعة
في ذلك العهد وكان يكرم وفادتهم ويضعهم في مكانهم من الهيئة الاجتماعية وانشأ
مكتبة نفيسة طار صيتها في الآفاق

بطليموس الثاني فيلادلفوس ٢٨٥ - ٢٤٧ ق م

وفي السنة التاسعة والثلاثين من حكم سوترعهد الملك لابنه البكر « فيلادلفوس »
واجلسه على كرسي الملك في حياته سنة ٢٨٥ قبل المسيح ولقبه بطليموس الثاني
ثم توفي سنة ٢٨٣ قبل المسيح فاهتم بطليموس الثاني في توطيد العلاقات مع الدول



ش ١٦ — فلبي اسكندري يرصد الافلاك

المعاصرة ولا سيما دولة الروم (الرومانيين) ولم يكن بينهما سابق مخبرات مطلقاً وليتها
لم تحصل لانها كانت آخر الامر داعياً لاستيلاء الروم على مصر . ثم عكف هذا الملك
على تنشيط العلم وذويه فزاد في مكتبة ابيه فبلغت الاسكندرية في ايامه مبلغاً عظيماً من
العلم والثروة ولم تعد ترى مثله بعد ذلك الحين . فقد كانت محور التجارة ومحط رحال

العلماء والفلاسفة . وفي أيامه أيضاً ترجمت التوراة الترجمة السبعينية المشهورة ومن مآثره خرائب أنس الوجود عند شلال اصوان فانه هو الذي شرع في بناء الهيكل الكبير الذي تشاهد اطلاله هناك الى هذه الغاية على جزيرة فيلوي تجاه اصوان ويدعوها العامة ايضاً جزيرة البربة وهي من الآثار المشهورة وقد اشتغل في اتمام بناء الهيكل كل من جاء بعد فيلادلفوس من البطالسة

بطليموس الثالث افرجيت ٢٤٧ - ٢٢٢ ق م

وكانت مدة حكم فيلادلفوس ٣٨ سنة ثم توفي وخلفه ابنه « افرجيت الاول » ولقب ببطليموس الثالث وكان محباً للفتوح فجرد جيوشه الى اسيا مقتدياً برعمسيس الثاني فلم يكن حظها باقل من حظها لانه دوح جميع البلاد التي على الفرات فبابل فالفرس فما وراءها وضرب الجزية عايتها كلها واعظم ما سراً به المصريين انه استرجع من الفرس جميع ما كان منقولاً الى بلادهم من تماثيل الآلهة المصرية بامر كمبيز . ثم غزا اثيوبيا حتى « ابريم »

بطليموس الرابع فيلوباتر ٢٢٢ - ٢٠٥ ق م

وفي سنة ٢٢٢ قبل المسيح توفي « افرجيت الاول » بعد ان حكم ٢٥ سنة تاركاً الملك لابنه « فيلوباتر » فتولى الاحكام حال وفاة ابيه واتق ببطليموس الرابع الا ان المصريين اتهموه بقتل ابيه فكرهوه وكان فظاً عالياً فزادهم كرهاً . وبعد جلوسه بيسير سار في جيش عظيم لمحاربة انطيوخس صاحب سوريا فخاربه فطاب الصالح بان يرجع له سوريا وفينيقية فقبل فيلوباتر وبقي هناك بضعة اشهر ثم عاد الى الاسكندرية . كل ذلك واخته « ارسينوا » معه لم تفارقه يوماً واحداً . فاصبحت الاسكندرية بعد ذلك في رغد ورخاء فعكف فيلوباتر على الملهذات فمسي واجباته المقدسة نحو البلاد فكثر اللغظ بين الاهلين وتكررت التظلمات وليس من يجيب

وفي ٩ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٢١٢ ق م او سنة ٨٣٤ قبل الهجرة وضعت ارسينوا غلاماً ولم يكن من واري الملك غيره فما كان من فيلوباتر الا انه قتل ارسينوا بدسيسة بعض ذويه . وفي ٢٩ مارس (آذار) سنة ٢٠٥ قبل المسيح مات فيلوباتر واخفى اصحابه خبره حيناً ريثما يتمكنون من سلب امواله . ثم شاع خبره فاقاموا عوضاً عنه ابنه الوحيد « ابيفان » وهو بطليموس الخامس ولم يكن له من العمر الا خمس سنوات فاقم عليه وصي من سرة الدولة وفيلوباتر هو المؤسس الاول لهيكل ادفو (فيما بين الاقصر واصوان) وقد اتم بناءه

من جاء بعده من البطالسة . والهيكل المذكور من اوضح الهياكل المصرية لانه باق برمته الا ان الرمال قد غطت جزء السفلي فترى فيه الاعمدة والرواقات والابواب مكشوفة كشفاً تاماً

فلما رأى الطيوخس حالة مصر من الارتباك بعد وفاة فيلوطر عاد الى ما كان شارعاً فيه ففتح سوريا وفينيقية عنوة وهم إلى مصر فعرض له شاغل أكثر اهمية فعقد مع نواب مصر صلحاً على ان يعطي ابنه كليوبيطرا زوجة ابطيوس الخامس وان يترك له مقابل ذلك البلاد التي فتحها فقبلوا

بطليموس الخامس ايفان ٢٠٥ — ١٨١ ق م

وفي ٢٧ مارس سنة ٢٠٥ قبل المسيح أجلس « ايفان » على كرسي الملك وسلم زمام الاحكام فكتب الكهنة شيئاً عن ذلك نقشاً على حجارة في ثلاث لغات كانت متعارفة في ذلك العهد وهي الهيروغليفية (القلم المصري القديم) والديموطيقية واليونانية وقد وجد احد هذه الحجارة في رشيد وبواسطته توصلوا الى حل رموز القلم المصري القديم كما مرّ بك . وفي سنة ١٩٢ زفت « كليوبيطرا » ابنة « انطيوخس » الى ايفان بطليموس الخامس . وفي نحو السنة الثامنة عشرة من حكمه زادت التشكيكات والتظلمات لسوء تدبيره وضعفه وما زال الاهلون يزيدون عليه حنقاً وحقداً حتى يتسوا من الاصلاح فاماتوه مسموماً في سنة ١٨١ قبل المسيح

بطليموس السادس فيلومتر ١٨١ — ١٤٦ ق م

فتولى مكانه ابنه « فيلومتر » وهو بطليموس السادس وله من العمر خمس سنوات فحكم تحت رعاية امه كليوبيطرا فاقامت له اوصياء من رجال دولته العقلاء . وفي السنة الحادية عشرة من حكمه انتشبت الحرب بين مصر وسوريا وما زالت بينهما سجالات حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم فيلومتر . وسار السوريون في مصر برّاً الى منف اما الاسكندريون فلما علموا بسقوط منف واسر ملكهم اقاموا عوضاً عنه اخاه افرجيت الثاني وبعد اربع سنوات أخرج السوريون من مصر بمساعدة الروم وعادت مصر لحكم البطالسة فعاد فيلومتر الى منصبه

بطليموس السابع افرجيت الثاني ١٤٦ — ١١٧ ق م

وفي سنة ٧٦٨ قبل الهجرة او ١٤٦ قبل المسيح توفي فيلومتر بعد ان حكم ٣٥ سنة فاقم على مصر « افرجيت الثاني » وهو بطليموس السابع وقد كان الحق في

الحكم لابن فيلومتر الا انه كان صغيراً فقتله عمه وتزوج بامه فكان الوريث الوحيد ولم يكن افرجيت الثاني حسن السياسة فكان يقتل ويسجن ويستبد في احكامه بغير وجه حق فكرهته الرعية وصاروا يتوقعون له داهية وبالغوا في اضطهاده الى حد انه لم يعد يمكنه البقاء بينهم ففر من مصر ثم عاد اليها وما زال حلاً ثقيلاً على عاتق رعيته الى آخر ايام حكمه فاهتدى الى الصراط المستقيم واخذ في تنشيط العلم والصناعة حتى انه كان يمارسهما بنفسه والف نحواً من اربعة وعشرين كتاباً معظمها في علم الحيوان

بطليموس الثامن والتاسع سوتر الثاني واسكندر ١١٧ - ٨٢ ق م

وفي سنة ٢٣٩ قبل الهجرة او سنة ١١٧ قبل المسيح توفي افرجيت الثاني بعد ان حكم ٢٩ سنة فاستدعت كليوبيطرا اولادها وكان البكر في قبرص فأتى مصر فولته الملك ودعته « سوتر الثاني » ويسميه العرب « شوطار » فهو بطليموس الثامن ثم سعت في ابعاده لغرض في نفسها فاشاعت انه مضمّر قتلها فثارت الرعية عليه ففر الى قبرص ثم الى سوريا فاستدعت اخاه « اسكندر » وولته الملك فكان بطليموس التاسع يخاف على نفسه ايضاً ففضل الاعتزال على اخطار الملك ففر الى قبرص وكان اخوه « سوتر الثاني » في سوريا يستعد للهجوم على مصر فلما رأت كليوبيطرا قرب مجيئ الجيوش لمحاربتها اخطرت ابنها اسكندر فعاد من قبرص وبعد يسير عادت الامور الى مجاريها اما كليوبيطرا فكانت رغم كل عاطفة والدية تحاول التخلص من ابنها هذا . اما هو فعلم بما في نفسها وسبقها الى ذلك فذهب بحياتها وفر من مصر فاستدعى اهالي الاسكندرية سوتر الثاني من سوريا ليستلم زمام الاحكام فقدم فرحب به المصريون الا اهالي طيبة لكنهم ما لبثوا ان اذعنوا وفي ايام سوتر هذا كانت مملكة الروم آخذة في الاتساع ودولتهم بالقوة والثروة ثم مات سنة ٨٢ قبل المسيح بعد ان حكم في المرة الاولى عشر سنوات وفي الثانية سبع سنوات ونصف

بطليموس العاشر اسكندر الثاني ٨٢ - ٨٠ ق م

فتولى مكانه ابنه « اسكندر الثاني » او بطليموس العاشر ولم يحدث في ايامه ما يستحق الذكر الا ان دولة الروم كانت قد استولت على سوريا وسيرينا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محصورة لا تستطيع حراكاً وكان اسكندر هذا ساعياً جهده في ارضاء الرعية لكنهم لم يكونوا يحبونه بل كانوا يرون فيه العسف والظلم

وما زالوا عليه حتى ابعده من الاسكندرية فسار الى صور فاعتراه مرض اشتد عليه حتى ذهب بحياته

بطليموس الحادي عشر اوليتس ٨٠-٦٢ ق م

ولم يبق من العائلة المالكية من يحكم بعد اسكندر فانتخب الاسكندريون رجلاً منهم يدعى « ديونيسيوس » ولقبوه « باوليتس » لانه كان مغرمًا بالفلوت (الآلة الموسيقية المعروفة) ولم يكن يهتم امر الملك على ان معز كانت بغاية الاحتياج الى الحكمة والتدبير الا كان يهددها من المخاطر فتار الاهالي عليه في طاب الاصلاح وهو غير قادر عايه ولم يكن في وسعه اخاد الثورة لان الجيوش الذين هم حامية البلاد كانوا في جملة الثائرين فترك مصر وفر الى رومية . وكان له ابنتان الواحدة تدعى « كليوبيطرا » والاخرى « برنيس » وبعد بضعة اشهر ماتت الاولى (كليوبيطرا) فتولت الثانية مدة سنتين فعلم اوليتس بذلك فعاد الى مصر وقتل ابنته قصاصاً لها على اختلاسها الملك

آخر البطالسة كليوبيطرا ٥٢ - ٣٠ ق م

وبعد يسير توفي اوليتس فتولت ابنة له ثالثة اسمها ايضاً كليوبيطرا وكانت بالغة رشدها ولولا ذلك لتولى اخوها ديونيسيوس الثاني وقد كان لحرسه ان يتولى مكانه الا ان كليوبيطرا جاست على كرسي الملك حالاً ودعت نفسها ملكة وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وهي آخر من حكم من الدولة اليونانية في القطر المصري . وكان لهذه الملكة مطاعم في السيادة وقد ماتت رغم مشقات كثيرة كانت تحول بينها وبين ماتريدفي اول الامر نازعها احد اخوتها ووافقه الاهلون فاخرجوها من مصر فسارت الى سوريا واستجذبت بجيوش الروم فساعدوها يوليوس قيصر القائد الروماني الشهير واعادها الملك واغرق اخاها في النيل فتولت وتزوجت اخاها الآخر . ثم سارت برفقة قيصر الى رومية وبقيت عنده الى يوم قتله سنة ٣٠ ق م ولما جاء يوليوس قيصر الاسكندرية زار قبر الاسكندر وكشف عن جثته ووضع عليها اكليلاً كما ترى في الشكل ١٧ وفي سنة ٤٣ قبل المسيح قتلت كليوبيطرا اخاها بالسهم فخلا لها الجو ثم اتفق ان « انطونيوس واكتافيوس » القائدين الرومانيين كانا في حرب مع « بروتس » فامتد هذا الاخير بعمارة بحرية وكانت قبل ذلك قد ولدت ولداً دعتاه قيصر ونسبة الى قيصر والده فكان هو الملك على مصر رسمياً



ش ١٧ — يوليوس قيصر امام جثة الاسكندر

فاما باغ انطونيوس وهو في طرسوس ان كليوبيطرا انجذبت بروثس عدوه بالمال والرجال خلافاً للمعاهدة استدعاها الى طرسوس المرافعة فركبت زورقاً جميلاً مزخرفاً جؤجؤه من ذهب ومجاذيفه من فضة تخرج عند التجديف بها دوتاً موسيقياً مطرباً وكانت كليوبيطرا من اجل النساء فلبست افخر ما لديها من اللباس الثمين وجعلت حولها الجواري في احسن ما يكون من الترتيب والنظام ونشرت الارواح العطرية في ذلك الزورق . فلما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم يد يخالف لها امراً فاصدر الحكم كما شاءت وشاء الغرام فعادت الى مصر غائمة

و بعد يسير زارها انطونيوس في الاسكندرية فاكرمت مثواه فدعاها ملكة الملوك يودعى ابنها قيصر ون ملك الملوك بدعوى انه ابن قيصر بحسب الشرع وكان ذلك سنة ٣٦ قبل المسيح فزادت كليوبيطرا عجباً على عجب ولم تعد تكتفي بلقب الملك

فدعوها ايزيس الالهة الجديدة . واما انطونيوس فانساه الغرام كل واجباته ولم يعد يعلم اهو نائب القيصر ام هو ملك مصر لانه اصبحت اسيراً لكليوباترا وكسب اسمه بجانب اسمها

والا بلغ ذلك المشيخة الرومانية اشهرت الحرب على ملكة مصر سنة ٣٢ ق م فبعثت اوكتافيوس بجيش وجعات نقطة المحاربة في « فارنتو » و « برنديزي » فلم يقبل انطونيوس بذلك وطالب ان تكون الحرب في فرساليا ثم أعد جيشه وسار في خمسمائة مركب وسارت معه كليوباترا في ستين مركباً فالتقى الجيشان في اكتيوم باليونان وابت كليوباترا الا ان تكون الحرب بحراً

ثم انها خشيت ان تعود العاقبة على جيش انطونيوس فانسحبت بمراكبها شيئاً فشيئاً وكان انطونيوس مهتماً بأعداد الممهمات الحربية غير مبال بالموت في جانب مرضاة سابلة ليه ثم التفت الى مراكبها فاذا هي بعيدة تحترق عباب البحر فاقتفى اثرها تاركاً رجاله يحاربون ولا يدرون دقره وما زال حتى ادركها وسار بها الى مصر

اما الحرب فانتهت بانكسار جيوش انطونيوس

ثم رأت كليوباترا ان محبها انطونيوس لا يقوى على حمايتها فالتجأت الى الجانب الاقوى فارسلت صولجانها سرّاً الى اوكتافيوس وطلبت مساعدته فوعدها بما تريد بشرط ان تخلص من انطونيوس فعمدت الى الحيلة فاخفت نفسها وكل امتعتها واشاعت انها ماتت فلما علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها . ثم بلغته خيانتها فقتل نفسه

اما اوكتافيوس فاستلم زمام الاسكندرية ونوى بكليوباترا سوءاً فاوجست هي خيفة منه وجعات تستجلبه بما استجلبت غيره من قبله فلم تفز وفي آخر الامر قبض عليها ففضلت الانتحار على ان يقتلها غيرها فقربت ثعباناً ساماً الى صدرها فلدغها فماتت في ١٥ اغسطس (آب) سنة ٣٠ قبل المسيح وقال آخرون في كيفية موتها غير ذلك والله اعلم

وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وكان ذلك اليوم آخر حكم اليونان بمصر واول حكم الروم فيها وهي :

(انظر الصورة في الصفحة القابلة)



ش ١٨ — كليوباترا والتعبان يلدغها

العائلة الرابعة والثلاثون

الدولة الرومانية

حكمت من ٦٥٢ — ٢٤١ ق هـ او من ٣٠ ق م — ٣٨١ ب م

لما ماتت كليوباترا على ما تقدم دخلت مصر في حوزة دولة الروم وصارت ولاية من ولاياتهم يتولاها وال منهم يحكم بمقتضى شرائعهم وهذه الدولة هي آخر دول الدور الجاهلي وقد توالى على مصر في حوزة دولة الروم عدة ولاة ليس في سرد اخبارهم ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في العالم ومجيء بعض نصرائها الى مصر وما لاقوه فيها من الاضطهادات العنيفة واشهر تلك الاضطهادات اضطهاد ديوقليطيانس فانه بالغ في مطاردة المسيحيين وقتل منهم جمعا غفيرا

بين كهنة وعامة . ومن تولية هذا الملك (في ١٣ يونيو (حزيران) سنة ٢٨٤ ب م)
يبتدىء التاريخ القبطي المعروف بتاريخ الشهداء وهو المعول عليه عند الطائفة القبطية
الى هذا العهد . وفي سنة ٣٠٦ ب م جعل قسطنطين امبراطور الروم سرير ملكه في
مدينة بيزانس (القسطنطينية) فالتحطت سطوة مصر
وفي سنة ٢٤١ ق هـ او ٣٨١ ب م نهى الامبراطور « ثيودوسيوس » المصريين



ش ١٩ — ثيودوسيوس الأكبر

عن عبادة الأصنام وامرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لامره هذا اسرع في هدم
الهياكل وتنزيل الأنصاب وإبطال التقاليد التي كان يعتبرها المصريون من ضروريات
الدين وكل ذلك بمساعدة بطريرك الاسكندرية ثيوفيلوس . وهنا ينتهي الدور الجاهلي
ويبتدىء الدور المسيحي

الدور المسيحي

من سنة ٢٤١ ق هـ — ١٨ ب هـ او من ٣٨١ — ٦٤٠ ب م

لما توفي «ثيودوسيوس» سنة ٣٩٥ ب م قام ولده «هونوريوس» و«اركاديوس» واقسما المملكة الرومانية بينهما فجعلاهما مملكتين شرقية وغربية وجعلاهما عاصمة الشرقية بيزانس وعاصمة الغربية رومية وكان كلاهما حاكين معاً في وقت واحد اما مصر فكانت تابعة للملكة الشرقية

وكان هذا الانقسام رمزاً عن قرب انحلال هذه الدولة لان الامبراطورين ما فتئا يتناظران والانقسامات الدينية تزيد كل يوم والحرب قائمة سجالاً بين لاهوتي الاسكندرية . وكان لكل من الفريقين احزاب حجة وكثيراً ما اشتد الخصام بين هذه الاحزاب في الاسكندرية قال الى اشهار السلاح واهراق الدماء وكان الامبراطوران عبثاً يحاولان التوفيق بينهما

وكان النصراني اذ ذاك قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم احدهما اهل الدولة وكلهم روم ورايهم وديانتهم باجمعهم الديانة الملكية وعدتهم تزيد على ثلثائة الف رومي

والقسم الآخر عامة اهل مصر ويقال لهم القبط والسابهم مختلطة لا يكاد يتبين منها القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره وكلهم يعاقبة فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة والاساقفة والقسوس واهل الفلاحة والزراع واهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة ما يمنع تزواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً وعددهم عدة ملايين وهم بالحقيقة اهل مصر اعلاها واسفلها وفي سنة ٦١٠ للميلاد تولى عرش القسطنطينية الامبراطور هرقل والمملكة لا تزال آخذة بالتقهقر وكانت طائفة القبط قد ظهرت على سواها واتضح انها ستكون المؤسسة للديانة المسيحية في مصر . على ان دولة الروم كانت ترغب في جعل المصريين على مذهبها في الدين لتثبت لها مصر لكن اولئك لم يغفلوا عن هذا فثبتوا على مبادئهم وحفظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية فترجوا جميع تعاليمها اليها ولا

يخفى ان ذلك جمع كلمتهم وشده عرى اتحادهم ففقوا وثار في خاطرهم امر الاستقلال وقد كان في وسعهم الحصول عليه لو طابوه
ومما كان زاد الاقباط ثبوتاً ضد الروم انهم كانوا يشاهدون قرب سقوط هذه الدولة وما كان يهددها من جميع الجهات فالفرس هددوا حدودها الشرقية والمغاربة كانوا ينتظرون اول فرصة لرفع النير عنهم وهكذا غيرهما من الولايات . الا ان التقادير كانت تعد هذه البلاد لامة حديثة نشأت في شبه جزيرة العرب نعي الامة الاسلامية



ش ٢٠ — مرقل امپراطور الروم وجنوده

وكانت شبه جزيرة العرب في ذلك العهد جزءاً من مملكة الروم كسائر بلاد سوريا وفلسطين ومصر الا انهم لم يكونوا يسكنون فيها ولا يعتنون بها على انهم لم يأخذوها بالحرب وانما كان تسلطهم عليها مجرد عظمتهم ونفوذهم ولذلك لم يكن فيها حاميات من جنودهم . وهنا ينتهي الدور المسيحي ويبتدىء الدور الاسلامي وهو تاريخ مصر الحديث

تاريخ مصر الحديث

فصل في

مصادر تاريخ مصر الحديث

لم اربين المؤرخين الكثيرين الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث من جاء على كتابة وافية تتعاقب فيها الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة ذلك بعموم الدولة الاسلامية وسائر الدول المعاصرة . فبين مؤرخي المشرق ولا سيما العرب من اسهب في الكلام عن بعض اقسام مصر وعني بتاريخها على انفراد . ومنهم من انفرد بتاريخ بعض دول مصر دون البعض الاخر ومنهم من اقتصر على تراجيم بعض مشاهير حكام مصر او علمائها او ادبائها ومنهم من وصف بعض وقائعها وحروبها بقطع النظر عن تعاقب السنين ومنهم من نظر الى تناسق الحوادث مع نسبتها لتعاقب السنين لكنه اوجز كثيراً فلم يأت بالفائدة المطلوبة ومنهم من جاء على تاريخ مصر عرضاً في اثناء تاريخ الدولة الاسلامية عموماً . فكان قوله متفرقاً فضلاً عن كونه موجزاً

اما مؤرخو الغرب (الافرنج) ولا سيما المتأخرون فقد اتحدوا في كتاباتهم عن مصر اسلوباً اقرب الى المقصود من قبيل تناسق الحوادث وتعاقبها بتعاقب السنين مع بعض الاسهاب ولكنهم في الغالب لا يضبطون الاعلام لان حروف لغاتهم لا تساعدهم على ذلك وقد يغفلون المخاطبات البليغة التي كان يكتب بها الخلفاء والامراء والخطب الفصيحة التي كانوا يلقونها في مجالسهم او على جنودهم او اذا لم يغفلوها فانهم يضعونها في لغة قومهم فتحسرها ولاغتها ورونقها العربي فاذا اريد ترجمتها الى العربية لا يتفق ان تأتي مثل اصلها تماماً

فرايت ان لكل من الطرفين حسنات فجمعت بينها ملتزماً صحة النقل واتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام التاريخية مع مراعاة الممكنات واغفال ما هو مقول بغير قياس ومناقض لاحكام العقل بين مبالغات واختلافات وتقاليد

فزادت المؤلفات التي اخذت عنها كتابي على بضع عشرات فضلاً عن القواميس الكبيرة
وهناك جدولاً فيه اسماء اشهر المؤلفات العربية والافرنجية التي استعنت بها في
تأليف هذا التاريخ:

الكتب العربية

اسم المؤلف	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم الكتاب
الجبرتي	عجائب الآثار	المقريري	الخطط
ابن اياس	بدائع الزهور	ابن الاثير	الكامل
علي باشا مبارك	خطط مصر	شهاب الدين المقدسي	الروضتين
السخاوي	التبر المسبوك	ابن العميد	تاريخ المسلمين
ابراهيم الطيب	تاريخ الدولة العثمانية	ابن خلدون	ديوان العبر
سليم خليل النقاش	مصر للمصريين	ابن خلكان	وفيات الاعيان
نعوم بك شقير	تاريخ السودان	ابن شاكر	فوات الوفيات
ترجمة بستر	هيرودوتس	الاسحاقي	اخبار الأول
يعقوب نخله	الامة القبطية	عبد اللطيف البغدادي	الافادة والاعتبار
احمد الرهبان	الخريدة النفيسة	ابو الحاسن	النجوم الزاهرة
		المسعودي	مروج الذهب

الكتب الافرنجية

فرنساوي	مونروند	تاريخ الحروب الصليبية
»	مارسل	» مصر الحديث
»	اميديه ريم	» الحملة الفرنسية
»	بوه	» محمد علي
»	مونرو	الانبياء الثلاثة (عراقي وغردون والمهدي)
»	دافاسيه دي بوتته	المشرق ومصر
»	كلوت بك	نظرة في مصر
»	نروتوسوس بك	تاريخ الدوائر الصحية المصرية
انكليزي	مري	الآثار المصرية

تاريخ مصر القديم	شارب	انكليزي
السيف والنار في السودان	سلاطين باشا	»
الحوادث المصرية الاخيرة	شارلس رويل	»
تاريخ الممالك الى وفاة محمد علي	باتون	»
المملكة العثمانية	جمعية الرسائل الدينية	»
الانسيكلوبيديا البريطانية وغيرها من القواميس الشهيرة		

جغرافية مصر الحديثة

حدود مصر واقسامها

كانت المملكة المصرية قبل النسخ الاقطار السودانية عنها تمتد شمالاً الى البحر المتوسط وجنوباً الى قرب خط الاستواء حيث الجبال الزرق وبحيرة البرت نيازنا وشرقاً تبتدىء من العريش على ساحل البحر المتوسط وتسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الاحمر مقابل راس بنار على ساحل البحر الاحمر الغربي ومن هناك تمتد الى مصوع نخليج عدن حتى بربرا اما في تلك الانحاء الجنوبية فسلطة الخديوي لم تكن تتجاوز الشطوط فضلاً عن ان الحبشة وقبائل اخرى هناك كانت مستقلة. وغرباً من راس الكنائس عند البحر المتوسط مخترقة صحراء ليبيا حتى دارفور ثم تمتد شرقاً الى الجبال الزرق اما بعد الحوادث السودانية الاخيرة فأنحصرت المملكة المصرية في القطر المصري ويحدّه شمالاً البحر المتوسط وجنوباً الشلال الثاني (وادي حلفا) وشرقاً قنال السويس فالبحر الاحمر وغرباً راس الكنائس وصحراء ليبيا

وينقسم القطر المصري الآن الى قسمين عظيمين هما الوجه القبلي والوجه البحري او مصر العليا ومصر السفلى تفصل بينهما القاهرة وكل من هذين القسمين يقسم الى اقاليم او مديريات في كل منها مدينة كبيرة تقيم فيها حكومة تلك المديرية وعلى كل من هذه المديريات حاكم يدعى مديراً وهاك اسماء المديريات وقواعدها وعدد سكانها حسب احصاء سنة ١٩٠٧

المديريات وقواعدها

أولاً الوجه البحري

اسم المديرية	اسم قاعدتها	عدد سكان المديرية
القليوبية	قليوب	٤٣٤ ٥٧٥
المنوفية	شبين الكوم	٩٧١,٠١٦
الغربية	طنطا	١,٤٨٤,٨١٤
البحيرة	دمههور	٨٣٠,٠١٥
الشرقية	الزقازيق	٨٨٦,٣٤٦
الدقهلية	المنصورة	٩١٢,٤٢٨

ثانياً الوجه القبلي

الجيزة	الجيزة	٤٦٠,٠٨٠
بني سويف	بني سويف	٣٧٦,٣١٢
الفيوم	الفيوم	٤٤١ ٥٨٣
المنيا	المنيا	٦٦٣ ١٤٤
اسيوط	اسيوط	٩٠٧ ٤٣٥
جرجا	سوهاج	٧٩٧ ٩٤٠
قنا	قنا	٧٨٠ ٨٤٩
اسوان	اسوان	٢٣٤ ٦٠٢

ويشتمل القطر المصري عدا عن المديريات المذكورة على مراكز مستقلة بإحكامها
يسمونها محافظات وهي مع عدد سكانها
اسم المحافظة

عدد سكانها

القاهرة	٦٥٤ ٤٧٦
الاسكندرية	٣٣٢ ٢٤٦
بور سعيد	٤٩ ٨٨٤
الاسماعيلية	١١ ٤٤٨
العريش	١٨ ٦٣٧

١٨ ٣٤٧

السويس

٢٥ ٠٨٢

سينا

السودان المصري

اما السودان المصري فقد قسم بعد استقلاله عن مصر الى مديريات لاسكل منها
مركز وهذه اسماءها مع اسماء بنادرها

المديرية	البندير	المديرية	البندير
الخرطوم	الخرطوم	سنار	سنبجا
بربر	الدامر	كسلا	كسلا
دنقلة	مروى	اعالي النيل	كودوك
وادي حلفا	حلفا	بحر الغزال	واو
البحر الاحمر	بورسودان	كردفان	الايض
النيل الابيض	الدويم	منجلا	منجلا
النيل الازرق	واد مدني		

سكان مصر

بلغ عدد سكان مصر بناء على تقويم سنة ١٨٨٢ نحو ٧٤٧ ٨٠٩ ٦ نفساً منهم
٩٠٨٨٨ من الاجانب . وبلغ حسب احصائها سنة ١٩٠٧ نحو ١١ ٣٠٠ ٠٠٠ من
النفوس الوطنيين منهم ١١١٥٠٠٠٠ والاجاب ١٥٠ ألفاً . وهم على الاكثر يونانيون
وايطاليون واكليز وفرنساويون واتراك اما العربان المقيمون بالقطر المصري فمعدودون
في الوطنيين ويبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ وغالبهم بدويقطنون الخيش بالقرب من المزارع
والرحالة منهم يبلغ عددهم سدس مجموعهم

ويظهر ان عدد سكان مصر في عهد المصريين القدماء لم يتجاوز هذا العدد قال
هيرودوتس المؤرخ انه كان في مصر على عهد الملك اماسيس ٢٠٠٠٠ مدنة . وقال
ديودوروس ان عدد السكان بلغ سبعة ملايين ويوسيفوس يقول سبعة ونصف . اما في الدولة
الاسلامية فبلغ عددهم نحو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس ثم انحط في عهد المماليك الى ثلاثة
ملايين واخذ في الزيادة من عهد المغفور له محمد علي باشا ولا يزال يتزايد الى اليوم

مزروعات مصر

تقسم مزروعات القطر المصري الى المزروعات السنوية والاشجار وقد حسب عدد هذه المزروعات على وجه العموم فبلغ نحو ١٣٠٠ نوع

فن المزروعات السنوية القمح والشعير والذرة والدخان والارز وقصب السكر والفلوالعدس والحمص والترمس والبشلة والبااميا واللوبيا والبلابل والبصل والكرات والنوم والخبيزة والخبس والكرمب والباذنجان والرشاد والفجل والخبير والقنا وعبد اللاوي والعجور والشمام والبطيخ والجزر واللفت والبرسيم والحلبة والقطن والكتان والقنب والقرطم والسهم والنيلة والحناء والفوة والافيون والخردل والكزبرة والبقدونس وغيرها

ومن الاشجار النخل والبرتقال والمندرين (يوسف افندي) والليمون والتين والجزير والموز والمشمش والخواخ والرمال والتوت والعنب والزيتون واللوز والسنط والطرفة والخرنوب والنبق والدوم والبنج وغيرها

ومعظم هذه الاشجار كان معروفاً لدى المصريين القدماء الا ان بعضها قد دخل الى البلاد حديثاً منها البنج وهو مزروع على معظم الشوارع العمومية في المدن الكبيرة للارتفاع بظله

حيوانات مصر

تقسم الى الحيوانات الداجنة والحيوانات البرية

فالداجنة منها الجمل والفرس والحمار والبغل والجاموس والبقرة والضأن والماعز والخنزير والكلب والهر والدجاج والديك الهندي والوز والحمام . ومن الغريب ان الجمل والجاموس والضأن والدجاج لم تكن معروفة لدى المصريين القدماء

والحيوانات البرية منها الخنزير البري والضبع والغزال وبقرة الوحش وكبش الجبل وابو الحسين والذئب والثعلب والقطة البري والنمس والارنب والوطواط والتمساح وحيوانات اخرى من الطيور والزحافات والاممك لا حاجة بنا الى ذكرها

الدور الاسلامي

دولة الخلفاء الراشدين

مهمون عمر بن الخطاب

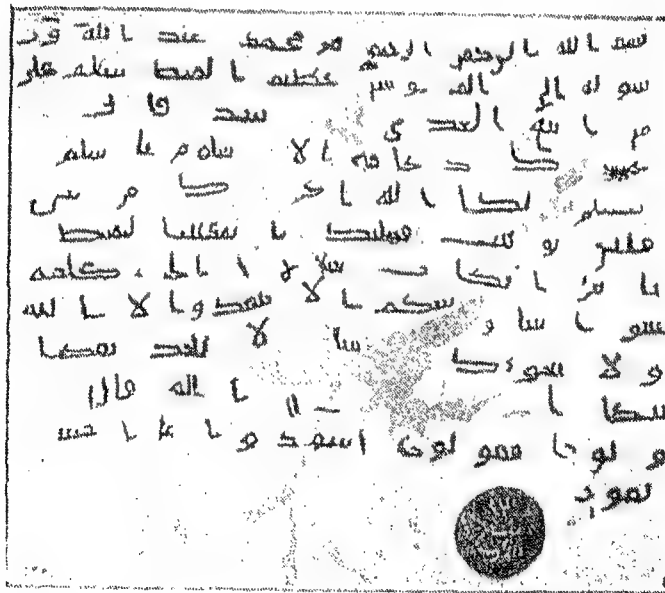
من سنة ١٣ - ٢٣ هـ او ٦٣٤ - ٦٤٤ م

مبدأ الدولة الاسلامية

وفي خلال تلك الانقسامات الدينية في مصر كانت نشأة حضرة صاحب الشريعة الاسلامية محمد الهادي بن عبد الله القرشي . ولد في مكة المشرفة نحو سنة ٥٦٩ ميلاد المسيح وهاجر الى المدينة في ١٦ يوليو (تموز) سنة ٦٢٢ ومن هذا اليوم يتبدى التاريخ الاسلامي وهو تاريخ الهجرة النبوية المعول عليه الآن . وفي آخر السنة السادسة للهجرة كتب الى الامبراطور هرقل ملك القسطنطينية كتاباً يدعو فيه الى الاسلام وكتب مثل ذلك الى سائر ملوك العرب والعجم وفي جملتها كتاب الى المقوقس يوحنا بن قرقة حاكم مصر من قبل ملك الروم فبعث اليه المقوقس اربع جوار منهن مارية ام ابراهيم ابنه فكان ذلك اول الصلات بين دولة العرب ومصر ثم كانت الغزوات والفتوح المشهورة حتى السنة الحادية عشرة فتوفي صاحب الشريعة وبويع الخليفة ابوبكر الصديق فعمل على استمرار الفتوح حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٣ هـ او ٦٣٤ م

فلما لبث الاسلام ان ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهاداً في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز ثنائي عشرة سنة

فلما رأى الامبراطور هرقل ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من بلاده عنوة اوجس خيفة على باقيها ولاسيما مصر لانه لم يكن في حسبانها ان العرب يقدمون الى مصر مفتحين حالاً على اثر فتوحهم الكثيرة فعقد بينه وبين الخليفة عمر بن



ش ٢١ — النسخة الاصلية لكتاب النبي الى المقوقس زعم بعض المستشرقين انه وجدها في الصعيد (راجع الهلال سنة ١٣ صفحة ١٠٣ و ١٦٠)

لخطاب معاهدة ما لها ان يدفع جزية سنوية معلومة تخزينة المسامين قبالة اغضائهم عن فتح مصر. الا ان هذه الجزية لم تكن تدفع في حينها وبالقدر المعين فاعتبر الخليفة تلك المعاهدة منقوضة

فتح مصر . سنة ١٨ هـ او ٦٤٠ م

وكان عمر وبن العاص لا يفترون عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها لانه كان قد جاءها قبل ان اعتنق الاسلام وراى فيها من العظمة والمجد ما جعله شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول له « انك ان افتتحتها كانت قوة المسامين وعوناً لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب » وكان الامام عمر يتخوف من ذلك ولا سيما بعد ان عقد المعاهدة بينه وبين هرقل لكنه بعد ان نقضت على ما تقدم راى ان يجيب طلبه فانفذ اليه ابن يسير باربعة الاف رجل اشداء وقال له « سر اني مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي قريباً ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها

قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس بأيام

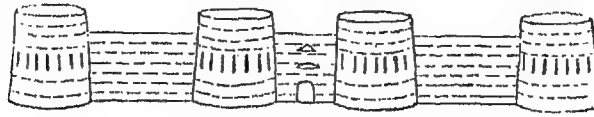
فسار عمرو بن العاص ومن معه قاصداً مصر وهو يكاد لا يصدق ان أذن له بذلك . فما بلغ رفح « وهي قرية تدعى الان رفع تبعد نحو عشر ساعات عن العريش) حتى ادركه رسول من عمر ودفع اليه كتاباً يخاف ان يكون ذلك الكتاب مؤذناً بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فاجل فتحه حتى يدخل ارضها وكان اذذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بمجد السير حتى امسى المساء فسأل ابن نحن فقبل له في العريش فعلم انه دخل ارض مصر فأمر بالبيت هناك . وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يده كتاب الخليفة ففضه بكل احترام وتلاه على الجمهور بصوت عال وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامض واعلم اني ممثلك » فالتفت عمرو الى من حوله قائلاً « اين نحن يا قوم » فقالوا « في العريش » فقال « وهل هي من ارض مصر ام الشام » فاجابوا « انها من مصر » فقال « هلم بنا نعبى على خيرة الله تعالى » . وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة الاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يخترقونها جنوباً في قسمها الشرقي وعددهم يزيد كل يوم ممن كان ينضم اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يبرون بها في طريقهم

فكان اول موضع قوتل فيه الفرما قاتلت الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربه . ثم تقدم عمرو وهو لا يقاثل الا بالامر الخفيف حتى اتى بلبيس فقاتلوه فيها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه وكان في بلبيس ارمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فأحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلاً بالوده فسير اليه ابنته مكرمة في جميع ما لها فسر ابوها بقدمها كثيراً

ثم سار عمرو وما زال حتى مر بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل او بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة . وكان حصناً منيعاً رفيع العهد^(١) الى شرقيه جبل المقطم راسخ وعلى وجهه تجمعات تدل على قديم عهده وبين

(١) ويسميه بعض مؤرخي العرب حصن باب البون او باب الاون وللمؤرخين فيه

الجيل والحصن بقعة من الارض لاشيء من العبارة فيها الابعض الايرة والكنايس . ثم نظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيده مناعة والى ما وراء النيل ارض قد كسرتها الطبيعة من جبالها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبة وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسر من خشب وكذلك فيما بينها والجزيرة يمر عليهما الناس والدواب من البر الشرقي الى الجزيرة ومن هذه الى البر الغربي . وكان هذان الجسران مؤلفين من مراكب بعضها بجنداء بعض وموثقة بسلاسل من حديد وفوق المراكب اخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات



ش ٢٢ — حصن بابل كما كان لما حاصره العرب

وتطلع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد انقلت كاهل الدهر فمعجز عن هدمها . ثم رمى بنظره الى جنوبي الاهرام فرأى ببقايا منف العظيمة تهرب القلوب لما يتجلى فيها من العظمة والفخامة ومن جملتها اهرامها المعروفة الان باهرام سقارة

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والغياض وجعل يسرح نظره ويتأمل بما يهدده من الاخطار في مقاومة هذا الحصن . ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهي النظر يخترقه النيل المبارك . على غربيه آثار منف والاهرام وعلى شرقيه ذلك الحصن وفيه قد حشدت جنود الروم متأهبين للدفاع ولم يكن قد رأى شيئاً من ذلك فما مر به من البلدان فعظم عليه الامر الا انه عاد الى عزمه عند ما تصور ما يلحق به من العار اذا عاد خائباً وما يقع في يده من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن واذا لم يفز في جهاده هنا واستشهد في الاخرة ما هو افضل مآباً

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انه حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا

اقوال اظهرها انه حصن بنه الفرس عند تملكهم مصر ودعوه باسم عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم

والسفلى ومعظم سكانهما من القبط . وكانت عاصمة حكومته منف على الضفة الغربية
واما هذا الحصن فقد اتخذ مركزاً حربياً لينع العرب من المرور الى عاصمته . وكان
المقوقس من حزب الوطنيين ويقال انه كان بينه وبين الرسول مكتبة وعلى كل فانه لم يكن
له ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدوم جيوش المسلمين جهز جنداً تحت قيادة اخذ كبراء
جيشه المدعو الاعرج وجاءوا بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن
اما عمرو فاخذ في المهاجمة مدة فابطأ عليه الفتح فكشبت الى الخليفة يستمد فامده
باربعة الاف رجل عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود
وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة
وورد معهم خطاب امير المؤمنين ولصه « اني قد انفذت اليك اربعة الاف على كل
الف منهم رجل مقام الف »

فانفذ عمرو احد قواده واعله حذافة بن خمسمائة فارس الى الجهة الثانية من الحصن
من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد خندقوا خندقاً وجعلوا له ابواباً وبذروا
في اقنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهمز المصريون حتى دخلوا
الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الا النيل وكان حول ذلك الحصن
الخندق فلم يستطع العرب الهجوم عليه واستمر رمي السهام صباحاً ومساءً ثم تشاور
عمرو والزبير بشأن ذلك فاقروا على تشديد الحصار ففرقا الرجال حول الخندق . والح
عمرو على الحصن بالنجنيق ثم خابر القوم بشأن التسليم فلم يفعلوا . وكان المقوقس يريد
التسليم تخلصاً من نير الروم لما بينه وبينهم من الضغائن الدينية وان لم يتجرا على التصريح
ببغيته لان رجاله لم يكونوا كلهم من حزبه ولا سيما الاعرج . ولما رأى من اقدام العرب
وصبرهم على القتال ورغبتهم فيه خاف ان يظهروا على رجاله فتكون الخسارة مزدوجة
فعمد برجاله الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبر بهم على الجسر الى الجزيرة ثم
تبعه الاعرج ولم يترك في الحصن الا نفرأ قليلاً من رجاله والعرب غير عالمين
ولما ابطأ الفتح قال الزبير « اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على
المسلمين » فعبر الخندق ثم وضع مسلماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر
عمراً انهم اذا سمعوا تكبيره ان يحميوه جميعاً فما شعر الا والزبير على رأس الحصن يكبر
والسيف في يده فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه لكثرتهم فنهزم ثم كبر
وكبر الناس معه واجابهم من كان خارجاً فظن من كان باقياً في الحصن من الروم ان العرب
جميعهم هاجون فهربوا . وعمد الزبير واصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحموا

الحصن وتملكوه ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة . واما هولاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم . وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

المخاطبة بشأن الصلح

فلما رأى المقوقس ذلك انفذ الى عمرو كتاباً نصه « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والحيثتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلمتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فاعله ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا يقدر عليه . واعلم ان تندموا ان كان الامر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالاً من اصحابكم لعالمهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما اتى رسل المقوقس الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك رد عمرو الرسل وكتب الى المقوقس « انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخوانا وكان لكم مالنا وان ايتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا « رأينا قوماً الموت احب الى احدهم من الحياة والتواضع احب الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبتهم واميرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يفسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »

فاقسم المقوقس قائلاً « لو ان هؤلاء اتقوا الجبال لازالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتني صلبهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لن يحيبونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقوا على الخروج من مواضعهم » وما زال على رجال حكومته حتى وافقوه على طلب الصلح فكتب الى عمرو « ابعثوا الينا رسلاً منكم لعالمهم وتنداعى وهم الى ما عساه ان يكون فيه صلاح لنا ولكم »

الوفد الى المقوقس

فبعث عمرو عشرة نفر احدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجاش هائل المنظر اسود اللون طوله عشرة اشبار وجعله متكلم القوم وامره ان لا يجيبهم الى شيء دعوه الا احدى هذه الثلاث خصال قائلاً « ان امير المؤمنين قد تقدم اليّ في ذلك وأمرني ان لا اقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث » فركبوا السفن حتى اتوا المقوقس ودخلوا عليه فتقدم عبادة في صدر اصحابه فهاهه المقوقس لسواده وعظم جنته وقال « نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيري كلفني » فاجابوا « ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورايه وقد امرنا الامير ان لا نخالف له امرأ » فقال المقوقس « وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدماً عليكم وهو اسود وانما ينبغي ان يكون دونكم » فقالوا « كلا وان كان اسود فهو افضلنا »

فقال المقوقس لعبادة « تقدم يا اسود وكلفني برفق فاني اهاب سوادك »

فتقدم وقال « قد سمعت مقاتلك وان فيمن خلفت من اصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني واقطع منظراً وجميعهم اشد هيبه مني وانا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما هولرغبنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا بمن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الا ان الله عز وجل قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً وما يبالي احدنا ان كان له قنطار ذهب او كان لا يملك الا درهمان لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعه ليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الا ذلك كفافه وان كان له قنطار من ذهب انفقه في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعم الدنيا ليس نعيماً ورخائها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همه احدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعه ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه »

فلما سمع المقوقس منه هذا الكلام قال لمن حوله بلسانهم « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب . ان هذا واصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها » ثم اقبل على عبادة وقال له « ايها الرجل الصالح قد سمعت مقاتلك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرت على من ظهرت عليه الا لجهنم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة

والشدة ما يبالي احدهم بن اتي ولا من قاتل وانا لتعلم انكم ان تطيقوهم لضعفكم وقتلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرأ وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولا ميركم مائة دينار ونخافيتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام لكم به »

خطاب عبادة بن السامت

فقال عبادة « يا هذا لا تغرن نفسك ولا اصحابك .. اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته وماشيء اقر لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسينيين اما ان تعظم لنا بذلك غنية الدنيا ان ظفرنا بكم او غنية الآخرة ان ظفرتم بنا ولا انها احب الخصالين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحاً ومساءً ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده وليس لاحد منا هم فيما خلقه وقد استودع كل منا ربه اهله وولده وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فينبه فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا . اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين انبيائه ورسوله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبالت ذلك انت واصحابك فقد سعديتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم وان ايتم الا الجزية فأدوا اليها الجزية عن يد وانتم صاغرون وان تعاملكم على شيء نرضى نحن وانتم في كل عام ابدأ ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وان ايتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكاة بالسيف حتى نموت عن آخرنا

او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لانفسكم »

فاعظم المقوقس ذلك وقال « هذا ما لا يكون ابداً ما تريدون الا ان تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا »

فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت »

فقال « افلا تحييوننا الى غير هذه الثلاث الخصال »

فرفع عبادة يديه الى السماء وقال « لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب

كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم »

فالتفت اذ ذاك المقوقس الى ارباب مجلسه فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا « أيرضى احد بهذا الذل؟ اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابداً ان ترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لانعرفه . واما ما ارادوا ان يسمونا ويجعلونا عبيداً فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مراراً كان اهون علينا »

فقال المقوقس لعبادة « قد ابى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في

مراتكم هذه ما تبتغيتم وتنصرفون »

فقال عبادة واصحابه « لا » . فقال المقوقس لاصحابه « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة وائن لم نجيبهم اليها طائعين لنجيبهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا « واي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدرؤا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » قالوا « فنكون لهم عبيداً ابداً؟ » قال « نعم تكونون عبيداً مسلوطين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم فاطيعوني قبل ان تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال المقوقس لعبادة « اعلم اميرك اني لا ازال حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي ارسل الي بها فليعطني ان اجتمع به انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابه فان استقام الامر بيننا تم ذلك جميعاً وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه » فرجع عبادة الى عمرو واخبره بما كانت فاستشار اصحابه فقالوا « لانجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتي يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيثناً وغنجة كما

صار لنا الحصن وما فيه . فقال عمرو « قد علمتم ما عهد الي امير المؤمنين في عهده فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد الي فيها اجبتهم وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم » فوافقوه

عهد الامان للمصريين

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقا على الصلح بان يعطى الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نص الشروط

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن ابى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب »

ولما تم الصلح على هذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتاباً يعلمه بالامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبض رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه « ان ما اتاك من العرب اثنا عشر الفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندكم بمصر من الروم وبالاكندرية ومن معك أكثر من مائة الف فارس معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم في حال القبط اذلاء فقاتلهم انت ومن معك من الروم حتى تموت او تظهر عايتهم فانهم فيكم على قدر كثرتم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً الى جماعة الروم

فاقبل المقوقس على عمرو فقال له « ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب

الى والى جماعة الروم ان لا نرضى بمصالحتك وامرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم . ولم اكن لاخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تم صلح القبط مما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وانا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . واما الروم فانا منهم براء وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال . الاولى الا تنقض بالقبط وادخاني معهم والزمنى ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب . واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبداً فانهم اذل لذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني . واما الثالثة فاني اطلب اليك ان انا مت ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » فاجابه الى ما طلب على ان يضمّنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعواناً

وصف مصر

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولا بكتاب يخبره بما تم بينه وبين المقوقس فاجابه منشطاً وسأله ان يصف له مصر فكتب اليه « ورد الي كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه ويسألني عن مصر اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتشفها جبل اغبر ورمل اعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان لجاري الشمس والقمر . له اوان يدرك حلاله ويكثر عجاجه وتعظم امواجه فنفيض على الجانبين فلا يمكن التخلّص من القمري بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كانهن الخيال ورق الاصيل . فاذا تكامل في زيادته تكص على عقبه كاول ما بدا في جريته وطمى في درته . فعند ذلك تخرج ملة محفورة وذمة مخفورة يجرثون بطون الارض ويندرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لقيهم ماسعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم . فاذا احرق الزرع وأشرق سقاء الندى وغذاء من تحت الثرى . فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينيرها ويقر قاطناتها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها . وان لا يستأدي خراج الثمرة الا في اوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق الملك والمال »

فتح الاسكندرية . سنة ٢٠ هـ

ولما تم التعاقد بين المسلمين والقبط على ما تقدم هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم الى الاسكندرية . اما عمرو فاقام في الحصن حامية وقام برجاله نحو الاسكندرية على نية الفتح وسار معه جماعة من رؤساء القبط يصلحون له الطرق وقيمون الجسور والاسواق وكانت خيام العرب مضروبة بين النيل والجبل على ما تقدم فامر عمرو بتقويضها والاستعداد للمسير فاذا بجيامة قد باضت في اعلاه فقال « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » فاقروا الفسطاط في موضعه واوصى به صاحب القصر



ش ٢٣ - فسطاط
عمرو بن العاص
وقد عشنه اليوم
في اعلاه

ولا يخفى ما كان لهذه الحادثة من التأثير الحسن في قلب من سمعها من الوطنيين فتركوها وساروا في سبيلهم قاصدين الاسكندرية متخذين ضفة فرع النيل الغربي خطة مسيرهم فلا قام في الطريق بعض من هاجر من منف من الروم فقاتلوهم يسيراً وكان من هؤلاء فئة تحصنت في كوم شريك وأخرى في مريوط فتغلب عليهما عمرو واحتلها . اما القبط فكانوا اعداء المسلمين في كثير من احتياجاتهم حسب امر القوقس فلما بلغ ذلك جماعة الروم في الاسكندرية اشتد غيظهم فاصروا على الحرب واخذوا

يعدون مهمات الدفاع

أما عمرو فما زال يتقدم بحيشه الى الاسكندرية وكانت هي قاعدة القطر المصري الى ذلك العهد وفيها من عظمة الروم ورهبتهم ما يرهب الابطال وحاصرها برًا اما بحراً فكانت الطريق مفتوحة بينها وبين القسطنطينية يأتيها منها ما تحتاج اليه من المؤن والزخائر فطال الحصار رغم الوسائل التي اتخذها العرب فضجر عمرو فجمع اليه رجاله وخطب فيهم فهاجموا الاسوار وهو في مقدمتهم فخرقوها ودخل عمرو واثان من قواده هما مسلمة بن مخلد ووردان الا انهم لم يكادوا يطأونها حتى أقفلت الاسوار وراءهم والقي القبض عليهم واحضروا امام البطريق (الحاكم) فخطبهم قائلاً « هوذا انتم اسرى في ايدينا فاخبرونا ما الذي جاء بكم الينا وما الذي حملكم على قتالنا » فلجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت « قد اتيناكم ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم مالنا اوان تؤدوا الجزية عن يد وانتم صاغرون والا فاننا نقاتلكم الى ان نفي لامر الله » فبهت الحاكم ودخله الريب فقال لمن في مجلسه من الروم باللغة اليونانية « يظهر ان هذا الرجل من وجوه العرب واعله امير القوم فينبغي ان نضرب عنقه » وكان وردان عارفاً باللغة اليونانية ففهم ما قاله البطريق ولكي يطلع عمرواً على ذلك لسمه مستهزئاً وناداه منتهراً « مالك ولهذا القول وانت أدنى من في الجماعة واقل فارك غيرك يتكلم » فاختلف ظن البطريق وقال « لو كان هذا امير القوم ما كان يفعل به هكذا » فقال مسامة « ان اميرنا كان عازماً على الانصراف عنكم واراد ان يسير من اكابر القوم من يتفق معكم على شيء تراضون عليه فان اطلقتمونا مضينا وعرفنا ما صنعتم بنا من الجليل وينتفح الامر بينكم ونصرف عنكم »

فتوهم البطريق ان الامر كذلك فاطلقهم فلما خرجوا قال مسامة لعمرو « قد خلصتك لكلمة وردان » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى ان يقضي الله بما يشاء

وكان الامام عمر قد استبطأ فتح الاسكندرية . فكتب الى عمرو « اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر . انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما احدثتم وأحببتهم من الدنيا ما أحب عدوكم فان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت اعرف الا ان يكونوا قد غيرهم ما غير غيرهم فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب في الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبتهم في الصبر والنية وقدم اولئك الاربعة في صدور

الناس ومرو الناس جميعاً ان يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم » فجمع عمرو رجاله وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين فأثر فيهم تأثيراً عظيماً وعزموا على القيام به

وفي خلال ذلك توفي هرقل ملك القسطنطينية وعقب موته انقسامات داخلية وحروب اهلية سفكت فيها الدماء بسبب ادعاء الملك من هم من غير الاسرة الملكية وانتهى الامر بان افضى الملك لولده هرقل الثاني او قسطنطين الثالث وهذا لم يمض عليه مائة يوم من جلوسه حتى قضى مسموماً بيد مارتين امرأة ابيه ثم بمساعي بطريك القسطنطينية عقد على الملك بعده هرقلينة ابنة مارتين المذكورة وبعد بضعة اشهر نصب قسطنطين بن هرقل الثاني . فيقال اجمالاً انه كان على القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد فازداد الانشقاق وتعاطم الخصام فضعفت هم الاسكندرانيين وتضاعف بأسهم فهاجر بعضهم بحراً ولبث البعض الآخر في المدينة يريدون دفاعاً لم يقوواعليه فدخلها عمرو يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة (او ٢٢ دسمبر سنة ٦٤٠ الميلاد) واقام فيها احتفالاً عظيماً تذكراً لما أوتي به من الفتح المبين ثم كتب الى امير المؤمنين كتاباً ونصه :

« الى الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص عليك سلام الله تعالى وبركاته أما بعد فقد فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصبت فيها اربعة آلاف بنية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمئة ملعب للملوك واثني عشر الف يقال يبيعون البقل الاخضر »

وبعد ان استلم عمرو زمام الاحكام أخذ في استجلاب قلوب الاهلين فجعل يقرب منه سراة القوم ووجوههم ويحكم في الناس بالقسط ويحجب الناسهم في كل ما كانوا يسألونه منه حتى اجمع السكل على الميل اليه والاذعان لامره

مكتبة الاسكندرية

وذكر ابن القفطي وابو الفرج الملقبي وغيرهما ان عمراً لما فتح الاسكندرية كان في جملة علمائها رجل اسمه يحيى الغرامطي فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفاسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً « انك قد احطت بمجواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعاضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن اولى به »

فقال له عمرو « ما الذي تحتاج اليه » قال « كتب الحكمة التي في الخزان الموكية » فقال له عمرو « هذا مالا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمرو بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها » فشرع عمرو بن العاص في نفيها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقيدها فاستنفدت في مدة ستة اشهر فاسبح ما جرى واعجب . اهـ

على ان بعض الكتبة ينزهون الامام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة . وكنا قد جاربناهم في الطبعة الاولى من هذا الكتاب ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها وقد فصلنا لادلة على ذلك في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي ولا تزال عليه حتى يتبين لنا ما ينقضه ونحن موالون البحث في هذا الشأن اذ لاغرض لنا غير تقرير الحقيقة

بناء القسطنطينية

ثم كتب عمر الى الخليفة يستفتيه في السكنى بالاسكندرية فسأل الخليفة الرسول « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » قال « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو « اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً حتى اردت ان اركب اليكم راحتي حتى اقدم اليكم قدمت » وتلك كانت قاعدة عمر في جمع المسلمين في بقعة لا يحول بينهم وبينه ماء . كذلك فعل ببناء البصرة والكوفة . فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابل فلما بلغوا المكان احيث خيمة الامير راوها لا تزال منصوبة وفيها اليام فنزلوا فيها وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض واخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاخضع عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها القسطنطينية باسم الخيمة فيها نحو عشرين حارة دعاها خططا واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

حصن بابل او دير النصارى

وفي مكان حصن بابل اليوم كنائس قبطية قديمة العهد يدعون مجاها قصر الشمع او دير النصارى او دير ماري جرجس . فاذا تجاوزت جامع عمرو مسافة بضع دقائق ومصر العتيقة الى يمينك رايت الى يسارك بناء كبير يظهر انه مؤلف من عدة ابنية عليها ملامح الشينوخة وكأنها محاطة بسور كبير من القرميد الاحمر عند اسفله باب

قديم مصفح بالحديد الغليظ يتصل اليه بانحدار لا يقل عن ثلاثة اذرع هو احد ابواب الحصن . وتدخل من هذا الباب في زقاق ضيق تتصل منه الى ازقة كثيرة كلها ضيق من النمط القديم تستطرق الى عدة كنائس قبطية منها كنيسة العذراء وكنيسة ابي سرجة وكنيسة ماري جرجس وكنيسة القديسة بربارة وكنيس لليهود (كان في الاصل كنيسة على اسم القديس ميخائيل) وغير ذلك وقد زرت جميع هذه الكنائس فرايت انها مع تقادم عهدها في البناء قد جدد فيها قديم عظيم وجميعها داخلة في بناء الحصن ومما يستحق الانتباه اني شاهدت تحت كنيسة ابي سرجة مغارة ينزل اليها بعدة درجات يقولون انها كانت مقاماً للسيدة مريم العذراء عند قدومها الى مصر وبلوح لي انها كنيسة من الكنائس التي كان يصلي فيها المسيحيون في ايام الاضطهاد الشديد لانها تظهر للمتلأمل مبنية على مثال الكنائس الحاضرة ففي صحنها الى كل من الجانبين عدة اعمدة بينها نقر في جدار المغارة اشبه بالمناج وفي المغارة جرن للعمادة اما الحصن فاذا تأملت جدرانها الباقية من الخارج رايتها على نمط البناء الروماني وترى احدها وهو الجنوبي لا يزال عبارة عن برجين كبيرين في احدهما كنيسة العذراء المعروفة بالمعلقة سميت كذلك لارتفاعها وقد جدد بناؤها منذ بضع سنين . وبين البرجين باب مسدود وقد طمرت التربة جزءه السفلي ويشاهد في جدران اخرى آثار مثل هذين البرجين . وتشير هذه الابراج الى ما كان عليه هذا الحصن من المناعة (انظر ٢٢) فلا غرو اذا امتنع على العرب سبعة اشهر . اما محلة بابلون التي قد اقيم فيها هذا الحصن فلا يمكن معرفة حدودها الآن ولكن يشاهد الى جنوبي الحصن بوضع مئات من الامتار دير يقال له دير بابلون يدخل اليه من باب ضيق مصفح بالحديد وفيه الى الآن كنيسة السيدة مريم يجتمع اليها بعض المسيحيين للصلاة وبناء هذا الدير اشبه ببناء الحصون منه بالاديرة وهو قائم في منخفض بين تلين يقال لهما تل غراب ولم يبق الان غير هذا الدير حاملاً لاسم تلك المحلة اما الفسطاط فقد خربت ولم يبق منها الا آكام من التربة فيما بين القاهرة ومصر العتيقة يحدها شمالاً اطراف القاهرة وجنوباً السبع السواقي ومصر القديمة وشرقاً اكام من التربة متصلة بالقرافة وغرباً مدافن النصاري وجعل عمرو الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة وجعل على الوجه القبلي عبد الله بن سعد بن ابي سرح وتولى بنفسه صلات مصر وخارجها فكان يجبي منها ١٢ مايوناً من الدنانير سنوياً

وكان في جملة القبائل التي شهدت فتح مصر وجاءت لاحتلالها قبيلة همدان فهذه أحببت النزول في الجزيرة مع من والاها من المسلمين فاستأذنوا عمرو بن العاص فقال مهلاً ريثما استشير امير المؤمنين فكتب اليه يعامه بما فتح الله عليهم وبما ارادت همدان فاجابه يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له « كيف رضيت ان تفرق اصحابك بان يحول بينك وبينهم بحر ولا تدري ما يفجأهم فاعلاك لا تقدر على غيبتهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان ابوا عليك واعجبهم موضعهم بالجزيرة واحبوا ما هنالك فابن عليهم من في المسلمين حصناً » فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا واعجبهم موضعهم فبنى لهم حصناً يقيمهم اذا فاجأهم امر ثم سار عبد الله بن سعد الى الوجه القبلي لتدوين البلاد فلم يلق معارضاً ومازال حتى اتى بلاد النوبة ففتحها كلها

اصلاح البلاد وتنظيمها

وأخذ عمرو من ذلك الحين في تنظيم البلاد فقسم القطر المصري الى كور او اعمال يرأس كل منها حاكم قبضي تأتية القضايا فينظر فيها ويصدر احكامه الى من هم تحت حكمه رأساً فحصل الاهلون على راحة لم يكونوا راوها منذ ازمان وساد الامن في بلادهم

فامر عمرو بترميم مقاييس النيل التي كانت قد تعطلت منها مقياس اصوان ومقياس ارمنت ومقياس منف وغيرها . وكان من عادة المصريين قبل الفتح الاسلامي انه اذا مضى ١٢ يوماً من شهر يؤونه يعمدون الى جارية بكر من ابويها فيرضونهاما ويجعلون عايتها من الحلي افضاها ثم ياتونها في النيل فحية له . فابطل عمرو هذه العادة وعوض عن الجارية بتمثال من طين . وقد ذكر بعض المؤرخين هذه الحقيقة في سياق حكاية لابأس بن ذكرها وهي انه اتفق لاديل في السنة التالية للفتح انه لم يرتفع الارتفاع اللازم للري . ولما دخل شهر يؤونة القبضي قال له اهل البلاد « ايها الامير ان اينانا هذا سنة لا يجري الا بها » فقال لهم وما ذلك فقالوا « اذا كان اثنا عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من ابويها وجعلنا عايتها من الحلي والسياب افضل ما يكون ثم القيناها في النيل » فقال لهم عمر « ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله » فمضى يؤونة وايب ومسرى وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجللاء فكتب عمرو الى امير المؤمنين عما كان فاجابه « انك قد اصبحت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فالتها في داخل النيل

إذا أتاك كتابي ٤

فلما قدم الكتاب الى عمرو ففتح البطاقة فاذا فيها « من عبد الله امير المؤمنين الى نيل مصر اما بعد فان كنت تجري بامرِك فلا تجر واذا كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك بامرِه فנסأل الله الواحد القهار ان يجريك » فالتقى عمرو البطاقة في النيل وقيل ان ذلك كان قبل عيد الصايب بيوم وقد همّ اهل مصر بالخروج منها لانه لا يقوم بمصاحبتهم فيها الا النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراه الله تعالى ١٦ ذراعاً فلما رأى المصريون



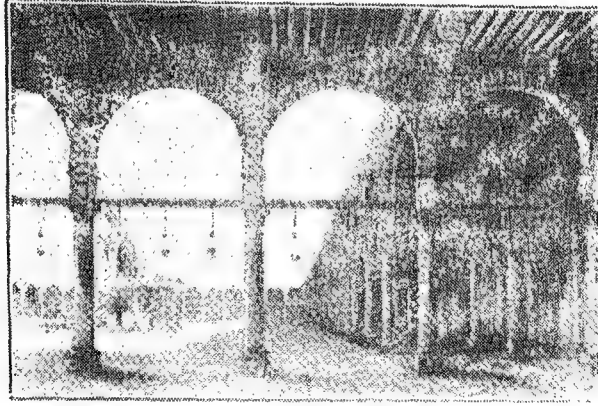
ش ٢٤ — ضحية النيل

ذلك تميموا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة واوامره وابطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزا عنها تمناء من طين يصنعونه كل سنة عند فتح الخليج يسمونه العروسة فيلقونه في الخليج وما زال ذلك جارياً الى عهد غير بعيد اترأ ما كان يرتكبه المصريون القدماء من العسف كل سنة في شأن الفيضان ثم اخذ عمرو في تنظيم القضاء وكانت امورها الى ذلك العهد منوطة بنواب مالين

او جهاديين من قبل حكومة الروم يستبدون بالرعية كيف شاؤا وليس من ينصف فاجد لهم عمرو المحاكم النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من اعضاء ذوي نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الاهلين . ولا بد لنا من ذكر فضل هذا الفاتح بانه اول من اوجد هذه المحاكم بمصر تحت اسم دواوين . اما اعضاؤها فينتخبون من الاهالي والاحكام تجري بمقتضى عدل القضاة وتستأنف عند الاقتضاء لنقضها او ابرامها ولم تكن احكام القضاة المسلمين تجري الا على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال والقضايا التي فيها احد الخصمين قبطي كان لتواب القبط حق الدخول فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والاهلية

اما اعطيات الجيش فكانت تصرف مما يجيء من اموال الخراج وتوزع في الديوان على الامراء والعمال والاجناد على قدر مراتبهم وبحسب مقاديرهم ويحمل ما يفضل الى بيت المال . وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال ذلك جارياً في الدول الاسلامية الى آخر الدولة الفاطمية ثم صارت منذ ايام صلاح الدين تعطى اقطاعات تفرق على السلطان وامرائه واجناده

وما فتئ عمرو يتخذ الوسائل الممكنة لاكتساب ثقة المصريين ولم يدع فرصة تفوته في اكتسابها . قيل ان البطريرك بنيامين كان من الطائفة البعقوية وقد اضطره هرقل ملك الروم اضطراراً عظيماً لحفاظته على خطته الدينية وهو لا يبالي بما كان يهدده من المخاوف والاضطرابات فشد هرقل عليه النكير ومنعه من السلطة الدينية وهدده بالقتل ففر - يطلب ملجأ في بعض الاديرة فأقام هرقل مقامه في زمن الحصار رجلاً كان بيد المجلس آلة يديرونها كيف شاؤا . وكانت مصر حينئذ منقسمة كما تقدم الى قسمين دينيين ملاكيين ويعقوبيين وكان على رئاسة الطائفة الاولى وهي الاصغر هذا البطريرك الجديد وعلى الطائفة الثانية بطريرك واساقفة اقامهم هرقل باختياره غير ان الشعب كان يعاملهم بالاحتقار ولم يكن يعتبر الرئاسة الحقيقية الا لبنيامين المختار قديماً منهم . فعند ما بادت سيطرة الروم ورأى القبط من الاسلام ميلاً ورفقاً عرضوا امرهم الى عمرو وابتدعوا استرجاع بطريركهم القديم فاستدعاه عمرو وطيب خاطره واقامه في منصبه وخلع الدين كانوا مكانه فحسب القبط هذا الامر منة وفضلاً . وازدادوا ثقة وميلاً للمسلمين ولا سيما لما رأوهم يفتحون لهم الصدور ويبيحون لهم اقامة الكنائس والمعابد في وسط الفسطاط بل وفي وسط جيش الاسلام على حين انه لم يكن للاسلام معبد فكانوا يصلون ويخطبون في الخلاء



ش ٢٥ - جامع عمرو

ثم عمد عمرو الى بناء جامع على مثال جامع مكة سعة وشكلاً فبناه في الفسطاط قرب حصن بابل وكان في موضعه خان استولى عليه احد رجال عمرو عند الفتح فلما عاوا من الاسكندرية طلب اليه عمرو ان يجعل منزله هذا مسجداً فرضي وكان النيل يجري بقربه ثم انحسر عنه بعد ذلك غرباً . واتى عمرو بحجارة ذلك الجامع من بقايا منف العظيمة بينها اعمدة كبيرة من الجرانيت وقطع هائلة من الرخام اقيمت بهاجدرانه وقد قيل ان القرآن كله كان منقوشاً عليها بالذهب . والجامع المذكور لا يزال الى يومنا هذا في مصر القديمة يعرف باسم جامع عمرو يصلون فيه الجمعة الاخيرة من رمضان . مساحته ٣٥٠ قدماً مربعاً وقد رُم مراراً بحيث لم يبق من البناء الاصل الا شيء زهيد . ومن جملة من جدد في بنائه السلطان المؤيد سنة ٨١٤ هـ وآخرهم مراد بك وهذا لم يكن يحاول ذلك الا طمعاً بمخبة اوعز اليه انها مدفونة في بعض اجزائه كما سترى . واذا زرت هذا الجامع الآن رايته كالخراب وقد سقطت اعمدته الرخامية التي كانت على الجانبين وفي صحنه حنفيه وشجرة وفي ارض ليوانه صهريج

وفي هذا الجامع كانت تعطى قبالات الاراضي وهي ان متولي الخراج كان يجلس فية زمان تثن فيه قبالة الارضين (التزامها) ومجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات (وكانت صفقة البيع عند العرب ان يضرب المشتري بيده على يد البائع ان رضي البيع ثم سمي عقد البيع الصفقة) وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليه مبالغ السكور والصفقات على من يتقبلها من

الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى الامر خرج كل من كان تقبل ارضاً وضمها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعمالها بنفسه واهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابائه على اقساط ويحسب له من مبلغ قبائله وضمائه لتلك الاراضي ما ينقذه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خيلجانها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين فكان اذا تأخر من مال الخراج البواقي تشدد الولاة في طلبه مرة وتسامح به مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكبوا البلاد كلها وعدلوها تعديلاً جديداً فيزيدون فيها يحمّل الزيادة من غير ضمان البلاد ويتقصون فيما يحتاج التقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع ابن العاص الى ان بنى احمد بن طولون جامعاً

مخبرات بين ابن الخطاب وابن العاص

والمفتتحون اجدر الناس باتباع الرفق بمن اصبحوا من رعاياهم وقد ضربت عليهم المسكنة بعد ان كانوا اصحاب البلاد ويدهم الحل والعقد والظاهر ان عمراً كان على بينة من ذلك وقد جرى عليه لانه كان يتحمل من المصريين ويمهلهم في دفع الخراج الى حد ان يوقع فيه مظنة الخليفة ويحكى ان الخليفة استبطأ الخراج من عمرو فكاتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد فاني فكرت في امرك والذي انت عليه فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة وقد اعطى الله اهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عنتهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جديب . ولقد اكرت في مكاتبتيك في الذي على ارضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت ان تفيق فترفع الي ذلك فاذا انت تأتيني بمعارض تعباً بها لا توافني الذي في نفسي . لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست ادري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً ان البراءة لافعة وان كنت مضيعاً قطعاً ان الامر لعل غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان ابتي ذلك منك في العام الماضي رجاء ان تفيق فترفع الي ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذاك الا ان عمالك عمال السوء وما توالس عيايك وانفك اتحدوك كهفأ وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك فيه فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق ابلج ودعني وما

عنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر امير المؤمنين . من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد بلغني كتاب امير المؤمنين في الذي استبطاني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي واعجابه من خراجها على ايديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام واهمري للخراج يومئذ اوفر واكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم ارغب في عمارة ارضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدر فابتها حاباً قطع درها . واكثر في كتابك وابنت وعرضت وتربت وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فحيت لعمرى بالمقاطعات المقدمات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله (صام) ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافطين لما عظم الله من حق ائمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل شيناً فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قبلنا . معاذ الله من تلك الطعم وشر الشيم والاجترأ على كل ما تم فامض عمالك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه اخاً والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك مني اشد غضباً لنفسي ولها انزاهاً واكراماً . وما عملت من عمل ارى عليه فيه متعلقاً ولكنني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن اشياء كنت بها علماً وكان اللسان بها مني ذلولاً ولكن الله عظم من حقك ما لا تجهل »

فكتب اليه الخليفة « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الي بينات الطرق وقد علمت اني لست ارضى منك الا بالحق البين ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطني بالخراج ويزعم اني احيد عن الحق وانك عن الطريق واني والله ما ارغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني ان تدرك غلهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من ان نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غني لهم عنه والسلام »

فكف الخليفة وقد كان محمولا على ما أنبه به ممن كان يناظر عمرأ على ولاية مصر

فتح دمياط وتانيس

فهذه المعاملة وامثالها جعلت للعرب منزلة رفيعة عند المصريين فرضخوا لهم الا الهاموك حاكم دمياط وهو من السباء المقوقس فانه امتنع عن التسليم واستعد للحرب فانفذ اليه عمرو والمقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فخرج اليهم الهاموك وحاربهم حتى قتل ابنه بالحرب فعاد الى دمياط وجمع اليه اصحابه فاستشارهم في امره وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال له « ايها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استغنى به احد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهولاء العرب من بدء امرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد واذلوا العباد وما لاحد عليهم قدرة ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وامنع وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر والراي ان تعقد مع القوم صلحا تنال به الامن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما انت باكثر رجلا من المقوقس » فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب منه فقتله وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلاد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها فلما برز الهاموك للحرب لم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلد فاستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط واخبروا عمرأ بذلك . ثم خرج شطا بن الهاموك بعد ان اسلم الى البرلس والدميرة واشموم طنح فشد اهل تلك النواحي وجعلهم مددا للمسلمين وسار بهم مع المسلمين لفتح تانيس فبرز لاهلها وقاتلهم حتى قتل في المعركة في ليلة الجمعة نصف شعبان بعد ما أكل فيهم فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط يحيون فيه ليلة نصف شعبان من كل سنة . ولم يكف المسلمون عن تانيس حتى فتحوها

الفتح الاسلامي احتلال عسكري

الفتح المسلمون البلاد لم يتولوا حكمها كجارات بل نزلوا خارجها في معسكراتهم كالحثليين يستولون على الخراج والجزية ويراقبون الاحكام . فعمر و بن العاص وجنده لما فتحوا مصر نزلوا في القسطنطينية والاسكندرية وتركوا سائر قرى مصر بأيدي القبط . ولم يسكن احد من المسلمين بالقرى وانما كانت رابطة تخرج الى الصعيد حتى اذا جاء اوان الربيع انتشر الانباع في القرى لرعي الدواب ومعهم طوائف من السادات وكان الخليفة عمرو بن الخطاب مع ذلك ينهى الجند عن الزرع ويبعث الى

امراء الاجناد باعطاء الرعية اعطياتهم وارزاق عيالهم وبنهاهم عن الزرع
وكان عمرو يقول لرجاله اذا رجعوا من غزوهم « انه قد حضر الربيع فمن احب
منكم ان يخرج بفرسه بربعة فليفعل ولا اعلمن ما ينفع من اسمن نفسه واهزل فرسه .
فاذا حمض اللبن وكثر الذباب ولوى العود فارجعوا الى قيرورتكم » وذكر القريري
خطبة لعمرو في هذا المعنى رواها عن بختيار بن ذاخر المعافري وفيها وصف عمرو بن
العاص وابهته قال المعافري :

« رحت انا ووالدي الى صلاة الجمعة تهجيراً وذلك بعد حميم النصارى بأيام يسيرة
فأطلقنا الركوع اذا قبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت فقات يا أبت
من هولاء فقال يا بني هولاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على
المنبر فرأيت رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج أباج عليه ثياب موشاة كأن
به العقبان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على
النبي صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس وامرهم ونهاهم فسمعتهم يحض على الزكاة وصلة
الارحام ويأمر بالاقتصاد وينهي عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال على ذلك فقال :

خطبة عمرو

« يا معشر الناس اياكم وخلالاً اربعا فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى
الضييق بعد السعة والى الندلة بعد العزة اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييق
المال والقييل بعد القال في غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء
في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار الى
ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من
نفسه فيجوز من الخير عاطلاً وعن حلال الله وحرامه غافلاً . يا معشر الناس انه قد
تدلت الجوزاء وذلت الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى
ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر فحي لكم
على بركة الله تعالى الى ويقم فتلوا من خيره ولبنه وخرافه وصدده واربعوا خيولكم
وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغائكم وأنفالكم .
واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً واياكم والمومسات المعسولات فانهم يفسدون
الدين ويقصرون الهمم . حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وخدمة
فكفوا ايديكم وعفوا فروجكم وغضوا ابصاركم . ولا اعلمن ما اتى رجل قد اسمن
جسمه وأهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه

من غير علة حططنه من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمراً أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال له ابو بكر رضى الله عنه ولم يارسول الله . قال لانهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله يا معشر الناس على ما اولاكم فتمتعوا في ربفكم ما طاب لكم فاذا ينس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر خفي الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدم من احد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة اعياله على ما اطاق من سعته او عسره . أقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم » اه

خليج امير المؤمنين

ومن الاعمال العظيمة التي أجريت على يد عمرو بن العاص احتفار الخليفة الموصل بين النيل والبحر الاحمر سنة ٢٣ هـ ودعاه خليج امير المؤمنين . وسبب ذلك ان الناس بالمدينة اصابهم جهد شديد في سنة الرمادة فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ما نصه : « من عبد الله عمر امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام . اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه » فكتب اليه عمرو « الى امير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص اما بعد فياليك ثم بالبيك قد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها عندي والسلام » اراد بذلك انه ارسل له قافلة من الجمال عظيمة الجمل الاول منها في المدينة والآخر في مصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على الخليفة وسع بها على الناس ودفع الى اهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام لياً كلوا الطعام ويأندموا بلحمه ويحتدوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما ارادوا من لحاف وغيره . فلما رأى الخليفة ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليه هو وجماعته من اهل مصر فقدموا . فانفرد بعمرو وقال له « يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد اتى في روعي لما احببت من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين والعرب قد تشاءمت بي وكادت ان تغلب على رحلي وقد عرفت الذي اصابها . وليس جند من الاجناد ارجى عندي ان يعيث الله بهم اهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيبهم الله تعالى » فقال عمر « ما شئت يا امير المؤمنين قد عرفت انه كانت تاتينا سفن فيها بحار من اهل مصر قبل الاسلام من خليج

كان مفتوحاً بين النيل المبارك وبحر القلزم فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجار فان شئت ان نحفره فننشىء فيه سفناً يحمل فيها الطعام الى الحجاز فعاتبه « فقال الخليفة نعم فافعل ولا خرج عمرو من حضرة امير المؤمنين لاقاه الذين اتوا معه من مصر فذكر لهم ما كان من حديث الخليفة فقالوا « ماذا جئت به اصلح الله الامير تريد ان تخرج طعام ارضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه فان استطعت فاستقل من ذلك » فاستصوب قولهم ثم جعل يتردد بين الامرين

فلما حان اوان عوده الى مصر ذهب لوداع امير المؤمنين فقال له « يا عمرو انظر الى ذلك الخليج ولا تنسين حفره » فاجاب عمرو « يا امير المؤمنين انه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظيمة » فقال له « اما والذي نفسي بيده اني لا ظنك حين خرجت من عندي حدثت بذلك اهل ارضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك اعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيه سفناً » فقال عمرو « يا امير المؤمنين انه متى ما يجده اهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد » فقال الخليفة « اني سأجعل من ذلك امراً ألا يحمل في هذا البحر الا رزق اهل المدينة واهل مكة » فافحم عمرو وعاد الى مصر وبادر لساعته حفر الخليج ومعالجته وجعل فيه السفن ودعاه « خليج امير المؤمنين » ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز ثم ضيعة الولاية فأهمل وسياثي تفصيل ذلك عند الكلام على ترعة السويس في ايام الخديوي اسماعيل باشا

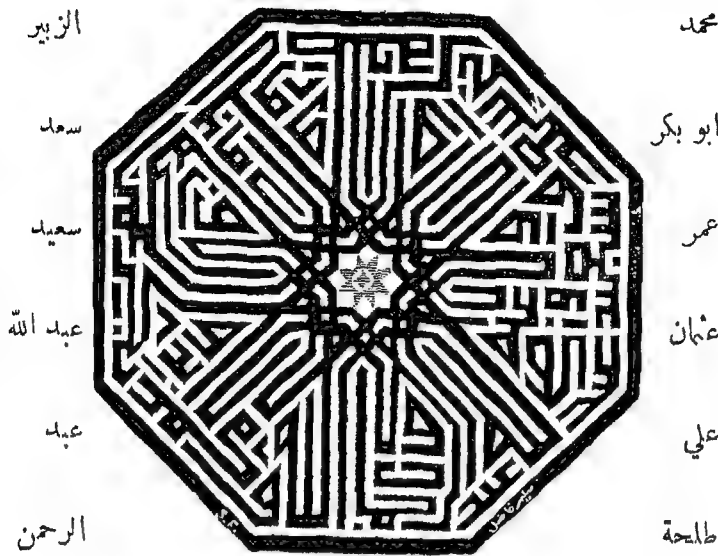
وفي خلال ذلك تجند عمرو الى الغرب ففتح برقة وصالحه اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب ففتحها ايضاً وكتب الى الخليفة بذلك سنة ٢٢ للهجرة

خلافة عثمان بن عفان

من سنة ٢٣ — ٣٥ هـ او من ٦٤٤ — ٦٥٥ م

وبعد فتح طرابلس الغرب بقبيل قتل الامام عمر بن الخطاب قتله عبد فارسي يقال له فيروز الملقب بابي لؤلؤة كان عبداً للمغيرة بن شعبة في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد ان تولى الخلافة عشر سنين وخمسة اشهر وثمانية وعشرين يوماً ونادى قبل وفاته بعبد الرحمن بن عوف فصلى في الناس ثم قيل لو استخلفت يا امير المؤمنين فقال « دعوني اعهد الى النفس الذين توفي رسول الله (صالحم) وهو عنهم

راض « ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً فقال « انتظروا اخاكم طلحة ثلاثاً فان جاءه والا فاقضوا امركم فقد قبض رسول الله وهو عنكم راض واني لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكفي اخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهمضوا الى حجرة عائشة باذنهم فتشاوروا فيها ثلاثة ايام ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم . ويحضر عبد الله بن عمر (ابنه) مشيراً ولا شيء له من الامر . وطلحه شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فامضوا امركم . انشدك الله يا علي ان وُلّيت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس انشدك الله يا عثمان ان وُلّيت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني معيط على رقاب الناس انشدك الله ياسعد ان وُلّيت من امور الناس شيئاً ان تحمل اقاربك على الناس فتشاوروا واقضوا امركم وليصل بالناس صهييب « . وترى في الشكل السادس والعشرين اسم الجلالة واسم الرسول واسماء الصحابة المتقدم ذكرهم مع اسماء الخلفاء الراشدين مكتوبة بالحرف الكوفي في شكل جميل



ش ٢٦ — اسماء الجلالة والرسول والصحابة بالحرف الكوفي

وبعد وفاة عمر تشاور الصحابة فيما اوصاهم به عمر فبايعوا عثمان بن عفان في ٣ محرم سنة ٢٤ هـ . وفي سنة ٢٥ عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخاه من الرضاعة وكان عاملاً على الصعيد في اماره عمرو.

فلما تولى اماره مصر جبي خراجها للسنة الاولى ١٤ مليوناً من الدنانير وكان عمرو لا يجبي اكثر من ١٢ مليوناً فقال عثمان لعمرو « يا ابا عبد الله درت اللقحة باكثر من درها الاول » فاجابه عمرو « لقد اضررتهم بولدها ذلك ان لم يمت الفصيل »

وفي اثناء ذلك انفذ الروم حملة من جنودهم لاسترجاع مصر من المسلمين وسبب ذلك ان الروم في القسطنطينية عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا انهم لا يمكنهم المقام في بلادهم بعد خروج الاسكندرية من يدهم فكتبوا من كان فيها من الروم ودعوههم الى نقض الصلح فاجابوهم لانهم رأوا الجو خالياً لهم بعد موت الامام عمر لانه كان يبعث كل سنة غزاية من اهل المدينة ترابط بالاسكندرية . وكان على الولاء لا يغفلها ويكنف مرابطها ولا يأمن الروم عليها . فسارت الجيوش من القسطنطينية في المراكب تحت قيادة منويل الخصي . فلما بلغوا الاسكندرية كان عليها المقوقس فمنعهم من الدخول فنزلوا في ساحلها وانضم اليهم من كان فيها من الروم اما المقوقس ومن معه من جماعة القبط فلم ينقضوا عهدهم مع المسلمين فسأل اهل مصر الخليفة ان يقر عمرو بن العاص حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل . فنزل عمرو الفسطاط يتأهب لمناهضة الروم . وكان حول الاسكندرية سور وخفاف عمرو لئلا يظفره الله عاينهم ليهدم من سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان . فقال خارجة ابن حذافة لعمرو « ناهضهم قبل ان يكثر مددهم فلا آمن ان تنقض مصر كلها » فقال عمرو « لا ولكن ادعهم حتى يصيروا الي فانه يصيبون من مرؤوا به فيخزي الله بعضهم ببعض » فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من اهل القرى فجعلوا يبلون القرية فيشربون خورها ويأكلون اطعمتها وينهبون ما مروا به فسار اليهم عمرو ولم يتعرض لهم حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فبسات الروم القبط بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً وكانت الروم قد تأهبت صفوفاً خلف صفوف فبرز احد كبار الفرسان من الروم عليه سلاح مذهب فدها الى البراز فبرز اليه رجل من زبيد يقال له حومل يكنى ابا مذحج فاقتنلا طويلاً برمحين يتطاردان ثم التقى الرومي الرمح واخذ السيف فالتقى حومل رمحه واخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح ابا مذحج فيجيبه ليبيك والناس على الجانيين وقوف في صفوفهم كان على رؤوسهم الطير فتجاو لاساعة بالسيف ثم حمل الرومي فاحتله حومل واخطرت خنجرأ كان في منطقه فضره به في نحره فسقط ميتاً فوثب اليه واخذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك ودفن في المقطم . فاشتد المسلمون وانهزم الروم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية

وقتلوا منويل الخصي وأخذوا في رجاله فاستنجدوا المسلمين فامر عمرو برفع السيف عنهم وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجداً دناه مسجد الرحمة إشارة الى رفع السيف هناك وهدم سور المدينة . ثم جمع ما اصاب منهم فجاءه اهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا « قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك » فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه واقاموا عليه البينة فقال بعضهم لعمرو « ما حل لك ما صنعت بنا فقد كان لنا ان نقاتل عنا لانا في ذمتك ولم نقض فاما من نقض فابعده الله » فندم عمرو وقال يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية

ولما انهزم الروم وسكنت القلوب اراد الخليفة ان يكون عمرو على جند مصر وعبد الله بن سعد على خراجها فقال عمرو « انا اذا كقايض على البقرة بقرنيها وآخر يستدرها » فأبى عمرو وتنحى عن مصر فعاد عليها عبد الله بن سعد وفي سنة ٢٧ هـ غزا عبد الله بن سعد اقريقية فقتل ملكها جرجير وضم البلاد الى حكمه

وفي سنة ٢٨ هـ غزا قبرص مع معاوية بن ابي سفيان فصالحهم اهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وعليهم ان يؤذوا المسلمين ان يجعلوا طريقهم الى العدو اليهم وفي سنة ٣١ هـ نقضت بلاد النوبة فغزاها عبد الله بن سعد وحصر رجالها في دقله حصاراً شديداً ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك فطلب ملكهم « قليدوروث » الصالح وخرج الى عبد الله وابدى ضعفاً وتواضعاً فثاقاه عيد الله ورفعته وقربه ثم قرر الصالح معه على ثلاثماية وستين راساً في كل سنة . وفي هذه السنة غزا ذا الصواري ايضاً

مقتل عثمان

وفي سنة ٣٣ هـ كثرت الاشاعة بالامصار بالطعن على عثمان وعماله وكتب بعضهم الى بعض في ذلك وتوالت الاخبار الى اهل المدينة فجاءوا الى عثمان واخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه فقال « اشيروا علي واتم شهود المؤمنين » قالوا « تبعث من تثق به الى الامصار يأتوك بالخبر اليقين » ففعل فجاءته الاخبار فكتب الى اهل الامصار « اني قد رفع الي اهل المدينة ان عمالي وقع منهم اضرار بالناس وقد اخذتهم ان يوافوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني او من عمالي او تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين »

وفي سنة ٣٥ هـ بعث الى عمال الامصار فقدموا اليه في الموسم وفيهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح من مصر فقال الخليفة « ويحكم ماهذه الشكاية والاذاعة واني اخشى والله ان يكونوا صادقين وانما الامر كائن وبابه سيفتح ولا احب ان يكون لاحد علي حجة في فتحه وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً فسكنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم » ثم قدم المدينة ودعا علياً وطلحة والزبير ومعاوية حاضر فكلهم فآظفروا له وجهه اجحافه بالحقوق

وكان عبد الله بن سعد قد استخلف على مصر عند قدومه الى عثمان عقبة بن عامر وكان فيها محمد بن ابي حذيفة ممن ثاروا على عثمان فجمع اليه عصابة واخرج عقبة بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان واسعر البلاد وعرض على عثمان بكل شريد عليه فاعتزلته شيعة عثمان واباندوه وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وبسر بن قراطط ومسلمة بن مخالد في جمع كثير وبعثوا الى عثمان بامرهم وما صنع ابن ابي حذيفة فبعث سعد بن ابي وقاص يصلح امرهم فخرج اليه جماعة فقبلوا فسطاطه وشجوه وسبوه فركب وعاد راجعاً . ولما اقبل عبد الله بن سعد من مكة منعه ان يدخل فالصرف الى عسقلان وازداد المسلمون تعصباً على عثمان فتكاتبوا من امصارهم في القدوم الى المدينة خفية فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في الف وخرج اهل الكوفة والبصرة وكلهم في مثل عدد اهل مصر ، وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج فلما اتوا المدينة واجه المصريون علياً وهو عند احجار الزيت فعرضوا اليه امرهم فصاح بهم وطردهم وفعل مثل ذلك طاحه مع البصريين وزبير مع الكوفيين فانصرفوا الى بعد . فتفرق اهل المدينة ظناً منهم ان القوم قد رجعوا عن مرادهم فلم يشعروا الا والتكبير في نواحيها وقد احاط المصريون بعثمان وفادوا بأمان من كف يده فغدا عليهم علي فقال « ما ردمكم بعد ذهابكم » قالوا « اخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا والكتاب موقع عليه من عثمان » فدخل علي على عثمان واخبره برجوع المصريين فاشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم يريد زجرهم فنادوه من كل ناحية « اتق الله يا عثمان وتب اليه » وكان اولهم عمرو بن العاص فرفع الخليفة صوته وقال « انا اول من اتعظ واستغفر الله مما فعلت واتوب اليه فليأت اشرافكم يروني رأيهم فوالله ان ردني الحق عبداً لاسن بسنة العبد ولاذان ذل العبد وما عن الله مذهب الا اليه فوالله لاعطينكم الرضا ولا احتجب عنكم » . ثم بكى وبكى الناس ورجع الى منزله فدخل عليه علي ومحمد بن مسلمة وسألوه عن اعتراضه على ما يقوله اهل مصر فخلف ما كتب ولا علم ثم دخل عليه

المصريون وقالوا له « جئنا لقتلك فردنا علي ومحمد وضعنا لنا الزروع عن هذا كله فرجعنا ولقينا رسولك ناقلاً كتاباً وفيه امرك لابن ابي سرح (ولم يكونوا عالمين باعمال ابن ابي حنيفة) بجلبنا والمثلة بنا وهو بيد غلامك وعليه خاتمك ، خلف عثمان لا كتب ولا امر ولا علم . فقالوا « كيف يجترأ عليك بمثل هذا فقد استحققت الخلع على التقديرين اذ لا يحل ان يولى الامور من ينتهي الى هذا الضعف فاخلع نفسك » فقال « لا أنزع ما البسني الله ولكني اتوب وارجع » قالوا « رأيناك تتوب وتعود فلا بد من قتلك » وخرجوا . وبقي محصوراً اربعين يوماً منع عنه الماء في اواخرها وفي ١٨ ذي الحجة دخل عليه اربعة فيهم محمد بن ابي بكر فقتلوه والقرآن في يده فنخضب بالماء . وهجمت نائلة امراته لتحميمه بيدها فاصيبت بضربة قطعت اصابعها . وبقي في بيته ثلاثاً ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم الى علي فأذن لهما بدفنه فخرجا به ومعهما الزبير والحسن وابو جهم ابن حنيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب بعد ان تولى الخلافة ١٢ سنة الا ١٢ يوماً واما علم اهل مصر بقتل عثمان نار المتشيعون له فيها وعقدوا المعاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان فساروا الى الصعيد فبعث اليهم ابن ابي حنيفة خيلاً فهزمت ومنى ابن حديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليه ابن ابي حنيفة جيشاً آخر فالتقى به في خربنا في اول شهر رمضان سنة ٣٦ فاقتتلوا وكانت النصره لشعبة عثمان وانهمزم الجيش واقامت شعبة عثمان في خربنا

خلافة علي بن ابي طالب

من سنة ٣٥ — ٤١ هـ او من ٦٥٥ — ٦٦١ م

اما ما كان من امر الخلافة فان طلحة والزبير والمهاجرين والانصار اجتمعوا الى علي ببايعونه فأبى وقال « اكون لكم وزيراً خير من ان اكون اميراً ومن اخترتم رضيت » فالحوا عليه قائلين « لانهم احق منك ولا تختار غيرك » فبايعوه في المسجد بالمدينة يوم الجمعة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥ واول من بايعه طلحة ثم الزبير ثم بايعه الناس وبايعته الانصار وتاخر منهم قليلون فخطب خطبته الاولى في الناس بعد حمد الله فقال « ان الله انزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض الفرائض ادوها الى الله تعالى يودركم الى الجنة . ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل

حرمة المسلم على الحرم كلها وشدة بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين . فالمسلم من سلم
المسلمون من اسانه ويده الا بالحق ولا يحل دم امرء مسلم الا بما يجب . بادروا امر العامة
وخاصة احدكم الموت فان الناس امامكم وان ما خلفكم الساعة تحذوكم تخففوا تلحقوا
فانما ينتظر الناس اخراهم . اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده انكم مسؤولون حتى عن
البقاع والبهائم اطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير تخفوا به واذا رأيتم الشر فدعوه
واذكروا اذا نتم قاييل مستضعفون في الارض »

ثم رجع الى بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدد من اصحابه فقالوا « يا علي انا
قد اشترطنا اقامة الحدود وان هولاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل واحلوا
بانفسهم » فقال « يا اخوتاه اني است اجهل ما تعلمون ولكن كيف اصنع بقوم يملكوننا
ولا نملكهم هاهم هولاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم اخلاطكم
يسومونكم ما شاؤا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون » قالوا لا . فقال « فلا
والله لا ارى الاريا ترونه ابداً الا ان يشاء الله . ان هذا الامر امر جاهلية وان
لهؤلاء القوم مادة وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض آخذاً بها ابداً
ان الناس من هذا الامر ان حرك على امور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون
وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق
فاهداً واعني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا واشتدوا على قريش » فخرجوا من عنده
وقد اضرروا له شراً

وكان معاوية لما توجه الى ولايته في الشام اخذ قيص عثمان الملائخ بالدماء واصابع
نائلة امراته وعلق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغرس في اذنانهم ان قاتل
عثمان انما هو علي ويحتمهم على معاملة القاتل بالقتل وشدة النكير على علي فالتفت حوله
دعائه رغبة في الانتقام

ومازاد اعداء الامام علي عدداً انه لم تدخل سنة ٣٦ هـ حتى عزل جميع من كانوا
على الامصار في ايام عثمان وولى مكانهم من راي من المتقربين فبعث عثمان بن حنيف
على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبدالله بن عباس على اليمن . ولما علم بقتل
محمد بن ابي حنيفة ولى مكانه قيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام
عوضاً من معاوية . اما سهل فخرج حتى اذا كان في تبوك لقيته خيل فقالوا من انت قال
اميئ قالوا على اي شيء قال على الشام فقالوا « ان كان بعثك عثمان فاهلاً بك وان كان
بعثك غيره فارجع » قال اما سمعتم بالذي كان قالوا بلى فرجع الى علي

قيس بن سعد على مصر

اما قيس بن سعد فكان صاحب راية الانصار مع النبي وكان من ذوي الراي والبأس وكان ضخماً جسيماً صغير الراس طويلاً جداً مطاعاً جواداً كريماً يعد من دعاة العرب ونا ولاه عليٌّ على مصر قال له «سر الى مصر فقد وليتُكها واخرج الى رجلك واجمع اليك ثقتك ومن احببت ان يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فان ذلك اربح لعدوك واعز لوليك واحسن الى المحسن واشد على المريب وارفق بالعامه والخاصة فان الرفق بمن» فقال له قيس «اما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن لم ادخلها الا بجند آتيتها به من المدينة لا ادخلها ابداً فانا ادع ذلك الجند لك تبعهم في وجوهك» فخرج قيس حتى دخل مصر في مستهل رجب سنة ٣٧ هـ بسبعة من اصحابه فصعد المنبر وامر بكتاب الخليفة فقرأ على اهل مصر بامارته ويأمرهم بمبايعته واعانته على الحق وقال «الحمد لله الذي جاء بالحق وامات الباطل وكبت الظالمين . ايها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعه لنا عليكم» فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر . وبعث عليها عماله الا خربت فيها من قد اعظموا قتل عثمان وعليهم رجل من بني كنانة اسمه يزيد بن الحرث فبعث الى قيس يدعوه الى الطلب بدم عثمان وكان مسامة بن مخلد قد اظهر الطلب ايضاً بدم عثمان فارسل اليه قيس «ويحك اعليّ ثب فوالله ما احب ان لي ملك الشام الى مصر واني قتلتك» فبعث اليه مسامة «اني كافٌ عنك ما دمت على مصر» وكان معاوية لا يزال ساعياً على علي فلما راي مصر قد استقام امرها خاف ان يقتل علي في العراق وقيس في مصر فيقع هو بينهما فكتب الى قيس «سلام عليك اما بعد فانكم نقمتم على عثمان ضربة بسوط او شتمة رجل او تسير آخر واستعمل فتى وقد علمتم ان دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيماً وجئتم امراً اذا فنب الى الله يا قيس فالك من المجلبين على عثمان فاما صاحبك فانا استيقنا انه هو الذي اغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان شئت يا قيس ان تكون ممن يطالب بدم عثمان فاقبل وتابعنا على امرنا ولك سلطان العراقيين اذا ظهرت ما بقيت ولمن احببت من اهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وساني ما شئت فاني اعطيك واكتب اليّ برأيك» فلما جاءه الكتاب احب ان يرافعه ولا يبيدي له امره ولا يتعجل الى حربه فكتب اليه «اما بعد فاني لم اعارف شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شي منه وما ذكرت ان عظم عشيرتي لم يسلم فاول الناس كان فيه قياماً عشيرتي واما متابعتك

فهذا امر لي فيه نظر وفكرة وليس هو مما يسرع اليه . وانا كافئ عنك وليس يا تيك من قبلي ما تكرهه حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى » فلما قرا معاوية كتابه رآه متقاراً بمتباعداً فكتب اليه « اما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فاعدك سالماً ولا تتباعد فاعدك حرباً وليس مثلي يصانع الخداع ويتخذ غلماً لكي يدوم معه عدد الرجال واعنة الخيل والسلام » فلما قرأ قيس الكتاب ورأى انه لا تفيد معه المرافعة والمطالبة عمد الى مكاشفته بما في نفسه فكتب اليه « اما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك في استسقاطك اياي اتسومني الخروج عن طاعة اولى الناس بالامارة واقولهم بالحق واهداهم سبيلاً واقربهم من رسول الله (صلعم) وسيلة وتأمري بالدخول في طاعتك طاعة ابعد الناس من هذا الامر واقولهم بالزور واضلهم سبيلاً وابعدهم من رسول الله وسيلة ولد الضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس . واما قولك اني مالى عليك مصر خيلاً ورجلاً فوالله ان لم اشغلك بنفسك حتى تكون اهم اليك انك لن تجد والسلام »

فلما رأى معاوية كتابه قنط منه وثقل عليه مكانه ولم تنجح فيه حيله فجعل يسمي في كيدته افساداً بينه وبين علي فقال لاهل الشام « لا تسبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة تاتينا كتبه واصيحتة سرّاً الا ترون ما يقع باخوانكم الذين عنده من اهل خبرتنا يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويحسن اليهم » واتقانا لمكيدته افعل كتاباً عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك وقراء على اهل الشام . فبلغ ذلك علياً فاعظمه واكبره فدعي ابنه وعبد الله بن جعفر واعلمهم بذلك

فقال ابن جعفر « يا امير المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يريبك لعزل قيس عن مصر » قال علي « اني والله ما اصدق بهذا عنه » فقال عبد الله اعزله فان كان هذا حقاً لا يعتزل لك . فبينما هم كذلك اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر امير المؤمنين بحال المعتزلين وكفه عن قتالهم فقال ابن جعفر « ما اخوفني ان يكون ذلك عمالاً منه فمره بقتالهم » فكتب اليه يامره بقتالهم فلما قرأ قيس الكتاب كتب جوابه « اما بعد فقد عجيبت لامرك تأمري بقتال قوم كافين عنك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فاطعني يا امير المؤمنين واكفف عنهم فان الراي تركهم والسلام »

محمد بن ابي بكر على مصر

فقرأ علي الكتاب بحضور ابن جعفر فقال له « يا امير المؤمنين ابعث محمد بن ابي بكر على مصر واعزل قيساً » فبعث علي محمد بن ابي بكر الى مصر فلما وصلها قال له قيس « ما بال امير المؤمنين ما غيره ادخل احد بيني وبينه؟ » قال لا . وهذا السلطان سلطانك

ففاك قيس « والله لا اقيم » وخرج من مصر مقبلاً الى المدينة وسار الى علي واخبره الخبر فعلم انه كان يقاسي اموراً عظماً من المكابدة

اما محمد بن ابي بكر لما قدم مصر على ما تقدم جمع اليه سراة البلاد ورجال الدولة وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين ثم قام خطيباً فقال « الحمد لله الذي هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيراً بما كان عمي عنه الجاهلون . الا ان امير المؤمنين ولاني امركم وعهد اليّ ما سمعتم وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه ائيب فان يكن ماترون من امارتي واعمال طاعة لله فاحمد الله على ما كان من ذلك فانه هو الهادي له وان رايتهم عاملاً في عمل بغير الحق فارفعوا الي وعابوني فيه فاني بذلك اسعد واتم جديرون وفقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمته »

وفي سنة ٣٨ هـ خرج معاوية بن حديج السكوني وطلب بدم عثمان فالتفت عليه قوم كثيرون وفسدت مصر على محمد بن ابي بكر

فتح عمرو بن العاص مصر ثانية

اما معاوية فكان قد استفحل امره وكثر متشيعوه فبايعوه على الشام ولم يكن له هم الا مصر وكان يخشى منها اقربها منه وكان يعتقد انه اذا ظهر عليها مكنته من الظهور على علي فتكون الخلافة كلها له . فاجتمع بعمر بن العاص وحبيب بن مسلمة وغيرهما من سراة قومه وقال لهم « اتدرون لما جمعتم فاني جمعتم لامر لي مهم » فقال عمرو « دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر فان كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر فنعم الراي رأيت في افتتاحها فان فيه عزك وعزاصحابك وكبت عدوك وذل اهل الشقاق عليك »

فقال معاوية « اهمك يا ابن العاص ما اهمك » وكان عمرو قد صالح معاوية على قتال علي على ان له مصر طعمة ما بقي حياً . فنظر معاوية الى من حضر من اصحابه وقال لهم « لقد اصاب ابو عبد الله فماترون » فقالوا « ما نرى الا ما رأى عمرو » قال « فكيف اصنع فان عمراً لم يفسر كيف اصنع »

فقال عمرو « ارى ان تبعث جيشاً كشيافاً عليهم رجل حازم صابر صارم تأمنه وتشق به فيأتي مصر فانه سيأتيه من كان على مثل راينا فيظاهاه على بعدونا فان اجتمع جندك ومن بها على رأينا رجوت ان ينصرك الله » قال معاوية « ارى ان نكتب من بها من شيعتنا فنجلبهم ونأمرهم بالثبات ونكتب

من بها من عدونا فدعوهم الى صاعنا ونمنهم شكرنا ونخوفهم حربنا فان كان ما اردنا
بغير قتال فذاك الذي اردنا والا كان حربهم من بعد ذلك . اذك يا ابن العاص بورك
لك بالشدة والعجلة وانا بورك لي بالثؤدة »

فقال عمرو « افعل ما ترى فما ارى امرنا يصير الا الحزب »
فكتب معاوية الى مسامة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني وكانا قد خالاهما عالياً
يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطاب بدم عثمان ويعدهما المساواة في سلطانه فاجاب مسامة
ابن مخلد الانصاري عن نفسه وعن ابن حديج بما نصه « أما بعد فان الامر الذي بذلنا
له انفسنا واتبعنا به امر الله امرٌ نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا وتعتجيل
النقمة على من سعى على اماننا . اما ما ذكرت من المساواة في سلطائك فتالله ان ذلك
امرٌ ما له نهضنا ولا اياه اردنا فعبجل الينا بحيلك ورجلاك فان اعداءنا اصبحوا لنا هائمين
فان يأتي مدد يفتح الله عليك والسلام » فجاءه الكتاب وهو في فلسطين فدعا اولئك
النفر وقال لهم ما ترون فقالوا نرى ان تبعث جنداً فعهد الى عمرو ان يسير في ستة
آلاف رجل واوصاه بالثؤدة وترك العجلة

مقتل محمد بن أبي بكر

فسار عمرو فنزل اداني ارض مصر فاجتمعت اليه دعاة العثمانية فاقام بهم وكتب
الى محمد بن أبي بكر كتاباً ونصه « اما بعد فتفتح عني بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا احب
ان يصيبك مني ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مساكوك
فاخرج منها اني لك من الناصحين » وبعث معه كتاب معاوية بالعلمى ايضاً . فارسل محمد
السكرتارين الى علي واخبره بنزول عمرو بارض مصر وانه راي التناقل ممن عنده
ويستقدمه فكتب اليه علي بأمره ان يضم شيعته اليه ويعده انفاذ الجيوش اليه ويأمره
بالصبر لعدوه وقتاله

فقام محمد بن أبي بكر في الناس وندبهم الى الخروج على عدوهم فانضم اليه ثلاثة
آلاف فلما رأى ذلك عمرو بعث الى معاوية بن حديج يستقدمه فامده والتقى الجيشان
فظهرت رجال عمرو وتفرقت اصحاب ابن أبي بكر . فا زال عمرو بجيشه حتى اقبل
على محمد وكان قد تخلى عنه رجاله فقر من وجه عمرو يطلب ما يجأ فانتهى الى خربة
بناحية الطريق فاوى اليها . وسار عمرو حتى دخل القسطنطين ثم ارسل معاوية بن
حديج في طلب محمد بن أبي بكر فانتهى الى جماعة على قارعة الطريق فسا لهم عنه فقال
احدهم « دخلت تلك الخربة فرايت فيها رجلاً جالساً » فقال ابن حديج « هو هو

فامسكوه « فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً واقبلوا به نحو النسطاط فوثب اخوه عبد الرحمن بن ابي بكر الى عمرو وكان في جنده وقال « اتقتل اخي صبراً فابعث الى ابن حديج فانه به عنه » فبعث اليه يأمره ان يأتيه به فخاؤا به وقد اعياه الظم فقال لهم « اسقوني ماء »

فقال له معاوية بن حديج « لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ابداً انكم منعم عثمان شرب الماء والله لاقتلتك حتى يسقيك الله من الحميم والفساق »

فقال له محمد « يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اوليائه ويظمي اعداءك انت وامثالك . اما والله لو كان سيبي بيدي ما باغتم مني هذا » فقال له ابن حديج « اندري ما اصنع بك ؟ ان اخلك جوف سمارثم احرقه عليك بالنار » فقال محمد « ان فعلت بي ذلك فطالما فعلتم مثله باولياء الله واني لارجو ان يجعلها عليكم وعلى اوليائك ومعاوية وعمرو نارا تلظى كلما خبت زادها الله سعيراً » . فغضب منه وقتله وجعله في جيفة سمار والقاه في النار . فلما بلغ ذلك عائشة اخته جزعت عليه جزعاً شديداً وقتلت في دير الصلاة تدعو على معاوية وعمرو واخذت عيال محمد اليها فكان القاسم ابن محمد بن ابي بكر في عيالهم ولم تعد تا كل من ذلك الوقت شواء . هكنا اتم فتح مصر لمعاوية على يد عمرو بن العاص فاتحها الاول

اما الامام علي فكان قد اجهد نفسه ليجمع مدداً الى محمد فلم يأت به من رجاله الا نفر قليل وبينما هو يبحث الناس على ذلك جاءه الخبر بقتل محمد بن ابي بكر وفتح مصر فاشتد غيظه وخطب في الناس قائلاً :

« الا ان مصر قد افتتحتها اهل الفجور اولو الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجاً الا وان محمد بن ابي بكر قد استشهد فعند الله محاسبه اما والله ان كان كما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحب هدى المؤمن اني والله ما الوم نفسي على تقصير واني لمقاساة الحروب لجدير خبير واني لا تقدم على الامر واعرف وجه الحزم واقوم فيكم بالرأي المصيب واستعرضكم معلماً واناديكم بتداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امرأ حتى تصيروني الامور الى عواقب المساء فانتم القوم لا يدرك بكم النار ولا تنقض بكم الاوتار . دعوتكم الى غياث اخوانكم من بضع وخمسين ليلة فتجر جرتهم جرجرة الجمل الاشدق وشاقلتم الى الارض شاقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الاجر ثم خرج الي منكم جنيد متذائب كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون فافيه انكم » ثم نزل .

وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ قتل الامام علي بن أبي طالب وبويع ابنه الحسن مكانه وبقي هذا على كرسي الخلافة ستة اشهر فدخلت سنة ٤١ هـ وفيها تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان خليفة الشام ومصر وهذا لم يحل عن مقصده حتى بلغه فنودي به اميراً للمؤمنين وبويع لخمس بقين من ربيع الاول سنة ٤١ هـ

نقود الخلفاء الراشدين

اما النقود فقد كان العرب في الجاهلية يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدينهم . فكان في جملة عوامله السكة . ف ضربوا الدراهم والدنانير اولاً مشتركة بينهم وبين الروم او الفرس . منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة وهي رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى احد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (ΧΑΛΕΔ) وهذه الاحرف (BON) ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني انها مقتطعة من « ابوسايمان » كنية خالد بن الوليد وهناك قطعة أخرى ضربت باسم معاوية . ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله الا اسم معاوية عليه (راجع الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي)

وذكر الدميري ضرباً من النقود يقال

لها البغلية قال ان رأس البغل ضربها لعمر ابن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتمت الكرمي مكتوب بالفارسية « نوش خور » اي كل هنيئاً

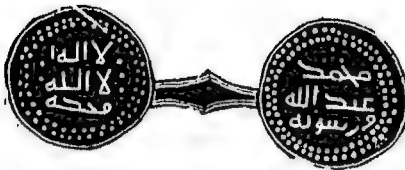
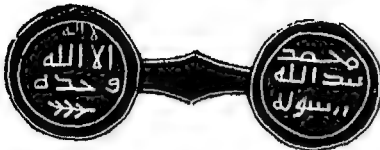
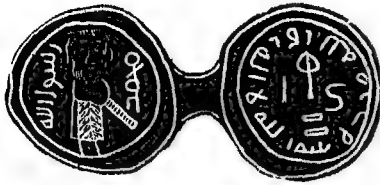
وذكر المرجوم جودت باشا انه رأى

نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين اقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ

في قصبة هزتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفي « بسم الله ربي » ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة ايضاً وتقدم ضرب سنة ٦١ هـ في يزد على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين »

بخط بهلوي . وهناك نقود نحاسية ضربت على عهد الراشدين بغاية البساطة وعلى بعضها

رسوم قله واجها نقود الفرس كما تقدم (انظر ش ٢٧)



ش ٢٧ - نقود الخلفاء الراشدين

الدولة الاموية

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ او من ٦٦١ - ٧٥٠ م

خلافة معاوية بن ابي سفيان

من سنة ٤١ - ٦٠ هـ او من ٦٦١ - ٦٨١ م

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة خلفاء بني أمية واولهم معاوية بن ابي سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية وقصبتها المدينة فجعلها معاوية وراثية وجعل قصبتها دمشق فلنحصرت اعقابها . وشرع في تولية العمال على الامصار وكانت مصر من اهم تلك الامصار فعهد بامرها لعمر بن العاص لما عرف من علو همته وحسن سياسته وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها . فعقد عمرو لشريك بن سمي لغزو البربر في شمالي افريقيا فغزاهم وصالحهم ثم انتقضوا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة ايضاً على غزو هوارة وعقد لشريك على غزو بلدة فغزواها في سنة ٤٣ هـ ولما قفلا كان عمرو شديد الدنف يتقلب على فراش الموت فتوفي ليلة الفطر من السنة المذكورة وكان قصير القامة يخضب بالسواد وكان من افراد الدهر دهاء وحزماً وفصاحة الا انه كان يتلجلج بكلامه ولما علم معاوية ب وفاة عمرو تكبر كدراً عظيماً جداً لانه لم يعد يعلم لمن يعهد بولاية مصر بعده . وبعد التردد في الامر لم يربدأ من تولية احد اهلها فارسل اليها عتبة بن ابي سفيان أخاه في ذي القعدة من سنة ٤٣ فسار اليها وبعد ان اقام اشهرأ عرض له سفر الى اخيه معاوية بدمشق فاستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث وكان في شدة وعسف فكره المصريون ولايته وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فاضطر الى الرجوع الى مصر ولما جاءها صعد منبر الخطابة فقال :

« يا اهل مصر قد كنتم تمذرون ببعض المنع . نكم ابعض الجور عايكم وقد وليكم من اذا قال فعل فان ايتم درأكم بيده فان ايتم درأكم بسيفه ثم رجى في الاخير ما أدرك في الاول . ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل واينا عذر فلاذمة له عند صاحبه » فناداه المصريون من جنبات المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » ونزل وعقد عتبة لعقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثني عشر الفأ تكون لها رابطة

وتوفي عتبة في الفسطاط في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ وكانت مدة ولايته سنة كاملة فاقام معاوية عوضاً عنه عقبة بن عامر بن عبس الجهمي وجعل له صلاتها وخراجها وكان عقبة قارئاً فقيهاً مفرضاً شاعراً له الهجرة والصحة والسابقة الا انه لم يكن من السياسة وحسن التدبير على ما يرضي معاوية فولى مكانه مسامة بن مخلد بن صامت الانصاري وكان من سراة المدينة وامره ان يكتم ذلك لينما يخرج عقبة من مصر بحيلة ففي ١٩ ربيع الاول سنة ٤٥ هـ انفذ معاوية امره الى عقبة ان يسير الى رودس بحراً فقدم مسامة ورافق عقبة الى الاسكندرية وهو لا يعلم بامارته فلما توجه سائراً استوى مسامة على سرير امارته فبلغ ذلك عقبة فقال « أخلاً وغربة » وكانت مدة ولايته ثلاثة اشهر وقيل سنتين وثلاثة اشهر . واخذ مسامة في اجراء الاحكام وجمع الصلات والخراج وانتظمت غزواته في البر والبحر فانفذ الى الغرب جيوشاً وشاد مدينة القيروان واقام حولها حصوناً ومعقل وجعل فيها حامية . وفي سنة ٥٣ هـ في امارته نزلت الروم البرلس وقتل يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين وامر مسامة بابتناء منارات المساجد وهو اول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع . وفي سنة ٦٠ هـ سافر مسامة بن مخلد الى الاسكندرية واستخلف على مصر عابس بن سعيد وفي هذه السنة توفي معاوية في دمشق في غرة رجب وسنه ثمان وسبعون سنة ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وخمسة ايام

خلافة يزيد بن معاوية

من سنة ٦٠ — ٦٤ هـ او من ٦٨١ — ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة معاوية بوبع ابنه يزيد فأقر مسامة بن مخلد على مصر فكتب اليه باخذ البيعة فبايعه الجند الا عبد الله بن عمرو بن العاص فهددوه بالحريق فبايع ولم يكن يزيد اهلاً للخلافة ولولا قانون الوراثة الذي سنه ابوه ما بلغ عمره هذا المنصب لانه كان متبعاً هوى نفسه متغاضياً عن واجباته . فحرك ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير على اقامة الحجة عليه وكانا في المدينة فبعث يزيد الى حاكمها ان يقبض عليهما ففراً منها وسار الحسين الى العراق لان اكثر شيعة ابيه هناك وقد التفت عليه حزب كبير من اهل الكوفة وغيرها فأرسل يزيد الى عبيد الله بن زياد عامله هناك بدفعه فبعث اليه جنداً قتلوه افظع قتلة وأنوا برأسه الى يزيد . لكنه لم يكذب يبلغ مناه بقتل الحسين

حتى قام عبد الله بن الزبير في مكة فشدد عليه النكير وهو يطلب الخلافة لنفسه . وكانت مصر في اثناء ذلك ساكنة آمنة وفي ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ توفي اميرها مسلمة بن خالد بعد ان تولاها خمس عشرة سنة واربعة اشهر فولى الخليفة مكانه سعيد بن يزيد الازدي من اهل فلسطين فدخل مصر في مستهل رمضان سنة ٦٢ هـ فتلقاء عمر بن حزم الخولاني وقد شق عليه تولية من هو من غير بلاده عليه فقال « يغفر الله لامير المؤمنين اما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك يولي علينا احدهم » ثم جعل اهل مصر يرضون عنه ويعارضونه في احكامه ولكنه كان حازماً لم يشته ذلك عن اقامة الحد واتباع العدل فسادت الراحة واستتب النظام الى اخر ايامه

وما زالت الاحزاب في مكة والمدينة يشددون النكير على يزيد الى ان اجتمعوا على خلعه رغم كثرة دعاة الامويين واخرجوا من كان منهم في المدينة فانفذ يزيد ١٢ ألفاً من رجاله عليهم مسلمة بن عقبة المرسي لمحاصرة المدينة وامرهم ان لا يكفوا عنها الا اذا اذعننت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنيمة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر . وكان ذلك في سنة ٦٣ هـ

وفي سنة ٦٣ هـ بويع عبدالله بن الزبير على الخلافة في مكة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها . من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحُصين بن الغير الى مكة فحاصرها وقاتل اهلها ورمها بالمنجنيق فاحرق الكعبة . كل ذلك وابن الزبير فيها دافع بالشيء الممكن الى ان جاءه الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب وكانت وفاته في حوارين من اعمال حمص في ٤ ربيع اول سنة ٦٤ هـ بعد ان تولى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الا بضعة ايام وسنه ٣٩ سنة

خلافة معاوية بن يزيد

ثم عبدالله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ — ٦٥ هـ او من ٦٨٤ — ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابنه معاوية وسنه عشرون سنة ويدعوه بعضهم معاوية الثاني تمييزاً له من معاوية بن ابي سفيان جده وبعد ٤٥ يوماً من مبايعته توفي ولا ولد له

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف اهل الحجاز بمبايعة عبدالله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة من يوم بايعوه لما رأى من كثرة احزابه وعجزه عن مناهضته فزهد في الدنيا مع صغر سنه وطلب ان يكتب على قبره «الدنيا غرور» وكان عبدالله بن الزبير رجلاً مؤدباً فطناً جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة وقائع وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوه الزبير واخوه محمد من جيشه ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهوداً . ولما ارسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله بن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبدالله بن الزبير معه . ومن اخلاقه انه كان مثابراً في اعماله ثابتاً في مقاصده فلم ينفك منذ اختلاس معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليه ثم على ابنه يزيد ثم على ابن ابنه معاوية الثاني حتي ظفر بمرامه ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطاً بجيش من اليبوس فلم يعلموا بالخبر مادوا على اعقابهم الى الشام فاستولى عبدالله على المدينة والحجاز واليمن وبايعه من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى احرقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عايداً سعيد الازدي كما مر وكان عبدالله بن الزبير على بينة من امر مصر واهميتها فانفذ اليها عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم واوصاه ان يدعو الناس الى مبايعته غير ان سعيداً الازدي كان لا يزال متشعباً للامويين فلم يقبل على دعوة عبدالله من المصريين الا بعضهم ولم ترسخ قدم عبدالله بن الزبير في الخلافة الا بعد وفاة معاوية ابن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسماً من مصر يدعو باسمه فلم يعد في خشية من شيء فصرح بخلافته . ثم هم باخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسله اليها وكيلاً فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ واخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعد الازدي فبايعه الناس وفي قلوب بعضهم غل*

اما اهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحسك من بني امية فعظم ذلك على عبدالله بن الزبير وقام لنصرته الضحاك بن قيس في جيش من رجاله فساروا الى قرب دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية للملاقاة فالتقى الجيشان في مرج راهط ففصلت بينهما وقائع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبدالله

وكان مروان قد انفذ ابنه عبد العزيز في جيش من اهل الشام لفتح مصر اما بعد

ظفره بجيش ابن الزبير في مرج واهط فاشتدت عزيمته وحمل بكل جيشه على مصر . فلما علم اميرها عبد الرحمن بن عتبة بذلك اخذ في الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال اثره باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعه عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليه واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يظفرا احدهما بالآخر . وبينما كان الجيشان في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في نخبة من رجال مروان قاصداً الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم يرد بدأ من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٥ هـ فكانت مدة اماره ابن جندب تسعة اشهر وفي هذا اليوم توفي عبدالله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بمنازته الى المدافن لشعب الجند على مروان فدفنوه في بيته قرب جامع عمرو . اما مروان فلم يكن واثقاً بالمصريين واخلاصهم وخاف ان يستغيثوه ويعقدوا لعبد الله بن الزبير فولى عليهم ابنه عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يده على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فباعه جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالوا لا نخاع بيعة ابن الزبير فقطع اعناقهم وعنق ابن همام رئيس قبيلة لخم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس واجمعوا على مبايعته فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد بمهامها الى ابنه عبد العزيز وهم بالرحيل فقال له ابنه « يا امير المؤمنين كيف المقام في بلدة ليس بها احد من بني ابي » قال له مروان « يا بني عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك واجعل وجهك طامعاً تصف لك مودتهم ووقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عيناً على غيره وينقد قومه اليك وقد جعلت معك اخاك بشراً مؤسماً وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني ان تكون اميراً باقصى الارض . اليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في منزل ؟ » ثم اوصاه عند خروجه من مصر الى الشام قائلاً « اوصيك بتقوى الله في سر امرك وعلايته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون واوصيك ان لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً واوصيك ان لاتعد الناس موعداً الا انذنته لهم ولو حملته على الاسنة . واوصيك ان لاتعجل في شيء من الحكم حتى تستشير فان الله لو اغنى احداً عن ذلك لاغنى نبيه محمداً (صلعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم في الامر » وخرج مروان من مصر ليلال رجب سنة ٥٥ هـ والحرب لانزال سجالاً بين دعاة مروان ودعاة عبد الله بن الزبير

خلافة عبد الملك بن مروان

من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ او من ٦٨٤ — ٧٠٥ م

وفي غرة رمضان من تلك السنة توفي مروان وله من العمر ٦٣ سنة فبويع ابنه عبد الملك فاقر اخاه عبد العزيز على مصر واخذ في متابعة مشروع ابيه فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعيًا في تعميم خلافته . وفي آخر الامر ارسل اليه الحجاج بن يوسف فحاصر عبد الله بن الزبير في مكة مدة سبعة اشهر وفي نهاية سنة ٧١ هـ قتل عبد الله بن الزبير فخلا الجو لعبد الملك وكانت وفاته فصلًا نهائيًا لذلك الخصام بعد ان استمر عشر سنين متوالية ومملكة الاسلام تتنازعها خلافتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ هـ امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالجرعاء القصوى وبني مقياسًا للنيل في حلوان وهو اول مقياس بناه المسلمون في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بنى مقياسًا قبل ذلك ولا دليل على صحة هذا القول

وفي سنة ٧٠ هـ وقع الطاعون في مصر فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها دارًا وجعل فيها الاعوان وبني فيها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخيلها وكرمها

وفي سنة ٧٢ هـ هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه وفي ايام عبد الملك ضربت الدنانير المنقوشة الفضية والذهبية

وفي آخر ايام هذا الخليفة تم بناء القصر الجميل المدعو الدار المذهبية في شارع سوق الحمام

وكانت طائفة الكهنة الاقباط معفاة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم ديناراً وعلى البطارقة ثلاثة آلاف دينار سنوية

وسنة ٨٦ هـ توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٣ جمادى الاولى بعد ان حكم فيها عشرين سنة وعشرة اشهر و١٣ يوماً وكان جواداً حليماً حازماً بشوشاً فتولى بعده عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل ابيه على صلاتها وسنه ٢٩ سنة وطلب اليه ابوه ان يقتفي آثار عمه عبد العزيز بالفطنة والدراية



خلافة الوليد بن عبد الملك

من ٨٦ - ٩٦ هـ أو من ٧٠٥ - ٧١٤ م

وفي هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان ويبيع ابنه الوليد بن عبد الملك الملقب بابي العباس فاقرّ اخاه عبد الله على مصر . وفي ايام الامير عبد الله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لا تنزل الى ذلك الحين بالقبطية يتولى امرها انتاش فعزله وولى مكانه بن يربوع الفزاري من اهل حمص . وغلت الاسعار في امارته فتشاءم الناس به وقالوا انه كان يقبل الرشوة ثم وفد على اخيه في صفر سنة ٨٨ هـ واستخاف عبد الرحمن بن عمر بن قحزم الخولاني واهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف اما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكماً حقاً ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروبا كثيرة عاد منها ظافراً . منها الحروب الهائلة مع أمراء تركستان والفرس والهند وملك القسطنطينية وقد فتح طوانه من بلاد الروم والاندلس وسمرقند كل هذه الفتوحات والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٣ ربيع اول سنة ٩٠ هـ اقيم على مصر قرّة بن شريك من اهل قنسرين بدلا من عبد الله بن عبد الملك واحيا قرّة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقبل لها اصطبل قرّة واصطبل القماش

وقد تشكى القبط من جوره فهم يقولون انه كان يحنقر اعتقاداتهم ويدخل احيانا الى كنائسهم ومعه رجال من حاشيته ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٣ هـ اعاد قرّة بن شريك بأمر الوليد بن عبد الملك بناء جامع عمرو . وفي سنة ٩٦ هـ توفي قرّة في الفسطاط فأقيم مقامه عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قرّة سيء التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً وبعد ثلاثة اشهر من امارته توفي الخليفة الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد ان حكم ٩ سنين ونصف وسنه ٤٨ سنة وقد



بنى مقياساً للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفه وقال آخرون ان المأمون امر بهدمه . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هـ

ش ٢٨ : نقود الوليد بن عبد الملك

خلافة سليمان بن عبد الملك

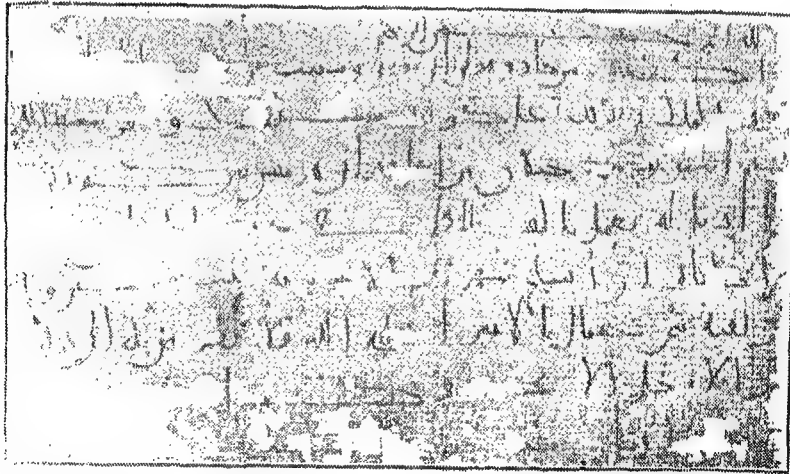
من سنة ٩٦—٩٩ هـ أو من ٧١٤—٧١٧ م

وبعد وفاة الوليد بويع اخوه سليمان بن عبد الملك الملقب بابي ايوب قسار على خطوات اخيه في توسيع نطاق مملكته ففي اول سنة من خلافته فتح طبرستان وجورجيا وارسل اخاه مسامة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصاراً شديداً وعند اول خلافته اقرَّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها اسامة بن يزيد المشهور بالظلم ولقبه بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين واقباط على استبداد هذا الرجل وعسفه . ومما جعلهم يزيدون ظمناً منه انه لم يكتف باعلان الرهبان باستقرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنه امر ان يلبس كل منهم في كل سنة خاتماً من حديد في اصبعه عليه اسمه يأخذه من جاني الخراج اشارة الى خلو طرفه ومن يخالف ذلك تقطع يده فاذا اصر على المخالفة يقتل فكانت العساكر تطوف الاديرة والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس زكية وربما كانوا يرون قتلها واجباً . وكان اسامة مع ذلك يظهر رغبة شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى آخر يتفقد الارض وريها وينتبه خصوصاً لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعمل سنة ٩٦ هـ بسقوط مقياس حلوان فأعلم الخليفة بذلك فأمر باغفاله واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين الفسطاط والجزيرة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المار في النيل صاعداً او نازلاً ولا يمر الا من كان في يده جواز مؤذن له بذلك بعد اداء المبلغ المفروض ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونيل تذكرة المرور بكل مشقة نظراً لضيق ذات يدها فحدث وهي في اثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقيماً فاخبطه تمساح وابتلعه وثيابه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبه . ولما وصلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وابى الا ان تبرز تذكرتها فاخبرته ما كان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاعلق اذنيه عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت ما في يديها ودفعت الفلس الاخير

كل هذه الاجراءات وغيرها جعلت المصريين في قنوط فثاروا على اسامة يطلبون الانتقام وينبأهم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جاشهم على

امل ان ينالوا ما يريدون ممن يخلفه وكانت وفاته في ٢١ صفر سنة ٨٩٩ هـ وهو ببني مدينة الرملة في فلسطين بعد ان حكم سنتين وثمانية اشهر وخمسة ايام وسنه ٤٥ سنة فبويج ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملقب بابي حفص لانه لم يكن من اخوته وولده من يصالح للخلافة



ش ٢٩ - صورة رسالة عربية على البايبروس في ايام بني امية

خلافة عمر بن عبد العزيز

من ٩٩ - ١٠١ هـ او من ٧١٧ - ٧٢٠ م

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز محباً للعدالة فرفع اليه المصريون شكاوهم على اسامة فأمر بعزله وتولية ايوب بن شرحبيل . وكان هذا ورعاً منزحاً مستقيماً عادلاً فزاد في الاعطائيات وعطل الخازنات فالتوى المصريون ما كان من استبداد اسامة وغلاظته ثم بعث اليه الخليفة بالقبض على اسامة وتكيله بالحديد وتسمير يديه ورجليه باطواق من الخشب وارسله اليه ففعل فأت اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شريح فبلغ عمر بن عبد العزيز انه يطلب المسلمين بالجزية فعظم عليه ذلك وكتب اليه «أري يا حيان ان تضع الجزية عنهم اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة نخلوا سبيلهم ان الله

غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون « فأجابه حيان « اما بعد فان الاسلام قد اضرّ بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تمت بها عطاء اهل الديوان فان راى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل « فكتب اليه عمر « اما بعد فقد باغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد امرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطاً فضع الجزية عن اسلم قبج الله رايبك فان الله بعث محمداً (صاعم) هادياً ولم يبعثه جانياً واعمرى لعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يده « وفي ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة اشهر و١٤ يوماً فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موته فبويج يزيد بن عبد الملك

خلافة يزيد بن عبد الملك

من ١٠١ — ١٠٥ هـ او من ٧٢٠ — ٧٢٤ م

فأقر يزيد ايوب بن شرجبيل على مصر ثم انفذ اليه ان يسام الحكم لبشر بن صفوان السكلي وبعد يسير امره ان يتوجه الى افريقية واقام مكانه حنظلة بن صفوان وفي ايامه امر الخليفة بتكدير ما بقي من التمايل والاصنام في مصر فكسر معظمها . وفي سنة ١٠٤ هـ عزل حنظلة وتولى الامارة محمد بن عبد الملك اخو الخليفة . وفي ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك في حران فبويج اخوه هشام ولم ير المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

خلافة هشام بن عبد الملك

من ١٠٥ - ١٢٥ هـ أو من ٧٢٤ - ٧٤٣ م

فلما بويع هشام أمر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر وأقام عليها الحر بن يوسف وفي أمارته كان أول انتفاض القبط سنة ١٠٧ هـ ثم وفد إلى الخليفة واستعفى من الإمارة في سنة ١٠٨ هـ فولى مكانه حفص بن الوليد وفي سنة ١٠٩ هـ استبدل حفص بعبد الملك ابن رفاعة وفي تلك السنة توفي ابن رفاعة فتولى مكانه بأمر أمير المؤمنين أخوه الوليد ابن رفاعة

وفي ولايته نقلت قبيلة قيس إلى مصر ولم يكن فيها أحد منهم فأنزلوا في الحوف الشرقي (الشرقية) وفي أيامه خرج وهيب اليحصبي شاردأ في سنة ١١٧ هـ من أجل أن الوليد أذن للنصارى في إبتناء كنيسة يومنا بالجرء . وفي هذه السنة توفيت السيدة سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب . وتوفي الوليد في الفسطاط وهو وال أول جمادى الآخرة سنة ١١٧ هـ بعد أن حكم تسع سنين . فتولى مكانه عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفه حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة ست سنوات وكان طائفاً غشوماً رغم رغبة الخليفة إليه أن يعامل الناس بالرفق والمعروف ولم يكنف بالضرائب المفروضة على الانسان ففرضها على الحيوانات وكان يحتم الوصول المعطاة منه بحتم عليه صورة اسد وكان يقطع يد كل من لم يكن ناقلاً هذا الرسم من المسيحيين

فكاتب المصريون الخليفة بشأن ذلك فأنفذ اليه في سنة ١٢٤ هـ يعزله عن مصر ويأمره ان يتوجه الى أفريقيا ففعل فولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لامارته . وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥ هـ توفي الخليفة هشام بن عبد الملك وسنه ٥٦ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر و ١١ يوماً ومن أعماله التي تستحق

الذكر انه تغلب على الروم

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ كما ترى في الشكل

الثلاثين



ش ٣٠ نقود الخليفة هشام

خلافة الوليد بن يزيد

من ١٢٥ — ١٢٦ هـ او من ٧٤٣ — ٧٤٤ م

ولما توفي هشام بويج الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس أمر بصرف حفص عن مصر مع ما عرف به من النزاهة والاستقامة وثقة الاهالي فيه وأقام عوضاً عنه عيسى ابن أبي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء فأثار بسوء تصرفه خواطر المصريين ثانية . والخليفة لم يكن أحسن سياسة منه لانه جمع جميع الصفات التي تحط من قدر الملوك فأثار عليه رطايه ولاسيما أهل الشام فشقوا عصا الطاعة وطلبوا أن يبدل يزيد بن الوليد بن عبد الملك وطلبوا من هذا اذا كان يقبل ذلك فاجاب بالاجاب وجعل لمن يأتيه برأس الوليد بن يزيد مائة الف دينار ثم قتل الوليد وسنه ٤٢ سنة ولم يحكم الا سنة واحدة وشهرين و٢٠ يوماً



خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد

من ١٢٦ — ١٢٧ هـ او من ٧٤٤ — ٧٤٥ م

فبويج يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادى الآخرة من سنة ١٢٦ هـ الا أن تلك المبايعة لم تكن كافية لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى أطراف العالم الاسلامي حتى هددت المملكة بالسقوط . فان اهل حمص لم يبايعوا يزيد بل قاموا يطالبون بدم الوليد . وسليمان بن هشام نجح من سجنه في عمان وجمع اليه أجناداً وسار الى دمشق يطالب بحقوق الخلافة . وأهل فلسطين ثاروا على أميرهم وقتلوه . ومروان بن محمد الحمار جرد من أرمينيا مطالباً بدم الوليد . وكان جيشه غفيراً فلما بلغ حران خافه يزيد فكتبه وعاهده على ان يخلي له مابين النهرين وارمينيا واذر ييجان حقناً لدماء العباد . وبعد ذلك يسير توفي يزيد بالطاعون وسنه ٤٠ سنة ولم يحكم الا خمسة اشهر وعشرة ايام

وفي يوم وفاة يزيد بويج ابراهيم بن الوليد اخوه من ابيه ولم تكن تلك المبايعة مفرحة له لانه جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب . فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرد جيشاً من ٨٠ الف مقاتل الى قنسرين ينكر المبايعة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام للملاقاة في حمص وكان

مروان ينتحل سبباً يسوغ له الهجوم على دمشق فادعى انه جاء لاتخاذ الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسأله اذا كان يوافقه على خلع الخليفة ابراهيم وتولية أحد أبناء الخليفة السابق فأبى فخاربه مدة ففر سليمان ورجاله الى دمشق . فلما دخلها تعاهد مع الخليفة ابراهيم وجعلوا ايديهم على الخزان ثم اخرجوا ابني الوليد من السجن وقطعاعنقيهم لانهما منشأ تلك المتاعب لعلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل أبناء اخيه بغير الحق لا يصلح للخلافة وطالب خلعه وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ هـ ووضع يده على الاحكام ودعا الى مبايعته فبايعه الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانه اشترى حياته بهـنـه المبايعه وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات

خلافة مروان بن محمد

من ١٢٧ — ١٣٢ هـ او من ٧٤٤ — ٧٥٠ م

وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الأول أبو عبد الملك لقب به يوم ولادة ابنه البكر والثاني الجادي نسبة الى عمه جاد بن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً به اكثر مما بغيره واصل تلقبيه به انه كان ثابتاً في الحروب فلقبوه بحمار الوحش ثم اهمات الكلمة الثانية فتنوسيت وبقيت الاولى وحدها . فلما تمت له المبايعه سنة ١٢٧ هـ ابدل حفص ابن الوليد أمير مصر بحسان بن عتاهية النجيب فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليه وقالوا لا نرضي الا بحفص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في داره وقالوا اخرج عنا فانك لا تقيم معنا ببلد فأخرجوه بعد ١٧ يوماً من توليته وأخرجوا معه عيسى بن أبي عطاء صاحب الخراج فولى مروان على مصر الحفص ابن الوليد وهي المرة الثالثة لولايته عليها . وفي سنة ١٢٨ هـ صرفه مروان وولى مكانه الحوثر بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الاف باول الحرم وقد اجتمع الجند على منعه فأبى عليهم حفص فخافوا حوثره وسألوه الامان فأمهم ونزل في ظاهر الفسطاط . وبعد سنة ونصف (في ٢٤ رجب سنة ١٣١) عزل حوثره وولى مكانه المغيرة بن عبيد الله الفزاري وبعد يسير توفي المغيرة وولى مكانه عبد الملك بن موسى وكان والياً على الخراج فلما تولى الامارة امر باتخاذ المنابر في السكور

ولم تكن قبله وكان ولاية الكور يخطبون على العصي الى جانب القبلة . والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية . لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في أنحاء المملكة الاسلامية فثارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوته كما علمت فسامها الرضوخ فأبت . ومثل ذلك فعات دمشق وكانت اول من دعا الى بيعته وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشه الى قنسرين فحاربه مروان وقتل من رجاله ثلاثين ألفاً فانهزم سليمان الى حمص وحاصر فيها فجهز اليه مروان وحاصره هناك

وكثر منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم أبو العباس الهاشمي أول خلفاء الدولة العباسية وكان قد بايعه الفرس في اقصى الشرق (خراسان) بمساعدة أبي مسلم الخراساني وكان قد ارسله اليها داعياً وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنه أظهر همة ودراية لا تتفقان الا بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليه وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بها فتقدم الى العراق حتى أتى الكوفة فافتتحها وخطب فيها لابي العباس . أما مروان فلم يظفر بجمص وسار الى الموصل فاضطهده اهلها ففطن من الفوز فعاد على اعقابه الى سوريا فقرأها مجمعة على عصيانه فلم ير له مائجاً الا مصر لانها كانت لاتزال الى ذلك الحين على بيعته

أما أبو العباس فلما استتب له الامر في الكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمه ولاية اختارهم من ذويه ثم بايعه اهل الشام ومن والا هم . وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي أقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى أبو العباس تثبيتاً لقدمه في الخلافة ان يقتل كل من بقي من ابناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوه فامر بالقبض عليهم وهم ثمانون نفساً بين نساء ورجال واولاد فامر بذبحهم معاً بغير شفقة فلقلب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينج من هذه المذبحة الا شاب يقال له عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام فرّ الى الاندلس (اسبانيا) وأسس فيها دولة اخرى اموية

اما مروان فاجاء مصر على ان يستبقها له فارسل عبد الله عم ابي العباس اخاه صالح بن علي يقتفي اثره وامره ان يقبض عليه باي وسيلة كانت فصار صالح في جيش عظيم ومعه ابو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسماً من الفسطاط في اول عهدها ثم صار خراباً . فأمر ابو عون اصحابه بالبناء فيه فابتنوا وقاموا فيه معسكرهم ودعوه بالعسكر واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه بعد ذلك دار الامارة وجامع عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار امراء مصر ينزلون فيه من بعد ابي عون

الى ان بنى احمد بن طولون القطائع واقام فيها قصره
ثم اخذ صالح بن علي في مطاردة مروان فأدركه في قرية بوصير من الجيزة وقتله
في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ١٣٢ هـ وسنه سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل راسه
الى ابي العباس السفاح ، وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهراً واحداً وهو
آخر خليفة من الدولة الاموية بالشام

الدولة العباسية للمرة الاولى

من سنة ١٣٢ — ٢٥٧ هـ او من ٧٥٠ — ٨٧٠ م

خلافة ابي العباس بن محمد

من ١٣٢ — ١٣٦ هـ او من ٧٥٠ — ٧٥٤ م

بويج الخليفة ابو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح في ١٣ ربيع اول سنة
١٣٢ هـ وهو من سلالة العباس بن عبد المطلب واول الخلفاء العباسيين فأقال ولاية الامصار
الذين كانوا قبل خلافته وابدلهم بولاية من اقاربه وذويه . فجعل على مصر عمه صالح بن
علي قائل مروان . فسار صالح حتى دخلها في محرم سنة ١٣٣ هـ وبعد يسير بعث الى
الخليفة وفدأ من اهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك بن موسى وجاعته وقتل
كثيراً من دعاة بني أمية وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقانسوة من ارض فلسطين
وفي غرة شعبان سنة ١٣٣ هـ ورد اليه كتاب امير المؤمنين بامارته على فلسطين وان
يستخلف على مصر من اراد فاستخاف ابا عون عبد الملك بن يزيد نائباً عنه وسار
ومعه عبد الملك بن نصير وعدة من اهل مصر

وفي ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافته بعد
ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و٨ اشهر و٢٦ يوماً وسنه ٣٣ سنة ونصف وهو
اول من اتخذ وزيراً لان خلفاء بني أمية لم يكونوا يستوزرون ولكنهم استكتبوا

خلافة المنصور بن محمد

١٣٦ - ١٥٨ هـ أو من ٧٥٤ - ٧٧٥ م

وخلف ابا العباس اخوه المنصور بن محمد الملقب بابي جعفر واتخذ الهاشمية سريراً للملكة كما فعل سلفه . وفي سنة ١٤٠ هـ عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائباً فيها وفي سنة ١٤١ هـ عزل ابا عون عن مصر وولى موسى بن كعب وكان احد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولى محمد بن الاشعث الخزاعي واراد توليته امر الخراج فابي فتولاه نوفل بن الفرات ثم رأى بعد حين ان اهل الدواوين مالوا بكايتهم نحو صاحب الخراج فقدم وآل الامر الى نفور بينه وبين نوفل . وفي ٥ رمضان سنة ١٤٣ هـ صرف محمداً وولى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش . وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ صرفه وولى يزيد بن حاتم المهلبى

فترى انه ثقل على مصر في مدة لا تتجاوز سبع سنوات ستة امراء الامر الدال على ما فطر عليه المنصور من الثقل فانه كان لا يثق باحد ولا يقر على امر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلك على ذلك ما كان من امره مع ابي مسلم الذي له الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيه ما وصات الخلافة الى يدهم . فانه بمجرد ما قيل له ان ابا مسلم متشيع لاهل البيت امر بقتله . ولشدة هواجسه ترك الهاشمية التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ هـ) سريراً للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . ثم خلع عن ولاية العهد ابن اخيه عيسى بن موسى وكان السفاح قد اوصى له بها بعده . وباع لابنه محمد المهدي بن المنصور مكانه على ان يكون عيسى المذكور خليفة بعده

اما يزيد بن حاتم فتولى مصر في ايام المنصور نحواً من ثمانين سنين عمل فيها بامانة . وفي امارته ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وباع كثير منهم لهلي ابن محمد بن عبد الله وطرق المسجد في ١٠ شوال سنة ١٤٥ هـ ثم قدمت الخطباء براس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي في ذي الحجة فنصب في المسجد . وفي تلك السنة منع يزيد اهل مصر من الحج ولم يحج منهم احد ولا من اهل الشام لما كان في الحجاز من

اليهم جيشاً فرجع منهزماً . وفي سنة ١٥٢ هـ توفي يزيد بن حاتم واقام المنصور عوضاً عنه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وهذا لم يحكم مصر الا ٣ سنين . وفي سنة ١٥٥ هـ اُبدل باخيه محمد بن عبد الرحمن . وفي سنة ١٥٦ هـ توفي محمد المذكور فولى مكانه موسى بن علي بن رباح . ولداعي هذه التغيرات الكثيرة في اماره مصر لم يرتح اهلها فلم يكن لها فرصة للتقدم خطوة نحو الامام لاعتقاد كل حاكم انه عن قليل معزول فبدلاً من ان يسعى في زرع ماربما لا يستغله كان يسعى فيما فيه نفعه الشخصي ولذلك كان كل واحد منهم يزيد في مقدار الضرائب المفروضة او يخترع ضرائب جديدة بحيث انه لم يبق شيء معفى من الضرائب حتى الفعلة وبائعى البقول وقادة الجمال وكل الصنائع حتى المتسولين كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب فعمّ البلاء واشتدّ الجوع فاكل الناس السكّاب ولحم الادميين

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بير ميمون على بضعة اميال من مكة حيث توجه لقضاء فروض الحج وكاف عمره ٦٣ سنة ومدة حكمه ٢٢ سنة الا ٧ ايام . وهذه صورة من النقود التي ضربت في ايام الخليفة المنصور سنة ١٤٦ هـ (انظر ش ٣٢)



ش ٣٢ — نقود المنصور

خلافة محمد المهدي

من سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ او من ٧٧٥ - ٧٨٥ م

تخلّفه محمد المهدي ابنه وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كاهيه متقلّباً متردداً وفي سنة ١٥٩ هـ صرف موسى بن علي عن مصر وولى محمد بن سليمان من اهالي سوريا ثم عزله واعاد موسى بن علي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولى عيسى بن لقمان الجمحي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف عيسى وولى واضحاً مولى ابي جعفر وبعد يسير ابدله بمنصور بن يزيد الرعيني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٣ هـ ابدله بجي بن داود الملقب بابي صالح من اهل خراسان وكان ابوه تركياً وهو من اشد الناس

واعظمهم هيبة واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبة فنع من اغلاق الدروب ليلاً ومن اغلاق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب . ومنع حراس الحمامات ان يجلسوا فيها وقال « من ضاع له شيء فعليّ اداؤه » فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول « يا ابا صالح احرسها » فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايته وامر الاشراف والفقهاء واهل النوبات بلبس القلائس الطوال والدخول بها عليه يوم الاثنين والخميس بلا اردية . وكان ابو جعفر المنصور اذا ذكره قال هو رجل يخافني ولا يخاف الله . وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح وولي سالم بن سودة التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ هـ عزله المهدي وولى ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس فابقي داراً عظيمة بالموقف من العسكر . وخرج دحية بن المعصب من لسل عبد العزيز بن مروان نابذاً ودعا الى نفسه بالخلافة فتراخى عنه ابراهيم ولم يحفل بامره حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدي على ابراهيم وعزله عزلاً قبيحاً في ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ وولى موسى بن مصعب بن الربيع من اهل الموصل . ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم ومن كان معه ثلثمائة الف دينار ثم سيره الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل وجعل يقبل الرشوة وضرب خراجاً على الحوانيت وعلى الدواب فتضايق الاهالي وكره الجند ذلك وناذوه وثاروا قيس واليمنية وكتبوا اهل الفسطاط فاتفقوا عليه فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنه اهل مصر باجمعهم واساموه فقتل في ٩ شوال سنة ١٦٨ هـ من غير ان يتكلم احد منهم . وكانت ولايته عشرة اشهر وكان ظالماً غاشماً . فولى المهدي مكانه اسامة بن عمر وقتياً الى ان انفذ اليها الفضل بن صالح اخا ابراهيم المتقدم ذكره اميراً فاخذ يسعى في اخاد ثورة اهل الحوف وخاف خروج دحية لان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه فسير الفضل عساكره اليه وكان قد اتى بها من الشام فانهزمت رجال دحية وقبض عليه وسيق الى الفسطاط فضربت عنقه في جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ وكان يقول للفضل انا اولي الناس بولاية مصر لاني قتت في امر دحية وقد عجز عنه غيري ويقال انه ندم على قتل دحية وفي تلك السنة بنى الفضل الجامع بالعسكر وكان الناس يجتمعون فيه

وبقيت مصر في راحة وهدوء تامين بعد اخاد ثورة اهل الحوف وكذلك كانت سائر الامارات الاسلامية فسكن بال الخليفة المهدي من قبيل داخلية المملوك فعكف على توسيع نطاقها فغزا ملك اليونان بجند تحت قيادة ابنه الثاني هارون الرشيد فتغلب

هارون على بلدان عديدة ضمها الى مملكة ابيه ووضع على القسطنطينية جزية مقدارها
١٠٠ الف دينار فاطهر هارون شجاعة واقداماً وقمأ في عيني ابيه موقماً عظيماً
فخافه بان جعل له حق الخلافة بعد اخيه موسى الهادي



وفي ٢٣ محرم سنة ١٦٩ هـ توفي الخليفة
المهدي وله من العمر ٤٢ سنة ومدة حكمه
عشر سنين وشهران ونصف
وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد
الخليفة المهدي سنة ١٦٣ هـ (انظر ش ٣٣)

ش ٣٣ - نقود الخليفة المهدي

خلافة موسى الهادي

من سنة ١٦٩ — ١٧٠ هـ او من ٧٨٥ — ٧٨٦ م

قبويع موسى الهادي وهو الخليفة الرابع من بني العباس وحالما استلم زمام الاحكام
عزل الفضل بن صالح عن مصر وولى علي بن سليمان وحاول الغاء وصية ابيه الفاضية
بخلافة هارون من بعده على نية ان يجعل الخلافة لابنه لكنه لم يأت على ادراك مناه
حتى ادركه الموت في يوم الجمعة الواقع في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ وعمره ٢٤ سنة
ولم يحكم الا سنة وشهراً و٢٢ يوماً

خلافة هارون الرشيد

من سنة ١٧٠ — ١٩٣ هـ او من ٧٨٦ — ٨٠٩ م

قبويع ابنه هارون الرشيد يوم وفاة اخيه وهو الخليفة الخامس من بني العباس وفي
أيامه بلغت دلة والعرب من العمران والجد مافاح ارجه في اقاصي الارض المعمورة ولم
تعد ترى مثلاً ذلك العصر وكان شمس الدولة العربية في أيامه بانمت خط الهاجرة
بهم اخذت تنحدر بعده رويداً رويداً نحو الافق . وفي يوم مبايعته ولد له غلام دناه
عبدالله وهو بكر اولاده وولي عهده ولقب بعدئذ بالأمون

واقر هارون الرشيد علياً على مصر فظهر هذا في ولايته حزماً وسياسة فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنع الملاهي والتمور لكنه عكف على هدم الكنائس الجديدة في مصر فبذل له النصارى خمسين ألف دينار على أن يتخلى عن هدمها فأبى . وكان كثير الصدقة فعلق به الاهلون حتي قالوا انه اهل للخلافة فطمع فيها فسخط عليه هارون الرشيد وعزله وولى مكانه موسى بن عيسى العلوي في ٦ ربيع اول سنة ١٧١ هـ وحالما استلم زمام الامارة اذن للمسيحيين بابتداء الكنائس التي هدمت بأمر علي بن سليمان فابتنيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن هبة . وفي ١٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ عزل بعد ان تولى الامارة سنة وخمسة اشهر وتولى مكانه مسامة بن يحيى وفصل بين ادارة الحكومة والمالية او الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ هـ عزل مسامة بن يحيى عن الصلاة وتولى محمد بن زهير وفي غاية ذي الحجة سنة ١٧٣ هـ عزل وتولى مكانه داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة . وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ هـ عزل داود بن يزيد وولى مكانه موسى بن عيسى ثانية . وفي هذه السنة اوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنه الثاني محمد الملقب بالامين وهو لم يبلغ الخامسة من العمر واخوه المأمون في السادسة . وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة واما المأمون فكان ابن جارية فارسية فغضبت زبيدة لحرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبها فاوصى بالخلافة لابنها الامين على ان يكون للمأمون حق الخلافة بعده .

وفي ٢٦ صفر سنة ١٧٦ هـ عهدت اماره مصر الى ابراهيم بن صالح ثانية وكان قد تولاه في خلافة ابي جعفر كما تقدم . وفي ١٨ رمضان سنة ١٧٦ هـ بولى اماره مصر عبد الله ابن المسيب بن زهير الضبي اخو محمد بن زهير ثم صرف في رجب سنة ١٧٧ خلفه اسحاق بن سليمان بن بني العباس فلما وصل مصر زاد في خراج المزارعين زيادة احجفت بهم فخرج عليه اهل الحوف فخارهم فقتل كثير من اصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فمقد هرثمة بن اعين في جيش عظيم وبعث به فنزل الحوف فتلقاء اهله بالطاعة واذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كله فسر الخليفة مما اتاه هرثمة من النصر فصرف اسحاق ابن سليمان وولى مكانه هرثمة في ٢ شعبان سنة ١٧٨ هـ وبعد قليل ارسل الرشيد هرثمة الى افريقية وولى على مصر عبد الملك بن صالح اخا ابراهيم بن صالح على الصلاة وارسل معه عبد الله بن زهير على الخراج . وفي ١٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ابدل عبد الملك بن صالح بعبيد الله بن المهدي شقيق الخليفة وبعد قليل تنحى هذا عن الامارة اوسي بن عيسى وهي المرة الثالثة لاماره . وفي سنة ١٨٠ هـ عادت اماره مصر الى عبيد الله بن المهدي

ثانية . وفي ٧ رمضان سنة ١٨١ هـ سلمت امانة مصر الى اسماعيل بن صالح وكان خطيباً بليغاً فقال فيه ابن عفير « مارأيت على هذه الاعواد اخطب من اسماعيل بن صالح »
وفي ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٨٢ هـ صرف الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل ابن عيسى العباسي ثم صرف هذا وولى الليث بن الفضل البيوردي من اهل بيوردي فقدم مصر في ٥ شوال سنة ١٨٢ هـ وخرج منها في رمضان سنة ١٨٣ الى الخليفة بالهدايا والمال واستخلف اخاه الفضل بن علي في مصر ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانية بالمال في ٢١ رمضان سنة ١٨٥ هـ واستخلف هاشم بن عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديد ثم عاد في ١٤ محرم سنة ١٨٦ هـ فكان كلما اغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى امير المؤمنين هارون الرشيد مع الحساب
ثم بعث بمساح يمسحون الاراضي ومن جعلها اراضي اهل الحوف فانتقص لهم من القصبه اصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع منهم فتجهزوا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث في اربعة آلاف من جند مصر في شعبان سنة ١٨٦ هـ فالتقى بهم في رمضان فانهمز عنه الجند في ١٢ منه وبقي في نحو المائتين فحمل بمن معه على اهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على ارض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأساً من رؤوس القيسية . ولما عاد الى الفسطاط عاد اهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فسار الليث الى الخليفة هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ هـ وطلب اليه الجيوش لانه لا يقدر على استخراج الخراج من اهل الحوف الا بجيش يبعث به معه وكان محفوظ ابن سليم بباب الرشيد فرقع محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخراج وصرف الليث بن الفضل عن صلاة مصر وخراجها . وفي ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٨٧ هـ عزل واقيم مقامه احمد بن اسماعيل بن صالح . وفي ١٨ شعبان سنة ١٨٩ هـ ابدل بعبد الله بن محمد العباسي الملقب بابن زنبية . وفي هذه السنة ابدل عبدالله المذكور بحسين بن جميل التختاخ وفي ايامه امتنع اهل الحوف من الخراج فبعث اليه الخليفة هارون الرشيد يحيى بن معاذ في امرهم . فزل بلميس في شوال سنة ١٩١ هـ وصرف الحسين بن جميل عن امانة مصر في شهر ربيع الاخر سنة ١٩٣ هـ وولى مالك بن دهم وفرغ يحيى بن معاذ من امر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الثانية فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه فكتب الى اهل الحوف ان اقدموا حتى اوصي بكم مالك بن دهم وادخل بينكم وبينه في امر خراجكم . فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد اعد لهم القيود فامر بالابواب فأخذت ثم دعا بالحديد

فقيدهم وتوجه بهم في منتصف رجب وفي السنة التالية عهدت الى الحسين قيادة الجيش والخراج فضلاً عن الامارة . وفي ١٢ ربيع آخر سنة ١٩٢ هـ ابدل بمالك بن دهم وكان على الخراج الخصيب بن عبد الحميد واليه تنسب مدينة مثنية خصيب واخيراً في ٤ صفر سنة ١٩٣ هـ عادت اماره مصر الى الحسن بن جميل الى ان توفي الخليفة هارون الرشيد في ٣ جمادى الآخرة من تلك السنة في طوس وسنه ٤٧ سنة ومدة حكمه ٢٣ سنة وشهر و ١٩ يوماً . ولا حاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركه في سائر اطوارها فقد كان حازماً عادلاً تقياً باسلاً وديعاً محباً للعلم والفضل واهلهما ولدنيا من الاحاديث عن كرم اخلاقه ما يتحدث به العامة والخاصة فكتفى بانه جعل الخلافة علماً هومسها فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في ايام الخليفة نفهم انه حصل في خلافة هارون الرشيد ومما يحكى عنه انه كان بينه وبين شرلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء



وانه اهدى اليه اشياء كثيرة من اعمال الشرق منها الساعة الشهيرة المسكتوب عليها بالحروف الكوفية . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١ هـ (انظر ش ٣٤)

ش ٣٤ — نقود هارون الرشيد

خلافة محمد الأمين

من سنة ١٩٣ — ١٩٨ هـ او من ٨٠٩ — ٨١٣ م

وفي يوم وفاة الرشيد خلفه ابنه محمد الأمين اما المأمون فكان ابوه قبل وفاته قد وهبه جميع حلاله واسلحته الخصوصية وولاه خراسان بما فيها من العدة والرجال وان يكون عليها حاكماً مستقلاً عن اخيه الأمين . فالأمين عند استلامه زمام الخلافة انكر على اخيه وصية ابيهما ولم يسلمه شيئاً مما له الحق به ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع . فتنافر الاخوان والأمين اشد هما ضعيفة فارسل الى السكبة فأتى بالسكتابين الذين جعلهما الرشيد هناك بسيعة الأمين والمأمون فاحرقهما الفضل وجعل

ولاية العهد لموسى بن الأمين فلم يبق بعد ذلك باب للمصالحة بين الأخوين . وكان الأمين محباً للهو ومعاقرة الحرة . أما المأمون فكان متيقظاً يحين الفرص فدعا إلى مبايعته بخراسان فالتفت حوله حزب كبير يدعون إلى نصرته . ارضوا فيه من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المأمون يجمع قواته ويستنصر دعائه واتحد معه هرثة بن اعين الذي كان اميراً على مصر قبل ذلك الحين فعظم الامر على الأمين فولى حاتم بن هرثة على مصر سنة ١٩٤ هـ استعطفاً لابيهرثة ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن هرثة لم يتحول عن ولاء المأمون

وفي سنة ١٥٩ هـ انفذ الأمين جيشاً فيه اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة اخيه فلاقاهم طاهر بن الحسين قائم جند المأمون وارجعهم على اعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عنوماً فبايعه اهل خراسان وتابعهم كثيرون . فلما رأى الأمين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثة على مصر لم تجده نفعاً عزله وولى جابر ابن الاشعث في السنة عينها . وابنتى حاتم بن هرثة في سفح جبل المقطم حيث القلعة الآن قبة عظيمة دعاها قبة الهواء بقيت الى انقراض دوله . بني طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازور الأمين وطمع بالفوز على اخيه فجدد جنداً آخر مؤلفاً من ٤٠ الفاً لمحاربته وجنداً آخر انفذه من جهة اخرى تحت قيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الذي كان ابوه اميراً على مصر في عهد ابي العباس . اما طاهر بن الحسين فسار للملاقاة بهم ولم يبال بتلك الجيوش لكنه لم ياتق بهم فتقدم الى الاهواز

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الأمين والمأمون قام السري بن الحكم غضباً للمأمون ودعا الناس الى خلع الأمين فاجابوه وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ . وقام في بغداد الحسين بن علي احد سراتها ودعا الناس الى خلع الأمين وتولية المأمون فاجابوه وبايعوا في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الأمين ووالدته زبيدة واودعها السجن موثقين . ثم تمكن الأمين ببعض الوسائط من تسليق كرسي الخلافة ثانية فبايعه من في بغداد فقط . اما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها . وعقد على مصر لحاتم بن هرثة بن اعين وارسل اليها عباد بن محمد نائباً عنه موقفاً

وفي سنة ١٩٧ هـ حل طاهر بن الحسين وهرثة بن اعين على بغداد وحاصراها نحواً من سنة فصجر الاهالي وملوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينظرون لها

نهاية فلم يروا لها حلاً الا يخلع الامين نخلعوه المرة الثانية ففرّ وبعد قليل قبض عليه وقتل وجيء برأسه والخاتم والقضيب والبردة الى المأمون ولم يكن عمر الامين عند موته الا ٢٩ سنة و٣ اشهر وبضعة ايام ومدة حكمه اربع سنين وثمانية اشهر وثمانية عشر يوماً وكفّت بموته الحروب وحقنت الدماء

خلافة عبد الله المأمون

من ١٩٨ - ٢١٨ هـ او من ٨١٣ - ٨٣٣ م

فبويج المأمون مبايعة قطعية في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ هـ يوم قتل اخيه الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينه نائباً في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبد الله الخزاعي . وبعد اشهر قليلة أبدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولى على مصر ثلاث مرات في ايام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ هـ تخلى العباس بن موسى عن اماره مصر فارسل المأمون عوضاً عنه المطلب بن عبد الله سلفه وبعد قليل أبدل بالسري بن الحكم . واخذت من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية الا ان الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم نبأ جديد

فان العلويين سلالة الامام علي بن ابي طالب لم يكفوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى . فلما علم المأمون بذلك وكان لا يزال في خراسان استشار وزيره الفضل بن سهل في الامر فنصح له ان يوصي بالخلافة بعد وفاته لعلي المذكور لان الفضل كان شيعياً . الا ان تلك السياسة لم تفد الا زيادة الحرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من ايديهم الى العلويين فثاروا في بغداد سنة ٢٠٢ هـ ثورة شفت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي . اما سطوته فلم تتجاوز سور بغداد لانه لم يكن اهلاً للحكام نفارت قواه دون ذلك فعجز الذين اقاموه عن استبقائه اكثر من سنة وبضعة اشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ هـ وفرّ هارباً فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد اسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب الشافعي

وكانت وفاته في الفسطاط ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة . وتوفي أيضاً السري ابن الحكم أمير مصر واقيم مقامه محمد بن السري بمبايعة الجند له بقطع النظر عن اوامر الخليفة بهذا الشأن . وفي سنة ٢٠٧ هـ توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد اقامه المأمون هناك حاكماً فقدم ابنه عبد الله ابن طاهر الى مصر واقام في بليس

ونظراً لما بين مصر ودار الخلافة من بعد المسافة اصبح الناس لا يعاؤون بالاوامر التي كانت تأتيهم منها . وزد على ذلك ان الدولة اصبحت في ضعف شديد لما كان يهددها من تمرد عمالها واحتقار رعيته لها ولا سيما المصريين فانهم كانوا لا ينفكون عن خرق حرمتها ومخالفة اوامرها حتى عقدوا لعبد الله بن السري عليهم بمبايعة الجند كما تقدم وما زالوا على ذلك نحواً من خمس سنوات . وفي سنة ٢١١ هـ محسن عبد الله بن طاهر في بليس فالتفت عليه عصابة من اهلها وبايعوه فاستفحل امره فسار الى الفسطاط في ربيع الاول من تلك السنة وانزل عبد الله بن السري وجعل على الفسطاط عباد بن ابراهيم . وفي سنة ٢١٢ هـ ابدل عباد بعيسى بن يزيد الجلودي

وفي سنة ٢١٣ هـ انفذ المأمون الى عبد الله بن طاهر ان يقف عند حده وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاختيه المعتصم واعطاء خمسمائة الف دينار وامر بمثل هذا المبلغ هبة لعبد الله بن طاهر للتعيش . ويقال انه امر بمثل ذلك ايضاً لابنه العباس . فيكون جملة ما اخرج من خزينته في يوم واحد مليوناً وخمسمائة الف دينار وهذا منتهى السخاء

واستخلف المعتصم عمير بن الوايد التميمي على الصلاة في ١٧ صفر نخرج ومعه عيسى الجلودي لقتال اهل الحوف وكانت بينهم معارك عظيمة قتل فيها عمير فاستخلف مكانه عيسى الجلودي فخارب اهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم في رجب واقبل المعتصم الى مصر في اربعة الاف من اتراكه فقاتل اهل الحوف في شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط في ٢٢ منه وقتل اكابر الحوف ثم خرج الى الشام في اول محرم سنة ٢١٥ هـ في اتراكه ومعه جمع من الاسارى في حر وجهه شديد . وولى على مصر عبدويه بن جبلة على الصلات نخرج اهل الحوف في شعبان فبعث اليهم وخارهم حتى ظفروا . ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الى مصر في ٣ ذي الحجة ومعه علي بن عبد العزيز الجروي لاختد ما له فلم يدفع اليه شيئاً فقتله وصرف عبدويه . وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولى من قبل المعتصم اول سنة ٢١٦ هـ على الصلاة فانقضت

مصر السفلى عربها وقبضها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الآخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فافقعا بالقوم واسرا منهم وقتلا . ثم رجع عيسى فصار الافشين الى الخوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم الخليفة عبد الله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى وحل لواءه واخذهُ بلباس البياض عقوبة له وقال له « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملت الناس ما لا يطيقون وكسبتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد » ثم ولي كيدر الصندي بالنيابة عن المعنصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انه كان عائداً من محاربة الروم فرأى ان مصر بحاجة لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغه من تمرد اهلهما وتقص عملها فدخلها وجعل يربقها بها بثقة احوالها . ويقال انه كان يني له في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ هـ وما زال يتحرى أصول الفساد ويقتلها الى ان برح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتقر المأمون في اثناء تجواله بمصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخلتها وتأيد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناه اسامة في الروضة وبناء جامع فيه ومقياس آخر في بانيشودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان برح المأمون مصر بلغه ان الدواوين في مضر سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات واتزاعها عن كابد المشقة والتعب في اصلاحها واسماها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب . فلما علم بذلك انكره ومنع ارتكابها واصدر اوامره الصارمة باعفاء الكافة اجمعين والضمان والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه ما داموا مغلقين وباقساتهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرى على الناس ينهاهم فيه الى ما جاء في الكتاب العزيز « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود »

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البزندون في سلسيا ودفن في طرسوس وعمره ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة اشهر و١٣ يوماً

أما آثار المأمون فاجل آثار الخلفاء لانها تدل على ما بلغه العلم وما بلغت اليه الصناعة من السعة والانتقان . وقد كان لشدة تعلقه بالعلم والصناعة يتعاطاها بنفسه ويأخذ بناصرها

وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمها ولولاه لغات العرب كثير من المؤلفات التي كتبت بالفارسية او السريانية او اليونانية او الهندية او اللاتينية فهو الذي سعى في نقل اكثرها الى اللغة العربية ونشط رعيته لمطالعتها والاستفادة منها ، ولا يقتصر فضله من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي اوربا عموماً مدينون له لانه حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لازالها يد الزمان كما ازال غيرها مما نسمع به ولا نراه . وكان كلفاً بجالسة العلماء والحكام لا يتخلو مجلسه منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبه وملته لكنه استدعى اليه جماعة من علماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهندود وقربهم منه ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء . وكان اذا صرفهم انا يصرفهم متأسفاً على مفارقتهم وهم اشد اسفاً منه على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالسته لما كانوا يشمتون به من لطفه ودعته

وقد نبغ في ايامه علماء كثيرون من المسلمين وغيرهم بعالم كثيرة كالفلك والهندسة والفلسفة العقلية وغيرها . منهم احمد بن كثير الملقب بالفرغاني وعبد الله بن سهل ومحمد بن موسى وما شاء الله اليهودي ويحيى بن ابي المنصور وقد اقام بواسطتهم الارصاد الكثيرة . وكان عالماً بالفلك فكان يعاونهم بالرصد احياناً في مرصد الشمسية قرب بغداد وحياناً في المرصد على جبل قيسون قرب دمشق . ومن الاطباء الذين كانوا يجالسونه سهل بن سابر وجبرائيل الذي بحث في الرمد على الخصوص ويوحنا بن البطريرق الملقب بالترجمان لانه ترجم الكتب الطبية من اليونانية الى العربية^(١)

ففي خلافة المأمون وأبيه بلغت دولة العباسيين مجداً عظيماً واتسع نطاق مملكتهم فبلغت حدود الصين شرقاً فاستولوا على الهند ومنها شمالاً الى السواحل المتجمدة من البحر الشمالي الى اقصى عشائر الاتراك وساروا في بلاد اليونان الى البوسفور ومن الجنوب الى جبال الحيش العليا الوعرة المسلك الى القبائل البربرية في داخلية افريقيا ومن الغرب الى الجزائر فطرابلس الغرب ومنها شمالاً في اوروبا الى ما وراء الاندلس في ارض فرنسا . فكانت حدود تلك المملكة تلاطمها امواج الاوقيانوس الانلاطتيكي غرباً والاوقيانوس الهندي والعربي جنوباً وبكاد يسها الاوقيانوس المتجمد شمالاً . الا انها قبل وفاة المأمون اخذت بالانقسام على نفسها فانحطت شوكتها وابنداً ذلك في غربها فانصلت عنها الاندلس واستقلت بنفسها من زمن المنصور وتولتها دولة اموية جديدة . وتمرد طاهر بن الحسين في خراسان (قبل وفاته) فشق عصا الطاعة واستقل بالحكم نفسه وجعله ارباً لنفسه .

من بعده بالاستقلال الثام عن بغداد وتعرف دولتهم هذه بالدولة الطاهرية ومثل ذلك
فعلات اكثر الامارات اقتداءً بن سار امامها فطاييت كل منها استقلالها . اما مصر فقد
كانت مقطعة للمعتصم وظلت تابعة لخلافة بغداد . وهي لم تبق الا لطمع المعتصم بالخلافة
بعد المامون

خلافة محمد المعتصم

من ٢١٨ — ٢٢٧ هـ او من ٧٢٣ — ٨٤٢ م

فلما توفي الخليفة المامون خلفه اخوه محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨
رجب سنة ٢١٨ هـ وهو اول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبه فلقب نفسه المعتصم بالله
وكان قد اقر اماره مصر لكيدر الذي كان نائباً عنه فيها ثم كتب اليه بامر به باسقاط
من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . وفي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ هـ توفي
كيدر وتولى مكانه المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ هـ توفي المظفر وتولى مكانه موسى بن
ابي العباس الملقب بالشيباني وبلقبه آخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ هـ استدعي موسى من
مصر فاستخاف . الكا الذي يلقبه بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالنكسدي وهو ابن كيدر
المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٣٥ هـ عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى ابي جعفر
اشناس وهو آخر من ولي مصر بامر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ هـ اصيب الخليفة المعتصم بحصى في سائرًا وفي ١٨ ربيع اول من تلك
السنة توفي . ومن الغريب ما لهذه الخليفة من الحظ في الرقم (٨) فان بينه وبين ابي العباس
اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية
وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة سنة ٢١٨ وسنه ٣٨ سنة وثمانية اشهر
ومدة حكمه ٨ سنين و٨ اشهر و٨ ايام وتوفي في ١٨ ربيع في السنة الثامنة والاربعين من
عمره وترك ثمانية اولاد ذكور وثمانين اناث وحضر ثمانين مواقع حربية واخيرًا وجد في خزينته
عند موته ثمانية ملاحين من الدنانير وثمانون الف درهم وقد قيل انه بناء على هذا الانفاق
الغريب دعي « بالثمن »

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تقهقر دولة العرب ولعله كان السبب في ذلك التقهقر لانه كان ضعيف السياسة بعيداً من الفضائل والاداب امياً لا يعرف الكتابة لكنه كان قوي البدن يحمل ما وزنه الف رطل (لبرا) ويمشي به خطوات وكان مع ذلك شجاعاً ومحباً على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيل الجياد والعساكر المنظمة وهو اول من جند الاتراك واستعان بهم في الحرب

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المعتمد سنة ٢١٩ للهجرة او ٨٣٤ للميلاد (انظر شكل ٣٦)



ش ٣٦ — نقود المعتمد بالله

مبدأ الدولة الطولوسية

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية وبعضهم تنربة وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بقعة من الارض في اسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين ويحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد . ونظراً لما بينها وبين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والادوية والانهار مما لا يسهل تحطيه كانت في مأمن من غزوات العرب وفتوحهم وفي غنى عن معاهداتهم او غير ذلك مما يستدعي ارتباطها الواحدة بالآخرى . الا ان الشعوب التركية اخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلادها والعرب ايضاً كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتحون فيها حتى بلغوا حدود تركستان وما وراءها فافغى الامر الى تراحم هاتين الامتين فتنازعنا فقامت الحرب بينهما سجلاً مدة طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئثار بينهما متبادلاً فكان العرب يرسلون باسراهم من الترك الى بلاط الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء ويدعونهم بالماليك

والماليك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالباً بالقوة البدنية والعقلية وكانوا يتقربون من اميادهم شيئاً فشيئاً حتى استخدموهم في بلاطهم وقد كان الماليك في بادئ امرهم في ظلمات من الجهل الهمجية وعلى ابعاد من

الفضيلة وشعائر الدين لا يعرفون القراءة لكنهم يخاطبهم الامراء ورجال الدولة اصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئاً فشيئاً في شؤون الدولة فبرعوا في السياسة وتدير الاحكام وادارة الاعمال فعضموا في عين الخلفاء فلما كثر تمرد ولاية الامصار صار الخلفاء يعتمدون اليهم ولاية الامصار فكثرت انصارهم فاقاموا لهم احزاباً من ابناء البلاد يتجدونهم عند الحاجة . ولم يكن ذلك كل ما فعله الخلفاء لكنهم كانوا يبذلون المبالغ الوفيرة في ابتياعهم ينتقون منهم الممتازين جالاً وقوة وذكاء ليدخلوهم في خدمتهم الخاصة . ومن ذلك ما فعله الخليفة المعتصم اذ رغب في تعزيز حاشيته فابتاع من أولئك المماليك الوفراً فوق ما كان عنده منهم وامر بتدريسيهم على استعمال السلاح والحقاقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصلح لبطاقته فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيشون فيمن حولهم فكثرت التشكيكات في حقهم وكثر الهرج في بغداد حتى اضطر المعتصم الى بناء مدينة سامراً لاقامته معهم

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال له « طولون » من قبيلة الطغرغراحدى الاربعة والعشرين قبيلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلته مقيمة في جوار بحيرة لوب في بخارا الصغرى فأسر في احدى المواقع الحربية وجيء به الى ابن اسد الصاهي وكان من عمال المأمون يدفع له جزية سنوية من المماليك والخيول التركية واشياء اخرى ففي سنة ٢٠٠ هـ كان طولون في جملة من ارسلهم ابن اسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فاعجب المأمون به فالحقه بحاشيته وما زال يراقبه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بامير السر . وهذا المنصب لم يكن يناله الا من كان للخليفة ثقة خصوصية بامانته واخلاصه ليكون محافظاً على حياته الشخصية . وبعد ان صرف طولون نحواً من ٢٠ سنة في هذا المنصب في ايام المأمون والمعتصم اصبحت عائلته واولاد منهم احمد الذي لقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية . ولد في بغداد وقال آخرون في سامرا سنة ٢٢٠ هـ من والده تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراي . وقال آخرون انه ابن المهدي خادم طولون وان طولون ربه صغيراً والله اعلم



خلافة الواثق بن المعتصم

من سنة ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ او من ٨٤٢ — ٨٤٧ م

وقبل ان يتربع احمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنه هارون ابو جعفر. فلقبوه بالواثق بالله وفي السنة الاولى من خلافته عزل القسم الاعظم من ولاية الامصار واصحاب المناصب الذين كان قد ولاهم ابوه وكان في نيته اقالة اشناس من امارة مصر لكنه لم يكده يفعل حتى توفي اشناس في الفسطاط سنة ٢٢٨ هـ فأقام مقامه علي بن يحيى الارمني وبعد نحو سنة ابدل بعيسى بن منصور المرة الثانية . وفي سنة ٢٣١ هـ توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذي الحجة وسنه ٣٤ سنة و١٠٠٠ حكمه ٥ سنوات و٩ اشهر و١٣ يوماً

خلافة المتوكل بن المعتصم

من ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ او من ٨٤٧ — ٨٦١ م

وعند وفاة الخليفة توطأ وزيراه احمد بن ابي داود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على ان يبايعوا محمد بن الواثق ويلقبوه بالمهتدي بالله الا انهم رأوا سنه لا يجوز له تعاطي الاحكام فعدلوا عنه الى جعفر بن المعتصم فبايعوه ولقبوه بالمتوكل على الله . وقد كان الواثق والمتوكل اخوين من اب واحد والدتين والدة الاول جارية يونانية تدعى قراطيس والدة الثاني جارية تركية تدعى سرجه

وفي سنة ٢٣٢ هـ عقد المتوكل على مصر لهرثمة بن نصر الجبلي وفي السنة التالية ابدله بابنه المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٣٤ هـ تولاه حاتم بن هرثمة . وفي ايامه ثارت البجعة في النوبة بعد ان كانوا عاهدوا المأمون على الصالح فانفذ المتوكل لحرهم محمد ابن عبد الله فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة على المراكب في النيل فاجتمع البجعة في عدد عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فبعث اليهم محمد بن عبد الله كتاباً لفته بثوب فاجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفي اعناق الخيل الاجراس فانزعت جمال البجعة ولم تثبت امام صلصلة الاجراس فركب المسلمون اقفيهم واثنوا فيهم وقتلوا كبيرهم فقام من بعده ابن اخيه وبعث يطلب الهدنة

فصالحوه على ان يطاء بساط امير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل وصوّل على اداء الادوات والبقط واشترط عليه ان لا يمنع المسلمين من العمل بالمعدن وفي تلك السنة ابدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحيى الارمني (ثانية) وفي سنة ٢٣٥ ابدل هذا باسحق بن يحيى الجبلي وفي هذه السنة اوصى المتوكل بالخلافة بعده لابنه المنتصر وبعده لابنه الثاني المعتز بالله وبعد هذا لابنه الثالث المؤيد بالله وجعل مملكته حصصاً فولى المنتصر افرقيّة وكل المغرب من العريش الى آخر حدود المغرب بما فيه مصر. واذن الى ذلك قنسر بن وسوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل البقاع التي يرويها دجلة وهكّة والمدينة واليمن وحضر موت والبحرين والسند وسامرا والكوفة وكل توابعها. وولى المعتز خراسان وطبرستان وفارس وارمينيا واذربايجان وولى المؤيد دمشق وحمص والاردن وفلسطين. أما المنتصر فلم يفتح بما قسم له وطمع بتوابعه الخلافة قبل وفاة ابيه فاخذ يسعى في خلعه

وفي سنة ٢٣٦ هـ اقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحيى وفي سنة ٢٣٨ هـ ابدل بعنيسة بن اسحق وفي سنة ٢٣٩ هـ أمر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون أخرى في دمياط وتيس وتولى بناءها عنيسة وانفق عليها أموالاً طائلة وقاية من غزوات الروم لكنهم لم يكادوا يتحصنون حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال واهل الذمة فلما علم بذلك عنيسة ركب اليهم يوم النحر في جيشه وفر كثير من الناس فاخبروه ان الروم قد ساروا الى تيس وتحصنوا في اشمووم فلم يتبعهم عنيسة فكتب يحيى بن الفضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الايات

أترضى بان يوطأ حريمك عنوة وان يستباح المسلمون ويحربوا
حمار اتى دمياط والروم وثبّ بتانيس راي العين منه وأقرب
مقيمون بالاشمووم يبعون شاماً اصابوه من دمياط والحرب ترب
فما رام من دمياط شبراً ولا درى من العجز ما يأتني وما يتجنب
فلا تنسنا انا بدار مضيعة بمصر وان الدين قد كاد يذهب

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ هـ سار المنتصر الى ابيه في سامرا واخذ يسعى بالدسائس والتواطؤ مع المفسدين على ابيه واستخاف على مصر يزيد بن عبد الله. وفي سنة ٢٤٥ هـ خرج يزيد بن عبد الله الى دمياط مرابطاً ثم رحل فبلغه نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم. وفي سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد

سقط بزلزلة فاعاد بناءه فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد أو الكبير وهو المقياس الباقي هناك الى هذه الغاية . وجرت على العلويين في ايام يزيد شدة . هذا ما كان من امر يزيد

اما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ هـ انتقل الى دمشق على نية ان يتخذها مستقراً الى حين فتبعه المنتصر وما زال ساعياً بالمفاسد توصلاً الى بغيته حتى سنة ٢٤٤ هـ اذ قارب الفوز بفرضه الوخيم فنارت عصبه من الاثر الك المجدين في دمشق على الخليفة بدعوى تأخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وبرز دمشق عائداً الى سامرا . وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنه فأمر به اليه فوبخه على مسمع من الناس . وفي يوم الاربعاء الرابع من شوال من السنة المذكورة ذبح المتوكل على فراشه في منتصف الليل بيد احد ضباط الحرس التركي المدعو بغا



الصغير بدسيسة المنتصر وكان سن المتوكل عند موته ٤١ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة و ١٠ اشهر و ٣ ايام . وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (انظر شكل ٣٧)

ش ٣٧ — نقود المتوكل على الله

خلافة المنتصر بن المتوكل

من سنة ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ او من ٨٦١ — ٨٦٢ م

فاستوى المنتصر على منصة الخلافة قبل ان تفارق اباه رجفة الموت فلما استتب له الملك حدثته نفسه ان يحرم اخويه مما اوصى به ابوه لها على مامر بك . فحملها سنة ٢٤٨ هـ على ان يوقعا على صك بحرماتهما من الخلافة ومما اوصى لها به ابوها من المدن . وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤه بقتل المتوكل مخافة ان يلقوا جزاء مافعلته ايديهم اذا وصلت الخلافة الى احد الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن اقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانه اصيب بعد توليته بآلام بداء اعيا الاطباء وما زال حتى ذهب بحياته وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

خلافة المستعين بن محمد

من سنة ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ أو من ٨٦٢ — ٨٦٦ م

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فبين يجب ان يكون الخليفة عليهم فاجعوا على حرمان ابناء المتوكل ووقع اختيارهم على أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه يوم وفاة المنتصر ولقبوه بالمستعين بالله . ولم يكد يتم ذلك حتى قامت عصبته يريدون استخلاف المعتز بالله الا انهم كانوا نفرأ يسيراً فنفروا ولم تكن النتيجة الا القبض على ولدي المتوكل وسجنهما

أحمد بن طولون

ومن ذلك الحين اخذ نجم أحمد بن طولون بالظهور في افق الاعمال السياسية فتوفي والده سنة ٢٣٩ هـ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك في أيام الخليفة المتوكل في الثماني السنوات الاولى فرأى في أحمد اللياقة ليخلف ابيه على امارة السمر . وكان أحمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان تقياً رضي الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدم وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرمًا بمطالعة الحديث فاكتسب شهرة بالتقوى والعدالة فاحبه جميع الضباط الاتراك الذين كانوا في بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم برقوق فازوج أحمد ابنته فجاء منها غلام دعاه عباساً

ومن الغريب أن أحمد بن طولون شب بين الدسائس والمفاسد ولم يصب اليها ولم تحبذ نفسه يوماً باتباعها بل كان يحبها وينفر منها . أما آدابه ومعارفه فكانت تتسع يوماً بالاختبار والمراقبة فقد كان على كثرة شواغله لا يترك فرصة تفوته في توسيع دائرة علمه فكان يسير من وقت الى آخر الى ترسوس في آسيا الصغرى للتعلم في مدارسها وكان لشدة كلفه بالعلم كلفاً بالعلماء . فالتبس من عبيد الله بن يحيى رئيس وزراء الخليفة اذنًا بالتوجه الى ترسوس للملازمة دروسه فاذن له مع استبقاء مركزه ولقبه ومرتبته كالعادة فسار اليها ثم دعت والدته ان يأتي اليها فجاء سامرا في خلافة المستعين بالله غير عالم بشيء مما حصل في غيابه من قتل المتوكل وتولية المنتصر

وبينما كان عائداً من ترسوس هذه المرة وسنه ١٩ سنة هجم بعض اهل البادية على الركب الذي كان هو برفقته يريدون سلبه وفيه مايساوي مبالغ وافرة كلها محمولة الى الخليفة المستعين بالله فخافت حامية الركب وكاد اللصوص يظفرون فدفعهم أحمد بعزم شديد واعادهم على اعقابهم القهقري . فلما بلغ الركب سامرا اخبروا الخليفة

بما كان من بسالة ابن طولون فنفضه بجائزة ألف دينار وأنزله منزلة الامراء ووجهه
احدى جواريه واسمها مية وهي التي ولدت له ابنه الثاني « خارويه » سنة ٢٥٠ هـ
وهي اول سفي ظهور نجبه

وفي اثناء ذلك ثارت عصبة كبيرة تريد خلع المستعين وذلك ان المماليك الاتراك
الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ما تقدم كانوا يزدادون عدداً وقوة
منذ أيام المعتصم اتقاهم في المناصب العالية فامسوا وفي ايديهم ازمة الدولة يدبرونها
كيف شاؤوا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقتنعون بعزل وتولية الامراء والوزراء
وقتل من شاؤوا ممن ليس على غرضهم لكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم الا التداخل
في عزل الخلفاء وتولييتهم . فكانوا اذا لم يعجبهم خليفة سعوا في استبداله فيستجدون
احزابهم وينفذون ما ربههم . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس
الخاص فاستاء البعض الآخر وجعلوا يسعون في خاله نخلعوه سنة ٢٥٢ هـ بعد ان
تولى امرها ثلاث سنوات و٨ اشهر

خلافة المعتز بن المتوكل

من سنة ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ او من ٨٦٦ — ٨٦٩ م

وبعد خلع المستعين بايعوا ابن عمه المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله واخو
المنتصر وكان محروماً من حقوق الخلافة منذ قتل ابيه وعمره اذ ذاك ١٨ سنة وبضعة
اشهر . وكان بعد ان فر من سجن سامرا مع اخيه المؤيد بالله قد اعادها ابن عمهما
المستعين الى القيود . فلاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل
في قتل المتوكل فخلوا قيود المعتز وبايعوه يوم الجمعة في ١٤ محرم سنة ٢٥٢ هـ وجاؤا
الى المستعين واجبروه على ان يتنازل ففعل فنقلوه الى قلعة وجعلوا عليه حراساً ثم
ارسلوه الى واسط في سرب تحت قيادة احمد بن طولون فقتل في الطريق . ويقال ان
الحاجب سعيداً هو الذي قتله بناءً على اوامر سرية من المعتز بالله . وقال البعض ان
احمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيده . غير ان الجمهور اجمع على تبرئته من هذه
الهمة الفظيعة

والاظهر ان الاحزاب التي دعت الى خلع المستعين واجباره على الاستقالة امروا
بايعاده الى واسط ولم يريدوا ان يصحبه الا من لا يرتاب احد في امانته له واخلاصه

فلم يجدوا النسب من ابن طولون وكان الى ذلك العهد مكتسباً ثقة الطرفين فعهدوا اليه تلك المهمة فقام بها حق القيام . ثم ان الاحزاب في سامرا مع فوزهم بخلع المستعين وتولية المعتز اوجسوا شراً من بقاء الاول في قيد الحياة فاعزوا الى الثاني ان خلافته لا ترسخ الا بقتل المستعين . فكتبت فتية ام المعتز الى احمد بن طولون وهو في طريقه الى واسط تحنه على قتل المستعين وتعهده بولاية واسط مكافأة له فرفض ذلك احمد بنفس ابية فارسلت حاجباً يدعى سعيداً وبيده اوامر الى احمد بن طولون مؤذنة بتسليم المستعين الى سعيد وعود احمد الى سامرة فاذعن احمد الى الاوامر فسلم المستعين الى سعيد . فسار به في الصحراء تبعاً للاوامر السرية التي كانت معه وذبحه في فسطاطه وعاد برأسه الى المعتز ورعى به الارض بين اقدامه

اما احمد بن طولون فدخل الى خيمة المستعين بعد ذهاب سعيد فرأى الجثة بلا رأس فعلم الدسيسة وتكرر من هذا الفعل الوحشي الذي قضى بقتل البريء . ثم هم الى الجثة فغسلها وكفنها ونقلها الى سامرا حيث صلي عليها ودفنت . وقد قال احمد بن طولون عند استيلائه على مصر وسوريا ما مفاده « وعدت بولاية واسط على ان اقتل المستعين فايت محافظة على القسم الذي قسمته وما زلت في تقوى الله وقد كافأني من فضله بولاية مصر وسوريا ولا يفلح الظالمون »

وكانت مصر في اثناء جميع هذه الحوادث يتتابها ما يتتاب غيرها من الامارات الاسلامية . فان يزيد بن عبد الله الذي كان استخلفه المنتصر على مصر اصبح عليها اميراً عند ما صار المنتصر خليفة . وبقي يزيد قائماً باعباء مصلحته طول مدة خلافة المستعين بالله . أما المعتز بالله فبعد ما جلس على دست الخلافة عزله في ٣ ربيع اول سنة ٢٥٣ هـ وولى مزاحم بن خاقان من اعيان الاتراك الذين ساعدوه في حصوله على الخلافة . ومن اعماله انه اكثر من الايقاع بسكان النواحي وولى الشرطة ارجوز فنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤمنين والنوائح . وفي رجب منها منع من الجهر بالسلمة في الصلاة بالجامع . ولم يزل اهل مصر على الجهر بها في الجامع منذ الاسلام الى ان منع منها ارجوز . واخذ اهل الجامع يتام الصفوف وكل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد وامر اهل الحلق بالتحول عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي يستند اليها ومن الحصر التي كانت للمجالس في الجامع وامر ان تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح ولم يزل اهل مصر يصلونها ستاً الى رمضان سنة ٢٥٣ هـ ومنع من التشويب وامر بالاذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد وان

تُغلس بصلاة الصبح ونهي ان يشق ثوب على ميت أو يسود وجهه أو يخلق شعر أو
تُصيح امرأة وعاقب في ذلك وشد فيه . وفي ٥ محرم سنة ٢٥٤ هـ توفي مزاحم فتولى
ابنه احمد بن مزاحم . وفي تلك السنة استقال هذا فعين المعز مكانه بابك احد كبار
الأتراك . وكان هؤلاء يتولون الامارات اسماً بلا رسم لانهم لم يكونوا يبرحون مجلس
الخليفة . أما الاحكام في الامارات فكانت موكولة الى نواب يعهدون اليهم امرها .
وكان عدد مثل هؤلاء النواب في مصر يكثر احياناً فقد يكون منها نائب في الفسطاط
وآخر في الاسكندرية وآخر في الصعيد الخ . وكان يستبد احدهم بالاعمال العسكرية
والآخر بالاعمال الادارية والآخر بالقضاء وهكذا . ونظراً لما كان لاحد بن طولون
من السمعة الحسنة انتخبه بابك المتقدم ذكره وجعله قائداً للقوة العسكرية في
الفسطاط . أما الادارة المالية او الخراج فعهد بها الى احمد بن المدير ودعاه
مفتش الخراج

ابن المدير

وابن المدير هذا لم يكن من التدين على شيء بل كان عاتياً غشوماً فزاد الضرائب
وشدد الوطأة خصوصاً على المسيحيين . وكان من دهاة الناس وشياطين الكتاب فابتدع
في مصر بدعاً صارت مستقرة من بعده لاتنقض فاحاط بالنطرون وحجر عليه بعد
ما كان مباحاً لجميع الناس وقرر على الكلاء الذي ترعاه البهائم مالا ساء المراعي وقرر
على ما يطعمه الله من البحر مالا ساء المصائد فانقسم مال مصر الى خراجي وهلالي .
أما الخراجي فهو ما يؤخذ مساهمة من الاراضي التي تزرع حبواً ونخلاً وعنباً وفاكهة
وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيره من طرف الريف . وأما
الهلالي فعلى نوعين ساهما بالرافقي والمعاون . وهو ما يؤخذ من الضرائب على مثل
ما ابتدعه ابن المدير كما تقدم . فكره الاهلون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى الكيد به
وقد كان عالماً بذلك فجعل في حاشيته اخلاصة نحواً من مائة غلام هندي ممتازين بالقوة
والشجاعة كانوا يرافقونه الى حيث توجه

فلما قدم احمد بن طولون الى الفسطاط ليستلم زمام القوة العسكرية فيها قدم احمد
ابن المدير بحاشيته للقائم واهدى اليه هدايا قيمتها عشرة الاف دينار وقدم معه شقير
الخدام غلام فتيحة ام المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدي ابن المدير مائة
غلام قد تقدمت الاشارة اليهم وكان لهم خلق حسن وطول اجسام وبأس شديد عليهم
اقبية ومناطق نقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من
فضة وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس . فاذا ركب ركبوا بين يديه

فيصير له بهم هبة عظيمة في صدور الناس . فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردها عليه فقال ابن المدبر ان هذه هبة عظيمة ومن كانت هذه همة لا يؤمن على طرف من الاطراف تخافه وكره مقامه بمصر معه وسار الى شقير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير ايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول « قد كنت اعزك الله اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يحز ان يفتنم مالك كثرة الله فردناها توفيراً عليك ونحب ان نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم احوج منك » فقال ابن المدبر « بلغته الرسالة » هذه اخرى اعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاعراض والاموال ويستهدي الرجال ويثابر عليهم « ولم يجد بداً من ان يبعثهم اليه فتحولت هبة ابن المدبر الى ابن طولون فكتب ابن المدبر فيه الى الخليفة يغري به ويحرض على عزله فبلغ ذلك ابن طولون فكتب ما في نفسه ولم يبد

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاتراك في بغداد بمساعدة الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاعوز الى المعتز وعمره اذ ذاك ٢٤ سنة ان يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الا ٤ سنوات و٦ اشهر فتنازل في ذلك اليوم فادعوه السجن وقطعوا عنه الغذاء فمات جوعاً بعد ستة ايام فاقاموا عوضاً عنه ابن عمه المهدي بالله بن الواثق وعمره ٣٧ سنة

خلافة المهدي بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل

من ٢٥٥ - ٢٥٧ هـ او من ٨٦٩ - ٨٧٠ م

وفي ايام المهدي بن الواثق ظهر لابن طولون عدو آخر في مصر هو ابراهيم الصوفي مأمور اقليم اسنا وكان قد وضع يده على البلاد التي حوله وقتل كل من كان يحاول مقاومته فانفذ اليه ابن طولون فرقة من جيشه فخار بها وغلبها فرجعت متقهقرة الى قرب اخميم وهناك انتصرت لفرقة من جيشه فغلبت على جيوش ابن الصوفي ففر المذكور في البرية ملتجئاً الى الواحات في بطن الصحراء الكبيرة مع من بقي معه من الرجال

وكان احمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما مات واثب ابنه على الاعمال واستبد بها فبعث ابن المدبر بسبعائة وخمسين الف دينار

من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في اصحابه وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فقطع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انه يريد مصر وفي رجب سنة ٢٥٦ هـ ذبح المهتدي في سامرا وبويع المعتد على الله وسنه ٢٥ سنة وهو ابن المتوكل الثالث فبايعه الجميع الا ابن شيخ فانه لم يدع له ولم يبايعه لا هو ولا اصحابه فبعث اليه بتقليد ارمينيا فوق ما معه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عملها فدعا حينئذ للمعتد وبايعه ثم كتب الخليفة سرّاً الى ابن طولون ان يتأهب الى حرب ابن شيخ وان يزيد في عدته وكتب لابن المدبر ان يطلق له من المال ما يريد فعرض ابن طولون الرجال واثبت من يصاح واشترى العبيد من الروم والسودان وجهاز كل ما يحتاج اليه وخرج في احتفال عظيم وجيش كبير وبعث الى ابن شيخ يدعوه الى طاعة الخليفة ورد ما اخذ من المال فاجاب بجواب قبيح فزار احمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفاً اخاه موسى بن طولون على مصر ويديننا هو في الطريق ورد اليه كتاب الخليفة يدعوه الى العود فعاد الى القسطنطينية ودخلها في شعبان واتى عوضاً عنه لمحاربة ابن شيخ اماجور التركي فلقبه اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه فخاربهم اماجور فانهزموا منه وقتل قائدهم واستولى اماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بآرمينيا وتقلد اماجور اعمال الشام كلها وهدأت الاحوال

القطائع

اما ابن طولون فلما عاد الى القسطنطينية شرع في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان الى ذلك الحين يسكن القصر الذي كان يسكنه اسلافه من ولاة الاحكام ولم يكن هذا القصر داخل سور القسطنطينية بل كان في ضاحية العسكر وكان العسكر اشبه بمدينة فيها الاسواق والشوارع والبنايا الجميلة وكان كافياً لسكنى رؤساء الجيوش وولاة الامور اما في ايام ابن طولون فضاقت ذراعاً عن سعة مهماته وعبيده وتحفه فاخذ يسعى في البحث عن محل آخر ينفي بالمقصود مع قربه من القسطنطينية فصعد الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الارض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة الا بعض المدافن للنصارى واليهود فاخترها للبناء فأمر بمرث المدافن وهدمها واخطت في موضعها بناءً عظيماً دعاه القصر ومحلاً آخر بالقرب منه دعاه الميدان وتقدم الى اصحابه وغلمانه واتباعه ان يخطوا لانفسهم حوله فاخطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة القسطنطينية ثم قطعت الى قطائع وسميت كل قطعة باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطعة مفردة يعرف بهم ولغلمان الروم قطعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطعة مفردة تعرف بهم

ولكل صنف من الغلمان قطعة مفردة تعرف بهم وبني القواد موضع متفرقة فعمرت
القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبُنيت فيها المساجد الحسان
والطواحين والحمامات والافران وسميت اسواقها فقيلا سوق العيارين وسوق القاميين
وهكذا البقاليين والشوايين الخ ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع
المذكورة مدينة كبيرة امرو واحسن من الشام . وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن
طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من اعلاه من يدخل ومن يخرج

وانسعت احوال ابن طولون وكثرت اصطبلاته وكراعه وعظم صيته فبلغ ذلك
أماجور والي الشام فاخذته غائلة الحسد وخشي من مد ساطة ابن طولون اليه فاخذ
يسعى في خلعه فكتب الى الخليفة المعتمد على الله مانصه « ان قوات ومهيات ابن طولون
اصبحت اعظم مما كانت لابن شيخ الذي لما ثار في سوريا لم تخضعه الا بعد شق الانفس
وهذا ابن طولون قد كثرت حاشيته وقويت سطوته بالرجال والمال وصار يخشى منه
والامير المؤمنين » . وكتب ابن المدبر مفتش الخراج ايضا مثل ذلك وفي قلبه
من احمد ما تعلم من الضغائن وتواطأ على ذلك مع كاتب سره شقير الخادم

فارس المعتمد الى ابن طولون ان يتخلف عن مصر حالا الى سامرا ويستخلف
مكانه من يشاء فلما بلغ ابن طولون ذلك الامر هم الى القيام به وهو لا يدري ما وراء
الاكمة فجاء من ذويه من اطلعه على معنى هذا الاستدعاء الى سامرا فلما علم بدخيلة الامر
جهز احمد الواسطي كاتب سره وصديقه وارسله مكانه الى سامرا بالهدايا الفاخرة الى
الوزير فاستجلب خاطره فسعى امام الخليفة فالغى الامر السابق واصدر أمراً آخر يزيد
مدة ولاية ابن طولون في مصر ويصرح له بنقل عائلته جميعها اليها وقد كانت الى ذلك
اليوم في سامرا . ففسر ابن طولون بهذا الفوز وفرق في الناس الزكاة

وفي سنة ٢٥٧ هـ حكم على بابك امير مصر الاصيل الذي كان قد عين ابن طولون
قائدا للقوة العسكرية بقطع الراس لجناية ارتكبها وعين مكانه برفوق حو احمد بن طولون
وهذا حالما استلم الامر بالامارة عهد الى صهره بالنيابة العامة ليس فقط على الفسطاط بل
على سائر القطر المصري فامر عيسى بن دينار متولي الاسكندرية ان يسلم زمامها اليه
فتوجه ابن طولون الى الاسكندرية وتسلم ادارتها ثم سامها لعيسى المذكور واقربه عليها
فاصبحت سياسة مصر جميعها بيد احمد بن طولون . وفي السنة التالية توفي برفوق فولي
احمد مكانه والياً عاماً على القطر المصري

الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٧ — ٢٩٢ هـ أو من ٨٧٠ — ٩٠٥ م

حكم احمد بن طولون

من سنة ٢٥٧ — ٢٧١ هـ أو من ٨٧٠ — ٨٨٤ م

كان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقيق الخادم وكان الوزير قد ارسل اليه جميع الكتب الواردة منها بحقه . وبعد يسير توفي شقيق خوفاً وهم ابن طولون بعزل ابن المدبر لكنه عرف بعد ذلك ان اخاه على خزينة الخليفة فاغضى عنه اما ابن المدبر فكان قد مل مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيد فطلب الى اخيه ان ينقله الى وكالة خراج سوريا ففعل وقبل تركه مصر اعاد صلات المودة مع ابن طولون فازوج ابنته لخمارويه بن احمد بن طولون ووهبه معها الاملاك التي كانت له في مصر ثم ارسل المتمدن يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابه لست اطيع ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليه فاصبحت جميع اعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيده فألقى الخراج الهلالي الذي وضعه ابن المدبر وقبل الغائه حسب مقداره فبلغ مائة ألف دينار سنوياً فأحب ان يستشير بشأنه فتشاور مع عبد الله بن دسومة امين متولي الخراج وكان عاتياً طماعاً فقال ان امنني الامير تكلمت بما عندي فقال له قد امنك الله عز وجل فقال « ايها الامير ان الدنيا والآخرة ضررتان والحازم من لم يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فيتلف اعماله ويبطل سعيه وافعال الامير ايده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطه لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائماً طول العمر ما كان شيء عندنا آثر من التضييق على انفسنا في العاجل بعمارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد امكنه وصار في يده تضييع ولعل الذي حماه من نفسه يكون سعادة لمن يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير ايده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالي في السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقيلين في هذه السنة لانها سنة ظمياً توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفراً عظيماً فيضاف الى مال الهلالي فيضبط

نه الامير ايده الله امر دنياه وهذه طريقة امور الدنيا واحكام امور الرئاسة والسياسة وكل ما عدل الامير ايده الله الية من امر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا راى والامير ايده الله على ما عساه يراه »

فقال ابن طولون ننظر في ذلك ان شاء الله وشغل قلبه كلامه فبات تلك الليلة بعد ان قضى اكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامه رجلاً من اخوانه الزهاد في طرسوس وهو يقول « ليس ما اشار عليك من استشرته في امر الارتفاق والفسخ برأى محمد عاقبته فلا تقبله ومن ترك شيئاً لله عز وجل عوضه الله عنه فامض ما كنت عزمت عليه » . فلما اصبحت انفذ الكتب الى سائر العمال بذلك فابطل الضرائب المتقدم ذكرها ونشرت في سائر الدواوين بامضائه . ثم دعا ابن دسومة واخبره بما كان فقال له « قد اشار عليك رجلان الواحد حي في اليقظة والاخر ميت في النوم وانت الى الحي اقرب وبضمانته اوثق » فقال له « دعنا من هذا فقد قضى الامر ولست قابلاً منك ما تقول »

وفي غد ذلك اليوم ركب احمد نحو الصعيد فلما امعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس احد غلمانه فسقط الغلام في الرمل فاذا بفتق فتحمق احمد وامرهم ان يحفروا هنا ففعلوا فاصاب فيه من المال ما كان مقداره مليون دينار وهو الكنز الذي شاع خبره وكتب الى العراق يخبر به المعتمد ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها فأذن له فبنى منه مستشفى وحصناً وسبيلاً وجوامع وفرق قسماً منه على الفقراء

اصلاحاته

واول جامع شاده ابن طولون جامع الثنور ابتناه على قمة جبل المقطم في مكان كان يدعى ثنور فرعون يقال انه سمي كذلك لانه على مرتفع فكانوا يضرمون فيه النار ليلا فظن بعض المشايخ ان في ذلك الممكان كنزاً فاخذ يحتفر فيه فلم يظفر بشيء فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالاً اكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك امر ببناء الجامع هناك ودعا جامع الثنور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عفصة وابتنى ساقية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر ابن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

وفي سنة ٢٦٠ هـ اعاد احمد بن طولون حفر ترعة الاسكندرية وكانت قد سدت بالرمال المحمولة اليها وبنى في الاسكندرية آباراً مسقوفة بالبناء العقود واحواضاً تحت الارض لكي يأتي منها بالماء العذب النقي ما يكفي المدينة . وفي تلك السنة ركب مع رئيس خزنته ابي ايوب والقاضي بقال في جزيرة الروضة فرأى المقياس محتاجاً الى اصلاح فأمر

باصلاحه اصلاحاً متقناً انفق عليه عشرة آلاف دينار . واقام ابو ايوب بعد يسير مقياساً آخر في دار الاسلحة في الجزيرة المذكورة حيث بنيت السجون ولكن لم يبق منها الى ايام المقرزي الا اثر طفيف

وفي اواخر السنة المذكورة توجه احمد بن طولون الى الاسكندرية لتفتيش الاشغال التي كان امر باجرائها واوصى بها لابنه البكر العباس ثم امر بترميم منارة الاسكندرية واقام فوقها القبة ويقال ان هذه المنارة كان ارتفاعها خمسمائة قدم وامر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) في العسكر وقد كانت الفسطاط قبله مجردة من مثل ذلك وخصص لاجل النفقات اليومية للمستشفى والبنيات الاخرى اطياناً واسعة تأخذ محصولاتها وخصص لها ايضاً دخل مبيع الرقيق وكان يأتي بنفسه لزيارة المستشفى وتفقد سير الاطباء فيه وعيادة المرضى والمجاذيب . واتفق ذات يوم ان احد المجاذيب في المستشفى هم بقتله ولولا القضاء لذهب بحياته ولم يكن شيء من ذلك ليثني عزمه عن العيادة . وبني في العسكر حمامين وقد بلغ مقدار نفقات بناء المستشفى والحمامين والجامع عند جبل المتطم ستين الف دينار . وبقيت هذه البنيات رغم التقلبات السياسية التي كان يخشى ان تذهب بها ولا يزال كثير من آثارها الى هذه الغاية

مخارباته

قلنا ان ابراهيم بن الصوفي فر من وجه احمد بن طولون والنجاً الى الواحات الكبرى في الصحراء فهنا تمكن بعد ذلك من التجنيد والتقدم نحو مدينة اشمونين فبلغ ذلك ابن طولون فانفذ اليه جيشاً تحت قيادة ابن ابي الغيث وهذا لم يلتق بجيش ابن الصوفي فصار لحرارة عبدالرحمن العمري وكان معتدياً على حدود النوبة وبعد حرب شديدة سار ابن الصوفي الى اصوان فلاقاه ابن ابي الغيث مغضياً عن ابي عبد الرحمن وحاربه ففر من وجهه وسار من طريق عيذاب الى مكة حيث قبض عليه وارسل الى احمد بن طولون فالتقاء في السجن مدة ثم صرفه مؤذناً له بالسكنى في المدينة وبقي فيها الى ان توفاه الله

أما أبو عبد الرحمن العمري فاستفحل امره واقام الاستحكامات في النوبة فشق ذلك على احمد ولم يستطع صبراً فانفذ اليه جيشاً آخر تحت قيادة شبه البيكي الى اصوان فلما بلغها رأى ابا عبد الرحمن مشتغلاً بمقاومة جيوش زكريا ملك النوبة والحرب بينهما قائمة فقال هذه فرصة لا يصح ضياعها فهجم على حصون ابي عبد الرحمن بدون ان يستأذن من ابن طولون فلم يعبا أبو عبد الرحمن بشكائر الاعداء عليه فيجعل رجاله فرقتين وحارب الفتنين وتغلب على شبه واعاده على اعقابهم صفر اليدين الى الفسطاط فلم

يصادف من ابن طولون الا احتقاراً وانتهاراً
وبعد ذلك بقليل قدم الفسطاط عبدان يحملان رأس ابي عبد الرحمن العمري
فرميا بين اقدام احمد بن طولون فسألهما عما اتى بهما اليه وما حملهما على قتل سيدهما
فاجابا ان لا غرض لهما الا الحصول على رضا امير القطر المصري . فقال لهما احمد « ان
ما ارتكبتموه تستوجبون عليه عقاب الله وعقابي » وامر بقتلهما وغسل رأس ابي
عبد الرحمن ودفنه بما يلزم من الاحترام . وحقيقة الامر ان العبدان لم يقتلا سيدهما
بايديهما وانما قتل بمكيدة محمد بن هارون شيخ قبيلة مضر فسولت لهما النفس ان يقطعا
رأسه ويحملاه الى ابن طولون فينالوا جائزة عظيمة وما علمتا ان المروءة وكرم الاخلاق
تأبيان مثل ذلك

ثم ثار ابو نوعة صديق ابن الصوفي القديم فانضم اليه عصابة من الاتباع فجاهر
بالعصيان ضد ابن طواون فارسل اليه حملة فغلبيها فانجدها ابن طولون فغلبنه وفر ابو
نوعة الى الواحات واضطر اخيراً الى التسليم
وبعد سنة من هذه الحادثة ثار محمد بن فاراب الفرغني وتابعه اهالي برقة جميعهم
فارسل اليهم احمد بن طولون لؤلؤاً وقال له نج المدينة من العصاة فتسكون عليها واليا
فخاربههم لؤلؤ وفاز عليهم فجعله ابن طولون واليا على برقة ومتملقاتها
الموفق والمعتمد

وفي السنة نفسها اضطر ابن طولون الى محاربة شديدة كان يخشى عليه منها وهي
محاربة ابي احمد طلحة الملقب بالموفق بالله احد ابناء المتوكل على الله واخو المعتمد على
الله الخليفة . وذلك ان صاحب الزنج (بجوار زنجبار) ادعى انه من سلالة علي بن ابي
طالب فقدم البصرة سنة ٢٥٤ هـ واستولى عليها وعلى الكوفة وغيرها واستفحل امره
فانفذ امير المؤمنين المعتمد على الله يستقدم اخاه ابا احمد الموفق بالله من مكة وكان الخليفة
المهتدي بالله قد بعث اليها منقياً فقدم سنة ٢٥٧ هـ فواصى المعتمد بالخلافة من بعده لابنه
المفوض وبعده للموفق وجعل غربي الممالك الاسلامية للمفوض وشرقيها للموفق وكتب
بينهما بذلك كتاباً ارتهن فيه ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط
وكان الموفق يحسد اخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه اهلاً لها فلما جعل المعتمد
الخلافة من بعده لابنه ثم الموفق بعده شق ذلك عليه وزاد في حقه وكان المعتمد
متشغلاً بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه فضاعت الامور وفسد تدبير
الاحوال وفاز كل من كان متقلداً عملاً بما تقلده
وكان في الشروط التي كتبها المعتمد بين المفوض والموفق انه ما يحدث في عمل كل

واخذ منهما من حدث تكون النفقة عليه من مال خراج قسمه . واستخلف على قسم ابن المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى بن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب . وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق وتقدم المعتمد الى كل منهما ان لا ينظر في عمل الآخر وجعل كتاب الشروط بالسكينة

ولما كانت البصرة والكوفة واقعتين في حصة الموفق كان عليه محاربة الزنوج ودفعهم فتأهب في جيش كبير وسار اليهم وناقضهم فطال زمن المحاربة حتى انقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يحمل في كل عام واحتجوا بأشياء أخرى فدعت الضرورة الموفق الى ان كتب الى احمد بن طولون في مصر في حمل ما يستعين به في حروب صاحب الزنج وكانت مصر في قسم المفوض لانها من الممالك الغربية الا ان الموفق شك في كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو في سبيله وبعث الكتاب مع تحرير خادم المثل ليقبض منه المال فلما هو الا ان وصل تحرير الى ابن طولون واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيه بحمل المال اليه على رسمه مع ما جرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الطراز والريق والخيل والشمع وغير ذلك وكتب اليه ايضاً كتباً أسرياً يقول فيه « ان الموفق انما انفذ تحريراً اليك عيناً ومستقصباً على اخبارك وانه قد كاتب بعض اصحابك فاحترس منه واحمل المال اليها وعجل نفاذه »

وكان تحرير الخادم لما قدم الى مصر انزله احمد بن طولون معه في داره بالميدان فنعاه من الركوب والخروج من الدار التي انزله بها حتى سار من مصر وتلطف في الكتب التي اجاب بها الموفق ولم يزل بتحرير حتى اخذ جميع ما كان معه من الكتب التي وردت من العراق الى مصر وبعث معه الى الموفق الف الف دينار ومائتي الف دينار وما جرى الرسم بحمله من مصر واخرج معه العدول وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش وكان قد ارسل الى اماجور متولي الشام فقدم عليه بالعريش فاسلمه خادم الموفق والمال واشهد عاينه بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر في الكتب التي اخذها من تحرير فاذا هي الى جماعة من قواده باستأنتهم الى الموفق فقبض على اربابها وعاقبهم حتى هلكوا في عقوبته

فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق وعده المال كتب اليه كتاباً ثانياً يستقل فيه المال ويقول « ان الحسب يوجب اضعاف الاحكام وبسط اسانه بالقول والتمس ممن معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضاً عن ابن طولون فلم يجد احداً عوضاً لما كان من دعة ابن طولون وملاطفته وجوه الدولة

كتاب ابن طولون الى الموفق

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال « واي حساب بيني وبينه او حال
توجب مكاتبتني بهذا او غيره » وكتب اليه بعد البسملة « وصل كتاب الامير ايده الله
تعالى وفهمته وكان اسعده الله حقيقة بحسن التخيير لمثلي وتصديره اياي عمدته التي يعتمد
عليها وسيفه الذي يصول به وسنانه الذي يتقى الاعداء بحده لاني دائب في ذلك وجعلته
وكدي واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقيل باستجداب كل موصوف بشجاعة واستدعاء
كل منعوت بغنى وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلاة والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة
وذبا عنها وحسبا لاطباع المتشوفين لها والمنحرفين عنها . ومن كانت هذه سبيله في الموالاته
ومنهجه في المناصحة فهو حري ان يعرف له حقه ويوفر من الاعظام قدره ومن كل
حال جليلة حفظه ومنزله . فعوملت بضد ذلك من المطالبه بحمل ما امر به والجفاء في
المخاطبة بغير حال توجب ذلك ثم اكلف على الطاعة جمعا والزمت في المناصحة تمدا وعهدي
بمن استدعي ما استدعاه الامير من طاعته ان يستدعيه بالعدل والاعطاء والارباب والارضاء
والاكرام لان يكلف ويحمل من الطاعة مؤنة وثقلا واني لا اعرف السبب الذي يوجب
الوحشة ويوقعها بيني وبين الامير ايده الله تعالى ولا ثم معاملة تقفخي معاملة او تحدث
منافرة لان العمل الذي انا بسيله لغيره والمكاتبة في اموره الى من سواه ولا انا من قبله .
فانه والامير جعفر المفوض ايده الله تعالى قد اقسى الاعمال وصار لكل واحد منها
قسم قد انفرد به دون صاحبه واخذت عليه البيعة فيه انه من نقض عهده او اخفرت منه
ولم يف لصاحبه بما اكد على نفسه فالامة بريئة منه ومن بيعته وفي حل وسعة من خلفه .
والذي عاماني به الامير من محاولة صرفي مرة واسقاط رسمي اخرى وما ياتي ويسومني
ناقض لشروطه مفسد لعهد . وقد التمس اوليائي واكثروا الطلب في اسقاط اسمه وازالة
رسمه فآثرت الابقاء وان لم يؤثره واستعملت الاناة وان لم تستعمل معي ورايت الاحتمال
والكظم اشبه بذوى المعرفة والفهم فصبرت نفسي على احرم من الجروا من الصبر وعلى
مالا يتسع به الصدر والامير ايده الله تعالى اولى من اعاني على ما اوتره من لزوم عنده
واتوخاه من تأكيد عهده بحسن العشرة والانصاف وكف الاذى والمضرة وان لا يضطري
الى ما يعلم الله عز وجل كرهى له ان اجعل ما أعددت له لحيطة الدولة من الحيوش المكاثفة
والعساكر المتضاعفة التي قد ضربت رجالها من الحروب وجرت عليهم من الخسار
مصرفا الى نقصها ، فعندنا وفي حيزنا من يرى انه احق بهذا الامر واولى من الامير .
ولو امنوني على انفسهم فضلا عن ان يعثروا في نيل ميسل او قيام نصرتهم

لاشتدت شوكتهم واصعب على السلطان معاركهم . والامير يعلم ان بازائه منهم واحداً قد كبر عليه وفض كل جيش انهضه اليه على انه لا ناصر له الا لفيف البصرة واوباش عامتها فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعاً وما مثل الامير في اصاله رايه يعرف مائة الف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك فان يكن من الامير اعتاب او رجوع الى ما هو اشبه به واولى والا رجوت من الله عز وجل كفاية امره وحسم مادة شره واجرعنا في الحياطة على اجمل عادته عندنا والسلام »

فلما وصل الكتاب الى الموفق اغاظه غيظاً شديداً فاحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة واشد اهلبا بأساً واقداماً فتقدم اليه في صرف احمد بن طولون عن مصر وتقليدها اماجور فامثل وكتب الى اماجور كتاب التقايد وانذره اليه فاما وصل اليه الكتاب توقف عن ارساله الى احمد بن طولون لعجزه عن مناهضته . ثم خرج موسى ابن بغا عن الحضرة مقدراً انه يدور عمل المفوض ليحمل الاموال منه ولما علم بتوقف اماجور عن مناهضة احمد بن طولون كتب اليهما يأمرهما بحمل الاموال وعزم على قصد مصر والاقاع بابن طولون واستخلاف اماجور عاينها فسار الى الرقة

وبلغ ذلك ابن طولون فاقلقه ليس لانه يقصر عن مناهضة موسى بن بغا لكن لتحمله هتاك الدولة وان يأتي سبيل من قاوم السلطان وحاربه وكسر جيوشه الا انه لم يجد بداً من المحاربة ليدفع عن نفسه ما يكره فتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدتها لا تؤخذ الا من جهة النيل فاراد لكبر همته وتدبره ان يبني حصناً على الجزيرة التي بين الفسطاط والجزيرة (جزيرة الروضة) يكون معقلاً لحرمة وذخائره وخاصة ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتي من البر

وقد زاد فكره في من يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربي سوى ما يضاف اليها من العلابيات والحمام والعشاريات والسناييك والزوارق وقوارب الخدمة وحمد الى سد وجه البحر الكبير وان يمنع ما يجي اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفاً مما سيحيي من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعده باولاده كانه ينظر الى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة وانفذ الى الصعيد والى اسفل الارض لئلا يمنع من يحمل الغلال الى البلاد ليمنع من يأتي من البر الميرة

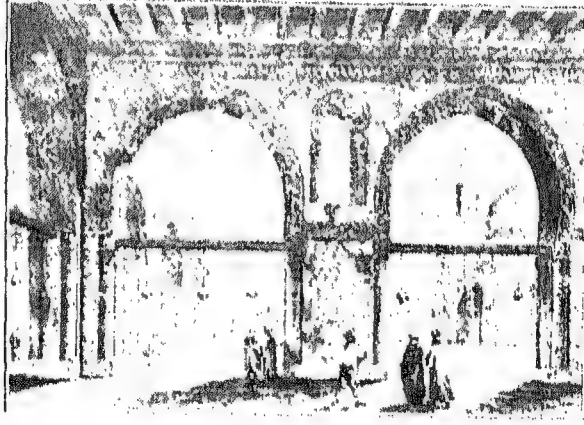
واقام موسى بن بغا بالركة عشرة اشهر وقد اضطربت عليه الاتراك وطالبوه

بارزاقهم مطالبة شديدة حتى استتر منهم كاتبه عبيد الله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم تخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال الى الرجوع فعاد الى الحضرة ولم يبق بها سوى شهرين ومات من علة في صفر سنة ٢٦٤ هـ هذا واحمد بن طولون يجد في بناء الحصن على الجزيرة وقد ازم قواده وثقاته امر الحصن وفرقه عليهم قطعاً قام كل واحد بما لزمه من ذلك وكند نفسه فيه وكان يتعهدهم بنفسه في كل يوم وهو في غفلة عما صنعه الله له من الكفاية والغنى عما يعانيه . ومن كثرة ما بذل في العمل قدر ان كل طوبة منه وقفت عليه بدروهم صحيح . ولما تواترت الاخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل واتصدق بمال كثير شكراً لله على ما من به عليه من صيانتة عما يقبح فيه عنه الاحدوثة وما راي الناس شيئاً كان اعظم من عظيم الجدل في بناء هذا الحصن ومباكرة الصنيع له في الاسحار حتى فرغوا منه فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم في كل بكرة من تلقاء انفسهم من غير استحداث لكثرة ما سخا به من بذل المال . فلما انقطع البناء لم ير احد من الصناع التي كانت فيه مع كثرتها كأنما هي نار صب عليها ماء فطفئت لوقتها . ووهب للصناع مالا جزيلاً وترك لهم جميع ما كان سلفاً معهم . وبلغت نفقات هذا الحصن ثمانين الف دينار ذهباً وقال سعيد بن القاضي من ايات بشأن ذلك

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً الى الحصن او قاعبر اليه على الجسر
تري اثرأ لم يبق من يستطيعه من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مأثر لا تبلى وان باد اهلها ومجد يؤدي وارثيه الى الفخر
اما الموفق فلما تفرق جيشه لم يعد يرى بدءاً من الاغضاء عن مقاومة احمد بن طولون اغضاءً وقتياً

بناء الجامع

وكثر اتباع ابن طولون ورجال حاشيته وجنده حتى ضاق جامع العسكر ذرعاً عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليه ان يبني لهم جامعاً آخر اكثر اتساعاً فاستجاب التماسهم على ان يبنيه على جبل يشكروا كان لهذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكاظم ناجى ربه عليه مراراً وانه اقتبل في ذلك المكان بعض الشرائع المقدسة وعزم احمد ان يجعل ذلك الجامع اعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد وان يقيمه على ثلثة عمود من الرخام . ففعل له ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه وانه اذا اصر على عزمه لا يترك للمسيحين ما يقوم ببناء معابدهم فتدبر بين ان يتم مشروعه وان لا يحرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد



ش ٣٨ — جامع ابن طولون

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم ذكره ويسمى ابن الكاتب الفرغاني ومن ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصناعة البناء وقد اودع السجن لتهمة توجّهت نحوه بغير الحق . فلما بلغه ما كان من عزم ابن طولون وتردده كتب اليه من السجن انه قادر على اتمام مشروعه وانه لا يحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلهما عمودي القبلة . فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب اليه ان يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنه فجاء كثير الشبه بجامع سامرا . فاعجب ابن طولون كثيراً وامر باطلاقه وخلع عليه وجعل تحت امره مائة الف دينار وقال له اتفق وما احتجت اليه بعد ذلك اطلقناه لك . وامر ابن طولون ان يكون بناء الجامع من القرميد والجير ونهى عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلًا : ورغبني من ذلك انه اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء ام بالنار فلا يكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع اخذ في زخرفته فبيضه وعلق فيه القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على افاريزه آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهراً الى هذا اليوم وفرش الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء . ويقال انه هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسه وجعلها منفصلة عنه رواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن حنّ ثان خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الا ان الناظر اليها لا يسه الا التعجب من عظمتها ويقال ان نجاة المنارة المذكورة الباب الكبير

وجعل للجامع ٣٣ شباكاً . واقام بجوار الجامع بناء دعام دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جداره القبلي قرب المحراب والمنبر مزين بالستائر . وفي الدار المساند الجميلة والطنافس الثمينة . فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا ذهب الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويحمد وضوءه ويغير ثيابه وفي موضعها الآن سوق الجامع

ومن يزر هذا الجامع اليوم يره خراباً مهجوراً وقد استعملته الحكومة مراراً منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قناطره فسدوها . وقد هدم بعض تلك القناطر وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضة ولا يزال اثر المنبر الخشبي باقياً وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلى احمد ابن طولون وذريته

وقد استغرق بناء هذا الجامع سنتين فانتهى في رمضان سنة ٢٦٣ هـ فاذن ابن طولون بالصلاة فيه ولكن الفقهاء لم يكونوا يدخلونه لثلاً يكون مبنياً بمال لم تكتسب بالحق والعدل فاقسم لهم انه لم ينفق عليه درهماً من الدراهم التي وجدها اتفاقاً فصدقوه فاحتفل بتدشينه في يوم الجمعة التالي وصار يرد اليه الجماهير من المسلمين . وتذكر ان ذلك الاحتفال نقشوا على الواح كبيرة من الرخام الابيض بعض الآيات من القرآن الكريم . وقال المقرئ انهم كانوا يحرقون اقراص النذر في اثناء الصلاة فيعقب الجامع بدخانهم والمؤمنون في الصلاة . وكان القاضي بكار بن قتيبة الامام الاول وربيع بن سليمان الخطيب الاول لهذا الجامع . وفي ذلك الحين الشا محمد بن ربيع مدرسة في احدى غرف الجامع وكان ابن طولون واولاده وجميع حاشيته لا يتركون الجامع الا بعد ان يتم محمد تدريسه . وكانت دروس هذه المدرسة محصورة في الحديث . ومن كان يحضر عليه ابنه احمد بن طولون وكانوا يواظبون على الحضور والانصراف كسائر التلاميذ كل ذلك بأمر والدهم . وفي مساء يوم التدشين عاد ابن طولون الى دار الامارة لاعادة الوضوء وتغيير الثياب فكث مدة طويلة في الجامع يصلي لله ويشكره على ما اولاه من النعم بنجاح اعماله ووهب الجامع عشرة آلاف دينار وخصص له رواتب تدفع من ماله ما بقي حياً . وبنى ابن طولون بجوار الجامع خارج صحنه حوضاً وفسقية للوضوء ثم بنى صيدلية يحضر فيها بأمره كل يوم جمعة طبيب يعالج الفقراء مجاناً ولا سيما الذين يأتون للصلاة . وحسبت نفقات البناء فبلغت مائة وعشرين ألف دينار غير الاوقاف . ويقال ان احمد بن طولون وجد ما عدا الكنزين المتقدم ذكرهما كنزاً ثالثاً من الذهب النقي ويقال ان هذا الذي جعله يضرب الدينار الاحمدي الذي اشتهر بنقاوته والمفضل على سائر

انواع الذهب القديم للتذهيب به
وفي اثناء بناء الجامع توفي اماجور الذي كان حاكماً في سوريا خلفه ابنه علي فاغتنم
احمد بن طولون تلك الفرصة ليضم سوريا الى مصر والوقوف مشغول عنه بمحاربة الزنج
فاظهر انه تازم على محاربة الروم جهاداً في سبيل الدين وجمع جيشاً جراراً فيه كثيرون
من المتطوعين فكتب الى ابن اماجور يستنصره في تلك الحرب وان يبايعه على سوريا
لان الخليفة اقطعه اياها فاطاعه

عصيان العباس

وفي غرة سنة ٢٦٥ هـ برح احمد بن طولون مصر مستخلفاً ابنه العباس وسنه اذ
ذلك ٢٣ سنة وعهد بتدبير الاحكام الى وزيره احمد الواسطي . ولما احتشدت جيوش
ابن طولون في فلسطين اتاه محمد حاكم الرملة خاضعاً فأقره في منصبه ولما بلغ دمشق
رحب به علي بن اماجور وأمر بان يخطب باسمه فأقره في منصبه ايضاً . وهكذا فعل
في حمص وعليها عيسى فأقره عليها ثم استولى على حلب وحماء وكانت من اعمال الطاكية
وحاكمها يدعى سيما الطويل فكتب اليه احمد بن طولون يطلب مبايعته فوعده واسكنه
لم يف فأعاد الطلب فوعده ايضاً ولما تكرر منه الوعد والاختلاف تقدم احمد بجيشه الى
اسكندرونه ثم هاجم الطاكية من جهة باب البحر فلم يقدر عليه لانه كان منيعاً
فهاجمها ثانية وثالثة بلا فائدة وما زال حتى كاد يتولاه اليأس فانه بعض اهالي المدينة
ينبشونه بباب آخر في الجهة المقابلة يدعى باب الفرس لجهة الجبال وقالوا انه سهل المأخذ
فسار احمد بجيشه وهاجم المدينة من ذلك الباب وما طلع الفجر الا والمناير في يده .
واما سيما فدافع دفاعاً حسناً حتى قتل وجيء برأسه الى احمد بن طولون فشق عليه قتله
لانه كان صديقاً له . واما المدينة فذهبت فريسة الفتك والنهب حتى نودي بالطاعة فسكنت
الغوغاء ووضع احمد يده على باياس واطنة وطرسوس . وبينما هو بهم بالتقدم في فتوحه
الى ما وراء ذلك جاءه من مصر ان ابنه العباس الذي استخلفه عليها قد شق عصا الطاعة
ومد يده الى الخزان والاحكام واستبد فيها فلم يرد احمد الرجوع الى مصر قبل اتمام
عمله في سوريا فسار الى محاربة محمد بن اتمام صاحب الرقة ثم اخيه موسى فأسرهم ولم
يرجع الى مصر الا في نهاية سنة ٢٦٥ هـ بعد ان فتح الشام وبعض اسيا الصغرى
واستخلف في الرقة غلامه لؤلؤاً

اما العباس فبعد ان نبذ طاعة والده انقياداً لنزوي الاغراض شعر بخطائه وخاف
سوء العقبي فجمع اليه الخزينة وفيها مليونان من الدنانير واستدان فوقها ٣٠٠ ألف

دينار وفر بمن معه الى الجزيرة على ضفة النيل الغربية وساق معه احمد الواسطي وزير والده مغلولاً . ولكنه خشي ان لا يكون مكانه هناك اميناً فعهد بحكمته فيه الى اخيه ربيع مظهراً السفر الى الاسكندرية وسافر الى برقة فاما وصل احمد بن طولون الى القسطنطينية ونزل العسكر ورأى من امرائه ما رأى احب استقدامه بالحسنى فكتب اليه كتباً كلها نصح واستعطاف وارسلها مع بكار بن قتيبة فماد بلانتيجة وكان ذلك بدسيسة من النصف حوله وهم الذين اغروه على كل ما فعل وقد اصبحوا يخافون غضب ذلك الامير الخطير فأوعزوا الى العباس ان يمن في افريقية .

ففي سنة ٢٦٦ هـ جمع اليه رجال دعوته وسار في داخلية البلاد ساعياً جهده في اجتناب مشائخ القبائل اليه فلم يفر الا مع القليل منهم فكتب الى ابراهيم بن الاغلب صاحب القيروان ان يبايعه على افريقية مدعياً ان الخليفة قلده اياها وكان سعيه مع هذا باطلاً ايضاً . ثم هاجم حصن لبدة ففتحت له ابوابها فدخلها وامعن اتباعه في النهب والقتل فاستاء الاهالي فكتبوا الى الياس بن منصور النفوسي رئيس الاباضية فوعدهم بالمساعدة وفي اثناء ذلك سار ابراهيم صاحب القيروان بجيش الى طرابلس الغرب لقتال العباس فقاتله في الليل وكان العباس مشهوراً بالشجاعة والحماسة وكان شاعراً ينشد الاشعار الحماسية في اثناء القتال ومما انشده قوله

لله دري اذا اعدو على فرسي الى الهياج ونار الحرب تستعز
وفي يدي صارم افري الرؤوس به في حده الموت لا يبغي ولا يندر
ان كنت سائلة عني وعن خبري فها انا الليث والضمصامة الذكر
من آل طولون اصلي ان سألت فما فوق المفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة اذ بالسيف اضرب والهامة تبندر
اذا امكنت مني ما تبادره عني الاحاديث والانباء والخبر

وفي الصباح التالي وصل الياس ومعه ١٢ الفاً من الاباضية مدداً لابراهيم فضمها الى جيشه واستأنف الحرب وخسر العباس في هذه الواقعة اكثر ضباط جيشه واشجع جنوده وجميع المؤن والمهمات العسكرية التي آتى بها من مصر . اما هو فتمكن بعد الجهد من الفرار الى برقة فبلغ ذلك اباه فانفطر له قلبه رغم عصيانه ومناواته .

وفي اواخر سنة ٢٦٧ هـ انشد احمد جيشاً الى برقة وبعد بضعة ايام آتى بنفسه الى الاسكندرية في جند كبير قيل انه كان مؤلفاً من مائة الف رجل فاناه احمد الواسطي وكان قد تخلص من العباس فانفذ ابن طولون بجيش الى برقة ليهاجم من فيها من

العصاة فهاجمهم وقتل العدد الاعظم منهم . اما العباس فقبض عليه حياً وجاء به الى ابيه في منتصف سنة ٢٦٨ هـ وبعد بضعة ايام عاد ابن طولون الى القسطنطين ومعه ابنه العباس ولما بلغ القسطنطين اعتقله في قصره .

وبعد ثلاثة اشهر وصلت الجيوش ومعهم الاسرى الباقون فاحضرهم والعباس معهم فأمره ابوه ان يقطع ايدي هؤلاء المفسدين وارجلهم بيده ففعل . ثم التفت اليه وعنفه بكلام تنفست له الحجارة ثم امر بان يضرب مائة جلدة امر بذلك وقلبه يقطر دماً . ثم اعاده الى الاعتقال وامر بقتل من بقي من العصاة والقاء جثثهم في النيل

اضطرابات خارجية

وما كادت مصر تتخلص من هذه الاضطرابات الداخلية حتى داهمتها اضطرابات خارجية اشد وطأة واصعب مراساً . فان الضعائين بين احمد بن طولون والموفق كانت لا تزال كامنة الى ذلك العهد وما اصاب الاموال من السلب وما تكبدته ابن طولون على أثر ذلك من النفقات في الحروب حملته على الاقتصاد في النفقة والاعتدال بالسبب فساء ذلك بعض الذين كانوا يتقربون منه طمعاً بالمال وفيهم غلامه لؤلؤ الذي كان غارقاً بالاعمال وقد ولاء بلاداً واسعة فاضمر له شراً بايعاز كاتبه محمد بن سليمان الذي لم يكن ابن طولون يحبه . فامسك لؤلؤ عن اداء الخراج الى ابن طولون على ان يؤديه الى الموفق ويبايعه على ما في يده فطار الموفق فرحاً . اما القواد الذين كانوا مع لؤلؤ فلم يكن بينهم وبين احمد بن طولون ما يوجب العداء فاعلموه بغدره فادرك العواقب الناجمة عن هذه الخيانة ولكنه اتخذ الحزم والثباتي برأساً فكتب الى لؤلؤ يدعو الى طاعته بعبارات لطيفة فأبى

فنظر احمد في الامر نظراً بعيداً فرأى العاقبة مخمودة فكتب الى المعتمد سرّاً يعاينه انه يخاف خيانة ربما كان فيها خطر على حياة الخليفة ويدعوه الى مصر قائلاً « ان لدينا هنا مائة الف مقاتل مستعدة للدفاع عن امير المؤمنين وقمع عدوه (يعني الموفق) واعادة السلطان اليه » وبعث مع هذا الكتاب هدية تساوي مائة الف دينار وسار في جيش جرار سنة ٢٦٩ هـ وتقدم الى دمشق ومعه ابنه العباس واستخلف على مصر ابنه الثاني خمارويه وجاهر انه قدم لامين انقاذ الخليفة المعتمد ومعاينة لؤلؤ فلم يظفر بلؤلؤ لانه كان قد انضم الى الموفق في محاربة الزنج

وشارت في اثناء ذلك فرقة من الجنود كان قد ارسلها احمد الى سليسيا وعصت قائدها خلفاً فتمكن هذا من النجاة بحياته الى دمشق فاعتمه سكان طرسوس هذه الفرصة لخلع طاعة ابن طولون فابطلوا الصلاة باسمه فحمل عليهم اقتصاصاً منهم . ثم ورد اليه

كتاب من المعتمد اوقفه عن عزمه . وذلك ان الخليفة المشار اليه ادرك ان ليس في يده من الخلافة الا اسمها وان اخاه الموفق اضر بنفوذه ضرراً بليغاً . فلما جاءه كتاب ابن طولون تقبله بسرور واجابه شاكرآ له وشاكياً من تصرف اخيه . والتي اليه ان يتصرف بالامر بمقتضى حكمته وان يلاقيه في الرقة ، فانفذ اليها ابن طولون جيشاً للملاقاة لان المعتمد احب ان يغتم اشتغال اخيه بالحرب مع الزنج للقدوم الى احد فتنظاهر بالخروج في حاشيته للصيد . وسافر في جمادى الاولى حتى بلغ الى اسحق بن كنداج امير الموصل وما بين النهرين وكان قد كتب اليه وزير الموفق بما كان وامره ان يحتال في القبض على الخليفة . فاستقبل اسحق الخليفة باكرام واحترام وشيعة

فلما قارب عمل ابن طولون ارتحل الاتباع والعلماء الذين مع المعتمد وقواده ولم يترك ابن كنداج اصحابه يرحلون . ثم خلا بقواده عند المعتمد وقال لهم انكم قرب عمل ابن طولون والامر امره وتصيرون من جنده وتحت يده افترضون بذلك وقد علمتم انه كواحد منكم . وجرت بينهم في ذلك مناظرة حتى تعالى النهار ولم يرحل المعتمد ومن معه فقال ابن كنداج قوموا بنا فنناظر في غير حضرة امير المؤمنين فاخذ بأيديهم الى خيمته لان مضاربهم قد سارت فلما دخلوا خيمته قبض عليهم وقيدهم واخذ سائر من مع المعتمد من القواد فقيدهم . فلما فرغ من امورهم مضى الى المعتمد فعزله في مسيره من دار ملكه وملك آبائه وفراق اخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب كانه يريد قتله وقتل اهل بيته وزوال ملكهم ثم حمله والذين كانوا معه حتى ادخلهم سامرا فعلم الموفق بذلك فسر لكنه خشي ان يعود اخوه مرة ثانية الى قصده الاول . فارسل اليه من يراقب حركاته وذهب اسحق جميع البلاد التي كانت من اعمال ابن طولون فاصبح حكمه ممتداً من بغداد الى اطراف افريقية واهداء سيفين واقبه بندي السيفين اشارة الى تسلطه على الشرق والغرب

فلما علم ابن طولون بذلك اشتد غيظه فجمع اليه من كان في دمشق من فقهاء بلاده وعلمائها واشرافها واعلمهم ان الموفق هتك حرمة الاخوة نحو اخيه وحاول الاستقلال بالدولة الاسلامية وان الخليفة امير المؤمنين قد اصبغ في حالة يرثى لها يقضى نهاره بالاسف والكدر الشديدين . وما زال ينهض همته ويحرك عواطفهم حتى اقرؤا على ان يذكر الخطيب بعد صلاة الجمعة حالة الخليفة ويطلب الى الله ان يحفظه ويكبت اعداءه . وزادوا على ذلك ان الموفق عاص على الخليفة فهو محروم من حقوق الخلافة ثم زاد هو على هذا ان الموفق خلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب جهاده على الامة .

فاعترض بعض الحضور على ذلك ومنهم بكار وقال ان كتب الخليفة تخالف ما قررتوه لانه اوصى ان يكون الموفق وارثاً للخلافة قطعياً فاجابه ابن طولون ان الخليفة لم يكن حراً بما فعل . والتى بكاراً في السجن ريثما يرد من الخليفة الجواب على ذلك وانتهى الامر باقرار الجميع على ما سبق ذكره وان يحافظوا على كل كلمة فاهوا بها وان ينادوا بذلك في الجماهير بالصلاة كما تقدم

فلما بلغ الموفق ذلك اوعز الى اخيه المعتمد ان يخلع ابن طولون . وما انفك حتى اجابه الى طلبه فجاهر على المنابر بعبارة ولعنها : « اللهم العنه لعناً يفلّ حده ويتعس جدّه واجعله مثلاً للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين » فصرح ابن طولون بلعن الموفق في جميع بلاده وارسل جيشاً للاستيلاء على مكة فانفذ حاكمها هارون الى الموفق الخبر فارسل اليه مدداً تحت قيادة جعفر فغاربوا المصريين في مكة فغلبوهم بعد ان قتلوا مائتي رجل منهم واسروا قائدهم فنودي بلعن ابن طولون في مسجد مكة

الا ان هذا جميعه لم يكن ليثني ابن طولون عن عزمه في اعماله الاخرى فانه سار الى سليسيا لاجراء الثورة ومقاصة المعتدين فرأى في طريقه بدمشق وبنى قبة فوق مدفن الخليفة معاوية كان قد هدمها العباسيون وزينها بالقناديل واقام فيها من يتلو القرآن ثم قدم اطنه لمقاصة بزمار حاكمها لامتناعه عن مبايعته وكان بزمار قد قبض على رسل ابن طولون فشق ذلك على ابن طولون فاسرع الى قتاله بفرقة من الجند فحوّل بزمار نهر سداس على جيش ابن طولون وكانوا في منتصف الشتاء ففاضت مياهها وساعدها البرد القارس فاهلكا معظم الجند فاضطر احمد الى رفع الحصار وتأجيل الانتقام . فانتقل لنجدة جهات اخرى كان يهددها الروم فسار بفرقة من رجاله الى بياض فانطاكية حيث كان ينتظره القضاء المبرم . وذلك انه شرب فيها مقداراً كبيراً من لبن الجاموس فاضر في صحته فانذره الطبيب الذي كان معه واسمه سعيد بن ثيوفيل فاهمل انذاره وتغافل عن الاحتماء الصارم فاشتد مرضه كثيراً فاسرع الى مصر محمولاً على الاذرع في محفة لكن الضعف لم يسمح له بالاستقرار على هذه الكيفية فنزل عند الفرما ثم حمل الى القسطنطينية في النيل فبلغها في آخر السنة وهو في حالة خطيرة . فنادى اليه اطباء وهددهم بالقتل اذا لم يبدلوا الجهد في شفائه

حدث في مصر من القلاقل ما شغل ابن طولون عن الاهتمام بصحته . وذلك ان احد العلويين واسمه احمد بن عبد الله لما بلغه حال احمد بن طولون من المرض شق عصا الطاعة فالضمت اليه فرقة من رجال الصعيد فانفذ اليها احمد فرقة

من رجاله ففرقتها وعادت برأس قائمها وعاد معها الامن واستتبت الراحة

المصالحة

اما الموفق فبعد ان حارب الزنج طويلاً فاز بهم لكنه ملّ الحرب ومال الى السكينة وكانت شعائره العدوانية نحو ابن طولون اخذت على طول الزمن في الخمود فرغب في حقن الدماء واقامة الحدود . ولم تكن رغبة ابن طولون في المصالحة اقل من رغبة الموفق . والظاهر ان المرض اضعف منه حاسة الانتقام فمال الى صرف القلاقل . وكان الموفق اشد رغبة في صرفها فعهد الى سعيد بن مخلد وجماعة من ذويه ان يكتبوا الى ابن طولون كتابة يوهمونهم فيها . منهم بغير علم الموفق يبينون له ان ما حصل انما كان من عواقب التسرع في الحكم وان يتفقا معه على المصالحة ففعلوا كما امرهم . فلما اطلع ابن طولون على هذه الكتب علم انها من تدبير الموفق . على ان ذلك لم يمنع قبوله بالمصالحة فوافقه على نسيان ما مضى من سوء التفاهم ووعده باعادة الصلات الودية على ان يصرح الموفق جهاراً بتنازله عن شعائر الحق او الانتقام . فعلم الموفق من مطالعة الكتاب ان ابن طولون كشف خبيثه فاجابه انه آسف على ما فرط منه وعامل على استئصال جرائم الحق وانه يرغب الى صديقه الجديد ان يقبل تلك المصالحة فقبل . اما المعتمد فسرّ جداً لما دار بينهما وكتب بخط يده الى ابن طولون يحمد سعيه ويطلب اليه ان يبقى مسلماً لاخيه الموفق واخبره انه قد ابطل لغنه . فلم تبلغ مصر رسالته الا بعد وفاة ابن طولون لان محنته كانت تتأخر يوماً فيوماً والام المعندي المشتبب عن افراطه من اكل لبن الجاموس يشتد عليه مصحوباً بحمى شديدة وضعف عام ثم رافق ذلك زرب ذهب بما بقي من قواه

فلما احس احمد بدنو الاجل استغاث بصلوات شعبه على اختلاف معتداتهم . فصعد المسامون بقرآتهم والمسيحيون باناجيلهم واليهود بتوراتهم الى المقطم فاقاموا فروض الدعاء الى الله ان يشفي ملكهم . وكان في جملة من حضر الاحتفال الفقهاء وطلاب العلم وكانت جوامع المدينة غاصة بالجمهور يقرؤون القرآن والحسنات تفرق في الفقراء بسخاء فانتفع الناس في موته كما انتفعوا في حياته . ولما تأكد قرب الساعة صلى قائلاً « اللهم ارحم عبدك وعامه قدر نفسه لانه لم يعرف لها قدراً وانصفه برحمته » واخذ بعد ذلك يكرر الشهادة الى ان قضى . وقبل وفاته بقليل اخرج بكراً من السجن لكنه لم يلبث بعد وفاة ابن طولون الاياماً حتى توفي ودفن في القسطاط

ولا يزال مقامه معروفاً . وكانت وفاة احمد بن طولون يوم الاحد العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٧٠هـ (الموافق ١١ مايو سنة ١١٨٤ م) ودفن عند سفح المقطم على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى

ولما بلغ المعتد وفاة ابن طولون حزن حزناً شديداً ورثاه بقصيدة تدل على ان المعتد كان شاعراً أكثر من كونه حاكماً . وحكم ابن طولون ١٨ سنة كلها حروب وظفر . ومن تأمل سيرة حياته يجد نغمة انما كان بكثرة المصاعب وهي التي كانت تثير فيه الهممة وتحمله على توسيع نطاق مملكته وقد خلف ثروة قدرها عشرة ملايين دينار وعدداً كبيراً من الاسلحة والامتعة و٧ آلاف مملوك تحت السلاح و٢٤ ألف مملوك بغير سلاح وكثيراً من الخيل والبغال والجمال وحيوانات اخرى . ويقال ان غلة مصر بلغت في ايامه مائة مائون دينار سنوياً . وقال آخرون انها لم تبلغ عشر هذا القدر وهو الأرجح وكان شجاعاً هماماً حليماً شفوفاً

مناقبه

ومن امثال شفقته انه ركب في غداة باردة الى المقس في ضواحي الفسطاط فاصاب بشاطئ النيل صياداً عليه ثوب خلق لا يواريه منه شيء ومعه صبي في مثل حاله وقد القى شبكته في البحر . فاما رآه رق لحاله وقال « نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً » فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له هذا الغلام (واشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً . فقال فنشه يانسيم . فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فخرض الصبي ان يأخذها فاني وقال هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتني . فاحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه في اصحاب الجرايات . وقال انا قتلت اياه لان الغنى يحتاج الى تدريج والاقتل صاحبه . هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينه

واحمد بن طولون اول من جلس في مصر للنظر المظالم فكان يجلس لذلك يومين في كل اسبوع في محل يقتبل فيه التظلمات وينصف اصحابها . وكان تقياً يحترم الشعائر الدينية كثيراً فكان له في قصره حجرة جعل فيها رجالاً سماهم المكبرين بيوت منهم في كل ليلة اربعة يتناوبون الليل نوباً يكبرون ويستبحون ويحمدون ويهللون ويقراون

القرآن تجويداً بالألحان ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذنون اوقات الاذان ومن مناقبه الحميدة حبه لعمل الخير المجرد والتصدق على كل من طلب الصدقة . فكان ينفق في سبيل ذلك التي دينار شهرياً سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم . وسوى مطالبه التي اقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويفرق للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة لسكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالودج والاشنان الاخران مما في القدر وكانت تعمل في داره وينادي من احب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرته ذلك ويحمد الله على نعمته . ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطقان وكان متولياً تفريق الصدقات « ايد الله الاميرانا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فتخرج لنا السكف المحضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديد والكف فيها الخاتم »

فقال « يا هذا من يد يده اليك فاعطه فهذه هي اللطيفة المشهورة التي ذكرها الله في كتابه فقال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف . احذر ان ترد يد امتدت اليك » وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاته ٣٠ ولداً و١٧ ذكراً و١٣ انثى ولم يكن عمره عند وفاته اكثر من خمسين سنة . واوصى ان تكون الاحكام لبنيه من بعده ليكون له من نسله دولة تخلص ذكره . الا ان هذه الدولة لم تتمكث بعده الا ٢٢ سنة



وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ وعليها اسمه واسم الخليفة المعتمد (انظر شكل ٣٩)

ش ٣٩ — نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون



خارويه بن أحمد

من سنة ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ او من ٨٨٤ — ٨٩٥ م

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنه خارويه حالاً في مكانه في ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ وسنه ٢٠ سنة ولقب بأبي الجيش فسر الناس من توليته . واما العباس فكان لا يزال في السجن وقد كرهته الامة لما كان من عقوقه . وقال بعضهم ان اياه ناداه قبل وفاته وعفا عما كان منه واوصى له بامارة الشام تحت اماره اخيه خارويه لكانه مالبث ان اقيم اخوه على الاحكام حتى ذهبت حياته بأمره . ولم يشأ خارويه ان يجعل مركز حكومته في الفسطاط كما فعل ابوه فجعلها في القطائع التي كان قد بناها ابوه مقرّاً لرجالها واول شيء اتاه خارويه انه قرب قلوب الرعية اليه بزمته ونصرتة للعق . ذلك ان كنيسة الاسكندرية كانت سنة ٢٦٨ هـ تحت رعاية البطريرك ميخائيل وكان هذا قد عزل الاسقف سكالسوء سيرته وتعاليمه فسار هذا الاسقف الى الفسطاط مضراً شراً فسمى الى احمد بن طولون فساداً وادعى ان البطريرك وافر الثروة وهو لا يحتاج الى المال . وكان احمد اذ ذاك يتأهب للسير الى سوريا وفي احتياج للتنفقات فاستحضر البطريرك المذكور وقال له « ان من كان في مكانك ايها البطريرك لا يحتاج الى اكثر من الطعام واللباس وقد علمت انك ذو ثروة والبسالة في احتياج الى نفقات كبيرة فادفع مالديك الى بيت المال » فاجتهد البطريرك في رفع تلك النعمة عنه فذهب اجتهاده عبثاً . والقي في السجن ومعه احد شمامسته المدعو ابن المنذر سنة كاملة فاخذ يوحنا وابراهيم ابنا موسى كاتب احمد بن طولون على عاقبتهما ان يطلق البطريرك بعد ان يدفع مبلغاً يجمعه من رعاياه المسيحيين . فكتب على نفسه صكاً بمبلغ ٢٠ الف دينار يدفعه على دفعتين ولكنه لم يستطع الدفعة الاولى الا بعد العناء الشديد والاستقراض وبيع اوقاف الكنيسة لان ما فرضه على ابناء الكنيسة لم يكن وافياً بالمطلوب . فاصبح البطريرك في حالة اليأس وانزوى في دير القديسة مريم في قصر الشمع بجوار الفسطاط لا يعلم كيف يقوم بدفع المبلغ الباقي فاكثر الضرائب على الاسقفيات الى حد لم يكن في الامكان القيام بدفعه فنسب اليه الاستبداد وهو براء منه . ولما آن وقت الدفع لم يكن قادراً عليه فقيده ثانية الى السجن وبعد يسير توفي ابن طولون . فلما تولى خارويه رأى من العدالة ان يخلي سبيله ويبرئ ذمته مما كان باقياً عليه ففعل وكان لذلك وقع عظيم عند الاقباط

حداائق خاوية واصطبلاته

ثم أخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئاً مما كان في ايام ابيه فابقي ارباب المناصب كما كانوا فبقيت قيادة جيش الشام في يد ابي عبدالله وقيادة ما بقي من الجيوش في يد سعيد الاليسر. ولكي يتأكد مناعة الشام ارسل اليها مراكب حربية تطوف في مياهاها. ولما اطمان باله من قبيل ذلك عكف على الداخلية فاقبل على قصر ابيه وزاد فيه واخذ الميدان فجعله كله بستاناً وزرع فيه انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وانواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً منذهباً وجعل بين النحاس واجسام النخل مزارب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه من الرياح المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهد البستاني بالقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك. وبني في البستان برجاً من خشب الساج المنقوش بالقر النافر ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من اصناف القماري والدابسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت. وجعل فيه اوكاراً تفرخ الطيور فيها وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحيش ونحوها. وصل في داره مجلساً في رواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد على احسن نقش وجعل في حيطانه صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي يغنيهن بما عليهن من اللباس بالوانه وجعل عليهن من الحلي مثل ما اعتدن لبسه وجعل امام هذا البيت فسقية ملاً هازئياً. وسبب ذلك انه شكا الى طبيبه الارق فاشار عليه بالتغميز فاتف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من الزئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعاً طولاً في ٥٠ عرضاً وملاها من الزئبق وجعل في اركان البركة سبكاً من الفضة الخالصة وجعل في السبك زناير من حرير في حلق من الفضة. وعمل فراشاً من ادم يحشى بالريش حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده وبقى على تلك البركة وتشد زناير الحرير التي بحلق الفضة في سبك الفضة وينام على هذا الفراش ولا يزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه. ولم يعرف ملك قط تقدم خاويه في عمل هذه البركة وبقي ايضاً بالقصر رقبة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيراً ما يجلس فيها لمشرف منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والليل والجبل وجميع المدينة. وبني ميداناً آخر اكبر من ميدان ابيه. وبني ايضاً في داره داراً للسياح « عمل فيها بيوتاً بأزاج كل بيت يسع سبعاً ولبوته وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السياح سياساً يقومون بما تحتاج اليه من الطعام والشراب والتنظيف وكان من جملة

هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد انس بخارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً ويقام له بوظيفته من الغذاء في كل يوم . فاذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه يلتقط ما يرميه اليه من فضلاتها . فاذا نام جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير واذا كان على الارض فبجانبه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة

واتسعت ايضاً اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلاً مفرداً وعمل للخود داراً مفردة ومثل ذلك للفهود وللغيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجزيرة . وكان له ايضاً بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في ايامه تسعمائة الف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في ايامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغلمان على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون للاعياد وكان له معرض للخيل فريد

وقد تقدم ان خمارويه قتل اخاه وكان ذلك بايعاز ابي عبد الله قائد جنود الشام ثم خاف ابو عبد الله ان يعود خمارويه الى الانتقام منه اذ يندم على قتل اخيه فعمد الى المكيدة فكتب الموفق يقول له « ان هذا الغلام خمارويه لا يفهم من امور الاحكام الا انها وسيلة للتمتع بالملاهي » وكتب اليه غير ذلك مما شوق الموفق الى الاستيلاء على مصر . واخذت العداوة تنمو بينهما من ذلك الحين . وفي سنة ٢٧١ هـ حصلت واقعة عظيمة بين احمد ابن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وخمارويه تدعى واقعة الطواحين

واقعة الطواحين

وتفصيل واقعة الطواحين ان احمد بن الموفق لولا ما كان في قلبه من البغض لخمارويه لم يستول على دمشق لان ابا عبد الله ساعه اياها بدون حرب . فلما علم خمارويه بذلك جرد جيشه قاصداً استرجاعها حتى بلغ الرملة ومعه سعيد الايسر قائد الجنود المصرية العام فبلغ ذلك المعتضد بالله فثار من دمشق نحو الرملة الى عساكر خمارويه فاتاه الخبر بوصول خمارويه الى عساكره وكثرة من معه من الجموع فهم بالعود فلم يمكنه اصحاب خمارويه الذين صاروا معه . وكان المعتضد قد اوحش ابن كنداج وابن ابي الساج ونسبهما الى الجبن حيث انتظراه ليصل اليهما ففسدت نيتهما معه . ولما وصل خمارويه الى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين فلذلك فنسبت الواقعة اليه . ثم وصل المعتضد وقد عي اصحابه وكذلك ايضاً فعل

خمارويه وجعل له كميناً عليهم سعيد الايسر . فحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهمزمت . فلما رأى ذلك خمارويه ولم يكن رأى مثله قبله ولى منهزماً في نفر من الاحداث الذين لاعام لهم بالحرب ولم يقف دون مصر فنزل المعتضد الى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر . فخرج الذين عليهم سعيد الايسر وانضاف اليهم من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بالنهب ووضع المصريون السيف فيهم فظن المعتضد ان خمارويه قد عاد فركب وانهمز ولم يلو على شيء . فوصل الى دمشق ولم يفتح له اهلها بابها فضى منهزماً حتى بلغ طرسوس وبقي العسكران يتضاربان بالسيوف وليس لواحد منهما امير . فطلب سعيد الايسر خمارويه فلم يجده فاقام اخاه ابا العشائر وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وقال سعيد للعساكر ان هذا اخو صاحبكم وهذه الاموال تنفق فيكم ، ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالاموال . وسير البشارة الى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل للهزيمة غير انه اكبر الصدقة وفعل مع الاسرى فعلة لم يسبق الى مثلها قبله . فقال لاصحابه ان هؤلاء اضيا فيكم فاكرمهم ثم احضرهم بعد ذلك وقال لهم من اختار منكم القيام عندنا فله الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جبهزناه وسيرناه . ففهم من اقام ومنهم من سار مكرماً وعادت عساكر خمارويه الى الشام ففتحتها اجمع فاستقر ملك خمارويه له . وهذه



الواقعة كانت الاخيرة بين خمارويه والموفق ثم طالت الصلات الودية بين الاثنين وضربا النقود وعليها اسماهما واسم المعتد في وقت واحد كما ترى في الشكل الاربعين

ش ٤٠ — نقود عليهما اسماء المعتد والموفق وخمارويه

وفي سنة ٢٢٨ هـ توفي الموفق وبايع قواده بولاية العهد لابنه المعتضد بعد المفوض ابن اخيه . وفي اول سنة ٢٢٩ هـ خلع المعتد ولاية العهد عن ابنه المفوض وجعلها للمعتضد . وفي تلك السنة توفي الخليفة المعتد على الله بعد ان حكم ٤٣ سنة فبويغ ابن اخيه المعتضد بالله فاغتنم خمارويه الفرصة لتوطيد العلائق بينه وبين الخليفة الجديد فانفذ الحسين بن عبد الله المعروف بابن القصار وفداً الى بغداد ومعه الهدايا الثمينة يعلن الخليفة ان مصر ستؤدي الخراج وقدره مائتا الف دينار . وانها ستدفع ايضاً عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار . فاجابه الخليفة بتثنيته في امارته لمدة ٣٠ سنة على ما كان تحت امارته او امانة ابيه وارسل اليه ايضاً الخلع والسيف المختصين بهذا المنصب

فدفع خارويه الدفعة الاولى تماماً لكنه تأخر بعد ذلك رويداً رويداً على انه لم يكن يغفل عن توطيد علائق المودة بينه وبين الخليفة فأرسل اليه وفداً يعرض عليه زفاف ابنته قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بان يكون الزفاف له . وحصل ذلك على اعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت معها عمها العباسة بنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر اعمال مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وبنيت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر له السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سلطانه فامر طنج ابن جف امير دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر طرسوس الى بلاد الروم . ففعل وحارب الروم واستولى على عدة مدن وماد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بزفاف قطر الندى سودت بموت خارويه مقتولاً في دمشق . وذلك انه نمي اليه ان بين بعض نساءه وبعض كبراء خدامه علائق حبية سرية فشق ذلك عاياه فأخذ في تحقيق الامر وتأكد الجرم على فاعله ومقاصته بما يقتضيه العدل فخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع نساءه على قتله لينجوا كلهم من شره فقتلوه على فراشه في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في كيفية قتله غير ذلك . وبعد موته التي القبض على عشرين من الخدم الذين وقعت عليهم الشبهة بعد التحقيق تأكدت الجريمة على العشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقات جثة خارويه الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة ابيه احمد . وكانت مدة حكمه ١٢ سنة و١٨ يوماً وكان من احسن الناس خطاً . وحال موته بويج ابنه جيش الملقب بأبي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشده

جيش بن خارويه

من سنة ٢٨٢ — ٢٨٣ هـ او من ٨٩٥ — ٨٩٦ م

وفي سنة ٢٨٣ هـ ابى طنج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلاده وبعديسير ثارت الجيوش في مصر بدعوى انهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صديقاً لم يبلغ رشده ولا يعرف شيئاً من امور الاحكام . وكان اذا ابدل رجلاً بآخر قالوا قد اختار من هو في سنه او على شاكلته . وبعد تسعة اشهر من حكمه ثار عليه الجميع وقتلوه ونهبوا قصره واحرقوا المدينة

هارون بن خمارويه

من سنة ٢٨٣ - ٢٩٢ هـ أو من ٨٩٦ - ٩٠٤ م

واقام زعماء الثورة اخاه هارون مكانه . وقيل ان المعتضد ثبته على مصر لانه وعده باليحملة اليه مقداره مليون من الدنانير . وفي السنة المذكورة توفي اولؤ وهو الذي كان يسعى بين احمد بن طولون والموفق سعيآ آلى الى حرب بين الفريقين . وكان لؤلؤ قد ضم جيشه الى جيش الموفق في محاربة الزنج الا انه لم يأت ذلك الضم بفائدة تذكر . ولما وصل احمد بن طولون الى الشام لم يستطع القبض على لؤلؤ نفسه فقبض على ما كان له في دمشق من الامل وفيه نساؤه واولاده وسراريه وابعهم في سوق القسطنطينية . فاما بلغ ذلك لؤلؤا اخذ منه الغيظ كل ما أخذ فتوجه الى الموفق وطلب اليه ان يعطيه جنداً ليغزوه به مصر ويمتلكها وينتقم من ابن طولون . وكان الموفق قد عقد صلحاً مع ابن طولون كما تقدم ولم يشأ ان يجيب لؤلؤاً سلباً فوعده بنيل مرغوبه وكرر الوعد مراراً وانما فعل الموفق ذلك على نية ان يستبقه عنده لعله يحتاج الى مصالحة ابن طولون فيرساله اليه هدية . ولما توفي ابن طولون بقي لؤلؤ في خدمة الموفق ٣ سنوات واخيراً جرده من امواله وطرده من خدمته فأتى مصر حيث بيعت نساؤه واولاده وبقي فيها الى ان مات شرموتة

وفي سنة ٢٨٤ هـ أي بعد تنصيب هارون بسنة اخذ الاهلون ورجال الحكومة يقللون من الطاعة له ويحتقرون اوامره شيئاً فشيئاً حتى صاروا في استعداد كلي لنيل الطاعة والمجاهرة بالعصيان . ورئيس هذه الثورة طغج بن جف صاحب الشام . وفي سنة ٢٨٥ هـ علم المعتضد بما كان من تقسيم بلاد هارون وكره الرعايا له فرأى ان يغتنم الفرصة لاسترجاع تلك البلاد لسلطانه كما كانت في عهد اسلافه . فتقدم نحو آمد فبايعه حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان مستقلاً بها ثم تقدم الى قنسرين وتملكها فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل وله من رعاياه اعداء ألداء فكاتب المعتضد انه مستعد لتسليمه البلاد التي هي قريبة من العصيان عليه وكتب ايضاً الى حكام قنسرين والعواصم جميعها ان يدعوا السلطة الخليفة المعتضد فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يده على تلك الاماكن فبايعه اهاليها

القرامطة

وفي سنة ٢٨٩ هـ زادت القلاقل التي كانت تهدد هارون بانتشار القرامطة في سوريا. ومنشأ هذه الطائفة بالبحرين سنة ٢٨١ هـ ويقال في كيفية ظهورها ان رجلاً يعرف يحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلي بن حمدان مولى الزيايديين وكان يغالي في التشيع . فظهر له يحيى انه رسول المهدي وانه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى امره وان ظهوره قد قرب . فوجه علي بن المعلي الى الشيعة من اهل القطيف فجمعهم واقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي اليهم من المهدي . فاجابوه انهم خارجون معه اذا ظهر امره . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فاجابوه وكان فيمن اجابه سعيد الجنابي وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ثم رجع ومعه كتاب يزعم انه من المهدي الى شيعته ونصه « قد عرفني رسولي ابن المهدي مسارعتم الى امره فليدفع اليه كل رجل منكم سنة دائير وثلاثين » ففعلوا ذلك ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب مفاده ادفعوا الى يحيى خمس اموالكم فدفعوا اليه الخمس . وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد لهم كتباً يزعم انها من المهدي وانه ظاهر فيكونون على اهبة . وصار امر هؤلاء ينتشر وعددهم يتعاظم حتى طمعوا بالغزو فبلغوا الشام واستفحل امرهم حتى حاربوا طغج صاحب دمشق وحاصروها سنة ٢٩٠ هـ فاجتمع اليها جميع قوات الشام وهاجوا القرامطة وشتتوهم بعد ان قتلوا شيخهم يحيى وفي سنة ٢٩٢ هـ كان على دست الخلافة العباسية الخليفة المستنفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ما كان نواه سلفه في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى الشام تحت قيادة محمد ابن سليمان فتملكها حالاً وكانت له مباءة ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ عاصمتها (القسطنطينية) فاستعد هارون للمدافعة ورجاله ينقصون يوماً فيوماً لما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء بعد كل وقعة . ولم يكن ذلك منتهى الشقاء فان معسكر هارون نفسه كان مرسحاً تتلاعب فيه الدسائس وينو فيه الخسار بين رجاله . واشتد القتال بينهم يوماً فركب هارون جواده واخذ في ردهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من احد المغاربة فسقط ميتاً في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها تعاسة وشقاء ويقال ان عمه شيبان هو الذي قتله

شيبان بن أحمد

من سنة ٢٩٢ — ٢٩٢ هـ أو من ٩٠٤ — ٩٠٤ م

وانقضاء الدولة الطولونية

وفي يوم موته اقيم عمه شيبان مكانه الا انه لم يهنأ بالحكم لان الناس رفضوه بصوت واحد وخبروا محمد بن سليمان ان يعطيهم الامان فأمنهم ثم حرضوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل الباسة فلقية طنج في اناس من القواد كثيرين فساروا به الى الفسطاط فواقبل اليهم عامة اصحاب شيبان

ولما راي شيبان اصرارهم على ذلك ولم يبق لديه احد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فاعطاهم الامان فبايعوه . اما شيبان فلم يكن يأمن من سكنائه في مدينة اقام فيها معتصبا منه فقر من المعسكر لئلا فبعث محمد بن سليمان من يقبض عليه فلم يظفر به وقال آخرون انه لم يفر ولكنه قتل جزاء قتله هارون بعد عشرة ايام من قتله . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد ان حكمت ٣٧ سنة وبضعة اشهر

ويوم الخميس اول ربيع اول من تلك السنة التي محمد بن سليمان النار في القطائع ونهب اصحابه الفسطاط وكسروا السجون واخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا وهتكوا وفعلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك . واخرجوا ولد احمد بن طولون وهم عشرون انساناً واخرجوا قوادهم ولم يبق في مصر منهم احد يذكر . وخات منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الايام . ثم سيق اصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فنبجوا بين يديه كما تدبج الشياه . وقتل من السودان سكان القطائع خلق كثير وهكذا بادت دولة بني طولون فرثتهم الشعراء والكتباء . وقد وقفنا على قصائد لكثير من الشعراء المعاصرين للدولة المذكورة يرثونها بها ويبالغون في الاسف عليها منهم احمد بن محمد الحبيشي واحمد بن يعقوب واسماعيل ابن ابي هاشم وسعيد بن القاضي واحمد بن اسحاق الجفري ومحمد بن طسويه وغيرهم . فما قاله سعيد بن القاضي من قصيدة طويلة قد مر بعضها قوله

جرى دمه ما بين سحر الى سحر ولم يجرب حتى اسامته يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا اسى يبيت على حجر ويضحى على حجر

تتابع احداث يضيعن صبره
 اصاب على رغم الانوف وجدعها
 وفقد بني طولون في كل موطن
 وكان ابو العباس احمد ماجداً
 كأن ليالي الدهر كانت لحسنها
 يدل على فضل ابن طولون همة
 فان كنت تبغي شاهداً ذا عدالة
 فبالجبل الغربي خطلة يشكر
 وتثور فرعون الذي فوق قلة
 بني مسجداً فيه يروق بناؤه
 وعين معين الشرب عين زكية
 بناء لو ان الجرن جاءت بمثله
 ولا تنس مارساته واتساعه
 وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً
 ترى اثرأ لم يبق من يستطيعه
 وقام ابو الجيش ابنه بعد موته
 اتته المنايا وهو في امن داره
 وورث هارون ابنه تاج ملكه
 وقد كان جيش قبله في محله
 فقام بامر الملك هارون مدة
 وما زال حتى زال والدهر كاشح
 فن يبك شيئاً ضاع من بعد اهله
 ليبيك بني طولون اذ بان عصرهم

وغدر من الايام والدهر ذو غدر
 ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
 امر على الاسلام فقداً من القطر
 جميل الحيا لا بيت على وتر
 واشراقها في عصره ليلة القدر
 محلقة بين السماكين والغفر
 يخبر عنه بالجلي من الامر
 له مسجد يغني عن المنطق الهذر
 على جبل عال على شاق وعر
 ويهدي به في الليل ان ضل من يسري
 وعين اجاج للرواة وللظهر
 لقليل لقد جاءت بمستفزع نكر
 وتوسعة الارزاق للاحول والشهر
 الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
 من الناس في بدو البلاد ولا حضر
 كما قام ايث الغاب في الاسل السمر
 فاصبح مسلوباً من النهي والامر
 كذلك ابو الاشبال ذو الناب والحصر
 ولكن جيشاً كان مستقصر العمر
 على كلف من ضيق باع ومن حصر
 عقارب من كل ناحية تسري
 لفقد هم فليبيك حزناً على مصر
 فبورك من دهر وبورك من عصر

اما القرامطة فاغتموا غياب الجيوش لمحاربة مصر وعادوا الى ما كانوا عليه في سوريا
 فعلم محمد بن سليمان بذلك فسافر الى بغداد مستخلفاً في مصر حاميتها وجيش الخليفة .
 الا ان الامور لم تكن قد سكنت تماماً فثار ابن قلندج وضم اليه عصابة سببت اضطراب
 الراحة فاستدركها ابن كيغلاخ حاكم سوريا فترك دمشق ومعه جيش الخليفة الذي كان

تحت قيادته وجاء لاختاد ثورة مصر فانتقم القرامطة فرصة أخرى واستولوا على دمشق وتقدموا الى طبريا فنهبوا ولكنهم لم يتجاوزوها مخافة ان تلاقىهم الجيوش التي كانت في مصر فعادوا قاصدين الكوفة وكان هناك من المواقع ما لا علاقة له بهذا التاريخ

الدولة العباسية للمرة الثانية

من سنة ٢٩٢ — ٣٢٣ هـ او من ٩٠٥ — ٩٣٤ م

خلافة المكتفي بن المعتضد

من ٢٩٢ — ٢٩٥ هـ او من ٩٠٥ — ٩٠٨ م

فعادت مصر الى سيطرة الدولة العباسية في خلافة المكتفي فاقام عليها عيسى النوشري . وبعد ٣ سنوات توفي المكتفي يوم الاثنين في ١٣ ذي القعدة سنة ٢٩٥ هـ وعمره ٣١ سنة و٣ اشهر بعد ان حكم ٦ سنوات و٧ اشهر و٢٢ يوماً

خلافة المقتدر بن المعتضد

من ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ او ٩٠٨ — ٩٣٢ م

وفي يوم وفاة المكتفي بويع اخوه جعفر المقتدر بالله وعمره ١٣ سنة . فلم يحدث في الامارات تغييراً يذكر فاقر عيسى النوشري على مصر . على ان هذا اضطر بعد حين ان يتخلى عنها محمد بن الخاليج ولم يلبث بضعة اشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات وفي شعبان سنة ٢٩٧ هـ توفي فابدل بتكين الخوري اي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ هـ فأقيل واقيم مقامه زكا الرومي ابو حسن الاعور . فتولى مصر خمس سنوات ومات في ربيع الاول سنة ٣٠٢ هـ فأعيد تكين ثانية . وبعد

ايام توفي تكين تاركاً ولداً يدعى محمداً . وهذا وضع يده على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . اما الخليفة المقتدر فقتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ وعمره ٣٨ سنة بعد ان حكم ٢٤ سنة و ١١ شهر و ١٦ يوماً

خلافة القاهرة بن المعتضد

من ٣٢٠ — ٣٢٢ هـ او من ٩٣٢ — ٩٣٤ م

فبويح اخوه القاهرة بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاص محمد بن تكين على جسارته فولى على مصر ابا بكر محمد بن طغخ ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا مدة من الزمن عرفت بالدولة الاخشيدية

مبدأ الدولة الاخشيدية

وكان ابو بكر محمد ابن طغخ في ذلك الحين حاكماً في دمشق واصله من اولاد ملوك فرغانة . وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جاب اليه من فرغانة جماعة من اقوياء الرجال ووصفوا له جف (جد ابي بكر محمد) غيره بالجماعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم من احضرهم . فلما وصلوا اليه بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع في سامراً وفي جماتها قطائع جف فاقام جف في سامراً (او سر من رأى) وجاءته الاولاد وتوفي في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل الاربعاء في ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ وخرج اولاده الى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معاش . واتصل طغخ بن جف بأولئ غلام ابن طولون وهو اذ ذاك مقيم بديار مصر (في ما بين النهرين) فاستخدمه على ديار مصر ثم انحاز طغخ الى جملة اصحاب اسحق بن كنداج . فلم يزل معه الى ان مات احمد بن طولون وجرى الصلح بين ابنه خمارويه وبين اسحق بن كنداج . ونظر ابو الجيش خمارويه الى طغخ بن جف في جملة اصحاب اسحق فاعجب به واخذ من اسحق وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق او طبرية ولم يزل معه الى ان قتل ابو الجيش فرجع طغخ الى الخليفة المكتفي بالله شجاع علي و عرف له ذلك . وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فسام طغخ ان يجري بالتزلف مجرى غيره .

فكبرت نفس طمع عن ذلك فاعرى به المكتفي فقبض عليه وحبسه وابنه ابا بكر محمد ابن طغيج المذكور فمات في السجن وبقي ولده ابو بكر معه محبوساً مدة ثم اطلق وخلع عليه . ولم يرسل العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى اخذ بثار ابيه هو واخوه عبيد الله في الوقت الذي قتله فيه حسين بن احمد بن حمدان

وخرج ابو بكر واخوه عبيد الله في سنة ٣٩٦ هـ وهرب عبيد الله الى ابن ابي الساج . وهرب ابو بكر الى الشام واقام متغرباً بالبادية سنة ثم اتصل بابي منصور تكين الخزري فكان اكبر اركانه . ومما كبر به اسمه سريره في البعث الى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم سنة ٣٠٦ هـ وهو حينئذ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين المذكور وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من امرهم بقتل من قتله واسر من اسره وشرذ الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امرأة تعرف بعجوز فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت فانفذ اليه خلعاً وزاده في رزقه . ولم يزل ابو بكر في صحبة تكين الى سنة ٣١٦ هـ ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك وسار الى الرملة فوردت كتب المقتدر اليه بولاية الرملة فاقام بها الى سنة ٣١٨ هـ فوردت كتب المقتدر اليه بولاية دمشق وسار اليها ولم يزل بها الى ان ولاء القاهرة بالله ولالية مصر في رمضان سنة ٣٢١ هـ لكنه لم يذهب الى مصر لاستلام المنصب المشار اليه ولم يلق به الا مدة شهر فقط . ثم عين الخليفة مكانه احمد بن كيغاغ سنة ٣٢١ هـ وحصل في تلك الايام اضطرابات في الخلافة بالغ صداها القطر المصري

خليفة الراضي بن المقتدر

من سنة ٣٢٢ — ٣٢٣ هـ او من ٩٣٤ — ٩٣٤ م

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ هـ عزل القاهرة بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و ٦ اشهر وستة ايام وفي اليوم الثاني بويج ابن اخيه الراضي بالله بن المقتدر وحال توليته الخلافة عزل ابن كيغاغ عن مصر وولى مكانه محمد بن طغيج فقدم لاستلام الامارة فامتنع ابن كيغاغ من تسليمه وتخاصما حتى عمدا الى السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغيج وفر احمد بن كيغاغ بمن معه من ذويه الى برقة ومنها الى القيروان

مبدأ الدولة الفاطمية

وكانت القيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن العباسيين تدعي الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين وهم من كتامة بالقرب من فاس في الطرف الغربي من افريقية ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة اخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها القبهمة . ويلقبون ايضاً بالاسماعيليين والعبيديين والعلويين وكانوا قد اخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩هـ في شمالي افريقيا وغربها في احزاب من الاغلبة والادريسيين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني امية في الاندلس

وفي سنة ٢٨٠هـ استولى زعيم الفاطميين ابو محمد عبيد الله على القيروان . وفي سنة ٢٩٦هـ رأى من نفسه القوة فادعى الخلافة فبويع ولقب بالخليفة عبيد الله المهدي وانه آخر الأئمة العلويين الذي يدعي انه منهم وانه احق من سواء بالخلافة . فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منها خليفة يدعى الاحقية بالخلافة وهم بنو امية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في القيروان . فلما سمع عبيد الله المهدي زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي عليه من الثروة والخصب تآقت نفسه اليها واخذ يسعى في الاستيلاء عليها

وبعد خلافته بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١هـ بعث الى مصر اربعين ألف مقاتل في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها . فعلم الخليفة المقتدر بالله بما نواه المهدي فجهز جيشاً لدفع هذه الرزية عن مصر فجرت بين الفريقين وقائع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية . فعاد الفاطميون على اعقابهم وطاردهم المصريون حتى اخرجوهم من حدود مصر . فرأى عبيد الله بعد هذا الفرار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولكنه رأى ايضاً حصونه غير كافية فأسس مدينة دعاها المهدية نسبة اليه على ان تكون عاصمة وقتية ريثما يفتح مصر فيجعل عاصمتها عاصمته . لانه كان مصمماً على افتتاحها الا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيد الله ولا لخلفه الاول ولا الثاني . وفي سنة ٣٢٢هـ توفي عبيد الله المهدي وسنه ٦٣ سنة بعد ان تولى الخلافة الفاطمية ٢٦ سنة فتولى ابنه ابو القاسم محمد الملقب بالقائم بامر الله وكان أكثر تشوقاً للافتتاح من ابيه

وفي ايام القائم هذا جاء احمد بن كيغلغ مطروداً من مصر يطلب مأجاً عنده وجعل يحثه على المسير الى مصر وافتتاحها فرأى القائم ان في افتتاحها عظمة وفخراً فجهز اليها علم محمد بن طنج ذلك فيحصن الحدود الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية . لكن ذلك

لم يمنع من نزول القضاء لان الفاطميين فتحوا الاسكندرية وبعد ان مكثوا قديمهم فيها تقدموا بجيوشهم حتى دخلوا القسطنطينية واحتلوا قسماً كبيراً من الصعيد . ثم رأى القايم بأمر الله ان جنده لا يقوون على افتتاح العاصمة فاجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليه افتتاحها
 اما الدولة العباسية فكانت في غاية الضعف لان اماراتها اخذت تستقل عنها شيئاً فشيئاً . قاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون على خراسان والامويون على الأندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على ما بين النهرين وديار بكر وبنو بويه على بلاد فارس ولم يبق للعباسيين الا بغداد وبعض ضواحيها ومصر

الدولة الاخشيدية

من سنة ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ او من ٩٣٤ — ٩٦٨ م

محمد الاخشيد

من سنة ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ او من ٩٣٤ — ٩٤٦ م

فلما رأى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ما كان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على متقدم طلب نصيبه من تلك القسمة فصرح باستقلاله في مصر سنة ٣٢٤ هـ فاضطر الخليفة الى تثبيتته وملاكه فوق ذلك سوريا مع انها لم تكن بيده . وفي ٣٢٧ هـ لقبه بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانة وهو من اولادهم ومفاد هذه اللفظة في لغتهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانة لقبوه بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم كسرى والروم قيصر والترك خاقان والبن تيج والحبيشة النجاشي الخ . ومن سلالة ابي بكر هذا جاءت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة امر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجيزة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٢٨ هـ اعطى الخليفة الراضي بالله لقب امير الامراء لمحمد بن رائق صاحب فلسطين وكان مستقلاً عنه . فلاح له ان يغزو الشام وعليها الامير بدر بن عبد الله الاخشيدى من قبل الاخشيد فخاربه فهرب بدر فهض محمد الاخشيد لانجاده مستخلفاً

في مصر اخاه الحسن وعسكر في الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت الى هناك فتوسط بعض الامراء في الامر فانصرفت النازلة بالتي هي احسن واتصالها . فعاد محمد الاخشيد الى القسطنطينية وما بلغها حتى ابى ان محمد بن رائق يرحل دمشق وفي بيته ان يهاجم مصر . فاسرع الاخشيد حالاً الى ما كان عليه فعاد بجيشه الى الشام فالتقى بمقدمة جيش ابن رائق في العريش فحصلت واقعة شفت عن انهزام جيش محمد بن رائق الى دمشق . فوضع محمد الاخشيد يده على الرملة وامر خمسمائة رجل من جيش ابن رائق وفي هذه الواقعة قتل حسين اخو الاخشيد . فما كان من ابن رائق مع ما كان بينه وبين الاخشيد من العدوان الا انه انفذ اليه ابنه مزاحماً ومعه كتاب يعزي الاخشيد فيه على فقد اخيه ويعتذر بما جرى ويحلف انه ما اراد قتله وانه قد انفذ ابنه ليفديه به ان احب ذلك . فاما بلغ مزاحم محمد الاخشيد اكرم مثواه وخلع عليه واصطالحا على ان تكون البلاد من الرملة الى حدود مصر للاخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق ويحمل اليه الاخشيد عن الرملة ١٤٠٠٠٠ دينار كل سنة . وبعد ان اتم محمد الاخشيد هذه المعاهدة عاد بجيشه الى مصر سنة ٣٢٩ هـ

وفي ٦ ربيع اول من هذه السنة توفي الخليفة الراضي بالله وعمره ٣٢ سنة وشهور ومدة حكمه ست سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام فبويع اخوه ابو اسحاق ابراهيم الملقب بالمتقي لله



وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٨ هـ كما ترى في شكل ٤١

ش ٤١ - نقود الراضي بالله

وفي سنة ٣٣٠ هـ اقر المتقي لله محمد الاخشيد على مصر . ثم اتصل بمحمد الاخشيد ان محمد بن رائق قتله الحمدانيون فنهض لاسترجاع البلاد التي كان اقام بينه وبين ابن رائق المعاهدة عليها فدخل الشام مسرعاً ولم يعد الى مصر حتى استولى على دمشق وما جاورها . وسنة ٣٣١ هـ تأكد محمد الاخشيد ثبوت قوته فأوصى بالحكم من بعده لابنه ابي الفاسم محمود الملقب بانوجور

وفي سنة ٣٣٢ هـ حصل شغب في بغداد وسببه ان لقب امير الامراء الذي كان يهبه الخليفة لكبار الاتراك اصبح في نظرهم اشرف من الخلافة فقالوا توزون وجعل يقاوم

الخليفة في احكامه حتى اضطر الخليفة الى ترك بغداد وهاجر الى الموصل. فاستجار هناك بناصر الدولة وسيف الدولة من بني حمدان واستنصرهما فنصرهما وجردا جيشاً قوياً وسارا ومعهما الخليفة الى بغداد فهاجموا توزون فغلبهم وعادوا على اعقابهم الى الموصل نخلع الخليفة على كل من الاميرين الحمدانيين خاتمة الشرف وهي غاية ما كان للاخلفاء ان يهبوه في ذلك العهد. ثم سار الخليفة من الموصل الى الرقة فلاقاه كتاب توزون يدعوه للعود الى بغداد. فلما رأى الخليفة ان نصراءه من بني حمدان عجزوا عن نجدة لاح له قول مادعاه اليه توزون وقبل ان يهزم بذلك جاءه محمد الاخشيد من مصر يدعوه اليها بماء له فرفض فألح عليه الاخشيد وعاهده ان يقوم بكل ما يحتاج الخليفة اليه من النفقات والارزاق بشرط ان لا يعود الى بغداد ويبقى نفسه بين ايدي توزون. فتردد الخليفة بين الامرين. فلما رأى توزون المذكور تمنع الخليفة عن القدوم الى بغداد خشي ان يكون على ثقة ممن ينصره عليه فجاءه بنفسه وتراعى على قدميه وألح عليه ان يتوجه معه الى بغداد زاعماً انه لا يعرف احداً غيره خليفة على المسلمين. فسار معه ولم يكذب بلغ تلك العاصمة حتى خلعه في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ بعد ان حكم ٤ سنوات و١١ شهراً وولى مكانه ابا القاسم عبد الله بن المكتفي ولقب بالمستكفي بالله. وفي ٢٢ جمادى الثانية سنة ٣٣٤ هـ عزل المستكفي بعد ان حكم سنة و٤ اشهر ويومين. فبوع مكانه الفضل ابن المقتدر ولقب بالمطيع لله وبقي هذا على دست الخلافة ٣٠ سنة وهو آخر من كانت له السيادة على مصر من الخلفاء العباسيين

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٥٣ هـ كما ترى في

شكل ٤٢



ش ٤٢ — نقود الخليفة المطيع لله

اما محمد الاخشيد فلما رأى الخليفة المتقي ميالاً الى مطاوعة توزون في المسير الى بغداد مكث في دمشق بضعة ايام ثم عاد الى مصر. فسار سيف الدولة الى حلب وكان حاكمها يانس المولسي من قبل الاخشيد فخاربه فاستولى عليها. ثم سار متعقباً ابراهيم الأوكيلي قائد الجيوش المصرية وغلبه بين سرمين والمصرة واستولى على دمشق وكانت الى ذلك العهد في حكم محمد الاخشيد. فارسل محمد الاخشيد في الحال كافوراً الى الشام وكان من مواليه وله فيه الثقة التامة وارسل معه جيشاً كبيراً وكان كافور عبداً اسود خصياً مثقوب الشفة السقلى بطيناً قبيح القدمين معتل البدن

جلب الى مصر وعمره عشر سنين فما فوقها في سنة ٣١٠ هـ فباعه الذي جلبه لمحمد بن هاشم احد المتقبليين للضياع . فباعه لابن عباس الكاتب واتفق ان ابن عباس الكاتب ارسله يوماً الى الامير ابي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهو يومئذ احد قواد تكين امير مصر فأخذ كافوراً ورداً هدية فترقي عنده بالخدمة حتى صار من اخص خدمه . فلم يكن باسرع من ورود الخبر من دمشق بان سيف الدولة علي بن حمدان اخذها وسار الى الرملة حتى خرج للملاقاة فالتقى الجيشان يوم الجمعة فاعتذر بنو حمدان انهم لا يحاربون في هذا اليوم المبارك فتركوا معسكرهم وساروا يطوفون في الخلاء المجاور فهجم كافور على معسكرهم وسلب مؤنهم ففر سيف الدولة الى حمص فنبهه كافور فسار الى حماه ومنها الى رستو فنبهه كافور وكان سيف الدولة في انتظاره هناك بقدم ثابتة فلما قدم جيش كافور وجد بينه وبين العدو نهر العاصي فاضطر الى عبوره بجيشه فاغنم سيف الدولة فرصة في غاية المناسبة والعساكر المصرية ساجدة في الماء وهجم عليهم فأخذ منهم خمسة آلاف اسير وجميع امتعتهم وفرّ كافور الى حمص ومنها الى دمشق

فلما بلغ ذلك محمد الاخشيد سار من مصر بجيش كبير حتى اتى الحيرة . فعلم سيف الدولة بمجيء الجيوش المصرية بقيادة الاخشيد فآله الامر ولكنه لم يشأ الفرار فعزم على ان يهاجم العدو مهاجمة اليأس . فارسل خزائنه وعبيده وحرمه الى ما بين النهرين وتقدم بجيشه لمقابلة الاخشيد فالتقيا في قنسرين فقسم محمد الاخشيد جيشه الى فرقتين جعل الرماحة الى الامام وسار هو في عشرة الاف رجل من نخبة الرجال الى الورا . فهاجم سيف الدولة الفرقة الامامية وشذتها اما فرقة الاخشيد فكانت راسخة القدم فلم يقدر سيف الدولة على تشديتها تماماً لكنه استولى على بعض مناعها . فافترق الجيشان ولم تنزه الغلبة لاحدهما . وسار سيف الدولة الى منبج فعب بجيرتها قاصداً ما بين النهرين . فرض في الرقة وكانت جيوش محمد الاخشيد هناك ويفصل الجيشين نهر الفرات وبقية ايام بدون حرب . ثم اصطالحا على ان تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة ومن حدود حمص الى حدود بلاد العرب تبقى لمحمد الاخشيد . وحفروا خندقاً بين خوشنا ولبوه حدةً فاصلاً بين المقاطعتين حيث لا يوجد لها حدود طبيعية . وتأيداً لهذا الصلح تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد وعاد كل منهما الى بلاده . الا ان المصالحة المذكورة لم تلبث حتى نقصت وحصل بين الاخشيد وبني حمدان مواقع آلت الى استرجاع حلب للاخشيد

وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي محمد الاخشيد في دمشق في ذي الحجة وعمره ستون سنة ومدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر ويومان ودفن في القدس الشريف . وكان ممتازاً بصفات حميدة اخصها البسالة والتدبير في الحرب فكان مسلحاً حازماً شجاعاً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته حسن التدبير مكرماً للجند شديد العزل لا يكاد يجر غيره قوسه . وكان له ثمانية آلاف مملوك يجرسه في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم اذا سافروا لا يثق حتى يمضي الى خيم الفراشين . وكان لا ينام ليلتين متواليتين في مكان واحد فلم يكن احد يعلم بمكان نومه . على ان المؤرخين لم يطلعونا على شيء صريح عن حدود مملكته باختلاف الازمان وان قالوا انها نحو المملكة الطولونية في زمانها اي انها تشمل مصر وفلسطين وسوريا الى الفرات وقسماً كبيراً من بلاد العرب . وقد شكى المسيحيون من جوره . فكان اذا جرد حملة واحتاج لاعانة اخذها منهم ولو باعوا اثاث بيوتهم او كنائسهم في سبيل ذلك . وقال احد المؤرخين المعاصرين ان محمد الاخشيد كان يرد لهم ما يأخذه في سبيل الاعانة . ومما يرى ساحة الاخشيد انه ظفر بمخبأة في بعض الآثار القديمة اصاب فيها اشياء تساوي مبالغ وافرة فلم يكن والحالة هذه في حاجة الى سلب مال الاهلين

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد محمد الاخشيد سنة ٣٣٣ هـ كما ترى في الشكل ٤٣



ش ٤٣ — نقود محمد الاخشيد

انوجور بن الاخشيد

من ٣٣٤ . ٣٤٩ هـ ارم من ٩٤٦ - ٩٦١ م

وتولى بعد محمد الاخشيد ابنه ابو القسم محمد الملقب بانوجور . وكان صغير السن ضعيف الرأي فعهد بتدبير الاحكام الى كافور وزير ابيه . وكان كافور يعمل لابي القسم بامانة ونشاط يستوجب عليه المدح . فعزل ابا بكر محمداً جاني الخراج لتعدد الشكايات ونزولها عليه واقام مقامه رجلاً من ماردن يقال له محمد كان عفيفاً مستقيماً . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيد وسفر ابنه الى مصر فشنخص هو الى دمشق

واستولى عليها . واسرع كافور بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادماً من دمشق والتحم الفريقان فانهمزم سيف الدولة الى الرقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ هـ اثار ملك النوبة على مصر حتى اتى اصوان فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد بن عبد الله الخازن عن طريق البر واثفذ عمارة بحرية في النيل وفرقة سارت في البحر الاحمر فنزلت على سواحله ومنها الى ما وراء النوبة اتسد على النوبيين السبيل . فتضايق النوبيون وفروا يطلبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم (على ١٥٠ ميلاً وراء اصوان) في ايدي المصريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ هـ توفي انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة ايام وولي مكانه اخوه علي الملقب بابي الحسن

ابو الحسن علي بن الاخشيد

من ٣٤٩ - ٣٥٥ هـ او من ٩٦١ - ٩٦٦ م

وحكم ابو الحسن على مصر خمس سنين وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع اخيه انوجور . وفي سنة ٣٥١ هـ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم للري . وكان في السنة التالية اقل ارتفاعاً ثم هبط بغتة والارض لم ترتو فحصل في مصر جوع شديد تعاقب القحط بعده ٩ سنوات رافقه اضطراب آل الى الانشقاق بين ابي الحسن وكافور

وفي اثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم روم القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور نيسوفورس فوكاس الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فاستولوا حلب وكانت لا تزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتفوا بسيف الدولة فخاربه ففتحند صاحب دمشق تحت رعاية الاخشيديين واسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة آلاف رجل وعلم نيسوفورس بمجيء هذا المدد فاخترار الرجوع

كافور الاخشيدي

من ٣٥٥ — ٣٥٧ هـ او من ٩٦٦ — ٩٦٨ م

وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ توفي ابو الحسن علي نخافه كافور وتلقب بالاخشيدي وطالب من الخليفة المطيع لله ان يثبته في مصر ففعل . وهكذا عادت ساطة العباسيين الى مصر . وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها وبقي كافور في منصبه هذا سنتين وعاش شهر . وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فاخذوا في مد ساطتهم رويداً رويداً الى سائر الصعيد . وتوفي كافور في ١٠ جادى الاولى سنة ٣٥٧ هـ ودفن في القرافة الصغرى . وقبته معروفة هناك

احمد ابو الفوارس بن علي

من ٣٥٧ — ٣٥٨ هـ او من ٩٦٨ — ٩٦٩ م

نخاف كافوراً احمد ابو الفوارس بن ابي الحسن علي بن محمد الاخشيدي ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احدى عشرة سنة فلم يثبته الخليفة في الحكم . اما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسيناً الاخشيدي الا انه ما لبث ان استتب له المقام حتى جاءه القرامطة واخذوا البلاد من يده ففر الى مصر قاصداً اغتيالها من احمد ابي الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيديية على نفسها قرب حين انقراضها شأن المالك والدول . فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين اعضاء الاسرة الحاكمة ملوا الانتظار فساروا يستعجلون الفاطميين وكانوا قد تملكوا قسماً عظيماً من مصر فلبوا الدعوة ففرّ حسين الى سوريا واستولى على دمشق . واما احمد ابو الفوارس فعزل من مركزه وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيديية وبعزله انتهت ايام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و٢٤ يوماً

الدولة الماطمية

من سنة ٣٥٨ ... ٥٦٧ هـ أو من ٩٦٩ - ١١٧١ م



خلافة المعز لدين الله

من سنة ٣٥٨ ... ٣٦٥ هـ أو من ٩٦٩ - ٩٧٥ م

وكانت الدولة الفاطمية اذ ذاك في خلافة معد اي تميم الملقب بالمعز لدين الله ابن القائم بامر الله وقاعدتها المهدية وسلطتها منتشرة على افريقية (يراد بها شمالي افريقية من برقة الى مراکش) وماطلة وسردينيا وصقلية واكثر جزائر البحر المتوسط . وما فئ هذا الخليفة منذ جلوسه على دست الخلافة يمد سطوته في القطر المصري وقد حاول افتتاحه نيم مرة ولم يفرز . حتى اذا كان الخلاف بين ابي الحسن علي وكافور تقدم . فاما تولى كافور على هذه الديار بنفسه توقف المعز قايلاً . وعند نهاية حكم كافور جرد جيشاً ارسله تحت قيادة جوهر

وجوهر هذا مملوك رومي رباه المعز لدين الله وكناه بابي الحسن وعظم محله عنده . وفي سنة ٣٤٧ هـ صار في رتبة الوزارة فصيرد قائداً للجيش وبعثه في صفر منها في جيش الى تاهرت فوقع في عدة اقوام وافتتح مدناً وسار الى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئاً فرحل الى سجلماسة ومنها الى ان باغ البحر المحيط (الاطلاشيكي) واصطاد منه سمكاً وجعله في قلة ماء وبعث به الى مولاه المعز واعامه انه قد استولى على كل ما مر به من البلدان والامم حتى انتهى الى البحر المحيط . ثم عاد الى فاس والح عليها بالقتال حتى افتتحها عنوة . ثم عاد في اخريات هذه السنة وقد عظم شأنه وبعد بيته

ولما قوي المعز عزم على تسيير الجيوش لاختد مصر وقد تهيأ أمرها . فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديه أكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه كل يوم ويخلو به ويتداول معه سرّاً واطلق يده في بيوت امواله فاخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه . ويحكى ان المعز خرج يوماً فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال « والله لو خرج جوهر هذا وحده افتتح مصر ولتدخلن مصر بالاردية من غير حرب ولتزلزلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » وامر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان وامر اولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر اهل الدولة ان يمشوا في خدمة جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجلوا مشاة في خدمته . فلما قدم برقة افتدى صاحبها ترجمه ومشيه في ركابه بمخمسين الف دينار ذهباً فابى جوهر الا ان يمشي في ركابه ورد المال فشى

ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع اول سنة ٣٥٨ هـ ودعه اهلها .
ومما قاله محمد بن داني بهذا الشأن قوله :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع	وقد راغني يوم من الحشر اروع
غداة كأن الافق سدّ بمثله	فعاد غروب الشمس من حيث تطاع
فلم ادر اذ ودعت كيف اودع	ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع

ومنها قوله :

اذا حلّ في ارض بناها مدائناً	وان سرّ عن ارض غدت وهي بلقع
تحلّ بيوت العز حيث محله	وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت الى الفسطاط اول رحلة	باين قال بالذي انت تجمع
فان يك في مصر ظمأ لمورد	فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

فما زال جوهر في طريقه الى مصر براً حتى دخلها وسار نحو الصعيد واسرع جنوباً يريد هجمات ملاك النوبة الذي كان نازلاً نحو مصر ولم يدركه جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح اهلها واستعبد من بقي حياً وعاد الى بلاده . أما جوهر فكان قد تملك الصعيد كله .

ولما توفي كافور ووقع الخلاف بين ابي الفوارس وحسين كان جوهر على حدود الفسطاط فاتاه الاهلون والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة

في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ والتقوا بالقائد ونادى مناد فنزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه واحداً فواحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه . ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد . ودخل جوهر بعد العصر وطبوله وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مشغل وتحته فرس اصفر ونزل في ماهو موضع القاهرة اليوم . ثم نزل الى القسطنطينة بمن معه وخطب في جامع عمرو باسم المعز لدين الله وازال الشعار الاسود العباسي والبس الخطباء الثياب البيض فبايعه الناس . وبعد يسير اصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون مقاومة فكتب للمعز بما آتاه الله من الفتح وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة امر جوهر ان يزداد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . اللهم وصل على الامة الطاهرين اباؤ المؤمنين » وفي ايامه صار يذكر بالآذان حي على خير العمل

فساد الاحكام في الدولة العباسية

وكانت الدولة العباسية لا تزال في قبضة المطيع لله وقد فسدت الامور وذهب نفوذ الخليفة واصبح النفوذ ضائعاً بين الوزراء والقواد وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير مايكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم فاصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لا يهمه غير الكسب من اي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بال قاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » وانتهى الخلفاء الى مطامعهم فاصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخذوا امواله . ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية . واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى انشأوا المصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

فلما فسدت الاحكام على هذه الصورة واستبد الوزراء والقواد اراد العمال في الولايات ان يجتزئوا من ذلك في ولاياتهم فاخذوا يستعملون فتشعبت المملكة العباسية

الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والأتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ما جاءها للتغلب من الخارج ففتحها كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون . وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي

فلما يال القائد جوهر جهداً في تثبيت قدم هذه الدولة في الديار المصرية وقد اخذ على عاتقه صلاتها وخراجها وكان قد هجرها النظام منذ داخل بهما الفساد وساد فيهما الخصاص الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فاخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترعة فارتوت الارض فزادت غلتها فشبع الزارع ورجح التاجر فاستتب النظام وساد الامن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ٣ ٤٠٠ ٠٠٠

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها بالقاهرة . وكان تشييد المدن سنة عمومية في ملوك الاسلام اذ ذاك فكانوا يبتنون المدن وينقلون اليها عظمهم والغالب ان يكون سبب بنائها ان يجعلوها حصناً لهم تقيم فيه رجالهم وجندهم ثم يبنى حولها الناس . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية . ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط . حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكره وذكر مولاة فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين ليخاخر بها بغداد عاصمة العباسيين

بناء القاهرة المعزية

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاخطط بقعة من الارض حيث اتاخ جماله يوم جاء لفتح الفسطاط فانه نزل الى شاليها بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رمالاً ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الا بساكنين قليلة منها بستان كافور الاخشيدي شرقي الخليج وميدان الاخشيدي ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيه بئر تعرف ببئر الجامع الاقر وتسميها العساء بئر العظمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصر الشوك ثم عرف بعد ببناء القاهرة بقصر الشوك . فامر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابنى فيها قصرين احدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلها لاقامة المعز عند قدومه الى مصر . مكانهما الآن محل المحكمة الشرعية المعروف بيت القاضي يتصل اليه من شارع النحاسين

ففي نحو ثلاث سنوات تم بناء القاهرة (في اواخر سنة ٣٦١ هـ) وقد بني حولها السور وفيه الابواب ولم يزل بعض اثارها باقياً الى هذا العهد . فبعث جوهر الى مولاه المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها ابوه وسار قادماً الى عاصمته الجديدة مستخلفاً على افرقية وزيره يوسف بن زيري فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى صقلية قضى فيها بضعة اشهر يتفقد احوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب فالاسكندرية فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وكان دخوله اليها باحتفال عظيم من باب زويلة يصحبه يعقوب بن يوسف بن كلس . وكان لزويلة بابان متلاصقان بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش . فدخل المعز من الباب الملاصق ولم يبق له اثر الا ان فتيامن الناس به وهجروا الباب الاخر حتى جرى على الالسنه ان من مر به لا تقضى له حاجة

تاريخ القاهرة المعزية

كانت عاصمة الديار المصرية يومئذ مدينة الفسطاط (بين القاهرة ومصر القديمة الآن) فلما جاء جوهر بجنده سنة ٣٥٧ هـ نزل شمالها في البقعة التي تقدم ذكرها وفيها اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وشارع النحاسين وخان الخليلي وما جاورها من المنازل والاسواق بين المقطم والخليج الذي ردموه اليوم واجروا فوقه قطر الترمواي بين جنوبي القاهرة وشمالها

وكانت تلك البقعة ما عسكر فيها جوهر رملاً يمر بها المسافر من الفسطاط الى المطرية . فلما فتح جوهر الفسطاط بنى القاهرة في تلك البقعة وسماها القاهرة المعزية نسبة الى مولاه . وكانت مربعة الشكل تقريباً يحدها من الشرق الجبل ومن الغرب الخليج وطول هذا الحد ١٢٠٠ متر يسير فيه السور بموازة الخليج وعلى بعد ٣٠ متراً منه نحو الشرق . ومن الشمال خط يمتد من الخليج قرب باب الشعرية الآن على موازة سكة مرجوش الى الجبل وطوله ١١٠٠ متر . ومن الجنوب خط نحو هذا الطول يبدأ بباب الخلق عند التقاء الخليج بشارع محمد علي الآن قرب محافظة مصر ويسير شرقاً الى الجبل . ومساحة هذه المدينة بين هذه الحدود ٣٤٠٠ فداناً او ١٤٢٨٠٠٠ متر مربع بنى فيها قصرأ سماه القصر الكبير الشرقي شغل خمس هذه المساحة وشغل ما بقي بالجامع الازهر والقصر الغربي ومسكن الجند والاسطبلات ونحوها . وقد دللنا على مكانها في الخارطة ببقعة بيضاء . وظلت الاسواق واماكن

البيع والشراء ومساكن الاهالي في مدينة الفسطاط . اما الارض خارج المدينة حيث
الآن الفجالة والظاهر والمهمشة والعباسية والازبكية والتوفيقية والاسماعيلية وبولاق
فكان اكثرها بساتين ومزارع وبركاً

ولم تنسع القاهرة في اثناء مدة الفاطميين الا قليلاً فصارت مساحتها على عهد امير
الجيوش في اواخر القرن الخامس للهجرة ١٦٨٠٠٠٠ متر. حتى اذا دالت هذه الدولة
ودخلت مصر في حوزة الايوبيين وتملكها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٢ هـ اباح
للناس سكنى القاهرة وبني القلعة في سفح المقطم له ولجندة يعتصم بها من اعدائه لانه
كان يخاف الشيعة الفاطمية على ملكه . فاقدم الناس على بناء المنازل جنوباً خارج
القاهرة بينها وبين الفسطاط وغرباً بينها وبين النيل وامر ببناء سور كبير يحيط بها
وبالقلعة وبالفسطاط جميعاً اكمله من جاء بعده فبلغ طوله نحو ٢٤٠٠٠ متر في شكل كثير
الاضلاع وبلغت مساحة القاهرة ضمنه ١٩٤٨ فداناً او ٨١٦١٦٠٠ متر مربع

وتولى بعد الايوبيين السلاطين المماليك وتفسير شكل القاهرة في ايامهم ثم نقصت
مساحتها واستنزف عمرانها في ايام الامراء المماليك ولكنها عادت في زمن الاسرة الحمديدية
العلوية الى النهوض فبلغت مساحتها في اواخر ايام محمد علي باشا ٩٠٠٠٠٠٠ متر مربع
وحدها من الشرق الجبل المقطم ومن الغرب شارع باب الحديد وشارع عابدين بخط
منحرف نحو باب اللوق ثم يعود الخط شرقاً الى قرب عابدين ويسير جنوباً حتى يقطع
الخليج قرب باب غيط العدة ومن هناك الى باب السيدة زينب . وكان يحدها من الشمال
شارع الفجالة وما بعده شرقاً الى باب الشعيرة فباب النصر وباب الفتوح الى الجبل .
ويحدها من الجنوب خط ممتد من باب السيدة زينب فباب طولون الى باب القرافة
وقد دللنا على مكانها في الخارطة بخطوط متقاطعة والقاهرة المعزية في داخلها

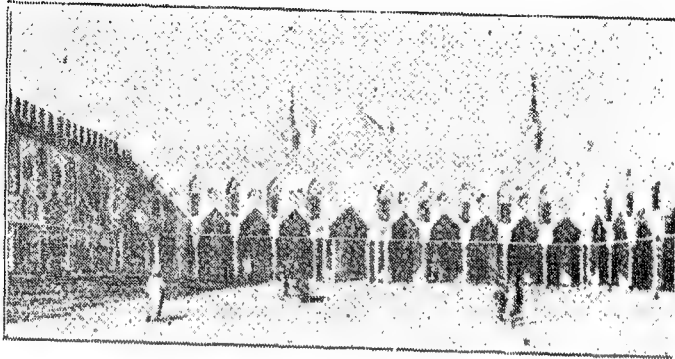
واتسعت مساحتها في عهد الخديويين بعد محمد علي حتى صارت سنة ١٨٨٠ قبل
الحوادث العربية ١٢١٨٠٠٠٠ متر . واسرعت في الاتساع بعد الاحتلال الانكليزي
حتى صارت مساحتها الآن اكثر من ستة اضعافها قبله واكثر من خمسين ضعفها لما
بناها القائد جوهر بما دخل في حدودها من الضواحي العامرة عما بعد عام

دخول المعز قصره

وفي يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ دخل المعز لدين الله قصره بالقاهرة وعند
دخوله خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه واستقر في قصره
باولاده وحشمه وخواص عبيده والقصر يومئذ بهجة وكله تحف وممنوعات وبعد ذلك

باسبوع اذن بدخول من يريد مقابلته للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولاً الاشراف ثم اذن بعدهم للاولياء وسائر وجوه الناس وكان الفائذ جوهر قائماً بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم . وبعد وصوله يسير امر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيها اجداده الذين استحضروهم معه بتوايت من بلاد المغرب . وصارت بعد ذلك مدفناً يدفن فيه الخلفاء واولادهم ونسائهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث خان الخليلى الآن . فلما نشأ الامير جهار كس الخليلى خانه اخرج ماشاء من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد ليعقوب بن يوسف بن كلس بخراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهودياً جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في ايام كافور الاخشيدى واسام طمعاً بالدنيا فاحبه كافور ورقاه . واشترك مع يعقوب في امر الخراج عسلوج بن الحسن وكتب المعز لهما سجلاً بذلك فجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات (الاتزام) وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبليين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب ونظرا في المظالم فتوقرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاثفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حد يفوق التصديق



الجامع الازهر من داخله

ثم ابني جوهر جامعاً دعاه الجامع الازهر وهو اقدم جوامع القاهرة الجامع ابن طولون واكثرها اتساعاً ولذلك لقب بالجامع الكبير . واقام جوهر في الجامع المذكور بامر الملك العزيز الاتي ذكره مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الافاق وكان

القصص الرئيسي من بناء هذا الجامع اقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في الدولة الاسلامية من ذلك العهد . وكانت هذه الشيعة قد قاست الامر بين تحت سلطة العباسيين من قتل ونفي . فلما تأتى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دولتها وانشأت القاهرة معقلاً لجندها والجامع الازهر لتأييد مذهبها لان العامة لا تحكم بمثل الدين . وكان المصريون يؤمنون على مذهب الامام الشافعي لان هذا الامام قضى اخريات ايامه بمصر ومات فيها وقبره معروف في ضواحي القاهرة . وكان الفاطميون يعترفون بهذا المذهب ايضاً واما العباسيون فكانوا على مذهب ابي حنيفة . فتوافق الفاطميون والمصريون في المذهب فهاتف على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فقرروا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر اقطار العالم الاسلامي واجروا عليهم الارزاق وفرقوا فيهم الاموال . وكانت مجالسهم تعقد في الازهر على عادة الفقهاء في ذلك العهد فتزاحمت فيه الاقدام وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بابنية ينشئونها بجانبه ويوسعون دورته حتى اصبحت سعته الان نحو ١٢٠٠٠ متر مربع . وكانت اقل من نصف ذلك . وتضاعفت اساطينه مراراً وكان عددها يوم بني ٧٦ اسطوانة متفرقة في اجزائه . وصارت ابوابه تسعة

وكانت اعطية الخليفة للفقهاء في اول الامر على غير قياس او ميقات . فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ هـ امر وزيره يعقوب بن كلس ان يرتب للفقهاء ارزاقاً معينة وان يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع . وكانوا يأتون المسجد في بادئ الرأي لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة فتدريجوا من القراءة الى التعليم حتى اصبحت الجامعة مدرسة كبرى اكثر دخلها بما وقفه لها الخلفاء والامراء ويقدر دخله السنوي اليوم بعشرين الف جنيه

علوم الازهر وبنائوه

ظل الازهر مدرسة شيعية طول خلافة الفاطميين (نحو مئتي سنة) حتى غلبهم صلاح الدين الايوبي على مصر سنة ٥٦٧ هـ وكان سني المذهب وليس له بدء من مبايعة خائفة يشبهه في منصبه فبايع الخليفة العباسي في بغداد وخطب له في الجامع الازهر . وكان صلاح الدين على مذهب الامام الشافعي فلم يضطر لتبديل كثير من طرق التعليم وقبل الناس سلطته على اهون سبيل . على انه لم يرد مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب ابي حنيفة وراى بحكمته وسداد رايه ان يكتسب ولاء سائر المسلمين فاجاز تعليم المذاهب الاربعة كل مذهب يحضره اهله . قال ذلك الى اتساع

شهرة هذه المدرسة وتقاطر اليها الطلاب من اربعة اقطار المسكونة . ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ولكنه تناول شيئاً من الرياضيات والنجوم وبعض العلوم الطبيعية

وما زال ذلك شأنها في ايام السلاطين الايوبيين وماليكهم حتى جاء السلطان سليم العثماني وفتح مصر في اوائل القرن العاشر للهجرة . ثم استبد الامراء المماليك في الحكومة واشتغل الناس عن العلم . وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر المملكة الاسلامية الا في مصر لان مدرسة الازهر كانت اكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية لتعليم العلوم الدينية والاسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم واهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات

على ان فضل الازهر في احياء اللغة العربية لم يكن قاصراً على نشرها في الديار المصرية او ما جاورها من البلاد العربية لكنه شمل سائر البلاد الاسلامية . فقد كانوا يفدون على مدرسته من بلاد الترك والمغرب والشرس واليمن وزنجبار والهند وافغانستان وغيرها . وقد رغب الناس فيه لانه كان يعلم الطلبة مجاًياً يقوم بنفقاتهم من الطعام واللباس والمأوى فضلاً عن امتيازه بمهارة الاساتذة . فكان اعظم العلماء المسلمين في الاجيال الاسلامية الوسطى ينبغون من مدرسة الازهر . وكان للمخرج في هذه المدرسة مزية وفضل على المتخرجين في سائر المدارس الاسلامية وطلابه الان يتجاوزن عشرة الاف طالب

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغير فيه كثير من الملوك والامراء الذين تولوا مصر بعد المعز . وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس وقايت باي والغوري من سلاطين المماليك . والسيد محمد باشا من ولاة الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كتحيا من امراء المماليك . وعبد الرحمن كتحيا المذكور جدد فيه اشياء كثيرة وجعل فيه مدفناً له دفن فيه . واخيراً سعيد باشا بن محمد علي باشا سنة ١٢٧٢ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيه شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد

نسب الفاطميين

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية في الشرق يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة له وحرمان الاخر منها . ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابه لفاطمة بنت النبي . وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواه على انه قلما كان

يعتمد على شرف الحسب والنسب . ومما يحكى عنه انه لما كان قادماً الى القاهرة وخرج الناس للقاءه اجتمع به اناس من الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فنقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » . فقال له « سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

والاستقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال « هل بقي من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبق معتبر » فسل نصف سيفه وقال « هذا لسبي » ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعاً سمعنا واطعنا ولم يسكن المعز لدين الله قصره طويلاً فتوفي بعد ثلاث سنوات من حكمه بمصر (الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ) وسنه ٤٥ سنة ومدة حكمه جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلاً حازماً اديباً حسن النظر محباً للنجاسة شاعراً وينسب اليه من الشعر قوله :

لله ما صنعت بنا تلك المهاجر بالمعاجر
امضى واقضى في النفوس من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في الهواجر
وينسب اليه ايضاً :

اطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك اظلاً
وكأن الجمال خاف على الورى دجفاً فد بالشعر ظلاً



وترى في الشكل الرابع والاربعين
صورة نقود المعز مضروبة بعد دخوله القاهرة
بسنة واحدة

ش ٤٤ — نقود المعز لدين الله



خلافة العزيز بن المعز

من ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ أو من ٩٧٥ — ٩٩٦ م

فلما توفي المعز بويع ابنه نزار بن معصود منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوه بعضهم العزيز بدين الله ومولده المهدية في افريقية واتسعت المملكة في ايامه حتى اتصلت بمكة . ولم يكن سن العزيز عند مبايعته الا ٢١ سنة فترك ازمة الجند لجوهر . وفوض ليعقوب بن كاس النظر في سائر الامور وجعله وزيراً له في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٣ هـ امر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضي الاوامر باسمه واهداه كثيراً من الغلمان والاموال . فرتب يعقوب الدواوين فجعل ديواناً للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر للمستغلات وجعل في كل منها كتاباً ورؤساء كتاب . وكان يجلس في مجلسه الادباء والشعراء والفقهاء وارباب الصنائع وخصص لكل منهم الارزاق والنف كسباً في الفقه والقرآت وكان يجلس في كل جمعة يقرأ مصنفاً على الناس بنفسه . وكان له مجلس في داره للنظر في رقايع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيده في الرقاق ويخاطب الخصوم بنفسه . وتوفي الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وهو اول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وتزوج العزيز بالله امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتملت نفوذاً عليه فكان يراعي ابناء طائفتها ويرفق بهم اكراماً لها حتى اتخذ طبيبه الخاص منهم واسمه منصور بن مقشر وكان يحترمه فاعتل الطيب يوماً عن الركوب فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طيبتنا سلمه الله سلام الله الطيب وآتم النعمة عليه . وصات الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . اقالك الله العثرة واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته »

هفتكين الشراي

وقدم الى الشام في ايام العزيز هفتكين الشراي من بغداد لغزو دمشق . وهفتكين هذا يقال له الفتكين ابو منصور التركي الشراي غلام معز الدولة احمد بن بويه رقي الخدم حتى غلب في بغداد على عز الدولة مختار بن معز الدولة وكان فيه شجاعة وثبات

في الحرب . فلما سارت الاتراك من بغداد للحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين . الا ان اصحابه انهزموا عنه وصار في طائفة قليلة فصار بمن معه من الاتراك وهم نحو الاربعمائة الى ان قرب من حوشبة احدى قرى الشام وقد وقع في قلوب العرب ان منه مهابة . وما زال ينتقل من محل الى اخر ويجمع اليه الاحزاب ومنهم القرامطة حتى غزا القسم الاعظم من سوريا الى دمشق ونزل على السواحل فعلم بذلك العزيز بالله فارسل اليه جيشاً تحت قيادة جوهر فبلغ هفتكين ذلك وهو في عكا . اما القرامطة فكانوا في الرملة ولما بلغهم قدوم جوهر وجيوش العزيز فروا عنها فزها جوهر وسار من القرامطة الى الاحساء التي هي بلادهم جاعة وتأخر عدة . اما هفتكين فسار من عكا الى طبرية وقد علم بمسير القرامطة وتأخر بعضهم فاجتمع في طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الاقوات من بلاد حوران والثنية وادخلها الى دمشق . ثم سار اليها وتحصن فيها فعلم جوهر بذلك فصار الى دمشق . ونزل على ظاهرها في ٢٢ ذي القعدة وبنى على معسكره سوراً وحفر خندقاً عظيماً وجعل له ابواباً

فجمع هفتكين رجاله لقتال جوهر وطال الاخذ والرد الى ١١ ربيع اول سنة ٣٦٦ هـ . وعند ذلك اختل امر هفتكين وهم بالفرار . ثم انه استظهر ووردت الاخبار بقدوم احمد القرمطي الى دمشق فطلب جوهر الصلح على ان يرحل عن دمشق من غير ان يتبعه احد . وذلك انه رأى امواله قد قلت وهلك كثير ممن كان في عسكره حتى صار اكثر جنده رجالة واعوزهم العلف وخشي فوق ذلك قدوم القرامطة . فاجابه هفتكين وقد عظم فرحه فرحل جوهر في ٣ جمادى الاولى وجد في المسير الى ان بلغ طبرية وكان قد قرب القرامطة فتعقبوه اليها فصار منها الى الرملة فبعث القرامطة بسرية كان لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب . ثم طال الكفاح ١٧ شهراً ففر جوهر الى عسقلان فغنم هفتكين شيئاً كثيراً . ثم سار فحاصر عسقلان فبلغ ذلك العزيز فاستعد للمسير ليمد جوهر

اما جوهر فلما طال حصاره راسل هفتكين يطلب اليه تقرير الصلح على مال يحمله اليه وان يخرج من تحت سيفه فعلق هفتكين سيفه على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معه من تحتته وسار الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز يريد المسير . فساروا معه وما زالوا حتى نزلوا الرملة وكان هفتكين في طبرية فصار للقاء العزيز ومعه عدة من رجاله فالتقى الجيشان . فلم يكن غير ساعة حتى انهزم جيش هفتكين وفاز العزيز فطلبوا

هفتكين فاذا هو قد فر على فرس بمفرده فقبض عليه احد العرب وجاء به الى العزيز وعمامته في عنقه فامر به فطيف به على العسكر على جمل فاخذ العسكر يلطمونه ويهزون لحيته

ثم سار العزيز بهفتكين والاسرى الى القاهرة فاستخدمه ومن معه واحسن اليه غاية الاحسان وانزله في دار وواصله بالعطاء واخلى حتى قال لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله وتطوفي اليه بما غمرني من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة « يا عم والله اني احب ان ارى النعم عند الناس ظاهرة وارى عليهم الذهب والفضة والجواهر ولهم الخيل والاباس والضياع والعقار وان يكون ذلك كله من عندي » وما زال هفتكين يرتقى في ظل العزيز الى ان توفي سنة ٣٧٢ هـ فظن العزيز ان يعقوب بن كلس سمه (وكان لا يزال حياً) لانه كان يلاحظ بينهما منافسة في التقرب من الخليفة فاعتقله مدة ثم اطلقه

مناقب العزيز بالله

وفي ١٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ توفي العزيز بالله في بليس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وعمره ٤٢ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته ٢١ سنة وخمسة اشهر ونصف فنقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع آباءه . وكان العزيز كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة وكان اسمر اللون اصهب الشعر اشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريباً من الناس لا يؤثر سفك الدماء محباً للصيد ولا سيا صيد السباع . وكان اديباً قاضياً

ويحكى ان احد الشعراء نظم قصيدة هجا بها وزيره وكاتب سره فرفعا الشكوى اليه وطلبا عقاب الشاعر . فاطلع على القصيدة فرأى فيها هجواً به ايضاً فقال لهما « بما اني شاركتكما باحتمال هذه الاهانة فشاركاني بالعفو عن هذا الشاعر »

والعزيز اول من اتخذ وزيراً اثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه واول من لبس الخفين واول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد واول من رمى منهم بالنشاب واول من ركب منهم بالدواة الطويلة وضرب بالصوالة واعب بالرمح . واول من اقام طعماً في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان . واول من اتخذ الخمر لركوبه اياها

وكان للعزيز رغبة في اقتناء الكتب مجارة لناظرهم من العباسيين فجمع

منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات المهمة في التاريخ والادب والفقه ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او أكثر — ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة بخط الخليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمئة دينار . ومئة نسخة من كتاب الجهرة لابن دريد وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عددها من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت نحو ١٦٠٠٠٠٠ كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجاة والروحانيات والكيمياء منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة غير ادوات الهندسة والفلك

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون بنحو ٢٠٠٠٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب . لان العزيز بعد ان اشأ خزائنه بقصره اقتدى به جماعة من اهله فانشأوا مثلها في قصورهم . فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠٠ مجلد او كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزائنه يتعهد بها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتب لها قوماً يتولى شؤونها ويحاسبه ويقرأ له الكتب ويناديه . ومن تولى ذلك ابو الحسن الشاذلي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ

ومن آثاره انه اسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم اتمه



خلافة الحاكم بأمر الله بن العزيز

من سنة ٣٨٦ — ٤١١ هـ أو من ٩٩٦ — ١٠٢١ م

ولما توفي العزيز خلفه ابنه المنصور أبو علي فبويغ ولقب بالحاكم بأمر الله ولكننا سنرى أنه لم يحكم الا خلافاً لأمر الله . وكان عمره عند مبايعته احدى عشرة سنة فكان الوصي عليه الوزير ارجوان فاستأثر بالنفوذ حتى تجاوز الحد وكانت مدة حكمه نحو ٢٥ سنة ثارت في اوائلها عصبة ادعى زعيمها أنه من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وجرى بسبب ذلك خصام وحروب كان النصر فيها متبادلاً وفي المرة الاخيرة قبض على زعيم العصاة والتي في السجن وهرب اتباعه . ثم اراد الحاكم ان يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فاركبه جلاً وأركب وراءه قرداً وطوّقه في المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على رأسه الى ان مات شرموتة

وفي سنة ٣٩١ هـ امر الحاكم الناس بان يوقدوا القناديل على الحوانيت وابواب الدور والحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ولازم الركوب في الليل . وكان ينزل في كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة يوصلون ليلهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء . وكان اذا مشى في موكبه امر حاشيته ان لا تمشي بقربه وزجرهم وقال ابعدوا ولا تمنعوا احداً مني فكانت تقترب الناس منه وتحقق به وتكثر من الدعاء له

اطوار الحاكم

وبعد يسير اصيب الحاكم بتغيير في عقله لم يفارقه حتى فارقتة الحياة . وظهر في اثناء ذلك مذهب يدعى ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية . ثم توفي الزعيم وخلفه احد تلاميذ المدعو حمزة بن احمد الملقب بالهادي . وسنّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعیاد والتعويض عن الحج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن . ومن شرائعهم انهم اباحوا الزيجة بين الاخ واخته واب وبناته والام وابنائها . وجاؤا بامور كثيرة تخالف او تناقض ما جاء في القرآن فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة واقتن بها فبعتها ونسي ديانة ابيه وجده . وكان يصعد كل صباح منفرداً الى الجبل المقطم حيث ادعى انه يناجي الله كما كان

يفعل موسى . وبعد ان كان اشد نصير للديانة الاسلامية نادى جهاراً بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة . وسعى في ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فخبطت مساعيه فاحتقرته الرعية ولم تعد تعباً بمدعياته فعاد الى نصرته الاسلام فاضطهد النصارى واليهود

وكان السبب الرئيسي في ذلك الاضطهاد تقدم النصارى في ايامه حتى صاروا كالوزراء وتعاضموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فزايدت مكائدهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين فغضب الحاكم بامر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فامر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فامرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعائين والتظاهر بما كانت عاداتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وادخله الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن به لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون

وقد سوغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ فاخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتمت الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده . وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز الذين بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً فعظمه تعصبه وحمقه فامر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم اموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المنشورات بمنعهم من اكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير ومنعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق والا مر بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الاوامر التي تدل على اختلال في عقله . على اننا قلنا نراه اتى امراً الاسباب وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن ابي سفيان عدو

الشيعة كان يحبها والدول الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة ام المؤمنين ومنعهم من اكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من اعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان على بن ابي طالب يكرهه . وقس على ذلك سائر ضروب الحماسة والغرابة . ومن هذا القليل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد اسبب طفيف او بلاسبب وامر ببناء تلك الكنائس وخير النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثيرون منهم — وقد تقدم ان ذلك كان في ايام ابنه الظاهر . ومن اعماله الغريبة انه ابنى المدارس وجعل فيها الفقهاء المشايخ ثم قتلهم واخربها واكرم الناس باغلاق الاسواق نهراً وفتحها ليلاً فظل الناس على ذلك دهوراً طويلاً . فمن كانت هذه اعماله لا يستغرب منه اضطهاد ولا يعدم اضطهاده عاراً على الدولة او الامة

فكان هذا الحاكم حملاً ثقيلاً على عائق المصريين والسوريين ولم يستطع احد مقاومته فكان كل منهم يكظم غيظه وهو يسمع باذنه رنة السهم في قلبه ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكل منها من نهاية فعلت اخت الحاكم وقائد جيشه ان الحاكم ينوي قتلها فعمدا الى اغتياله قبل ان يغتالها فاخذوا الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١١ هـ قتله على جبل المقطم وبعد موته صار النفوذ الى اخته ونادت بابنه علي ابي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله وريثاً له فاستلم زمام الاحكام فبايعوه وبقيت الاحكام في يده ١٧ سنة

جامع الحاكم

ومن آثار الحاكم بامر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع اساسه على يد وزيره يعقوب بن كلس فاتم الحاكم بنائه وانفق في سبيل ذلك اربعين الف دينار ودعا جامع باب الفتوح لجاورته له وجعل فيه المفروشات الثمينة والوانى الفضية والذهبية . وكان هذا الجامع عند بنائه خارج سور القاهرة . ثم لما جاء امير الجيوش وجدد الاسوار كما سيأتي وابنى باب الفتوح حيث هو اليوم اصبح الجامع داخل السور . ثم تهدم بعضه بزلزلة حصلت في ١٣ ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ فانتدب الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لترميمه وجعل فيه دروساً اربعة لتعليم الفقه على مذاهب الائمة الاربعة ودرساً لاقراء الحديث وجعل فيه مكتبة نفيسة وصهاريج الماء واما كن اخرى . ثم جدد هذا الجامع وبلط جميعه في ايام الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٦٠ هـ على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس . ويقال ان الشيخ المشار اليه وجد في الجامع حجراً مكتوباً عليه هذه الايات لغزاً في الحجر المسكرم

ان الذي اسررت مكنون اسمه وكتبته ككيا أفوز بوصلة
مال له جندر تساوى في الهجا طرفاه يضرب بعضه في مثله
فيصير ذاك المال الا انه في النصف منه تصاب احرف كله
واذا نطقت بربعه متكلماً من بعد اوله نطقت بكه
لا نقط فيه اذا تكامل عدده فيصير منقوطةً بجملة شكله

دار الحكمة

ومن اثار الحاكم في خدمة العلم انه انشأ مكتبة سهاها دار العلم او دار الحكمة وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بامر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف لها اما كن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على ابوابها وعمراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون اي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها فن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد

وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم اقام بها القراء والمنجمين واصحاب النحو واللغة والاطباء واجرى لهم الارزاق واباح الدخول اليها الى سائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقروا او ينسخوا ما شاؤوا . وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الخبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخضع عليهم الخلع . وقد اباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدل الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث ارائهم فاضطر الافضل بن امير الجيوش في اوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للاسباب . فلما توفي الافضل امر الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى فاعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية وان يكون متوليها رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا لظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠٠٠٠ كتاب . ولما افضت الدولة الى صلاح الدين الابوبى هدم

دار الحكمة وبنها مدرسة للشافعية



وهذه صورة النقود الذهبية التي ضربت في أيام الحاكم بأمر

الله (انظر شكل ٤٥)

ش ٤٥ : نقود الحاكم بأمر الله

خلافة الظاهر بن الحاكم

من سنة ٤١١ — ٤٢٧ هـ أو من ١٠٢١ — ١٠٣٦ م

وفي أيام الظاهر (سنة ٤٢٢ هـ) توفي الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد أقيم سنة ٣٨١ هـ خلفاً للطائع وأقيم مقامه في بغداد القائم بأمر الله . وكان سن الظاهر لما تولى الخلافة ١٦ سنة نخرج الى صلاة العيد وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس في المصلى وعاد فكتب بخلافته الى الاعمال وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب النفاق وأكل الملوخية وجميع الاسماك فأقبل الناس على اللهو

المجاعة

وكان الظاهر ضعيف الرأي منصرفاً الى اللهو فافضى النفوذ الى بضعة من رجال دولته وقرروا ان لا يدخل على الظاهر غيرهم . فاصبحوا يتصرفون بامور الدولة ويمنعون اهل النصح من الوصول الى الخليفة . واخذوا في الاستئثار بالاموال فضاقت ابواب الرزق ومنع الناس من ذبح الابقار لقلتها وعزت الاقوات بمصر وقتل البهائم كلها حتى بيع الراس البقر بخمسين ديناراً وكثر الخوف في ظواهر البلاد وكثر اضطراب الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجارة فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتماسد زعماء الدولة فقبض على العميد محسن وضرب عنقه . واشتد الغلاء وفشت الامراض وكثر الموت في الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج . وعز الماء فعم البلاء من كل جهة وعرض الناس امتهتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب واخذت اموالهم وقتل منهم كثير وعاد من بقي فلم يحج احد من اهل مصر . وتفاقم الامر من شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر « الجوع الجوع يا امير المؤمنين لم يصنع بنا هذا ابوك ولا جدك فالله الله في امرنا » وطرقت عساكر ابن جراح الفرما ففرّ أهلها الى القاهرة واصبح الناس بمصر على اقبح حال من الامراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الاقوات وكثر الخوف من الذعار التي تكبس حتى انه لما

عمل سباط عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السباط وهم يصيحون الجوع ونهبوا سائر ما كان عليه . ونهبت الارياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت امور من العامة قبيحة واحتاج الظاهر الى القرض فحمل بعض اهل الدولة اليه مالا وامتنع اخرون واجتمع نحو الالف عبد اشتهب البلد من الجوع فنودي بان من تعرض له احد من العبيد فليقتله . ونذب جماعة لحفظ البلد واستعد الناس فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الى ان خندقوا عليهم خنادق وعملوا الدروب على الازقة والشوارع وخرج معضاد في عسكر فطردهم وقبض على جماعة منهم ضرب اعناقهم . واخذ العبيد في طلب وجوه الدولة فخرسوا انفسهم وامتنعوا في دورهم وانقضت السنة والناس في انواع من البلاء

وفي سنة ٤٢٧ هـ توفي الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الاحد منتصف شعبان بعد



ان تضععت الدولة فبويع ابنه معد ابي تميم خليفة مكانه ولقب بالمستنصر بالله وهذه صورة نقود الظاهر لاعزاز دين الله ضربت في القاهرة سنة ٤٢٥ المظرش ٤٦

ش ٤٦ — نقود الظاهر لاعزاز دين الله

خلافة المستنصر بن الظاهر

من سنة ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ او من ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م ولم يكن سن المستنصر عند مبايعته اكثر من سبع سنوات وأمه جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمه ابو سعيد سهل بن هارون التستري . فلما رأت انها في هذا المنصب اتت بسيدتها الاصلي وولته الاستشارة ، وكانت مدة خلافة المستنصر اطول من مدة كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع

ففي سنة ٤٢٩ هـ عقد المستنصر هدنة مع امبراطور الروم وكان لا ينفك عن مهاجمة التتخوم الاسلامية حتى اخضع حلب وتبعها سائر الشام فساد الامن بعد الهدنة الى ان كانت سنة ٤٣٤ هـ بويلاتها فثارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل اسمه سكين كان يشبه الحاكم بامر الله فادعى انه الحاكم وقد رجع بعد موته . فاتبه جمع ممن يعتقد رجعة الحاكم فاغتنموا خلو دار الخليفة بمصر من الجنود وقصدوها مع سكين نصف النهار

فدخلوا الدهليز فوثب من هناك من الجند فقال لهم اصحابه انه الحاكم فارتاعوا لذلك ثم ارتابوا به فقبضوا على سكين ووقع الصوت واقتتلوا فترجع الجند الى القصر والحرب قائمة فقتل من اصحابه جماعة وأسر الباقيون وسلبوا احياء ورماهم الجند بالنشاب حتى ماتوا

ثم سعت ام الخليفة فساداً في الاحكام فغيرت في الوزارة ونقلت زمام الامور من يد احمد بن علي ليد حسن بن العنبري ومنه الى صدقة العلاجي وهذا قتل سلفه سنة ٤٤٠ هـ فحكم عليه بالقتل فابدل بحسين الجرجاري وفي شوال سنة ٤٤١ هـ قبض عليه ونفي الى سوريا واقام مقامه ابو الفضل بن مسعود والقاضي اليازوري وقد حاز هذا الاخير على رضا المستنصر فقربه منه بحيث انه كان يعطيه الالقاب الخاصة بالخليفة ويضرب النقود باسمهما

وفي اثناء ذلك اضطربت الخارجية بسبب معز الدولة وكان قد ولاء الخليفة على حلب سنة ٤٣٦ هـ فيحاول الاستقلال بها فانفذ اليه الخليفة جيشاً بقيادة ناصر الدولة ابن ابي الهيجاء فكسره . فاسترجعه وارسل عوضاً عنه الاميرين طرماً ورفيقاً وتحهما جيوش مصرية فلم ينالا اكثر مما نال . ولحسن الطالع اعتاض معز الدولة عن الهجوم على مصر بعد ما رأى من انتصاره على جيشها بعقد الصلح . فانفذ ابنه وزوجته ليعقدا صلحاً مع المستنصر وكانت زوجته بديعة الجمال فاخذت بمجامع قلب المستنصر فوافقها في التنازل عن حلب لزوجها

المعز بن باديس

وما انتهت هذه المعضلة في الشرق حتى نشأت معضلة اخرى في الغرب وذلك ان المعز بن باديس تمرد في افريقية لمكاتبات عدوانية حصلت بينه وبين الوزير اليازوري فابطل الخطبة للمستنصر واستعاض عنه باسم الخليفة العباسي القائم بامر الله . ووردت الخلع والتقليد من القائم بامر الله الى المعز مع كتاب قال فيه « من عبد الله وولاه ابي جعفر القائم بامر الله امير المؤمنين الى الملك الاوحد ثقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الانام ناصر دين الله قاهر اعداء الله ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ابي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي امير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف امير المؤمنين وهو طويل » وارسل اليه سيفاً وقرساً واعلاماً على طريق القسطنطينية فوصل ذلك يوم الجمعة فدخل به الى الجامع والخطيب ابن الفكاكة على المنبر يخطب الخطبة الثانية . فدخات الاعلام فقال « هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم

واستغفر الله لي ولكم « وقطعت الخطبة للعالمين من ذلك الوقت واحترق الاعلام . وكان المستنصر مشتغلاً في اثناء ذلك بالاضطرابات الداخلية بين قبيلتين من العرب بني زابع وبني رياح فرأى الوزير ان يستدرك الخطب الداخلي قبل الخطب الخارجي وان يستخدم العدو الواحد لاثابة الآخر فاصالح بين القبيلتين وحرصهما على المعز بن باديس على ان يجعل لهما في مقابل ذلك برقة وطرابلس الغرب

فاستعد ابن باديس للملاقاة اعدائه بجيش مؤلف من ٣٠ الف فارس ولم يكن الاعراب اكثر من ٣ آلاف مقاتل . فلما التقوا بجيش المعز هابوه فطلبوا الفرار فناداهم قائدهم . مونس ان يجالدوا في القتال فاجابوه « اين نطعن هؤلاء المكسوتين بالخوذ والدروع » فقال « في عيونهم » ومن ذلك الحين لقب مونس بابي العيون . وعادت رجاله وقد ثارت فيهم الحمية العربية وما زالوا حتى انتصروا على المعز في تلك الوقعة . ثم بقيت الحرب سجالاً بين الفريقين ست سنوات وكانت الغلبة طوراً لهؤلاء وطوراً لهؤلاء

أما المستنصر فعهد الى تزيين القاهرة وبناء البنايات الجميلة فيها فاعاد تذهيب جامع عمرو سنة ٤٤١ هـ وبقي فيه منبراً من الخشب الثمين قائماً على عمد من خشب الصندل واقام فيه منارة جديدة وخصص لهذه الترميمات مالاً من خزينته الخاصة

وفي سنة ٤٤٢ هـ توفي في مصر اميرتان من اغنى امراء مصر وهما راشدة وعبدية وكلاهما ابنتا الخليفة المعز لدين الله فتركت الاولى ثروة مقدارها مليونان وسبعمائة الف دينار والثانية مثل ذلك . وكان الخلفاء الفاطميون ينتظرون موتهما ولم يروه فكانت ثروتهن غنيمة بارة للخليفة المستنصر

الفتنة بين الخلافتين

وفي سنة ٤٤٤ هـ وصل القاهرة نبأ أن مختلفان . الاول ان الخليفة العباسي في بغداد اصدر منشوراً الى العالم الاسلامي يقترح فيه بانتساب الخلفاء الفاطميين الى علي ابن ابي طالب . والثاني ان امير اليمن علي بن محمد الصالحى امر ان يخطب باسم المستنصر في الصلاة وارسل اليه هدايا . فسر الخليفة المستنصر لهذين الخبرين اللذين يوازى احدهما الآخر ولم يبد حراكاً لاشتغاله بخطط عظيم نتج عن تقصير النيل تلك السنة فاشتد الجوع . وكان قد احتكر الحنطة وكان يخزن منها كل سنة بمائة الف دينار يحفظها في خزائنه ليبيعها عند الحاجة بالاثمان الغالية فاذا كانت سنة رخاء كان الوزير اليازوري يستبدل تلك الحنطة بقيمتها من الخشب او الحديد او ما شاكل . ففي سنة ٤٤٦ هـ لم يف النيل ولم يكن في خزائن الحنطة ما يكفي لغير الخليفة واهله وحاشيته

قوتاً ضرورياً فغلا العيش فبلغ ثمن الكيس الصغير من القمح ثمانية دنانير واخذ الجوع يتزايد وتبعه الطاعون وامتد الاثنان الى سوريا حتى بلغا بغداد وتبع هاتين الضربتين ضربة ثالثة تعني الحرب . وسببها ان الخليفة المستنصر لما اشتد الجوع في بلاده ارسل الى القسطنطينية يستنجد امبراطورها بالحنطة فرضي الامبراطور ان يرسل له اربعمائة الف اردب ولكنه مات قبل ارسالها . فلما تولت الامبراطورة ولية العهد اوقفت الارسال على ان يعقد لها المستنصر معاهدة (هجومية ودفاعية) فلم يرض فلم ترسل الحنطة فاستشاط غضباً وامر بالجهاد فانفذ ناصر الدولة لفتح اللاذقية وانطاكية فقبض عليه وتفرق جيشه . فتعاظم غيظ المستنصر واشتد انتقامه فامر بالحجز على كل ما في كنيسة القيامة في القدس الشريف من الاموال والادوات الثمينة فاضطربت العلاقات الودية بين الروم ومصر

وزاد المصريين رعباً مذنب طويل ظهر في سماء مصر في ١٢ جادى الثانية سنة ٤٥٥ هـ ولم يغب الى ١٥ رجب منها . غير ان الوزير لم يأل جهداً في تدبير الامور بحكمة ورزانة تخفف المصائب واستجاب القوت الى البلاد رويداً رويداً . على ان سلطة المستنصر كانت تزداد في الخارج يوماً فيوماً حتى ان البساسيري قائد جنود الخليفة العباسي القائم بامر الله لما كبر شأنه خلع خليفته وبايع للمستنصر الفاطمي ورفع العلم الابيض على منابر بغداد سنة ٤٥٠ هـ واقتدى به اهل واسط والكوفة وسائر المدن الشرقية الكبرى

فامتدت سلطة المستنصر الدينية الى خراسان وفارس . فرأى السلطان طغرل بك هناك ان تسلط العلويين يضر بغرضه فسار بجيشه الى بغداد واعاد القائم بامر الله الى منصبه ونصب العلم العباسي واعاد الخطبة للخليفة القائم في ٢٦ ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ وكان المستنصر قد ارسل الى البساسيري مدداً من الرجال وخمسمائة الف دينار ومؤناً وذخائر وثياباً وخيلاً ولكن لما علم باعادة بيعة الخليفة العباسي خاف ولم يعد يمدده واكتفى باتخاذ الاحتياط لمنع تقدمه ولولا ذلك لانتشرت سلطة الدولة الفاطمية الى اقصى ما بلغت اليه الدولة العباسية في عزها

حروب واضطرابات

وجرت في خلال ذلك في سوريا حروب آلت الى ضعف سطوة المستنصر . وذلك ان حلب كانت الى ذلك الحين لمعز الدولة والعرب من بني كلاب يهاجمونها فقلقوا راحته وطمعوا به فلم يَرَ طريقة للتخلص منهم الا الالتجاء الى المستنصر

فكتب اليه انه لم يعد قادراً على البقاء في حلب على هذه الحال . وطلب اليه ان يرد هذه المدينة الى العباسيين وان يوليه بدلاً منها مدينة لا يكون للعربان يد اليها . فاعطاه مدن بيروت وعكا وجبيل وجعل على حلب مكيين الدولة احد قواده فجهنمها في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ . ثم سافر معز الدولة الى مصر وعقد فيها معاهدة مع المستنصر على المدن التي اعطيت له . وكان مكيين الدولة لطيف المعاملة حليماً فساعد الشعب ايامه فرخصت الاسعار واستتبت الراحة الا ان بني كلاب لم ينفكوا عن مناوراته بقيادة الامير محمود الكلابي ابن اخي اميرهم الاول وكان قد عنف عمه على تسليم ارضهم للخليفة فجاء مدينة حلب وغزاها وقتل حاميتها ودخلها فسلمت له في ٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٢ هـ اما مكيين فكان محاصراً في قلعتها ولم يسلم فارسل الى مصر يستنجد المستنصر فأجده بناصر الدولة أبي محمد الحسين بن الحسن بن حمدان الامير بدمشق واوعز اليه ان يسير به عنده من العساكر الى حلب يمنعها من محمود . فسار الى حلب فلما سمع محمود بقربه منه خرج من حلب ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبوها . ثم ان الحرب وقعت بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب واشتد القتال بينهم فانزعم ناصر الدولة وعاد مقهوراً الى مصر وملك محمود حلب وقتل عمه معز الدولة واستقام امرها بها وهذه الواقعة تعرف بوقعة الفنديق فلما وصل ناصر الدولة الى مصر رأى الخليفة ان يكافئه على فشله فولاه دمشق . وفي سنة ٤٥٥ هـ ابدله ببدر الجمالي وهو ارمي المولد كان مملوكاً لجمال الدولة ومنه لقبه وتقلب في مناصب عديدة اظهر بها مايدل على ثباته وحزمه . ولم تمض على سوريا مدة تحت ولايته حتى ساد فيها الامن لان الخليفة اذن للامير محمود ان يتولى حلب ولقبه بامير الاسراء وعضد الدولة وسيف الخلافة

اما مصر فكانت اقل طمأنينة من غيرها لان الوزير اليازوري كان يضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً ويسومهم اشد العذاب وكان يثير ضدهم الاحزاب في المديرات والتي القبض على البطريرك كريستودول وبعض الاساقفة وساقهم الى القاهرة . اما الخليفة فلم يكن راضياً بذلك فامر باخلاء سبيلهم بكل احترام فشق ذلك على الوزير فامر باقفال جميع السكنايس المسيحية في مصر من يعقوبية وملسكية فثار مسيحو القطر فتدارك الخليفة الامر بالقبض على الوزير ونفيه الى تنيس ثم قتله

فتشام المسيحيون من تلك الحوادث ورافقها ظهور الشفق الشمالي وكسوف تام للشمس فكان منظر السماء مهيباً استمر ساعات اشتد فيها الظلام حتى شوهدت النجوم واوت الطيور الى اعشاشها رهبة . وولى الخليفة مكان اليازوري ابا الفرج البالي

وبعد شهرين ابدله بعباد الله بن يحيى ثم بغيره حتى تقلب على وزارة مصر ٣٥ وزيراً في ١٢ سنة ولم تكن تزيد بها هذه التقلبات الا تعقيداً . كل ذلك والشكايات ترد الى الخليفة تترى من رجال الدولة والرميا فتجبر في امره ولم يكن يعلم مصدر هذه القلاقل فجمع رجالاً من جميع الطبقات وكلمهم ملياً واستطلعهم حقيقة الامر فلم يظهر له شيء مما كان يسمعه . ثم ازداد نفوذ السوق على رجال الدولة فكانوا اذا اجتمعوا على امر انفقوه ولو كان مناقضاً لاوامر الخليفة . فازداد الخليفة اضطراباً والاخبار ترد عليه متناقضة فلا يعلم ايها يتبع . ورجال القضاء بدلاً من ان ينظروا في التقارير كانوا يقضون اوقاتهم وقواتهم في المدافعة عما كان يتقدم في حقهم من الشكايات . فاشتد خوف الناس في الاقاليم حتى هاجروا منازلهم فازدادت الفوضى وكثر اللغط

وكان المستنصر يحتال في امر الحج فيذهب في زمرة من الحجاج على الجمال مظهرراً للحجج فاذا بلغ بهم محطة بركة عميرة حيث اعتادوا المبيت في ذهابهم الى الحج واياهم منه ثم دعيت بركة الحج ينزل بهم هناك فتدار عليهم الجمور بدل الماء ثم يعودون الى القاهرة

تاريخ الجند في الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة ادوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فقد كان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية باوائها مشتركاً بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في اولها مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك والبربر قومٌ اشداء مساكنهم في شمالي افريقيا وقد نصرروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق . وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً لانهم ارتدوا عن الاسلام اثني عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين . ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في اواخر القرن الاول . ولما نقم الناس على بني امية لتعصبتهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عابهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصرروا العلويين نكاية فيهم . — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال — وللببر فضل كبير في نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك في نشره باواسط آسيا الى الهند والصين .

لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقيا الغربية ففسروا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من انصارها ولا سيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا بساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عبيد الله المهدي اول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ هـ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بامر الله (سنة ٣٢٢ هـ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٣ هـ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ هـ) وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقر بهم فاشترطوا ان يتولى امورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم فاستبد في امور الدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر العلما الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الي كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلييا وقد تاقت نفسه الى الولاية فاغراهم بابتغاء عار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيرا من رجال دولة ابيه وجده فتضعف البربر وقوي الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشاركة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت امه امة سوداء استكثر في جنود ابنا من العبيد ابنا جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود . وكان هو يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ . قال التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استدصار الشام فتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا المتقدم ذكره كاسيحي فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنودا من الارمن وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوها واكابر اهلها

الفتنة بين العبيد والأتراك

ففي سنة ٤٥٤ هـ بينما كان الخليفة ومعه الحجاج في المكان المتقدم ذكره أفرط أحد الأتراك بالشرب حتى سكر فجرد سيفه على أحد العساكر العبيد من حرس الخليفة فهجم رفاقه على التركي وقتلوه فاغتاز الأتراك وتجهروا بكثرة واتوا إلى المستنصر وقالوا « إذا كان قتل هذا برضاك فالسمع والطاعة والا فلا نرضى به » فاجاب الخليفة انه حصل بغير رضا فانقض الأتراك على السودانيين وكانوا كثيراً . فتخاصم الفريقان طويلاً وبعد واقعة هائلة انتهى الامر بعقد صلح على ان يكون القاتل تحت امر الأتراك ثم عادوا إلى القاهرة . على ان الضغينة كانت تزايد يوماً فيوماً . ولم ينفكوا عن الخصاص . وكان السودانيون يطيعون الوزير فيأوون إلى ثكناتهم . اما الأتراك فافتنوا يضمون اليهم جماعات من العرب يتفوقون معهم على المشاركة في السراء والضراء . واخيراً أقاموا عليهم ناصر الدولة الذي فشل في حملته على الشام وكان قد عزل من منصبه في دمشق واضمر للخليفة ووزرائه شراً وأقام في القاهرة يتربص الفرصة للانتقام . فقبل تلك القيادة آلة لتنفيذ ما ربه . ثم علم السودانيون انهم يعجزون عن مناوأة الأتراك فهاجروا إلى الصعيد فانضم اليهم كثيرون من اهله فاشتد ازهرهم وكثر عددهم حتى بلغ خمسين ألف مقاتل فزلوا إلى القاهرة والاسكندرية وهاجموا الأتراك في كوم شريك على الشاطيء الغربي لفرع رشيد من النيل (وقد اشتهر هذا البلد بعدئذ في الحملة الفرنسية حيث غلبت المماليك) . وكان الأتراك عشرة آلاف وقد كانوا لاعدائهم حتي اذا جاءت الساعة هجموا على السودانيين وهم على الشاطيء فالتقوا بعضهم في الماء وذبخوا البعض الآخر وفر الباقون وقدر بعض المؤرخين جملة من قتل وغرق منهم بثلاثين ألفاً

وكانت والدة الخليفة قد تظاهرت جهاراً بنصرة السودانيين مواطنيها فشق عليها انكسارهم فغضبت على الأتراك وحقدت عليهم لانهم قتلوا أحد اصدقائها المخلصين فانفذت إلى السودانيين مدداً ساعدهم على الدفاع فجرت وقائع شديدة في اماكن مختلفة في جوار القاهرة وفي مصر العليا والسفلى . والشكيات ترد إلى الخليفة في امور مختلفة وجوابه الوحيد عليها قوله « ان ما حصل انما حصل بدون علمي فانا مطالب به » وبعد طول الخصاص ضعف الفريقان فضعفت فيهم ساحة الانتقام فعادوا إلى السكينة والقلوب لا تزال على غل . وعدد الأتراك يزداد كل يوم وقد صارت اليهم اعمال الحكومة فالتقوا الخليفة بطلب زيادة مرتباتهم . وكانت قد نفذت ثروته ولم يعد قادراً

على اشباع مطامعهم وقد أصبح عبداً لاولئك العبيد الذين ربوا في كنفه ولم يجتمعوا الى الحماية شخصه . وكانت والدته المستنصر يزيد في الطين بلة فتأنيسه كل يوم ببناء جديد تطلب اليه اموراً ما انزل الله بها من سلطان وتصرف عليها فضاقت المستنصر ذرعاً حتى اضطر سنة ٤٥٧ هـ الى الفرار على قدميه الى جامع عمرو يظهر الرغبة عن الملك الى العبادة فلما علم ارباب دولته بمكانه حملوه على العدول عن قصده فعاد قانطاً من الحيل

وفي سنة ٤٥٩ هـ قويت شوكة الأتراك وزاد طمعهم في المستنصر وأصر واعلى طلب الزيادة في مرتباتهم وضائق احوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقل مال الخليفة واستضعف جانبه فبعثت ام المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالأتراك فاجتمعوا بالجزيرة وخرج اليهم الأتراك بقيادة ناصر الدولة فاقتتلا مراراً ظهر في آخرها الأتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ناصر الدولة الى القاهرة وقد عظم امره وكبرت نفسه واستخف بالخليفة

اما السودانيون فاجتمعوا بعد هذا الانهزام وتكاثروا حتى صاروا نحواً من ١٥ ألف مقاتل فاستولوا على الصعيد وارادوا النزول الى القاهرة ونزل بعضهم الاسكندرية والبعض الآخر في الفسطاط . فهاج الذين في الفسطاط بدسياسة والدته المستنصر فاستشاط ناصر الدولة غضباً وعزم على قطع دابر السودانيين من القطر المصري او ان ينفصل الامر اماله واما عليه . فجمع رجاله وحارب السودانيين في الفسطاط فظهر عليهم وانحن في قتالهم واسرهم

ثم صار الى الصعيد فخاربهم وشتتهم ثم تحول الى مصر السفلى فاخرجهم منها ومن الاسكندرية واقام فيها من يثق به . ثم عاد الى القاهرة فنظفها من آثارهم وقتل من وصلت اليه اخباره ودخلت سنة ٤٦٠ هـ والمستنصر يحاول اعادة نفوذه عبثاً فاستشار ذوي شوره فلم يجده احد هم نفعاً لانهم هم انفسهم لم يكونوا يرون فيه الاياقة لهذا المنصب وكانت الصعيد لا تزال في حوزة السودانيين ومصر السفلى لا تخضع الا لناصر الدولة ولا سيما بعد استيلائه على الاسكندرية . وكانت الفسطاط والقاهرة ايضاً تحت سيطرته واما اوامر المستنصر فكانت لا تكاد تجري على حاشيته . وقد استنفحل الأتراك واستهانوا بالخليفة واستخفوا بقدره وصار مقرهم في كل شهر اربعمائة ألف دينار بعد ما كان ٢٨ ألفاً

حال المستنصر

تلك حال المستنصر في مصر اما في الخارج فلم تكن اصلح لان بدر الجمالي المتقدم ذكره اغتتم الفرصة واستقل بالشام والصالحى امير اليمن كان قد بايع الفاطميين فقتله احد قواده ودخلت مكة واليمن في حوزة الخلفاء العباسيين والفتن قائمة على الحدود بين امراء الاقسام ومن يعتدي عليهم فيخرجونهم من اماكنهم ويحتلونها فيلجأ أولئك الامراء الى القاهرة . وفي ختام الاضطرابات جاهر الروم بالحرب وزاد الطين بلة ان المستنصر لسوء تصرفه افسد العلائق بينه وبين الامير محمود صاحب حلب وقد تقدم انه حصل على رضاء حتى لقبه باشرف الالاقاب . فلما طلب الروم الحرب كتب اليه المستنصر يستنجد بالنقود لحرب الروم واخراج الاتراك من بلاده فاجابه محمود « اما النقود فلا وجود لها عندي لاني اقترضت المال لاسترجاع حلب لسلطاني واصحاب المال يطالبوني . اما الروم فقد عقدت معهم صلحاً فاقضوني مالا لسد حاجتي واخذوا ابني وهناً عليها فلا ارى معاداتهم . اما الاتراك فانهم اقوى مني فاذا اردت طردهم طردوني » فاستشاط المستنصر غضباً لهذا الجواب وكتب الى بدر الجمالي صاحب الشام يعهد اليه الاقتصار من امير حلب العاصي فلم يصدق بدر الجمالي ان جاءه هذا الامر فجند الى حلب

وخرج ناصر الدولة في اثناء ذلك من القاهرة لمحاربة السودانيين في الصعيد فلاق منهم مقاومة لم يلاق مثلها فخار بهم مراراً وقد غلبوه في كل مرة فكتب الى الخليفة يشتكي امر السودانيين ويبقي التبعة على والدته بانها تهيجهم وتمدهم بالعدة والمال سرّاً على يده . فاجاب الخليفة انه لا يعلم شيئاً عن امه وانما يستكلم عن نفسه ويقسم انه لم يدخل في هذا الامر اولاً ولا آخرأ . فاشتد ناصر الدولة ورجاله وضمو اليهم ممدداً وعادوا فهاجموا مهاجمة اليأس ففازوا بهم وانحنوا فيهم فن نجا من القتل لم ير سبيلاً للنجاة الا في الفرار فتهبعتروا وتلاشت قوتهم من ذلك الحين

فاصبح ناصر الدولة حملاً ثقيلاً على عاتق الخليفة واتم ذلك النصر اسباب ضعفه فقدا وقد ذهبت هيئته ونفوذ من عيون رجاله الاتراك فلم يعودوا يكثرثون بادامره ولا بشيخصه واصبح صعلوكهم يقول عليه بكل سوء وتجمهروا يطالبون زيادة مرتباتهم فانزعج الخليفة لذلك . ولم يكن يأمن على حياته ولا يرتاح في اكله ولا شربه ولا نومه حتى ولا في صلاته واصاب الوزراء نحو ذلك فتنازلوا عن الوزارة

منهوبات قصر الخليفة وخزانة الكتب

وكانت مطالب الاتراك تحكماً منهم لانهم نالوا الزيادة اللازمة فبلغت مرتباتهم الشهرية اربعمائة ألف دينار كما تقدم . فضلاً عن قلة المال فبعثوا يطالبونه فاعتذر بعهذه فلم يعندوه وقالوا « بع ذخائرک » فاخرج كل ما كان في القصر من الذخائر الثمينة التي اشتغل الفاطميون بجمعها منذ تأسيس دولتهم . وصاروا يقومون ما يخرج اليهم باقل الاثمان ويأخذون ذلك مما لهم واقتسموها بينهم كما تراءى لهم لافرق في كونه حقاً او تعدياً . وكان الخليفة ووزير ماليته ينظرون الى الميزان قائماً على امتعهما بلا قياس ولا يبدیان حراً كلاً . وقد بالغ المؤرخون في تقدير تلك الامتعة الثمينة وقد ذكرها المقرئزي وهي : قبة العشاري وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير احمد بن علي الجرجاري في سنة ست وثلاثين واربعائة وكان فيه مائة الف وسبعة وستون ألفاً وسبعمائة درهم فضة نقرة وان المطلق لصناع الصاغة عن اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصة الفان وسبعائة دينار وعمل ابو سهل التستري لوالدة المستنصر عشارياً يعرف بالفضي وحلى رواقه فضة تقديرها مائة الف وثلاثون الف درهم ولزم ذلك اجرة الصناعة واطلاء بعضه الفان واربعائة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل وافق على العشاريات التي برسم الزهة البحرية التي عدتها ستة وثلاثون عشارياً بالتقدير بجميع آلائها وكساها وحلاها من مناطق ورؤس منجوقات واهلة وصفريات وغير ذلك اربعمائة الف دينار ولما نهبوا القصر على ما تقدم كفوا عن مطالبته بزيادة المعاش بعد ان علموا انه لا يملك شيئاً لكنهم دخلوا مدفن اجداده واخرجوا منها كل ما وجدوه بها من التحف ثم عمدوا الى خزانة الكتب فاخرجوا منها آلافاً من الكتب في جملة ٢٤٠٠ ختمة قرآن في رباعته بخطوط منسوبة محلاة بذهب . وذكر بعض الذين شاهدوا النهب سنة ٤٦١ هـ قال « فرأيت فيها خمسة وعشرين حملاً موقرة كتباً محمولة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق في الدين بالحباب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجليلين وان حصّة الوزير ابي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار . وذكر لي من له خبرة بالكتب انها تبلغ اكثر من مائة الف دينار ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سارمعه من الوزير ابي الفرج وابن ابي كدينة وغيرها هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة مع ما صار الى عماد الدولة ابي الفضل

ابن المحترق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتله الى المغرب. وسوى ماظفرت به لواته محمولاً مع ما صار اليه بالابتياح والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة احدى وستين واربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي اخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في ارجلهم واحرق ورقها تأولاً منهم انها خرجت من قصر السلطان وان فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم سوى ماغرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح فصار تلالاً عرفت بتلال الكتب وفي سنة ٤٦١ هـ لم يكتف ناصر الدولة بما حط من نفوذ الخليفة السياسي فعمد الى ان يحط من نفوذه الديني وقيم من يخلفه ولم يكن ذلك ممكناً ان لم يأت بحجة تخرج المستنصر فلبث يترقب الفرص فاتفق وهو خارج من بيت الوزير ان رجلاً طعنه بخنجر فهم به ناصر الدولة وخنقه حالاً لان جرحه لم يكن بليغاً . ورأى تلك فرصة لا يحسن ضياعها فادعى ان الخليفة المستنصر اغرى هذا الرجل على قتله وان مثل هذا الخليفة الغارق في الملاهي والمسكرات لا يستحق الخلافة . وكان ناصر الدولة قد اتفق مع الشريف ابي طاهر — وكان بدر الجمالي قد طرده فاتى الى القاهرة وجمع اليه عصاة يشد بها ازره وكان معروفاً بالقوى والتدين . فوعده ناصر الدولة ان يولييه الخلافة بعد المستنصر بشرط ان يقتل بدر الجمالي صاحب الشام قبلاً وكان هذا مستقلاً هناك وناصر الدولة يخاف قدومه الى مصر . فانضم الى الشريف ابي طاهر اميران من عرب سوريا فاخذ من ناصر الدولة اربعين الف دينار للتفقات وسافر الثلاثة الى الشام والتف حولهم عدد وافر من الاحزاب . وكان بدر الجمالي ساهراً على حكومته فلم يلبث المؤامرون ان قابلو احوصون بدر الجمالي حتى قبض عليهم واخذت امتهمهم وقتل الشريف ابو طاهر سلخاً .

ناصر الدولة

أما ناصر الدولة فلم ينفك ساعياً في مراده . واصبحت القوة العسكرية شطرين الواحد على غرض ناصر الدولة وهم الاثراك والآخر على غرض الخليفة . فلم ير الخليفة بدءاً من خطة الدفاع باظهار القوة . فكتب الى ناصر الدولة ينذره وينصح اليه بما نصه « تقربت منا وطلبت حمايتنا فحميناك وبذلنا لك العطاء فكافأنا بالعقوق وما زادك حامناً الا قحة فافسدت بين جيوشنا وتواطأت مع ذويك على مناوأتنا فلا ن اخرج من بلدنا ونحن نضمن لك الامان ونؤذن لك بان تحمل معك ماشئت الى حيث شئت

وان لم تذعن اوقعنا بك عقاباً صارماً » فاجابه ناصر الدولة ساخراً فبعث المستنصر الى قواد الاتراك الذين كانوا من حزبه وبينهم دكر وهو من الد اعداء ناصر الدولة (مع انه حموه) وجاء معهم قواد المغاربة وامراء كتامة وطاب اليهم مبايعته ثانية فبايعوه فرأى ناصر الدولة عدد رجاله قليلاً فبرح القاهرة الى الجيزة ونهبوا داره ودور حواشيه وقتلوا كثيرين منهم . ثم ركب المستنصر جواده ولبس درعه واحاطت به الاعلام فمر من تحتها جميع من في القاهرة من الاتراك وفيهم عدد عظيم من رجال ناصر الدولة . وسار الموكب حتى اتى بين القاهرة والفسطاط فتودى بالنصر للخيصة المستنصر . أما ناصر الدولة فلما رأى ما كان من قلة رجاله ونفاد ماله فرأى الى الاسكندرية وتحصن فيها وبعث الى اهله ان يقدموا ثم عمل على بث اغراضه في مصر السفلى بمساعدة بعض القبائل الاعراب فحمل الناس على خلع المستنصر ومبايعة القائم بامر الله العباسي

المجاعة والغلاء

أما الفسطاط والقاهرة فلم تكونا في معزل عن تلك القلاقل لان الجوع تمكن منهما لتقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات . وامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ وكان معظمه سنة ٤٦٢ هـ . ومنذ سنة ٤٥٧ هـ لم يكن وفاء النيل كافياً للري . ثم توالى القلاقل التي اقتضت الاسراف بالحبوب ورافق كل ذلك اشتغال الحكومة بسياساتها الداخلية عن الزراعة . فكل هذه الاسباب جعلت الحنطة نادرة جداً فبلغ ثمن الاردم الواحد مائة دينار والقطعة ٣ دنانير والكاب ٥ دنانير ان وجدت . ورافق هذا الغلاء وبلاء مكث سبع سنين فلم يبق من يزرع . وشمل الخوف من في العسكر ووافق ذلك ثورة العبيد فانقطعت الطرقات برّاً وبحراً الا بالخفارة الكثيرة . واما استفحل امر الجوع جاء المستنصر الى والي القاهرة واندوه مقسماً برأسه انه اذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة قطع عنقه . وكان الوالي عالماً بمخابئ كثيرة من الحنطة ولكنه لم يكن يعلم مقرّها فاخرج بعض المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام والبسهم ملابس الاغنياء ووقفهم في رحبة عمومية وامر بقطع رؤوسهم بدعوى انه لم ير شيئاً لتخفيف وطأة الجوع الا بقتل الاغنياء . وقال انه لن ينفك عن القتل حتى يشبع الناس نخاف الاغنياء الذين كانوا قد اخفوا الحنطة وفتحوا مخازنهم وفرقوا الزاد على العباد

وكان ناصر الدولة قد حصر حبوب مصر السفلى ومنع شحنها الى القاهرة وجهاتها وجاء القاهرة وحاصرها بعد ان احرق كل ما مرّ به من القرى والمدن فاضطر الخليفة

بعد طول المقاومة ان يفتح ابواب المدينة لناصر الدولة واتباعه . ولما دخل ناصر الدولة الزاهرة زاد قحة وطمعاً فعاد الى مقامه وادعى ان له على الخليفة مرتبات متأخرة وبلغ في احتقاره

ويحكى ان ناصر الدولة بعث مرة الى الخليفة فرآه الرسول في قصره جالساً على حصير بال ليس عنده من الفرش غيره وقد اصبح لا حاشية عنده الا ثلاثة خدم نصف عراة فطاب الرسول دفع المتأخر فالتفت اليه الخليفة قائلاً « أما يكفي ناصر الدولة ان أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟ فليأخذ اذن هذا الحصير وهؤلاء العبيد وهذه الاثواب التي لا تكاد تستر عورتى ولينصرف عني » فبكى الرسول ورجع الى ناصر الدولة واخبره فتأثر من هذا القول واحمرّ خجلاً وتنازل عن طلبه وخصص للمستنصر مرتباً يومياً ينفقه على حاجات بيته

وفي سنة ٤٦٥ هـ تصالح ناصر الدولة مع حميه دكرز ولكن هذا لم يزل في ريب من مقاصد صهره فعمد الى الايقاع به فاصطحب بعض خاصته وجاؤا الى دار ناصر الدولة التي تعرف بمنازل الغز وهي على النيل . فدخلوا من غير استئذان الى صحن داره فخرج اليهم ناصر الدولة في رداء لانه كان آمناً منهم . فلما دنا منهم ضربوه بالسيوف فسيبهم وهرب منهم يريد الحرم فلحقوه وضربوه حتى قتلوه واخذوا راسه . ومضى رجل منهم يعرف بكوكب الدولة الى نحر العرب اخي ناصر الدولة وكان نحر العرب كثير الاحسان اليه فقال لا حاجب « استأذن لي على نحر العرب وقل صنيعتك فلان بالباب » فاستأذن له فأذن له وقال لعله قد دهمه امر . فلما دخل عاينه اسرع نحوه كانه يريد السلام عليه وضربه بالسيوف على كتفه فسقط الى الارض فقطع رأسه واخذ سيفه . وكان ذا قيمة وافرة واخذ جارية له اردفها خلفه وتوجه الى القاهرة . وقتل اخوهما تاج المعالي وانقطع ذكر الحمدانية بمصر

بدر الجمالي امير الجيوش

على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخلص من شرووقع في آخر لان دكرز لم يكن اقل معاكسة له من صهره فالتجأ المستنصر الى بدر الجمالي حاكم سوريا المتقدم ذكره فكتب اليه سرّاً ان يأتي بجيشه الى مصر ليؤويه عليها فقبل بدر مشروطاً ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من اهل الشام

سافر بدر الجمالي من سوريا في عصابة من رجال قد اختبر شجاعتهم وامانتهم طويلاً وسار الى عكا ومنها بجزراً الى مصر . وكانت الريح جيدة على غير المعتاد في مثل

ذلك الفصل لانه برح عكا في اول ديسمبر (كانون الاول) وباع مصر ولم يشعر احده
ونزل بين تنيس ودمياط . فاستقبله سليمان كبير اهل البحيرة وتوجهوا نحو القاهرة
فنزلا في قايتوب وبعثوا الى الخليفة ان يقبض على دكر قبل دخوله فقبض عليه
واعتقله في خزانة البندود . فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى
سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكن للامراء علم باستدعائه فما منهم الا من اضافه . فلما انتضت نوبهم
في ضيافته استدعاهم الى ولية اعداها لهم في منزله وبقيت مع اصحابه « ان القوم اذا اجنهم
ليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء فن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك » ووكل بكل
واحد واحداً من اصحابه وانعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الامير من دار ومال واقطاع
 وغيره . فصار الامراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئين فما طاع ضوء النهار حتى
استولى اصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديه . ففقت شوكته
وعظم امره وخلع عليه المستنصر بالطيئسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم . فصارت
القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يده وزيد في القابله لقب « امير الجيوش كافل
قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين » . وتبع المفسدين فلم يبق منهم احد حتى قتله .
وقتل من امثال المصريين وقضاةهم ووزرائهم جماعة . ثم خرج الى الوجه البحري
فاسرف في قتل من هناك من لواته واستغنى اموالهم وازاح المفسدين وافناهم بانواع القتل
وصار الى البر الشرقي فقتل منهم كثيراً . ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع
ابنه الاوحد فحاصرها اياماً من محرم سنة ٤٧٧ هـ الى ان اخذها عنوة وقتل جماعة
من كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الاول
سنة ٤٧٩ هـ ثم سار الى الصعيد فحارب جهينة والنعابة وافنى اكثرهم بالقتل وغنم من
الاموال ما لا يعرف قدره كثرة ففصلح حال الاقليم بعد فساد

وكان يسعى جهده في اسعاد المصريين لينسيهم ما قاسوه طويلاً فنشط الزراعة
واباح الارض المزارعين ثلاث سنين حتى ترفعت حال الفلاحين واغتنوا . وسهل سبل
التجارة فتقاطر التجار الى مصر لكثرة عدله بعد نزوحهم منها في ايام الشدة . وامر
بانشاء البنايات العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وشاد الجوامع في
الاسكندرية والقاهرة وجزيرة الروضة قرب المقياس . وكان المقياس قد اختل فاصلحه
اصلاحاً يصح ان يقال فيه انه بناء ثانية . وبني دار الوزارة الكبرى ودعيت بالدار
الافضلية وسكنها ولم يزل يسكنها بعده من يلي امرة الجيوش الى ان انتقل الامر
الى بني ايوب فاستقر سكن الملك الكامل في قلعة الجبل خارج القاهرة وأسكنها

السلطان الملك الصالح ولده . ثم ارصدت دار الوزارة ان يرد من الملوك
ورسل الخليفة

وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة الى
مبايعة المستنصر بعد ان قضت خمس سنوات تحطبا للخليفة الزائم بامر الله العباسي في
بغداد. ورفعوا الغطاء الاسود عن الكعبة ووضعوا مكانه الغطاء الابيض^(١) وعليه اسم
المستنصر بالله ولقبه . وبقيت مصر بعد ذلك ٢٠ سنة لم يحدث فيها ما يهيم التاريخ ذكره
— وائل الامم ذكرآ في التاريخ اسعدا

اما سوريا فان الامير اتسز احد الامراء التركمانيين اغتم غياب بدر الجمالي
فقدم اليها غازياً فاستولى على بيت المقدس وطبرية وما بعدها حتى دمشق . ثم
تحول الى مصر في ٢٠ الف مقاتل وعسكر في سهل بجوار القاهرة . وكانت الجيوش
المصرية مشغولة في اخذ ما بقي من نيران الثورة في الصعيد فاضطرب اهل القاهرة ولم
ير بدر الجمالي بدءاً من مصالحة اتسز التركماني على ١٥٠ الف دينار يدفعها له بعد
خروجه من مصر . فقبل اتسز بتلك الشروط لكنها لم تدم اكثر من ٥٠ يوماً تمكن
امير الجيوش في انائها من حشد جيوشه من الصعيد واجتذاب قلوب بعض كبار
العربان الذين تتألف منهم معظم خيالة اتسز وبعض رجال التركمان الذين اتوا معه . فلما
صارت الجيوش المصرية بقرب القاهرة كتب امير الجيوش الى قافلة كانت تهيأت
الى الحج كتاباً ونصه : « ان الجهاد اعظم ثواباً عند الله من الحج فانضموا الى
جيوشنا » فطاعوه ففرق فيهم المال والسلاح . فلما تكامل عدد رجاله جمعهم وهجم على
اتسز ذات صباح بغتة واحكم في رجاله السيف فانهمزوا وقد قتل جانب كبير منهم
فتبعهم الاعراب والمصريون الى مسافة بعيدة . ثم عادوا الى معسكرهم فوجدوا فيه نحو
من عشرة آلاف ولد بين اناث وذكور قد اسرهم التركمان من مصر . وخسر التركمان
على اثر تلك المعركة جميع البلاد التي افنتحوها في سوريا فدخلت في حوزة الخليفة
المستنصر . ومات اتسز في دمشق اشقى مائة

اصلاحات امير الجيوش ومناقبه

فلم يعد امام بدر الجمالي من يخالف امره ويقف في سبيل ارادته في اصلاح البلاد
وكان سور القاهرة قد تهدم بعضه فشرع في ترميمه وتقويته فزاد فيه الزيادات التي بين باني
زويله وباب زويلة الكبير وبين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الان .

(١) اللون الابيض يختص بالفاطمين والاسود بالعباسيين والاخضر بالامويين

وزاد عند باب النصر ايضاً جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر . وجعل السور من لبن واقام الابواب من حجارة . وبنى باب زويلة وعلى ابراجه ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من ان يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر في وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة . لكنه جعل في بابه زلاقة من حجارة صوانية عظيمة حتى اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان . فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مروره من هناك فاختل فرسه وزلق به واحسبه سقط عنه فامر بنقضها فنقضت وبقي منها شيء يسير . وكان احدها في ايام المقريري لا يزال موجوداً قرب قبواخر نفش . وبعد بضع سنين اضطرب القطر من عصبه ثارت تحت قيادة ابن بدر الجمالي لكنها لم تكد تأتي بضرر حتى انكسرت شوكتها

وفي سنة ٤٨٣ هـ احصى امير الجيوش الاراضى المصرية ومقدار خراجها وقابله بما كان يحصله الحكام قبله فرأى ان الخراج الذي كان يستخرج منها قبله لم يتجاوز مليونين وثمانماية دينار اما في ايامه فتجاوز ثلاثة ملايين ومائة الف دينار لاعتنايه الخصوصي بالزراعة وتثقيط التجارة وكانتا راغبتين في اياه . وما زال عاملاً بنشاط الى اوائل ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ فتوفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد ان حكم في مصر عشرين سنة حكماً مطلقاً . وكان الجميع يحترمونه وفي يده ازمة الاحكام يديرها بحكمة ودراية وثبات فتكاثر ثروة البلاد وخصيها الى حد لم تبلغه قبلاً . وكان ينشط الزراعة والتجارة والعلم والادب على السواء . وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة قيل انه قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها . منها نحو عشرين الفا من البحيرة ومثل ذلك من اهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد واصوان والقاهرة الا انه عمر البلاد واصلاحها بعد فسادها باتلاف المفسدين من اهلها . ولا يزال امير الجيوش معدوداً لدى المصريين بمنزلة عمرو بن العاص واحمد بن طولون

وكان محباً للادباء يقرب الشعراء ويطرب اسماع الشعراء ومن الشعراء الذين مدحوه علقمة بن عبد الرزاق الفليسي وقد حدث بعضهم عنه قال « قصدت بدر الجمالي بمصر فرأيت اشرف الناس وكبراهم وشعراهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه - قال - فبينما انا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد فخرج علقمة في اثره واقام الى ان رجع من صيده فلما قاربته وقف على نشز من الارض واوماً برقعة في يده وانشأ يقول

نحن التجار وهذه اعلاقنا * در وجود يمينك المبتاع

قلب وقتشها بسمعك انما * هي جوهر تختاره الاسماع
كسدت علينا بالشام وكما * قل النفاق تعطل الصناع
فاتاك يحملها اليك تجارها * ومطيا الآمال والاطماع
حتى اناخوها ببابك والرجا * من دونك السمسار والبيع
فوهبت مالم يعطه في دهره * هرم ولا كعب ولا القمعاق
وسبقت هذا الناس في طلب العلا * فالناس بعدك كلهم اتباع
يا بدر اقسم لوبك اعتصم الورى * ولجوا اليك جميعهم ماضعوا
وكان على يد بدر بازي فاقاه وانفرد عن الجيش وجعل يسترد الابيات وهو ينشد
الى ان استقر في مكانه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته «من احبني فليخلع على هذا الشاعر»
فخرج من عنده ومعه سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وامر له بعشرة آلاف درهم
فخرج من عنده وفرق كثيراً من ذلك على الشعراء «ولما مات بدر قام بما كان اليه
ابنه الافضل

صغلية

وبعد وفاة امير الجيوش ببضعة ايام توفي الخليفة المستنصر في ١٨ من الشهر نفسه
وسنة ٦٧ سنة وخمسة اشهر قضى منها ستين سنة في منصب الخلافة ولم يكن اهلاً
لادارة الاحكام لضعفه وقصر حجه وتصدقه كلما يقال له مهما كانت حقيقة. فكان لقب
الخلافة له اسماً غير مسمى . ومع طول مدة خلافته لم يحدث فيها غير تلك الضيقات
العظيمة. ولم تكن مصر وحدها في ذلك العذاب فان صقلية كانت من اغنى بلاد الفاطميين
تربة وكانت قبلاً في حكم الاغالبه ونظراً ابعداها عن كرسي الخلافة لم تكن فيها فائدة .
وكان الولاء الذين يرسلون اليها يحاولون الاستقلال . ففي ايام الخليفة المعز لدين الله كان
على هذه الجزيرة وال يقال له احمد راي الخليفة منه ميلاً عن الطاعة فنفاه الى افرقية
واقام مقامه غيره وغيره وساروا كلهم على خطة واحدة. فتعدت القلاقل وانقسم اهل
الجزيرة على انفسهم فلم يعد في امكانهم دفع من بغزوهم من الافرنج وزد على ذلك ان
جيرانهم الافرنج سكان الجزيرة نظراً لما كانوا يعملون به من الاستعداد كانوا يودون
الخروج من سلطة المسلمين فجعلوا يكتبون ابنا ملتهم من الدول الاخرى . وكل هذا
جرى في ايام المستنصر وانتهى بخروج تلك الجزيرة من سيطرة المسلمين
وذلك ان مسلمي هذه الجزيرة كانوا حزبين متضادين يرأس احدهما ابن تمامة
فتحارباً فانهزم ابن تمامة برجاله والتجأ الى مدينة كاتان وكانت في حوزة الفرنسيين

من سنة ٣٧٢ هـ فاستبشر الفرنسيون بقدومه فأكروا وفادته وأمدوه بالعدة والرجال
 أما الحزب الآخر فكان قد استمد المعز بن باديس فأمده بفرقة من افريقية فجرت
 بين الحزبين واقعة احتمدت نارها على الخصوص بين الاحزاب المساعدة وهم رجال
 المعز بن باديس من الجهة الواحدة والجيش الفرنسي من الجهة الاخرى . وانتهت بانتصار ابن تمامة ورجال روجر وانهمزام من كان في الجزيرة
 من المسلمين فدخلها روجر وقد نفذ سهمه . فاخذ يسعى في تمكين قدمه فبايعه اهلها
 سنة ٤٥٣ هـ وهكذا خرجت هذه الجزيرة من سلطة الفاطميين . وما زالت صقلية في
 حوزة روجر حتى مات فيخلفه ابنه ولقب روجر الثاني سنة ٤٩٥ هـ فلتبع خطوات ابيه
 في اصلاح شأن الجزيرة فتقدمت في ايامه تقدماً عظيماً لم يتناه في سائر ازمائها فنسبت
 الازمان التي مضت عايتها وهي غارقة في التقلبات والتحزبات وسفك الدماء . اما المسلمون
 الذين اختاروا المكوث في الجزيرة فظلوا متمتعين بجميع حقوقهم المدنية
 والسياسية والدينية



وترى في الشكل السابع والاربعين
 صور النقود التي ضربت على عهد ملوك
 صقلية الاقدمين في باليرم عاصمة ايطاليا
 اذذاك



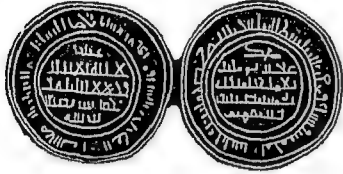
ش ٤٧ : نقود ملوك صقلية القدماء مضروبة في باليرم
 وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفي المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرون من
 بني العباس . وفي الشهر الاخير توفي المستنصر ووزيره الباسل امير الجيوش كما تقدم . وكانت
 وفتهما خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدمة قوية على الخلافة . وترى في الاشكال
 ٤٨ و ٤٩ صور النقود الذهبية التي ضربت في ايام الخليفة المستنصر بالله فالاولى ضربت



في القاهرة سنة ٤٢٨ هـ والثانية ضربت سنة ٤٦٥ هـ . ولم يغفل بدر الجمالي قبل موته عن النظر في
 مستقبل المملكة فأوصى بتدبيره والولده الثاني شاهين
 شاه (لان الاول كان عاصياً كما تقدم) اما هذا فيكان

فاضلاً حكيماً وكان قبل وفاة ابيه لايفك عن ش ٤٨ : نقود المستنصر ضربت سنة ٤٢٨ هـ

ملاصقته والافتداء بتناقبه فتدرب على يده وكان يساعده في ارائه قرأى فيه ابوه رجلاً



يليق بادارة الاحكام واستلام زمام الامور . ولما
تولى شاهين شاه الوزارة لقب بالافضل وبجميع
الالقاب والامتيازات التي كانت لابيها امير الجيوش

ش ٤٩ : نقود المستنصر ضربت سنة ١٤٦٥ هـ

خلافة المستعلي بن المستنصر

من سنة ٤٨٧ - ٤٩٥ هـ او من ١٠٩٤ - ١١٠١ م

اما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنه الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل
الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله
وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل ولدي المستنصر فجاء اليه فاذا اخوهما قد جلس
على سرير الخلافة فامتعضا لذلك وشق عليهما . فأمرهما الافضل بتقيل الارض وقال
لهما « قبلا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعاه فهو الذي نص عليه الامام المستنصر
قبل وفاته بالخلافة من بعده » فامتعضا من ذلك وقال كل منهما ان اباه قد اوصى له
بالخلافة وقال نزار « لو قطعت يدي ما بايعت من هو اصغر مني وخط والدي عندي
بأنني ولي عهده وانا احضره » وخرج مسرعاً ليحضر الخط فضى لا يدري به احد وتوجه
الى الاسكندرية . فلما ابطأ مجيئه بعث الافضل اليه ليحضر بالخط فلم يعلم له خبراً
فانزعج لذلك انزعاجاً عظيماً

نزار واقبكين

وكان الافضل حاقداً على نزار لاسباب منها انه دخل يوماً من باب وهو راكب
فصاح به نزار « انزل يا ارنهني » . فخفصها عليه وصار كل منهما يكره الآخر .
فلما مات المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانه كان رجلاً كبيراً هماً
وله حاشية واعوان فعمد الى مبايعة اخيه احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوفهم من
نزار وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه . وكان من جملةهم محمود بن مصال

فبعث الى نزار واعلمه بما كان من اتفاق الافضل مع الامراء على اقامة اخيه احمد وادارته لهم عنه ثم كان استدعاء الافضل له ولاخيه لمبايعة اخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية ابيه له بالخلافة سار من القصر متكرراً ومعه ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة افتيكين احد عماليك امير الجيوش بدر الجوالي ودخلا عليه ليلاً واعلماه بما كان من الافضل وتراهما عليه ووعد نزار بأن يجعله وزيراً مكان الافضل فقبلهما اتم قبول وباع نزاراً واحضراهل الثغر لمبايعة فبايعوه وامته بالمصطفى لدين الله

فبلغ ذلك الافضل فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨ هـ بعساكره الى الاسكندرية فبرز اليه نزار وافتيكين وكانت بين الفريقين وقائع شديدة اكسر فيها الافضل ورجع بن معه منهزماً الى القاهرة. فقوي نزار وافتيكين وصار اليهما كثير من العرب . واشتد نزار وعظم واستولى على الوجه البحري واخذ الافضل يتجهز ثانية لمحاربتهم ودس الى اكابر العربان ووجوه اصحاب نزار وافتيكين ووعدهم . وسار قاصداً الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصاراً شديداً والح في مقاتلتها

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله وفر في البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وافتيكين اليه يطلبان الامان فامنها ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وافتيكين وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فإنه قتل في القصر بان اقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما . واما افتيكين فقتله الافضل بعد قدومه

فعاد السلام الى المملكة فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخات في حوزة دولة الارتقيين

دولة الارتقيين

وكيفية نشوء هذه الدولة ان الساجوقيين خرجوا من بلاد التت قبل ذلك الحين بنصف قرن فافتحوا بلاد فارس وكانت تابعة للدولة العباسية ثم التتوا في غربيها بقبائل من التت كان عائشين على تربية المواشي لا معرفة لهم بالحروب فاخرجوهم من ضواحي بحر قزوين وساقوهم الى حدود سوريا . فاما بلغوا ذلك المكان اضطروا لتنازع البقاء ان يقاتلوا من يمتنعهم من نيل رزقهم فاستخدموا قوتي الهجوم والدفاع حتى اصبحوا كغيرهم من المحاربين ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا كذلك حتى كانت الدولة الساجوقية قد امتدت الى حيث هم فدفعهم امامها فتهقروا الى غربي سوريا

وانتشروا فيها وفي فلسطين . فامير التركمانين المتقدم ذكرهم كان يدعى ارتق بن اكسك استولى على اورشليم فاسس دولة عرفت بدولة الارتقيين . وفي سنة ٤٨٤ هـ توفي ارتق عن ولدين الغازي وسقمان فحكمهما معاً في بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا وكانت جميع هذه البلاد في قبضة الخلفاء الفاطميين . ففي ايام شاهين شاه الافضل كان الارتقيون على ما تقدم والساجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا

وفي سنة ٤٩١ هـ سار اير الجيوش الافضل لانتفاذ بيت المقدس من الارتقيين فطاب اليهم التسليم فابوا فضر بها بالمنجنيق فهدم بعضها فسلمت وفر الارتقيون الى شرقي سوريا . فسار سقمان الى الرها واقام لنفسه حكومة فيها وضم اليها ديار بكر واستولى الغازي على العراق العربي وانشأ مملكة في ماردين

الحروب الصليبية

ثم كانت الحروب الصليبية اذ ذاك في اول نشأتها نفي ايام التعصبات الدينية العمياء التي ينجل التاريخ من ذكرها . فكم اهرقت من الدماء وكم احرمت الناس من الراحة - ان ذلك التعصب ساق اهل اوربا من بلادهم بالعدة والرجال لمحاربة سوريا وفلسطين ومصر ولم تكن النتيجة الا اهلاك العباد المقصود انتقاذهم . فمن نجا من السيف لم ينج من الاستعباد . وانا لنسك القام من الخوض في هذا الموضوع الذي يسود القلوب ويشوه وجه الانسانية

فتأمل الحالة التي كانت البلاد الاسلامية فيها من الارتباك وما كان في طريقها من العقبات كيف كانت تنقسمة بينها . فقام اهل اوربا جميعاً وجاهروا بمحاربتها واحتشدوا في القسطنطينية بامر الامبراطور الكس كيون الاول والساجوقيون يزحفون في آسيا يفتتحون البلد بعد الآخر حتى بلغوا الاناطول فاصبحوا يهددون المسلمين في مصر كما يهددون النصارى في القسطنطينية . وما زالوا سائرين نحو القسطنطينية حتى ادركوا شاطئ البوسفور الشرقي فلم يبق بينهم وبين القسطنطينية الا ذلك البوغاز . وكان اذا ذكر اسم الله في معسكر المسلمين وقت الصلاة يسمعه المسيحيون في كنيسة اياصوفيا على الجانب الآخر

ثم قطعت جيوش النصارى البوسفور وعددهم عظيم . فقابلهم السلطان قليج ارسلان الساجوقي بن سليمان شاه مؤسس الدولة السلاجوقية فخاربه

وارجعوه وجيشه الى الورا واستولوا على نيقية ثم انطاكية . فجاء المسلمين مدد من كنبوغا امير الموصل ودقاق امير دمشق وجناح الدولة امير حمص . ومع كل منهم فرقة من الرجال فاحاطوا بالصليبيين وضيقوا عليهم فتجمع هؤلاء ودافعوا دفاع اليأس ودفعوا قوات المسلمين وفرقوها فلم يبق ما يوقفهم عن التقدم . فاستولوا على المعرة بعد حرب ودخلوا حمص بدون حرب وانتشر جنودهم في جميع انحاء سوريا الغربية وفلسطين كالا . واج المتلاطمة فلاقها جيوش مصر هناك . وكانت بيت المقدس في حكم الخليفة المستعلي الفاطمي منذ استخلاصها من الارتيقين فحاصرها الصليبيون اربعين يوماً ثم افتتحوها عنوة ودخلوها يوم الاربعاء في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (يوليو « تموز » سنة ١٠٩٩) بعد مذبحه استمرت اسبوعاً فاصبحت الجثث متراكمة في الاسواق فجعلوا يجمعونها في الجامع الاقصى . وقيل انه قتل في تلك المعركة نحو من ٧٠ الف نفس واغتم الصليبيون غنائم كبيرة وساروا لفتح مصر



ش ٥٠ — قتال بين الصليبيين والمسلمين في القرن الحادي عشر للميلاد

نقلاً عن صورة مرسومة على زجاج نافذة بكنيسة القديس دنيس
فاضطربت مصر لتلك الاخبار واصبحت تخشى ان يصيبها مثل ذلك فحشد امير
الجيوش لمحاربة الصليبيين جنداً وافراً تحت قيادة سعد الدولة . فساروا وما زالوا حتى
التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فخاربوها فارجعوها على اعقابها . فلما
راى الصليبيون انفسهم خارج حدود مصر لم يعودوا يطعمون فيها فوجهوا مطامعهم
شرقاً الى ما بين النهرين . فالتقت فرقة منهم بكمشتكين امير اللاطية وسيواس فكسرها
ولم يوقفهم عن مرادهم . فساروا من الجهة الواحدة نحو ديار بكر الى سروج ومن الجهة

لاخرى حتى استولوا على ارسوف وقيصرية
ومرت سنتا ٤٩٣ و ٤٩٤ هـ في مثل هذه المداوشات . وفي يوم الثلاثاء ١٧ صفر
سنة ٤٩٥ هـ توفي الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد ان حكم ٧ سنوات وشهرين وله
ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره فكان شاهين شاه وصياً عليه كما كان وصياً
على ابيه قبله . وكان قد عهد اليه ان يلقية عند مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل

خلافة الأمر بن المستعلي

من ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ او من ١١٠١ — ١١٣٠ م

وكان الصليبيون في اثناء ذلك لا يزالون في فتوحهم بسوريا وقد فازوا لانقسام
الدول الاسلامية . وكان الواجب في مثل هذه الحال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة
اعدائهم لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتتت القوات فكانت تلك فرصة
لجماعة الصليبيين لم يضعوها لان الكونت سنجيل بعد ان استولى على طرسوس وحصص
وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٧ هـ وحاصرها براً وبحراً . وكانت
عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه
اتباع امير الجيوش . وطال امد الحصار حتى ملّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة
ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها . وفرّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر
ووصل الى مصر في ذلك الحين ايضاً الامير خلف بن ملاعب الكلابي . وكان
والياً على حمص اخرجته منها تناش صاحب دمشق زوراً سنة ٤٩٥ هـ فأتى مصر وعرض
نفسه لخدمة الخلفاء الفاطميين . وكان قد طاف انحاء المملكة الاسلامية لاستطلاع
احوالها شأن الحب لمعرفة حقائق الاشياء . فوصل مصر والخليفة في احتياج الى خدمته
وذلك ان اباه في غربي سوريا كان قد تملكها الباطان رضوان نخر الدولة الساجوقى واقام
عليها والياً من قبله . فكتب هذا الوالي لامير الجيوش سرّاً انه مستعد لتسليم المدينة لمن
يرسله خليفة مصر . فتقدم الامير خائف لهذه المهمة فقبل فسار الى اباه وتملكها . ولم
ترسخ قدمه فيها حتى نبذ الطاعة واوقف دفع الجزية فاراد الخليفة معاقبته فلم يستطع
لما كانت عليه سوريا من القلاقل والفتن . فانف قاضي تلك المدينة واعيانها من البقاء
على تلك الحال . فبعثوا الى والي حلب يطالبون حمايته ففهم فسلموا له المدينة وقتلوا
خلفاء وبعض اهله . لكن الدهر لم يدم لهم لانهم ذهبوا غنيمة للصليبيين في سنة ٤٩٩ هـ

واول من قتل منهم القاضي المتقدم ذكره
وفي اثناء ذلك كان الكونت سنجيل محاصراً طرابلس الشام وقد شخص اميرها
الى بغداد يستمد الخليفة المقتدر العباسي والسلطان ملك شاه الساجوقي فلم يمداه بشيء
فاستجار اهلها بخليفة مصر فاجارهم وبعث الافضل احد اوليائه الى طرابلس فتملكها
باسم الخليفة الامر وارسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع الصليبيين عنها فتأخر
وصولها لمعاكسة الريح لها . وفي ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ (يوليو سنة ١١١٠ م)
فتح الصليبيون طرابلس الشام عنوة وقتلوا بعض اهلها واستعبدوا البعض فسببوا
بدخولهم اليها من الخسائر ما لا يمكن ان تسببه الحرب

ففي سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين
وجعلوا بيت المقدس قسبة ملكهم . أما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث على الحياد
الا المدافعة عند الحاجة . وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات اولئك الصليبيين
وكل ذلك بتدبير الافضل امير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ امر الافضل ببناء خليج سماه بحر ابي المنتجا لان الذي ناظر على
حفره هو ابو المنتجا ابو شعيا اليهودي . وانشأ الافضل ايضاً مرصداً عظيماً كلفه
مشقات جسيمة . وجعل مركز ذلك المرصد على مرتفع في جوار المقطم كان يعرف
قديماً بالجرف ثم لما اقيم فيه المرصد صار يعرف بالمرصد

البدوية وابن عمها

على ان الهمة التي كان يبذلها الافضل امير الجيوش في سبيل مصالح البلاد لم تكن
تحرك من الخليفة الامر باحكام الله ساكناً . وكان منغمساً بالملاهي لا يسمع بغانية
جميلة الا استقدها . وكان له شغف خصوصي بالجوارى البدويات . ومن اقصيصه انه
بلغه ان في الصعيد جارية من اكل العرب واظرف نسائهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا
بزي بداء الاعراب وصار يجول في الاحياء حتى انتهى الى حيها وبات هناك في ضائفة
وتحايل حتى عاينها فما ملك صبره أن رجع الى مقر ملكه وسرير خلافته فارسل الى
اهلها يخطبها فاجابوه الى ذلك وزوجوه بها . فلما صارت الى القصور شق عليها
مفارقة ما اعتادته واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها داخل
اسوار المدينة فبنى لها البناء الذي اشتهر في الجزيرة بالهودج . وكان على شاطئ النيل
بشكل غريب . الا ان البدوية بقيت متعلقة الخاطر بابن عمها ربيت معه يمرف بابن
مياح فكثبت اليه وهي في قصر الخليفة الامر تقول :

يا ابن مياح اليك المشتكى
كنت في حيي مرءاً مطلقاً
فانا الان بتقصر موصدا
كم تشلينا باغصان اللوا
وتلاعبنا برملات الحمى
مالك من بعدكم قد ملكا
ناثلاً ما شئت منكم مدركا
لا ارى الا حبيساً ممسكا
حيث لا نخشى علينا دركا
حيثما شاء طليق ساكنا

فاجابها

بنت عمي والتي غزيتها
بجت بالشكوى وعندي ضعفها
مالك الامر اليه يشتكي
شأن داود غدا في عصرنا
بالهوى حتى علا واحتسكا
لو غدا ينفع منا المشتكى
هالك وهو الذي قد هلكا
مبدياً بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الامر فقال « لولا انه اساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حيه وزوجتها به »

وفي اواخر سنة ٥١١ هـ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح اهاليها واحرق جوامعها . وهم بمصر فداهمه مرض حمه على العود حالاً فعاد الى بيت المقدس فمات قبل ان يدرك العريش فزرعوا احشاه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في ارض رملية واقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامنا باسم رمال بردويل . اما جثته فحملوها الى بيت المقدس . وبموت بردويل نجت مصر من فتح عظيم . وبقي الصليبيون سبع سنوات اخرى لا يستطيعون مناهضة مصر لاشتغالهم بهجمات المسلمين من شرقي سوريا . ففي سنة ٥١٨ هـ اتى الصليبيون صور واخذوها صاحداً واذنوا للمسلمين ان يخرجوا منها بكل ما يستطيعون حملة . وكانت صور اذ ذاك تابعة لمصر فخاف خليفةها من تقدم الصليبيين الى مصر نفسها وكانوا قد كفوا عن الفتوح فنبههم اليه الارتقيون وصاد الدين زنكي في شرقي سوريا والعراق

وفي اثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثر من تدخين الحشيش وهم فئة جمع بينهم النعصب والطمع . وكان رئيسهم يترصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية مشغولة بالحرب في انحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يتهاوض الصليبيون في حصارهم تارة ويصالحهم اخرى الى ان انتهى الامر فاقام حكومته بين يديهم وابتنى حصوناً

منبعة ارهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع الجزية وقاية من فتكهم بحياتهم فانه كان متفهماً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة . وفي سنة ٥٢٤ هـ سمي امير الباطنيين في قتل الآمر باحكام الله فانفذ اليه بعض دهاته فقتلوه في ٢ ذى القعدة من السنة المذكورة وهو في طريقه الى زيارة معشوقته البدوية وسنه ٣٥ سنة وحكمه ٣٠ سنة تقريباً



وترى في شكل ٥١ صورة نقود الآمر باحكام الله شربت بالاسكندرية سنة ٥١٢ هـ (انظر شكل ٥١)

ش ٥١ : نقود الآمر باحكام الله ضريت في الاسكندرية

خلافة الحافظ بن محمد

من ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ او من ١١٣٠ — ١١٤٩ م

ولم يكن للآمر اولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم ابن محمد ولكن ارملة الخليفة كانت حاملاً فلقب عبد المجيد بنائب الملك ريثما تلد ويرون ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويج عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله . فاستوزر احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثرت حساده فقتلوه . فاستوزر وزيراً اخر اختبر فيه الدراية والحكمة واسمه بهرام لكنه لم يلبث ان قتل في اواخر سنة ٥٤٣ هـ فعزم الخليفة بعد ذلك ان يتولى اعباء الوزارة بنفسه

وفي خلال ذلك لم يكن في مصر اضطراب الا من حيث مشاركتها سوريا بالحروب الصليبية على انها ما فتئت ساهرة تخشى غائلة تلك التعصبات لكنها لم تكدر تراح من حروبها في الشرق حتى ظهر لها عدو هائل في الغرب فاصبحت الدولة الفاطمية حجراً بين مطرقتين : فعدوها في الشرق الصليبيون واما في الغرب فلك صقلية روجر الثاني . وقد تقدم انه تولى هذه الجزيرة بالارث وكان الفاطميون قد علموا بنهايتها من ايديهم فلم يأسفوا عليها ابعدها عن مركز حكومتهم . فلم يقنع روجر بما ناله فحمله مطامعه

ان يطلب الفتح بجرد عمارة من مائتين وخمسين شراعاً وتقدم نحو افريقية سنة ٥٣٩ هـ واستولى على برصة وقتل كل من كان فيها من الرجال واستعبد النساء . وفي سنة ٥٤١ هـ وضع يده على طرابلس الغرب واستولى في سنة ٥٤٣ هـ على المهديّة مهد الخلافة الفاطمية وكان قد هجرها اهالها لجوع مدقع حل بهم . ثم تقدم روجر من هناك قاصداً الاسكندرية . فوقعت مصر في حيرة وقد اصبحت هذا العدو في عينها اشد وطأة من الصليبيين لاشتغال هؤلاء عن مصر بما كان يهددهم به زنكي واتابك محمود الملقب بالملك العادل نور الدين

وفي اثناء ذلك توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ هـ بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها . فعمل له موسى الطيب النصراي طبل القولنج وهو عبارة عن طبل مركب من سبعة معادن عاينه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه خرج الرشح من مخرجه ولهذا الخاصية كان ينفع في القولنج . وكان سن الحافظ عند موته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكنتها بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا التوقيع على الاوامر في تشييد الامراء على اماراتهم شأن الدول عند وشك انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض



الاهتمام في الاحكام . وترى في شكل ٥٢ صورة نقود الحافظ لدين الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٤ هـ وهي السنة التي توفي فيها

ش ٥٢ : نقود الحافظ لدين الله

خلافة الظافر بن الحافظ

من ٥٤٤ - ٤٩ : ما من ١١٤٩ - ١١٥٤ م

واستخلف الحافظ ابنه اسماعيل ابا المنصور فبويع ولقب بالظافر بأمر الله لـسكنه لم يكن مطابقاً لذلك الاسم . وكان عمره ١٧ سنة وهو اصغر اولاد ابيه سنّاً وكان كثير اللهو والالعاب والتفرد بالجواري واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل ويمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود صقلية من جهة الغرب والصليبيين من الشرق وكل منهما يقترب رويداً رويداً من قاعدة المملكة الفاطمية والظافر مشعر بقرب سقوط خلافته ولا يبدي حراكاً وفي السنة الرابعة من خلافته وهي سنة ٥٤٨ هـ حاصر الصليبيون عسقلان وكانت من اعمال الفاطميين ونظراً لوقوعها على حدود مملكتهم كانت عرضة لهجمات الصليبيين وكان الوزراء في ايام الخلفاء السالفين يعززونها بمهمات الدفاع . وفي اوائل خلافة الظافر توفي وزيره ووقع الخلاف بين ذوي شوره فشغلوا بذلك عن صيانة البلاد فاهملوا امر عسقلان فاغتم الصليبيون تلك الفرصة وحاصروا المدينة وضيقوا عليها حتي سلمت . فجاء خبر سقوطها الى القاهرة مع خبر آخر اشد وطأة منه وهو ان العمارة الصقلية نزلت على سواحل مصر واحرقت مدينة تنيس في بحيرة المنزلة ونهبت الفرما لـسكنها لم تتقدم اكثر من ذلك فأخذت ما أمكنها حملة من الغنائم وعادت من حيث أتت ومن سنة ٥٤٩ هـ انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمه معاً وسبب موته انه كان منهمكاً بالشهوات الوحشية مشغلاً عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فأوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجى البلاد من شره ويتخلص مما كان يتقول الناس في عرضهما من معاشرته اياه فاستدعاه الى دار ابيه سرّاً ولم يعلم به احد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيفوية فقتله بها واخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فأتى نصر الى ابيه العباس واخبره بذلك من ليلته . والما كان الصباح اقبل العباس الى القصر على جاري عاتده في الخدمة وانظر عدم الاصلاح على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن اهل القصر قد علموا بقتله بعد لانه خرج من عندهم خفية وما علم احد بخروجه فدخل الخدم الى موضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخاوا الى قاعة الحرم فقبل لهم انه لم يبت هنا فنتطابوه في جميع مظانه في القصر فلم يتعوا له على خبر فتحققوا قتله . فأخرج العباس

اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما « انما قتلتما امامنا . وما نعرف حاله الا منكما فاصراً علي الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلتهما حالاً لينفي التهمة عن نفسه وعن ابنة



وترى في شكل ٥٣ صورة نقود الظافر
بامر الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٥ هـ

ش ٥٣: نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الفائز بن الظافر

من ٥٤٩ — ٥٥٦ هـ او من ١١٥٤ — ١١٦٠ م

فاستدعى عباس الفائز بن الظافر وتقدير عمره خمس سنوات وقيل سنتان فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان يدخل الامراء فدخلوا فقال لهم « هذا ولد مولاكم وقتل عماء اباه وقد قتلتهما به كاترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل » فقالوا بأجمعهم « سمعنا واطعنا » وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى امه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويحتلج

الملك الصالح

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده يد واما اهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر واخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنه فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيق الارمني — وهو ابو الغارات الملك الصالح فارس المسامين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ له الامام انه سيتولى مصر بناء على رؤيا رآها في منامه ففسار من ساعته الى مصر وصار يترقي في الخدم حتى ولي منية خصيب (المنيا)

فلما صار اهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الاجناد وتحدث معهم في المعنى فأجابوه الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا الى القاهرة وقد لبسوا السواد

فلما قاربوها خرج اليهم من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده فخرج عباس في ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعها شيء من المال وجماعة يسيرة من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . أما الصالح بن رزيك فانه دخل القاهرة بدون قتال وما قدّم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به وقلع البلاطة التي كانت عليه واخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والحلقى قدام الجنازة الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر احواله . وأما عباس فان اخذت الظافر كادت صليبي عسقلان بشأه وشرطت لهم مالاً جزيلاً اذا امسكوه فخرجوا عليه والتقوا به فتواقعوا وقتلوا عباساً واخذوا ماله وولده وانهمزم بعض اصحابه الى الشام وفيهم ابن منقذ فسلموا . وسير الصليبيون نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطه من المال فاخذوا نصرأ وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة ثم انزلوه يوم عاشوراء سنة ٥٥١ هـ واحرقوه

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا ست سنوات . وفي سنة ٥٥٥ هـ توفي . وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف حتى انه كان يؤدي الاموال الطائلة ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

خلافة العاضد بن يوسف

من سنة ٥٥٦ — ٥٦٧ هـ او من ١١٦٠ — ١١٧١ م

وبعد وفاة الخليفة الفائز اخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخاً من الاسرة الفاطمية لم يكن ثم احق منه للخلافة فهم بمبايعته فجاء احد اصدقائه وهمس في اذنه « ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانه لم يسام نفسه خليفة عمره اكثر من خمس سنوات » فرنت هذه العبارة في اذن الوزير

فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وحمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغاً رشده . فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله . وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر له ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعباداً من سلفه فلقب وزيره الصالح بلقب الملك . ففتحت اعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمه الخليفة . فعزمت على قتله فارسلت اولاد الراعي فكنموا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط الى الارض على وجهه وحمل جريحاً لايعي الي داره فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ وكان شجاعاً كريماً جواداً فاضلاً محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدير . وكان ذا هيبة في شكاكه عظيماً في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلاة وفرائضها ونوافلها شديد المغالاة في الشيع صنف كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على اهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن ابي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك . وله شعر كثير يشتمل على مجدين في كل فن فنه في اعتقاده :

يامة سلكت ضلالاً بيناً حتى استوى اقرارها ووجودها
ملتم الى ان المعاصي لم يكن الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم منع الشريعة ان تقام حدودها
حاشا وكلاً ان يكون الهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدنا

ولم يمت الصالح الا بعد ان انتقم من عمه الخليفة بامر الخليفة نفسه لانه لم يكن يحبها . ثم استوزر ابنه محي الدين رزيك ولقبه بالملك العادل وكنيته ابو شجاع وهذا استاذنف شاور

مشهد الحسين

ومن اعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك انه علم بوجود مشهد الحسين في عسقلان . وكان امير الجيوش اثناء حروبه في سوريا قد نظف بمدفن راس الامام الحسين في تلك المدينة فابتنى فوقه مشهداً فلما علم طلائع بوجود ذلك المشهد في تلك الجهة خاف عليه من الصليبيين فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاه جامع الصالح نسبة اليه على ان يجعل فيه المشهد . فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه لا يليق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة واني الا ان يجعله في بعض اجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك وفي سنة ٧٤٠ هـ احترق المشهد فأعيد بناؤه مراراً واخيراً اقيم في جواره جامع

حتى اذا كانت ايام الامير عبد الرحمن كخيا احد امراء المماليك فاعيد بناء المشهد الحسيني في اواخر القرن الثامن عشر الميلاد وبعد ذلك اعيد بناؤه برمته في ايام الخديوي اسماعيل ولم يبق من البناء القديم الا القبة المغطية لمقام الامام فاصبح على ما نشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين في السكة الجديدة بالقاهرة

ضرغام

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيق قد انشأ في وزارته امراء يقال لهم البرقية . وجعل في مقدمتهم ضرغام ابا الاشبال . فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب . فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبه اياها فجمع رفقته . وتخوف شاور وجمع اليه رجاله . فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور . وبعد تسعة اشهر من وزارة شاور اي في رمضان سنة ٥٥٨هـ ثار ضرغام وصاح على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام . وكذلك فعل الوزير رضوان بن ولحي فانه كان رفيقاً له في تلك السكرة . واستقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور وتلقب بالملك المنصور . فشكر الناس سيرته لانه كان فارس عصره وكان كاتباً جليل الصورة فكه المحاضرة عاقلاً كريماً لا يضع كرمه الا في سمعة ترفعه او مواراة تنفعه الا انه كان اذنأً مستحيلاً على اصحابه فاذا ظن في احد شراً جعل الشك يقيناً وعجل بالعقوبة . فبلغه بعد حين ان رفاقه البرقية يسعون في خلعه واعادة الوزارة الى شاور فعلى عادته من التعجل ارسل اليهم وكانوا نحواً من سبعين اميراً سوى اتباعهم واحضرهم الى دار الوزارة ليلاً وقتلهم بالسيف صبراً فذهبت لذلك رجالة الدولة واختلت احوالها وضعفت اكبرها وفقد اصحاب الرأي والتدبير منها

اسد الدين شيركوه وصلاح الدين

وفي اثناء ذلك قصد الصليبيون بلاد مصر فخرج اليهم هام اخو ضرغام وحوارهم فغابوه ونزلوا على حصن بلبس وملسوا بعض السور ثم عادوا الى بلادهم . وعاد هام عوداً رديئاً فما هو الا ان قدم رسل الصليبيين على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة في كل سنة وهو ٣٣ ألف دينار

ثم جاء الخبير بقوم شاور ومعه اسد الدين شيركوه بن شادي — وهو كردي الاصل من قبيلة الروادية من اشهر قبائل الاكراد من مدسة دوين من اعمال اذربايجان .

وكان شيركوه هذا واخوه نجم الدين ايوب في خدمة الاتابك نور الدين صاحب دمشق منذ مدة طويلة واطهرا من اللياقة ما يمكن ثقتهم فيهما . فلما سار شاور الى دمشق استنجد اتابك نور الدين ليرجع الوزارة الى يده . فنور الدين لم يغفل عن هذه الفرصة التي تجعل له يدأ بامور مصر فارسل معه اسد الدين شيركوه في كثير من الممالك (الغز) وسار معها يوسف ابن اخيه نجم الدين بن ايوب وكان صغير السن ولم يكن ابوه راضياً بسفره في هذه الاخطار لصغر سنه . ولعل التقادير ساقته الى مصر ليكون سلطاناً عليها فان هذا الغلام صار بعد ذلك البطل الذي يلهج التاريخ بذكره السلطان صلاح الدين الايوبي . اما مولده فقلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ . وسار الاتابك نور الدين بنفسه مشيعاً جيوشه الى حدود مصر وقصده من ذلك ايهام الصليبيين الذين في طريقه انه آت لمحاربتهم فانحسروا في مدنتهم ومر جيشه بامان ولا معارض حتى اتي مصر

قتل ضرغام وعود شاور الى الوزارة

فلما علم ضرغام بقدم شاور ومن معه ومطالب الصليبيين اضطرب واصبح الناس في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ خائفين على انفسهم واموالهم فجمعوا الاقوات والمساء وتحولوا من مساكنهم وخرج همam بالعسكر في اول جمادى الآخرة فسار الى بلبس وكانت له وقعة مع شاور انهزم ضرغام فيها . وصار الى شاور واصحابه جميع ما كان مع عساكر همam واسروا عدة ونزل شاور بمن معه الى التاج (قلوب) بظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جمادى الآخرة

فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية من الجند بداخل القاهرة وشاور مقيم في التاج اياماً ثم سار شاور ونزل في المقس (الازبكية) فخرج اليه عسكر ضرغام وحاربه فانهزم هزيمة قبيحة وسار الى بركة الحبش ونزل بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك مدينة مصر (القسطنطينية) واقام بها اياماً فاخذ ضرغام مال الايتام الذي كان بمودع الحكم فحرره الناس واستعجزوه ومالوا مع شاور فتسكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له . ونزل شاور في ارض اللوق خارج باب زويلة وطارد رجال ضرغام وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار في منظره للؤلؤة وما حو لها من الدور وعظمت الحروب بينه وبين اصحاب ضرغام وفي كثير من الطائفة الريحانية فبعثه الى شاور ووعدوه انهم عون له فانحل امر ضرغام فارسل العاضد الى الـ . . . يامرهم بالكف عن الرمي ففرج الرجال الى شاور وصاروا بن . . . وفترت همة اهل القاهرة واخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى

شاوړ قامر ضرغام بضرب الابواق والطبول ماشاء الله من فوق الاسوار فلم يخرج اليه احد وتفرق عنه الناس فسار الى باب الذهب من ابواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع اليه واقسم عليه بأبائه فلم يجبه احد وظل واقفاً الى العصر والناس تسجل عنه حق بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها « خذ نفسك وأنج بها » واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاوړ فرضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطفوا من معه وادركه القوم فاردوه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسة واحتزوا راسه في غاية جهادى الآخرة وفر منهم اخوه الى جهة المطرية فادركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل اخوه الآخر عند بركة الفيل وبقي ضرغام مائتي على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وكانت وزارته ٩ اشهر وكان من اجل اعيان الامراء واشجع فرسانهم واجودهم لعباً بالكرة واشدهم رمياً بالسهام وكان له مع ذلك خط ابن مقلة وكان ينظم الموشحات الجيدة . ولما جيء براسه الى شاوړ رفع على قفاه وطيف به فقال الفقيه عمارة

ارى جنك الوزارة صار سيفاً يحز بحده جيد الرقاب
كأنك رائد البلوى والا بشير بالمنية والمصاب

وهكذا اعيدت وزارة مصر الى شاوړ فاستلم زمامها وصار يدفع للاناباك نور الدين ثلث محصولاتها مقابل ما بذله في اعادتها اليه . الا ان الاناباك لم يكن نداً احد مطامعه في مصر فقد كان له بتلك الحملة غرضان الاول ان يقضي حق شاوړ لانه قصده مستنصراً والثاني ان يستعلم عن احوال مصر لانه كان يبلغه انها ضعيفة من جهة الجند واحوالها في غاية الاختلال فقصده الكشف عن حقيقة ذلك

شاوړ وشيركوه

ولما اقيم شاوړ على مصر عقد بينه وبين اسد الدين شركوه اتفاقاً سرياً بشأن تسليم مصر الا ان الشيطان وسوس لشاوړ انه قادر على دفع جيوش نور الدين فينال السلطة لنفسه فكتب الى شيركوه ان يسير الى سوريا . فاعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاوړ اليه . فلما راي ذلك ارسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاوړ الى الصليبيين يستقدمهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكانوا قد ايقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها . فلما ارسل شاوړ يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية

دعوته وانصرته وطمعوا في تملك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر اشده . فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقيين الى مصر . وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الصليبيين في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعانوا بهم فاعانواهم ففسار بعضهم معهم واقام بعضهم في البلاد لحفظها . فلما قارب الصليبيون مصر فارقها اسد الدين وقصد مدينة بلبليس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والصليبيون ونازلوا اسد الدين شيركويه بمدينة بلبليس وحصلوه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا ما يحميها وهو يغادهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً . فبينما هم كذلك اذا انهم اظهر بهزيمة الصليبيين على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس . فحينئذ سقط في ايديهم وارادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عنده وخرج من بلبليس في ذي الحجة

فلما وصل الى الشام اقام على حاله في خدمة نور الدين الى سنة ٥٦٢ وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها وبقصدتها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير . فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الآخر في جيش قوي وسير معه نور الدين جماعة من الامراء قبلت عدتهم التي فارس وكان كارهاً لذلك ولكن لما رأى جد اسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعاً خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام . فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الصليبيين الى يمينه . فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل القسطنطينية وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفاً وخمسين يوماً

وكان شاور لما بلغه مجيء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الصليبيين يستنجدهم فاثوهم على الصعب والذل طمعاً في ملكها وخوفاً من ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين . فالرجاء كان يقودهم والخوف يسوقهم . فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالباين وسارت العساكر المصرية والافرنج وراءه بها فأدركوه في

الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والصليبيين جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه فعزم على قتالهم . الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عطيهم فيه اقرب من سلامتهم لقلّة عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق . فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا له « ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى اين نلتجىء وبمن نحتسئ وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوّ لنا »

فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب الشقيف وكان شجاعاً وقال « من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملك بل يكون في بيته مع امراته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعدر فيه لياخذن مالنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما اخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقولن تأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مصر الى الكفار والحق بيده » فقال اسد الدين « هذا الراى وبه اعمل » وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال

فاقام اسد الدين بمكانه حتى ادركه المصريون والصليبيون . وهو على تعبئة وجعل الانتقال في القلب يتكرر بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينبها اهل البلاد . وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولين معه « ان المصريين والصليبيين يعملون حملتهم على القلب ظناً منهم اني فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا في اعقابهم » واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يشق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين ايديهم غير متفرقين . فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على المسلمين من الصليبيين الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأتحن واكثر القتل والاسر . فلما عاد الفرنج من اثر المسلمين راوا عسكرهم مهزوماً والارض منهم قفراً فانهزموا ايضاً وكان هذا من اعجب مايؤرخ ان الفتي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

ولما انهزم المصريون والصليبيون من اسد الدين بالباين سار الى ثغر الاسكندرية رجبى ما في القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة

من اهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين بن اخيه . وعاد الى الصعيد فملكه وجبى امواله واقام به حتى صام رمضان
واما المصريون والصليبيون فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصحابوا حال
عساكرهم وجمعوهم وساروا الى الاسكندرية فحصرها صلاح الدين بها واشتد الحصار
وقل الطعام على من بها فصر اهلها على ذلك وسار اسد الدين من الصعيد اليهم وكان
شاوور قد افسد بعض من معه من التركان فوصل رسل الصليبيين والمصريين يطلبون
الصلح وبذلوا له خمسين الف دينار سوى ما اخذ من البلاد فاجاب الى ذلك وشرط
على الصليبيين ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتسلطوا منها قرية واحدة فاجابوا الى ذلك
واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ووصل
شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة

الصليبيون في القاهرة

واما الصليبيون فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون
ابوابها بيد فرسانهم ليتنع نور الدين من انقاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل
سنة مائة الف دينار — هذا كله استقر مع شاوور لان العاضد لم يكن له معه حكم وقد
حجر عليه وحجبه عن الامور كلها . وعاد الصليبيون الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا
بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان السكامل شجاع بن شاوور قد ارسل الى نور الدين
مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويعرض الدخول في طاعته وضمن على نفسه انه يفعل
هذا وبذل مالا يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلاً فبقي الامر على ذلك
الى ان قصد الصليبيون مصر سنة اربع وستين وخمسمائة

مضت على ذلك سنتان والاfrican (الصليبيون) لهم شحنة (ضابطة) في القاهرة وقد
تسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين
حكما جائراً وركبهم بالاذى العظيم . فلما راوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردم ارسلا
الى ملكهم بالشام وهو مرى ولم يكن للصليبيين منذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكر
ودهاء يستدعون له ليلسكها واعلموه خلوها من موافع وهوّنوا امرها عليه بقصدها وتملكها
فقال لهم «الراي عندى اننا لا نقصدها ولا طمعة لنا بها واموالها تساق الينا نتقوى بها على
نور الدين وان نحن قصدناها لئلا نملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها
لا يسمونها الينا ويقاثلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن
صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الصليبيين واجلاؤهم من ارض الشام» فلم يقبلوا

قوله وقالوا له « انها لامانع فيها ولا حامي . والى ان يتجهز عسكر نور الدين ويسير اليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها . وحينئذ يمتنى نور الدين منا السلامة » فصار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع ايضاً يجمع عساكره

وجد الصليبيون في السير الى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر سنة ٥٦٥ هـ ونهبوها وقتلوا فيها واسروا . وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الصليبيين ووعدوهم النصره عداوة آشاور . منهم ابن الخياط وابن فرجلة فقوي جنان الصليبيين وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة في ١٠ صفر وحصروها فخاف اهلها ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس . فحملهم الخوف منهم على الامتناع لحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه . فلو ان الصليبيين احسنوا السيرة في بلبيس المكنوا الفسطاط والقاهرة . ولكن فشلهم في فتحها عاد على الفسطاط بالدمار لان شاوور امر باحراقها تاسع صفر المذكور . وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد . فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة واقتقر اهلها وذهبت اموالهم ولعنهم قبل نزول الصليبيين عليهم بيوم خوفاً من ان يملكها الصليبيون فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً

شاوور والصليبيون

وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين وارسل في الكتب شعور النساء وقال « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتقذهن من الصليبيين » فشرع نور الدين في تسيير الجيوش . واما الصليبيون فانهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على اهلها وشاوور هو المثلوي للامر والعساكر والقتال فضايق به الامر وضعف عن ردهم . فاخذ الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الصليبيين يذكر له مودته ومحبه له قديماً وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد واما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح واخذ مال اثلاً يتسلم البلاد نور الدين . فأجابته الى ذلك على ان يعطوه ١٠٠٠٠٠ دينار مصري يعجل البعض ويمهل البعض . فاستقرت القاعدة على ذلك . وراى الصليبيون ان البلاد قد امتنعت عليهم وربما سلمت الى نور الدين . فاجابوا كارهين وقالوا « نأخذ المال فنقتوى به ونعاود البلاد بقوة » نبالى معها بنور الدين فعجل لهم شاوور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً . وجعل شاوور يجمع لهم المال من اهل القاهرة

ومصر (الفسطاط) فلم يتحصل له أكثر من خمسة آلاف دينار لان اهل الفسطاط كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرّون على الاقوات فضلاً عن الاقساط . واما اهل القاهرة فالأغلب على اهلها الجند وغلماهم فلهمذا تعذرت عليهم الاموال . وهم في خلال هذا يرسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيماً عندهم في عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم

وكان نور الدين لما وصله كتاب العاضد بحلب فارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج الرسول في طلبه فلقبه على باب حلب وقد قدمها من حصص وكانت اقطاعه . وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته ايضاً في المعنى . فسار الى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتفاعل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك . وحكمه في العسكر واخذ ائمن واختار من العسكر التي فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها آخر صفرو ورحل الى راس الماء . واعطى نور الدين كل فارس مئتين مع اسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكته و اضاف الى اسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قليج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياووقى وقطب الدين ينال بن حسان المنجي وصلاح الدين يوسف بن ايوب اخي شيركوه على كره منه وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم - احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكه وسيرد خبر ذلك

مقتل شاور

وسار اسد الدين شيركوه من راس الماء مجدداً منتصفاً ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الصليبيون الى بلادهم بخفي حنين خائبين مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسرهم ذلك وامر بضرب البشائر في البلاد وبث رساله في الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتناً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها . واما اسد الدين فانه وصل القاهرة سابع جهادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه وعاد الى خيامه بالجماعة العاضدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة . ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه راعى العساكر كثيرة مع شيركوه . وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه . وشرع ياطل اسد الدين في تقرير ما كان

بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد تلك البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه ويمنيه . ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الصليبيين فنهاه ابنه الكامل وقال له « والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه » فقال له ابوه « والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً » فقال « صدقت ولان نقتل ونحن مسامون والبلاد اسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الصليبيون فانه ليس ينكح وبين عود الصليبيين الا ان يسمعو بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد » فترك ما كان عزم عليه

ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور . فنهاهم اسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله

فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام وكان قد مضى ليزور قبر الشافعي فلقية صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي . فقال نمضي اليه . فساروا اليه جميعاً فسار به صلاح الدين وجرديك والقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذ اسيراً فلم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا اعلموا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه . وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه راس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل راسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الاخر . ودخل اسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم « امير المؤمنين (يعني العاضد) يأمركم بنهب دار شاور ، فتفرق الناس عنه فنهبوا وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم . فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاء لصنيعه

حضارة الفسطاط

قد علمت ما كان من احراق الفسطاط بامر شاور فيجدر بنا ان نذكر ما كانت عليه من الحضارة والثروة . وقد تقدم سبب بنائها على يد عمرو بن العاص وهي اول مدينة اسلامية بناها المسلمون بمصر . واخذت تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوكة و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمته الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احن الى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ان لا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبست عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر
وبلغ من تراحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة باع بعضها
خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ نفس وبلغت نفقة البناء على
بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم لخارويه

واشتهر من تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل باع من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصوبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقت المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠ سطل مؤيدة ببكر واطناب لها ترخي وتملاء . وذكر رجل دخلها في اواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خارويه بن احمد بن طولون قال « طلبت بها صائعاً يخدمني فلم اجده فيها صائعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها ٧٠ (كذا) صائعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »

وفي ذلك دليل على غنى اهل الفسطاط وترفعهم . ومن هذا القبيل استكثرهم من الفرش . فقد يقتني احداهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلاً من اهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالنواب ونحوها وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون اغناها - قال القاضي ان قطر الندي ابنة خارويه كان في جملة جهازها الف تسعة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة

آلاف دينار. ناهيك بتأنيدهم في المآكل والمشارب مما يطول شرحه وقد فصله المقرئ في غيره في كلامهم على الفسطاط

موت اسد الدين ووزارة صلاح الدين

فسر الخليفة العاضد جدًا لنجاحه من شاور . فاستلم اسد الدين الوزارة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع اول سنة ٥٦٤ هـ وفرق العطايا في جيوشه التي رافقته الى مصر وامر النصارى بشد الزناير على اوساطهم ومنعهم من ارشاء النوبة التي تسمى بالعدة فكتب المهذب بن ابي المليح زكريا وكان مسيحيًا الى اسد الدين بقوله :

يا اسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد اوساطنا فما الذي اوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبته ولا مكنه من ارشاء النوبة وعند ما يئس من ذلك اسلم ولم تطل مدة وزارة اسد الدين فعاجلته المنية في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ ولم يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة ايام فقط . ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول . وكان شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة . وكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته . وكان يعد نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمصب الوزارة باسمه . وبعد وفاته احب العاضدان يمين حبه له فولى مكانه ابن اخيه يوسف صلاح الدين واتقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً

وذكر ابن الاثير في سبب مجيئ صلاح الدين الى مصر نقلاً عن صلاح الدين نفسه قال : لما اتت كتب العاضد الى نور الدين يستغيث به من الافرنج ويطلب ارسال العساكر احضرتني واعلمني الحال وقال « تمضي الى عمك اسد الدين بمحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحمته انت على الاسراع فما يمتل الامر التأخير » ففعلت . وخرجنا من حلب فما كنا على ميل منها حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى فامر به نور الدين بالمسير . فلما قال له نور الدين ذلك التفت عني الي فقال لي « تجهز يا يوسف فقلت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساها ابداً » فقال لنور الدين « لا بد من مسيره معي » فامرني نور الدين وانا استقييل . وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين « لا بد من مسيرك مع عمك » فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكانما أساق الى الموت فسرت معه وملسها . ثم توفي فلكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه . اهـ

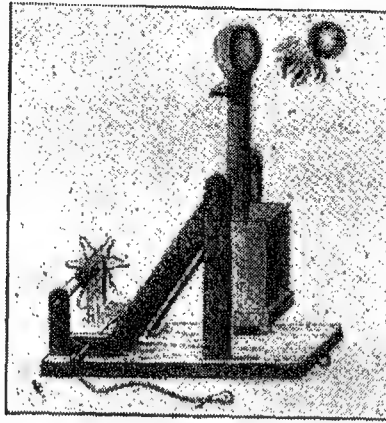
واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر ولاية الوزارة العاضدية بعد اسد الدين منهم عين الدولة الياروقي وقطب

الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين . وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه ليغالب عليها . فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه . وكان الذي حمله على ذلك ان اصحابه قالوا له « ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سناً من يوسف والراي ان يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم اليها فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف ونخرج به » فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له « ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما » ثم قصده الحارمي وقال « هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك » قال اليه ايضاً . ثم فعل مثل هذا بالباقيين وكلهم اطاع غير عين الدولة الباروقي فانه قال « انا لا اخدم يوسف » وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء . فثبت قدم صلاح الدين — ومع هذا فهو نائب عن نور الدين . وكان نور الدين يكتبه بالامير الاسفلسار ويكتب علامته على راس الكتاب تعظيماً عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرد بكتاب بل يكتب « الامير الاسفلسار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا » واستقال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فلما لاه اليه واحبوه وضعف امر العاضد . ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله . فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك . واخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاهم اهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة

مؤمن الخلافة وصلاح الدين

فلما اجمع المصريون على حب صلاح الدين ظهر حساده واكبرهم مؤمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد واليه الحكم فيه والقدم على جميع من يحويه . فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكتبة الصليبيين واستدعائهم الى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه . وسيروا الكتب مع انسان يتقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقه انسان تركاني فرأى معه نعلين جديدين فاخذهما منه وقال في نفسه « لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهية » وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه . وكان غرض مؤمن الخلافة ان يتحرك الصليبيون الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج

صلاح الدين في العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والصليبيون من بين يديه فلا يبقى لهم باقية . فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه ف قيل رجل يهودي فاحضر ثامر يضربه وتقريره فاسلم واخبره الخبر . واخفى صلاح الدين الكتاب لكن مؤتمن الخلافة استشعر فلأزم القصر ولم يخرج منه خوفاً واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين ولا يظهر له شيئاً من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للثنزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه . وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش . وهو خصي ابيض وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير الا بأمره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفاً . وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضاً وقاتلوه بين القصرين وكثر القتل في الفريقين



ش ٥٤ : آلة رمي قارورة النفط مشتعلة للاحراق

وكان العاضد في هذه الواقعة يشرف من المنظرة . اما اهل القصر فلما رأوا كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغزمن اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكروا فيهم وكفوه عن القتال وكادوا ينهزمون . فامر حينئذ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة النفاطين واخذوا في تطيب قارورة النفط ووضعوها في الآلة وصوبوا

بها على المنظرة التي فيها العاضد تخاف العاضد على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عال « امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم » فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا . فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم اقفيتهم الى ان وصلوا سوق السيوفيين فقتل منهم كثير واسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق عليهم . وكان في دار الارمن قريبا من بين القصرين خلق عظيم من الارمن كلهم رماة ولهم جاري في الدولة يجري عليهم . فعند ما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيرا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً . ومروا الى العبيد فصار هؤلاء كلها دخلوا مكاناً أحرقت عليهم وقتلوا فيه . الى ان وصلوا الى باب زويلة فاذا هو مغلق فحصروا هناك واستقر فيهم القتل يومين . ثم بلغهم ان صلاح الدين احرق المنصورة التي كانت اعظم حاراتهم واخذت عليهم افواه السكك . فايقنوا انهم قد اخذوا لا محالة فصاحوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت في ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا الى الجزيرة . فعدا عليهم شمس الدولة في العسكرو قد قوا باموال المهزومين واسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد . وتلاشى من هذه الواقعة امر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبني القاهرة يدعى جوهرأ والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى ايضاً جوهرأ الملقب بمؤتمن الخلافة

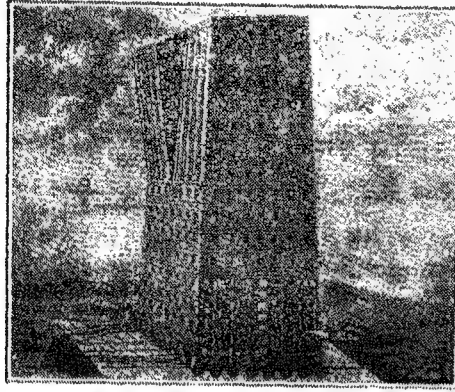
فلما انتهت هذه الواقعة واستتصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولى اخاه طوران شاه قوص واصوان وعيناب مكافأة لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد . وجعل البلاد المذكورة له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة ٢٦٦٠٠٠ دينار . وفي سنة ٥٦٨ هـ خرج طوران شاه لغزو بلاد النوبة وفتح قلعة ابريم فسبى وغنم ثم عاد بعد ان اقطع ابريم بعض اصحابه . وفي سنة ٥٦٩ هـ خرج الى بلاد اليمن وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم طوران شاه

حصار دمياط

وكانت وزارة صلاح الدين في مصر سبباً لاضطراب الصليبيين . اما نور الدين فركب عمارة مصرية وجعل يطوف البحر المتوسط عند شطوط سوريا لينبع مرور الوافدين الى الارض المقدسة ويستولي على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر . فتشاور الصليبيون في شأن ذلك فاقروا على ارسال بطريك صور فريدريك مع يوحنا اسقف

عكا لاستمداد ملوك فرنسا وانكلترا وصقلية وغيرهم من الامراء المسيحيين فلم ينجح مسعاهم . غير ان امبراطور القسطنطينية ارسل عمارة من مائة وخمسين شراعاً مملوءة بالذخار والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بجند عسقلان وساروا برّاً وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما جدوا السير حتى اتوا دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في صفر سنة ٥٦٥ هـ

وكانت هذه الحملة تحت قيادة الملك امري فظن انه يقدر على اخذ دمياط بالهجوم لكنه راي منها مقاومة ودفاعاً الزمها على اقامة الحصار فاقامه ولم يكن اكثر فائدة له من الهجوم لان اهل دمياط كانوا كثيرين ولم يبالوا بعدة الصليبيين وعددهم وطال الحصار حتى نفذت مؤونة الصليبيين فارادوا العبور في النيل لياتوا بالزاد فاوقفهم سدّ اقامه المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد



ش ٥٦: برج من ابراج الحصار

مشدود بمتاريس دمياط والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب من ابراج الحصار . وكانت الامدادات ترد لحامية دمياط من القاهرة بسهولة اما الصليبيون فكان انتظارهم للعدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع في معسكرهم وقام الشقاق بين الفرنساويين منهم وهم الذين كانوا في سوريا والروم الذين اتوا بالمدد من الاستانة . واشتد ذلك الاختلاف حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة ويمضغون افنان النخيل . ومما زاد شدة همهم تكاثر الامطار وهبوب الزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى اصبحوا كأنهم في طوفان عظيم . وحصل من تكاثر الاعصار نوب في النيل اسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها

ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادتين الريح من جهة ومجرى النيل من جهة أخرى فتكسر معظمها ثم انتشبت النار فيها فأحرقت ما بقي منها
فأما شاهد الافرنج ذلك لم يروا بدءاً من العود على اعقابهم الى سوريا صفر اليدين
بعد ان تعاقبوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم . وكان صلاح الدين
قد اعد في القاهرة جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش
الصليبية مراكزها فشق عليه ذلك وعنف الامراء الذين سمحوا لهم بالرجوع ثم عاد
الى القاهرة

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين على سوريا لمحاربة الذين ضافوه السنة الماضية
فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم امري وهو في عسقلان انه حاصر قلعة دارون وهو
دير قديم للنصارى على قمة جبل وعمر على اربع اميال من غزة اتخذه الصليبيون معقلاً
فأسرع الملك امري لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان صلاح قد علم الدين
بقدمه فسار للاقائه فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزة فاستولى
عليها . واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها اخذاً بالثأر فتركوا في
غزة حامية وعادوا الى مصر فبلغوا القاهرة في اواخر السنة المذكورة
ثم بلغ صلاح الدين ان الافرنج احتلوا ايلة وتحصنوا فيها فسار اليها ومعه عصابة من
رجال الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة ينقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند ايلة
ركب تلك المراكب وانزلها البحر وهاجوا ايلة في ربيع الاول من السنة المذكورة برّاً
وبحراً وما زالوا عليها حتى فتحوها وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح
الدين جماعة من ثقائه وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى القاهرة
وكان لصلاح الدين نفوذ عظيم في مصر ولم يكن الخليفة العاضد الا اسماً لغير مسمى
ولم يعد لديه الا السلطة الدينية . فلاح لنور الدين ان يتخلص من سلطة الفاطميين
فاوعز الى صلاح الدين ان يقطع خطبتهم ويخطب للخليفة العباسي

الخطبة العباسية بمصر

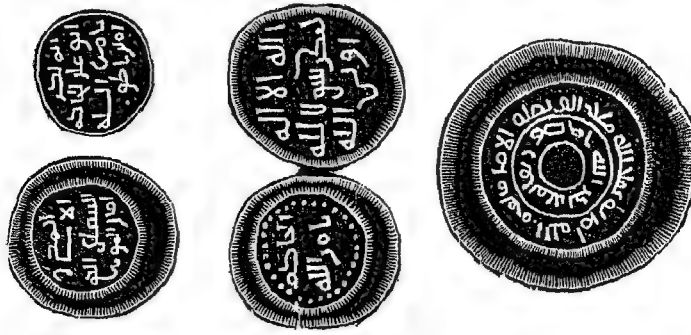
وفي سنة ٥٦٧ هـ جعل صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العباسي بدلاً من الفاطمي .
ومعنى ذلك في اصطلاحهم ان مصر عادت الى سيطرة العباسيين السنيين وخرجت من
سلطة الفاطميين الشيعة وكان صلاح الدين سنياً . وكيفية البيعة ان صلاح الدين لما ثبتت
قدمه بمصر وازال المخالفين له وضعف امر الخليفة العاضد وصار قصره يحكم فيه
صلاح الدين ونائبه قراقوش وكان من اعيان الامراء الاسدية وكلهم يرجعون اليه .

فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة للمستضيء بالله العباسي . فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام اهل الديار المصرية لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية وياخذها منه . فكان يريد ان يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره والح عليه بقطع خطبته والزمه الزاماً لا فسخة له في مخالفته لانه على الحقيقة نائب نور الدين . واتفق ان العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً . فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار امراء فتنهم من اشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافهم الا انه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمي يعرف بالامير العالم فلما رأى ما هم فيه من الاحجام وان احداً لا يتجاسر يخطب للعباسيين قال « انا ابتدىء بالخطبة له » فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بالله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا

• موت العاضد وانقضاء الدولة الفاطمية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه احد من اهله واصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته . فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة . ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش وكان قد رتبته قبل موت العاضد فحمل جميع ما فيه الى صلاح الدين وكان من كثرتة يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تملؤ الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم — فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او سبعة عشر مثقالاً واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله . ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير . ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ . فلما راوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فستخروا من العاضد وكسروه ثم علموا انه طبل قوتنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك . وكان في القصر من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه . ونقل اهل العاضد الى موضع من القصر وكل بهم من يحفظهم واخرج جميع من فيه من امة وعبد فباع البعض واعتق البعض ووهب البعض وخال القصر من سكانه كان لم يغن بالامس . وكان العاضد لما مرض ارسل الى

صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه ويقول بعض المؤرخين الصليبيين ان صلاح الدين قتل العاضد بيده الا ان الجمهور على خلاف ذلك . على اننا لا نسعنا الا لومه لتطرفه في احتقار الخليفة وتجرده اياه من ذات يده ومن متاعه . وقد بالغ بذلك حتى انه علم بجواد كريم كان يركبه الخليفة لترويح النفس في حديثه فطلبه منه فلم يسع الخليفة الا اعطاؤه اياه والتوقف عن الرياضة التي لم يبق لديه من ثروة الخلفاء سواها . وكان الخليفة العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة واذا رأى شيئاً استحله دمه . وترى في الشكل الخامس الحسين صورة نقود زجاجية ضربت في عهد الدولة الفاطمية ايام احتياجها للمال وقلة الذهب وحالما تولى صلاح الدين الفاها وضرب نقوده المعروفة بالنقود الناصرية نسبة اليه



ش ٥٦ : نقود زجاجية مضروبة على عهد الدولة الفاطمية

مضارة الدولة الفاطمية

انقضت هذه الدولة بموت العاضد الفاطمي والخطبة للمستفيء العباسي سنة ٥٧٦ فيجدر بنا ان نأتي على ما كان من مبالغ حضارتها لولا ما نخافه من التطويل وقد افاض المقرئ في ذكره مفصلاً فنأتي على مثال من بذخهم وترفهم وقد ذكر شيء من ذلك ادوات الترف

كان الفاطميون ينظرون العباسيين في كل شيء حتى في اسباب الحضارة وكان النمدن الاسلامي قد لضيح واخذت الدولة العباسية بالتقهقر ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاثاث والرياش والثياب فان العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر والسكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا

كوز الزير من البلور مرصعاً بالجواهر وكللوا المزينة بحج اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المسكال باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة ينهز عنبر معجون كخلفة الفيل ونابه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسبار ذهب مجرى سواده . وعلى الفيل سرير منجور من عود بتمكآت فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركباً عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخود وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فرسته وأشكال من سائر الوحوش . واصناف تشد من المرسين المسكال باللؤلؤ شبه الفاكهة

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف يسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجواهر وآخر للطيب وآخر للنبود وآخر للسلاح وآخر للسروج أو الدرق أو الكسوات أو الأدم أو الشراب أو التوابل أو الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها يجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة

الحلى والمجوهرات عند الفاطميين

فما اخرجوه من خزانة الجواهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها وبة جواهر قال الصياغ ان لاقية له واصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار ببيع يومئذ بعشرين ألف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجروود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير وألف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجرة بالميناء وغير المجرة المنقوشة بانواع النقوش و ١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب . ونحو مئة كاس بادرهم واشباهها على اكثرها اسم هارون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصائها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من

الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي ألف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبقي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠٠ دينار من جملة ما
 ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت الواناً و ١٠٠ قاطر ميز مملوءة كافوراً قيصورياً وعميمات
 بجواهر من ايام المعز . وبيت هارون الرشيد الخزانة السوداء الذي مات فيه بطوس . ومثل
 ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزانة مملوءة بأنواع الصيني
 تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير
 الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون وصوان من الذهب
 كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة او العاج
 او الابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة اقل
 تملك منها وزنه ١٢ مثناً ومن تماثيل الخليفة مالا يحصى . والكلوة المرصعة بالجواهر قيمتها
 ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلاً . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر
 عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على الوان ريش
 الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه ابيض قد نظم من در رائق .
 ومائدة من الجوز يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكحلة بالجواهر وبديع
 الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئاته
 من الجواهر لاقيمة لها . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكحلة بحب
 لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من اصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك
 ١٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها من ذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة
 ٣٥٠٠ دينار واجلة معمولة للقيمة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣٠٠٠ قطعة خسرواني
 احمر مطرز بأبيض من هديتها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها
 وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاضه ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعها وستوره وكل
 ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المحمل والديباج والخز وسائر انواع الحرير وعابها اشكال
 الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف

الوانها واطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله . و ٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة او الحرير وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تبدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة ولم تكن قيمتها لو وجدت الان ولم يدفع الممولون من المال في الحصول عليها
وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ففي خزانة السلاح سيف الحسين ابن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقصي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار الى سبعة الاف دينار . وفي خزانة الخيول انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشرابات والمشارع العمومية من الديبقي والخملي والخسرواني والديباج المكي والارمني والهنساوي والكردياني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والادميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقائه مئة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها
ومن ادلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بامر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهب منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة او هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصراشتهرت في العصر الاسلامي الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف

وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف راي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره — قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرتة يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تملو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او ١٧ مثقالاً انا لا اشك فيه لاني رايتة ووزنته والؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير »



ش ٥٧ : السلطان صلاح الدين الايوبي



الدولة الايوبية

من سنة ٥٦٧ هـ — ٦٤٨ هـ او من ١١٧١ — ١٢٥٠ م

سلطنة صلاح الدين يوسف

من سنة ٥٦٧ هـ — ٥٨٩ هـ او من ١١٧١ — ١١٩٣ م

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يده على القصر . وكان قد عهد الي بهاء الدين قراقوش ان يخفي التحف التي كانت قد جمعت . ثم التقى القبض على جميع من بقي من الاسرة الفاطمية وهم الامير داود بن ولي العهد وينعت بالحامد لله واخواه ابو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنه ابو القاسم . وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب ابن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن ابي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن ابي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعلهم تحت الحجر في مكان بعيد من القصر . اما ممالك العاضد وعبيده فباع بعضها وفرق البعض الآخر في ارباب دولته هكذا كانت نهاية دولة الفاطميين فقد غادروا القاهرة وفيها من آثارهم بنايات عظيمة وقصور ومناظر منها القصر الكبير الذي بناه جوهر عند ما اناخ في موضع القاهرة والقصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور اخرى جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر داخل سور القصر كان يقال لها القصور الزاهرة

ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر بما كن مختلفة من القاهرة . وقلما بقي من تلك الآثار على حاله . ولكن هناك اثرأ عظيماً لا يمحوه كرور الايام نعي به القاهرة فانها من بنائهم كما علمت . وللفاطميين احاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة وكيف كان يجالسهم ارباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر انواع الاتباع وكيفية صلاتهم في المساجد وما يجري في ذلك من الاحتفال فمن احب الاطلاع عليه فليطالع في خطط المقرئزي

ويقال ان صلاح الدين وجد بين تلك الخرائن مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منتخبة من احسن المؤلفات . ولا يزال قسم منها الى الآن في مكتبة ليدن بالمانيا

نور الدين وصلاح الدين

ثم اسرع صلاح الدين الى تبليغ اتابك نور الدين انه انفذ امره وان الخليفة مات . واتصل هذان الخبران ببغداد فاصبح خليفتهما منفرداً بالخلافة على سائر المشرق . فخلع على اتابك نور الدين وبعث اليه سيفين اشارة الى توليته على سوريا ومصر . وخلع ايضاً على صلاح الدين وبعث اليه بالاعلام السوداء يجعلها على المنبر . وبعد ان كانت القاهرة عاصمة من عواصم الاسلام امست كغيرها من المدن وتحولت العظمة جميعها الى بغداد فلما رأى نور الدين نفسه سيداً على سوريا كلها تقريباً وعلى بعض جزيرة العرب وعلى اسيا الصغرى وما بين النهرين عزم على الاستقلال بها وبمصر . اما صلاح الدين فكان في نيته الاستقلال بمصر لنفسه منذ اول توليته فيها وكان بينه وبين نور الدين مكاتبات سرية ما لها المحافظة على سلطة الخليفة العباسي الدينية ريثما يتأتى لهم الاستقلال فكان صلاح الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتقر ساعياً في اتمام مقاصده التي كانت تحت طي الخفاء . فاحد في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك . فشعر نور الدين فبعث اليه على اثر وفاة العاضد يستقدمه وفرقة من رجاله مظهرأ استجاده على الصليبيين في الكرك . وقصده الحقيقي ان يخرج به من مصر ويبقيه عنده تحت مراقبته فيأمن طائلته فادرك صلاح الدين غرضه الحقيقي لكنه لم يستصوب مخالفة امره لئلا تتنافر القلوب فتتعرقل مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره برح القاهرة في فرقة من الجند للملاقة جند نور الدين في الكرك . فوصل نور الدين اليها ولم يجد فيها احداً فانتظر فلم يقدموا . ثم ورد اليه كتاب من صلاح الدين بانه برح القاهرة بجنده يطلب الكرك فعرض له في الطريق ما الجأء الى العود حالاً الى مصر

دهاء نجم الدين ايوب

فعلم نور الدين انها مماطلة مقصودة فاقرب على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين . لكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يهدده بالعزل اذا لم يبادر الى ما امر به فجمع صلاح الدين اهله وفيهم ابوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمي وسائر الامراء . فلما تكامل الجمع اعلهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على الجيء اليه واستشارهم فلم يجبه احد . فهض تقي الدين عمرو ابن شاهين شاه اخي صلاح الدين فقال « ان الراي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه

من البلاد » ووافقه غيره من اهلهم . فشتهم نجم الدين ايوب والد صلاح الدين واستعظم اقوالهم وشم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين « انا ابوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هؤلاء من يحبك ويخلص لك أكثر منا ؟ » قال لا . فقال « اعلم يا يوسف اننا والله لو راينا نور الدين لم نمكث ان نقتل بين يديه ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا ؟ وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم يجسروا على الثبات على سروجهم وهذا البلاد له ونحن ممالكه ونوابه فيها فان اراد سمعنا واطعنا . والرأي ان تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتك نديلاً ويأخذني اليك وما هنا من يمنع »

وقام الامراء وغيرهم وفرقوا على هذا . ثم خلا ايوب بصلاح الدين فقال له « باي عتل فعلت هذا ؟ اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزنا على منعه ومحاربتة جعلنا اهم الوجوه اليه وحينئذ لانقوى عليه ؟ واما الآن اذا بلغه ما جرى وما اظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها . والله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته انا عليها حتى امنعه او اقتل » ففعل صلاح الدين ما اشار به ابوه

فلما جاء كتاب صلاح الدين الى نور الدين كان فيه ابوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر وعاد للاهتمام بامر الصليبيين وكانوا قد امعنوا في سوريا ولم تعد اخبارهم تصل لنور الدين بالسرعة اللازمة لاتساع ايالاته فاستخدم الحمام لنقل الاخبار فكانت تأتية بها بزمن قريب

وثوب المصريين بصلاح الدين

اذعن المصريون لصلاح الدين وفي قلوبهم غل فتآمر جماعة من اصحاب الخلفاء الفاطميين على الوثوب به وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن ابي الحسن البجلي الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجلهم السودان وحاشية القصر ووافقه جماعة من امراء صلاح الدين وجنده - اتفق رأيهم على استدعاء الصليبيين من صقاية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء بذلوة لهم من المال . فاذا قصدوا البلاد وخرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الصليبيين . وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا

به واخذوه اخذاً باليد لعدم الناصر له . وقال لهم عمارة « وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفاً من ان يساء مسده وتجتمع السكينة عليه بعده »

فارسوا الى الصليبيين في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الصليبيين . وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين ادخلوا معهم زين الدين علي بن نجما الواعظ والقاضي المعروف بابن نجمة ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة . الا ان بني رزيك قالوا ان الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا . فلما علم ابن نجما الحال حضر عند صلاح الدين واعلمه حقيقة الامر فامرهم بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدد اول باول . ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه

ثم وصل رسول من ملك الصليبيين بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن الى اولئك الجماعة . وكان صلاح الدين يرسل اليهم بعض النصارى تأنيه رسالهم فاتاه الخبر من بلاد الصليبيين بجلية الحال . فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقة . فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة ومنهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم

وقيل في كشف امرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا لقي القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يخدعه ويتقرب اليه فائقه يوماً فلم يلتفت اليه . فقال القاضي الفاضل « ما هذا الالسب » وخاف ان يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فاحضر علي بن نجما الواعظ واخبره الحال وقال « اريد ان تكشف لي الامر » فسعى في كشفه فلم يراه من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل واعلمه . فقال « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنبئ الحال اليه » فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع فذكر له الحال . فقام واخذ الجماعة وقرروا فامروا بصلبهم وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من ايام العاضد وقبلها فلما اراد صلبه قام القاضي الفاضل وخطب صلاح الدين في اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين « يامولانا لا تسمع منه في حقي » فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة « انه كان يشفع فيك » فندم ثم اخرج عمارة ليصاب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فاغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في اجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقةها الى اقاصي الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من اهله واما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا اعلمهم انه علم بحالهم واما الصليبيون فكانوا يتألفون عصباً ويتقدمون في سوريا يفتشون مدنها وما زالوا في خطتهم هذه حتى لم يعد امامهم الا عدوان كيران وهما نور الدين وصلاح الدين . وكان هذا الاخير يترقب الفرص لبلوغ مرامه فكان يغتيم فرصة اشتغال نور الدين بالمحاربة في ما بين النهرين ويسير الى غز وسوريا وحلما يعلم بقدمه اليها يعود الى مصر حالاً

وفاة نور الدين ومناقبه

قال ذلك الى النفور الشديد بين هذين الرجلين وهم نور الدين بحشد الجيوش وتسييرها الى مصر لاجراج صلاح الدين منها واقامة حامية لحماية الحدود التي يخشى هجوم الصليبيين عليها . وبينما هو على اهبة الرحيل فاجأته المنية بعلة الخوانيق فمات في دمشق في شوال سنة ٥٦٩ هـ وسنه ستون سنة ومدة حكمه ٢٩ سنة . وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسماً من سوريا الغربية ومصر والموصل وديار الجزيرة . وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلوا العينين . وكان قد اتسع ملكه جداً ، خطب له بالحرمين الشريفين وباليمن وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو عشرين ديناراً . فلما استقالتها قال « ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك » وكان يصلي كثيراً بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما احسن الحراب في الحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب ابي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طاملاً للاجر . واما عدله فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عسراً بل اطاعها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها . واحضره انسان الى مجلس الحكم فضى معه اليه وارسل الى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول « قد جئت محاكاً فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم » وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي احضره وقال « اردت ان اترك له ما يدعيه انما خفت ان يكون الباعث لي على ذلك السكبر والافتة من الحضور الى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته

ما يدعيه » وبني دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم من الظالم ولو انه والده او اكبر امير عنده . واما شجاعته فاليها النهاية وكان في الحرب ياخذ قوسين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه « بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام فان اصبحت في معركة لا يبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف » فقال له نور الدين « ومن محمود حتى يقال له هذا أمن قبلي من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذي لا اله الا هو » واما ما فعله من المصالح فانه بنى اسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعبك وغيرها وبني المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبني الجامع النوري بالموصل وبني البيمارستانات والخانات في الطرق وبني الخانكاهات في جميع البلاد ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة وكان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلسهم معه ويتبسط معهم ولا يرد لهم قولاً ويكتبهم بخط يده وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه

استقلال صلاح الدين بمصر والشام

فانتقلت مملكته بعد موته الى ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشرة من العمر . فأقيم شمس الدين محمد بن المقدم نائباً له في تدبير المملكة . فاستخف الناس به لصغر سنه حتى هم افراد اسرته بتنزيله لكنهم لم ينجحوا وحاول الملك امري غزوه فعاد خائباً . اما الامراء الذين كانوا على الامارات في مملكته فحاول كل منهم الاستقلال بذاته فأحب نائب الملك ان يسير الى صلاح الدين يستجده فأوقفه اولئك الامراء . وفي خلال ذلك ورد اليهم والي نائب الملك كتب من صلاح الدين تقول بوجوب الخضوع الشام لخليفة نور الدين كما كان له وارسل تقوداً مضروبة في مصر باسم السلطان الجديد . ومما كتبه للامراء قوله « لو علم نور الدين ان فيكم من هو اكثر اهلية وامانة مني لولاية مصر فلا اشك انه كان يعهدا اليه وهي اجمل واخصب ولاياته واعلموا ايضاً انه لو لم يفاجئه القضاء لاقامني وصياً على ابنه وارى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأذهب الى دمشق بنفسني واقدم عبوديقي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالافعال العظيمة التي حملتها ابوه اما انتم فسأعاملكم بمقتضى تصرف كل واحد منكم لاني اعدكم من اهل النشئة »

وجاء صلاح الدين الى دمشق بعد وصول كتبه بقليل واخرج منها سيف الدين غازي بن اخي نور الدين . وكان قد وضع يده عليها واعادها للملك الصالح ثم اسرع

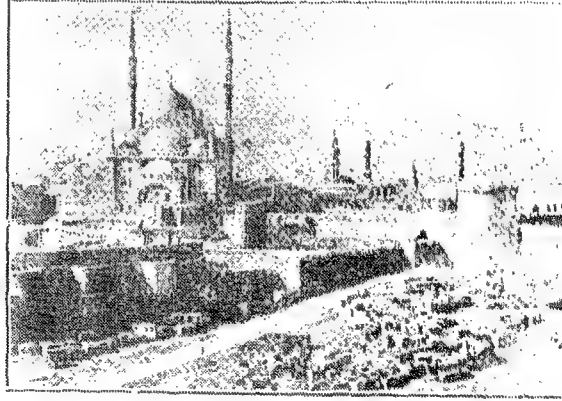
في استرجاع الاماكن التي كان قد استقل بها بعض الامراء الصغار من اسرة نور الدين في سوريا الشرقية استخفافاً منهم بسلطة الملك الصالح . فاسترجع منهم حمص وحماة وبارين وسلامية وتل الخاطب وبعليك والرها . الا ان هذه الفتوح لم تجدد الملك الصالح نهجاً لانها دخلت في سيطرة صلاح الدين ولم يعط منها شيئاً للملك الصالح . فاستنكف منه وخافه . ثم حاول صلاح الدين الاستيلاء على حلب وكانت في حوزة الملك الصالح على نية ان يخرج به الى شرقي البلاد السورية . واستنجد الملك الصالح ابن عمه سيف الدين غازي وكان قد ولاء الموصل فأمدته . فالتحق الجيشان وهاجوا صلاح قرب في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ فتغلب عليهم وسلب منهم امتعتهم واستولى على حلب وابطل الخطبة للملك الصالح وخطب لنفسه

فراى صلاح الدين اذ ذلك من قوائمه والاحوال المحيطة به ما يؤهله لبلوغ ما طالما كان يتناه من الاستقلال بالملك . فصرح بسلطانه في مصر وسوريا وكان كذلك . فاصبح الصليبيون اعداءه مباشرة . اما هم فاعتقدوا اشتغاله في جهات حلب وحملوا على البلاد الغربية من سوريا وجعلوا يفتكون باهلها ويسمونهم سوء العذاب يقتلون بعضهم ويأسرون البعض . فخاربههم طوران شاه اخو صلاح الدين فلم يتو عليهم . فبلغ ذلك اخوه وكان قد استقدم جنداً مصرياً . فانفذ بعضهم فارجعوا الصليبيين على اعقابهم فعاد الى اتمام فتوحه فخارب سيف الدين غازي وفاز به واستولى على بوزاع ومنبج وعيراز حيث قبض على اثنين من الباطنيين وقتلها بيده وكانا مرسلين من قبل امير الباطنيين ليقبضوا . وختم صلاح الدين فتوحه بمعاهدة عقدتها مع سيف الدين غازي والملك الصالح تقضي باستبقاء جميع البلاد التي فتحتها تحت سلطانه وان لا يكون للملك الصالح دخل فيها

اصلاحات صلاح الدين بمصر

وعاد صلاح الدين الى مصر في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢ هـ بعد ان استخلف اخاه طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيره الى الشام قد استخلف على مصر وزيره الامير بهاء الدين الاسدي الخصي الفارسي الذي تقدم ذكره . فعهد اليه تدبير الاحكام وامره ان يقيم البناءات اللازمة لرواق البلاد ومنعتها . فانفذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت الجسور المبنية لتنظيم بحرى النيل عند الفيضان قد اهمل شأنها منذ تولى الخلفاء الفاطميون فاذا فاض النيل طغت مياهه على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع فهدم الطرق واحتفر الترعة واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك بعض حجارة

الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من ابنية المصريين القدماء .
والشأ طريقاً يمتد طويلاً على ضفة النيل فيقياً من صدمات المياه وتسهل علائق العاصمة
بمصر العليا والسفلى . وشاد فوق التربة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً
عظيماً مؤلفاً من اربعين قنطرة



ش ٥٨ : قلعة القاهرة الآن

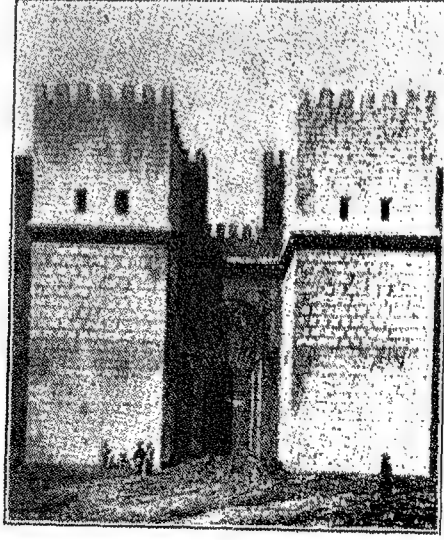
ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن . الا القصران اللذان كانا للخليفة والوزير
السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلاً لامراء الدولة وقواد الجند وبنى في
الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا
المعصيان وجعل فيها قصراً للبلاطه . وكان في ذلك المكان بناء قديم من عهد الدولة
الطولونية يعرف بقبة الهواء فهدمه واقام القلعة في مكانه واتى بججارتها من خرائب
منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة
بناء آخر ارفع موقعا من القلعة وهي لا تزال باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل
وقلعة القاهرة . واحتفر بهاء الدين في القلعة بئراً نقرأ في الصخر عميقة جداً تسع
كل ما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا تزال البئر والقصر الى هذه الغاية يعرفان باسمه
فالبئر تدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انها سميت هكذا نسبة الى يوسف الصديق
ابن يعقوب والصحيح نسبتها الى يوسف صلاح الدين الذي امر باحتفارها . والغالب
ان هذه البئر كانت محفورة من ايام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صلاح
الدين حفرها وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف او ديوان صلاح الدين .

وابتني هذا الوزير ايضاً حواصل كبيرة في الفسطاط لخزن الغلال التي ترد من الاعمال سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعضهم انها من بناء فرعون في زمن يوسف السديق

سور القاهرة

وبعد ان فرغ بهاء الدين من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة اخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان قد ابتدا بعمارة السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ على وزارة العاضد فلما عهد الى بهاء الدين اتمامه عمل له رسماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض. الا انه استعظم بناء بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه هذا الى هدم جوامع وبيوت وقبور كثيرة كانت في مكان السور. ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لوامر صلاح الدين كسلطان وبعضهم لا يزال متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد واقتبوا بهاء الدين بقراقوش اي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بمض عاسة الشرقيين يعبرون بهذا الاسم عن الاستبداد والعسف وينسبون اليه احكاماً عجبية في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي له كتاب لطيف سماه الفاشوش في احكام قراقوش وفيه اشياء يبعد وقوع مثلها منه. والظاهر انها موضوعة فان صلاح الدين كان معتمداً في احوال المماكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناء جوهر وفي الثانية امير الجيوش وفي الثالثة بناء بهاء الدين بامر صلاح الدين فزاد فيه القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر. وبني قلعة المقس وهي برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع اولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الازاهب من وجه البركة الى محطة السكة الحديد. وانقطع السور من هناك. وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر تمتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب من الصوة تحت القلعة والى الآن آثار الجدر ظاهرة للنأمل فيها هو آخر السور الى جهة القاعة. وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ من الازدح الهاشمية وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير صاحب شمس الدين عندما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٢ هـ وجعل في مكان ذلك البرج حديقة. وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من

باب الفتوح الى المقس . ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بابرّاج مبني بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن



ش ٥٩ : باب النصر كما هو الان

وفي سنة ٥٧٣ هـ عاد الصليبيون الى التعدي فحصلت بينهم وبين صلاح الدين واقعة في الرملة كان الفوز فيها للصليبيين الا ان ذلك الفوز لم يلبث حتى انقلب عليهم ما حدث بين رؤسائهم من اللشقاق

وفي ٥ صفر سنة ٥٧٦ هـ توفي شمس الدولة طوران شاه في نجر الاسكندرية وكان قد جاءها من دمشق فنقلته اخته ست الشام بنت ايوب الى دمشق ودفنته في مدرستها التي الشأتها بظاهر دمشق فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين بن اسد الدين شيركويه صاحب حصص وكانت قد تزوجته بعد لاجين

وفي سنة ٥٧٨ هـ حمل صلاح الدين على سوريا حملة ثانية وسببها ان الملك الصالح كان قد مات واستخلف عز الدين ملك الموصل فاراد هذا ان يخرق المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين فاتصل ذلك بصلاح الدين واتصل به ايضاً ان امراء

الموصل وآمروا عليه سرّاً مع الصليبيين فأسرع الى سوريا فجاء حلب وحاصرها فسلمت ثم استولى على الرها والرقّة ولصيبين وسروج وخابور وسنجار وحران ثم اتى فمعسكر امام الموصل ولم يبق غيرها للملك الصالح فحاصرها وبعد اخذ ورد سلمت سنة ٥٨١ هـ واصيب فيها صلاح الدين بمرض شديد فانتشر ذلك في انحاء سوريا ثم بعث عز الدين يطلب المصالحة وكانت المصالحة النهائية لانهم جعلوا لها حيثية دينية ومن مقتضاها انخبط صلاح الدين في الموصل وسائر البلاد التي ارجعت للاتابك الملك الصالح . وان يعترف صاحب الموصل انه تابع لصلاح الدين وعليه تقديم العدة والرجال عند الحاجة لمحاربة الصليبيين

واقعة حطين

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ كانت بداية واقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيراً ما يحاولون لقاء عدوهم يوم الجمعة عند الصلاة تبرّكاً بدعاء المسلمين وانخبطاء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديه من الجند على اتم نظام وحط رحاله عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على امل ان الافرنج اذا بلغهم نزوله هناك يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بارض عكا فلم يتحركوا من منازلهم . فسار صلاح الدين في جريدة من جيشه الى طبرية واستلمها بساعة بعد القتل والنهب الا ان القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل في طبرية فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد للملاقاة العدو فالتقى به على سطح جبل طبرية الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الصليبيين الافرنج منهم تحصنت في تل يقال له تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقهم المسلمون واشعلوا حولهم النيران فاشتد بهم العطش الى ان الجأهم الامر للقتال ياساً فاسرت مقدمتهم وقتل الباقون

وكان في جملة الأسرى الملك جفري واخوه البرلس ارباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهما من القواد والامراء . فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وامر بتخصير الاسرى بين يديه فاحضروا وفيهم الملك جفري فأمر له بشربة من جلاب ثلج فشربها وكان في غاية الظلم ثم اعطى البرلس ارباط اخاه فشرب وقال السلطان للترجان « قل للملك انت الذي سقيته اما انا فاسقيته » اذ كان من جيل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من اسره امن . فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك جفري قد

امن اما اخوه فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط لسابق تعديده على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سامية لغير داع فسبق من السلطان قسم انه اذا ظفر بهذا الامير قتله . فبعد ان شربا ارسلهما للمائدة فاكلا ثم اعيدا الى السلطان فاخذ بيده سيفاً وتقدم الى البرنس ارباط قائلاً « ها انا انتصر لمحمد » ثم عرض عليه الاسلام فابى فضربه بالسيف فحل كتافه وتم قتله من حضر ورمت جثته على باب النخبة . فلما رأى جفري ذلك وقع الرعب في قلبه . فكلمه السلطان وطيب خاطره وقال له « لم تجر العادة ان يقتل الملوك الملوك اما هذا فقد تجاوز الحد وتجراً على الانبياء » وفي اثناء هذه الحروب التقى صلاح الدين بريكاردس قلب الاسد



ش ٦٠ : ريكاردس قلب الاسد

وفي اليوم التالي نزل السلطان على طبرية فاستلم قاهتها ثم رحل طالباً عكا فبلغها يوم الاربعاء غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وانفذ من كان فيها من

اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠. واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق السلطان صلاح الدين جيشه فرقاً في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرية . وسار هو يطلب تبين فنزلها يوم الاحد ١١ جهادى الاولى وهي قلعة منيعة محاصرها اسبوعاً ولعب عليها المنجنيق حتى فتحتها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزوله ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جهادى الآخرة وسارت سرية من رجاله الى جبيل من اعمال لبنان فاستلمها . ثم حول شكيمة فتوجه جنوباً قاصداً عسقلان فر على مواضع كثيرة كالرملة والدارون فاستولى عايتها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقاتها قتالاً شديداً حتى تسلمها ثم بعث من رجاله من استلم غزة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

فتح بيت المقدس

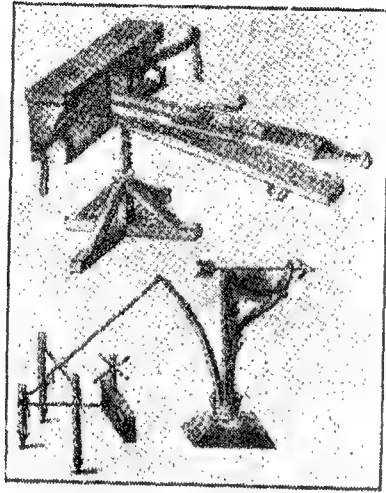
والا تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجند في المسير اليه فجمع جنده وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى اتى بيت المقدس يوم الاحد ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان به البطارىك المعظم عندهم وهو اعظم شأناً من ملكهم . وبه ايضاً باليان بن يبرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم



ش ٦١: شكل بيت المقدس واسواره لما حاصره صلاح الدين

تقارب مرتبة الملك ، وبه ايضاً من خاص من فرسانهم . وقد جمعوا وحشدوا واجتمع اهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كاهم يرى الموت ايسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى

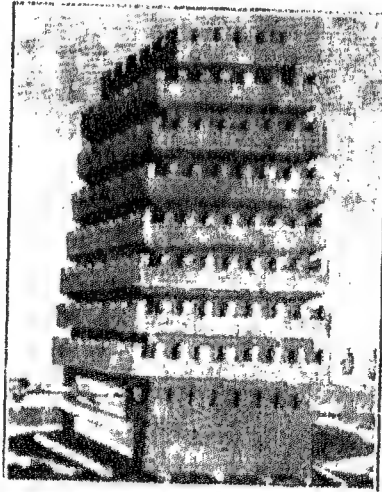
ان بذل نفسه وماله واولاده بعض ما يجب عليه من حفظه . وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلاً . وصعدوا على سورهم بجدهم وحديدتهم مجتمعين على حفظه والدفاع عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا الدنو منه والنزول عليه . ولما قرب صلاح الدين منه تقدم امير في جماعة من اصحابه غير محتاط ولا حذر فالتقى جمع من الصليبيين قد خرجوا من القدس فقاتلوه وقتلوه فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه . فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقدته وساروا حتى نزلوا على القدس في منتصف رجب . فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هاهم وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين يقاتلها لانها في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عايبها موضع قتال الامن جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها . ونصب



ش ٦٢ : منجنيقات لرمي النبال

الصليبيون على سور البلاد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا اشد قتال رآه اجد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحثماً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمتنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يزدجرون . وكان خيالة الصليبيين كل يوم

يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين . ويموت قتل من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وكان ابوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل . وكان محبوباً الى الخاص والعام . فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك واخذ من قلوبهم فحملوا حمله رجل واحد . فازالوا الصليبيين عن مواقعهم فادخلوهم بلدهم . ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنقيات توالي الرمي لتكشف



ش ٦٣ : آلة لنقب الاسوار وهي برج يجز على محادل او عجل نحو السور . وفي اسفله رجال ينقبون السور بعود طرفه كراس الكبش وفي البرج رجل يشعلون حمة السور برمي النبال

الصليبيين عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب . فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنقيات بالرمي المتدارك وتمكن النفاين من النقب وانهم قد اشرقوا على الهلاك اجتمع مقدمهم يتشاورون فيما يأتون ويندرون . فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم بيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان . فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال « لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثاء » . فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان بن بيزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره . فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحه فلم

يرحمه . فلما آيس من ذلك قال له « ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا راينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا ولا نترككم تغفون منا ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله ونموت اعزاء او نلفظ كراماً »

شروط التسليم

فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن اي شيء تنجلي وقالوا « نحسب انهم اسارى بايدنا فنبيعهم نفوسهم بما يستقرينتنا وبينهم » فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ووزن الطفل من الذكور والبنات دنانيرين ووزن المرأة خمسة دنانير فمن ادى ذلك في اربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار ممكوا . فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسامت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب . وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على اسوارها ورتب صلاح الدين على ابواب البلد في كل باب اميناً من الامراء ليأخذوا من اهلها ما استقر عليهم . فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه الامانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت ايدي سبا . ولو اديت فيه الامانة للأخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون الف رجل مايين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان . ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والدارون والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس . وكان الانسان لا يقدر ان يعيش . ومن الادلة على كثرة الخلق ان اكثرهم وزن ما استقر من القطيعة . واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر الف رجل ووزن عنهم ثلاثين الف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ويعطي واخذ اسيراً ستة عشر الف آدمي مايين رجل وامرأة . ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلبهم ويأخذ قطيعتهم

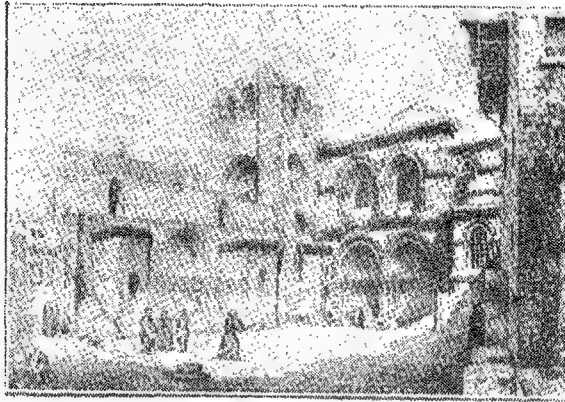
وكان جماعة من الامراء يلبسون الصليبيين زي الجند المسلمين ويخرجونهم
ويأخذون فيهم قطيعة قررورها واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الصليبيين
فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم . وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل . وكان بالقدس بعض
نساء الملوك من الروم وقد ترهبت واقامت به ومعهما من الحشم والعبيد والجواري خلق
كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الامان لنفسها ومن معها
فامنهن وسيرهن . واطلق ايضاً ملكة القدس التي كان زوجها الذي اسره صلاح الدين
قد ملك الصليبيين بسببها وكان يقوم بالملك نيابة عنها . واطلق ما لها وحشمها واستأذنته
في المسير الى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس فاذن لها فأتته واقامت عنده

واتته ايضاً امرأة للبرنس ارباط صاحب الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده في
حطين فشغقت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين « ان سلمت الكرك اطلقته »
فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الصليبيون ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه اطلق
مالها ومن تبعها . وخرج البطريرك الكبير الذي للصليبيين ومعه من اموال البيع منها
الصخرة والاقصى وقامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله . وكان له من المال مثل ذلك فلم
يعرض له صلاح الدين فقبل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين فقال « لا اغدر به » ولم
يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور . وكان على راس
قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم
الى اعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد
ومن ظاهره المسلمون والصليبيون . اما المسلمون فكبروا واما الصليبيون فصاحوا تفجعاً
وتوجعاً فسمع الناس صيحة كادت الارض ان تميد بهم لعظمتها وشدها

فلما ملك البلد وفارقه الصليبيون امر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم
فان الداوية بنوا غربي الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هري
ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى في ابنتهم فاعيد الى حاله الاول . وامر بتطهير
المسجد والصخرة من الاقدار والانجاس ففعل ذلك اجمع . ولما كانت الجمعة الاخرى
رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان
الخطيب والامام محيي الدين ابن الزكي قاضي دمشق . ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً
واماماً يرسم الصلوات الخمس وامر ان يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محموداً كان
قد عمل بمنبراً امر الصناعات بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال « هذا قد عملناه
لينصب بالبيت المقدس » فعمله التجارون في عدة سنين لم يعمل في الاسلام مثله فامر

باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعلمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذي لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه وقد ادخر على طول السنين . فشرعوا في عمارته وعجوا ما كان في تلك الابنية من الصور . وكان الصليبيون فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القيسين باعوا كثيراً منها للصليبيين الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا



ش ٦٤ : كنيسة القيامة بالقدس عند فتحها

يشترونه بوزنه ذهباً وجاء بركتها . وكان احدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة وجعله في منبجها . نخاف ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظاً لها . فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف والربعات ورتب القراء وادر عليهم الوظائف الكثيرة

واما الافرنج من اهل بيت المقدس فانهم شرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من امتعتهم وذخائرهم واموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بارخص الثمن . فاشترى التجار من اهل العسكر واشترى النصراني من اهل القدس الذين ليسوا من الصليبيين فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك . فاستقروا فاشترى حيثن من احوال الصليبيين وترك الصليبيون

ايضاً اشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسيرة والصناديق والبتيات وغير ذلك وتركوا
ايضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله من الاساطين والالواح وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا
تتالي الشعراء بالفتح

وكانت ليلة المعراج وكان يوم نحر لجيش المسلمين فنقاطر الشعراء من سائر الانحاء
لتهنئة السلطان صلاح الدين بما اتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وقالوا الخطب على
الجاهل وسالت اقلام الكتّاب وفاضت قرائعهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر
ويحرض واما شاعراً يمدح الله ويمدح الفتح او مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر
لجيش المسلمين وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد
الدين الاصبهاني . ومن اشهد في هذا الشأن عبد الرحمن بن بدر النابلسي فقال
قصيدة منها

هذا الذي كانت الايام تنتظر	فليوف الله اقواماً بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت	في سالف الدهر اخبار ولا سير
الآن قرت جنوب في مضاجعها	ونام من لم يزل حافاً له السهر
يا بهجة القدس اذا ضحى به علم الا	سلام من بعد طي وهو منتشر
يا مالك الارض مهداهفا احد	سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثمراً	الا لتعلمو به اعلامك الصفر
افضى بنوا الاصفر الانكاس موعظة	فيها لاعدائك الآيات والذعر
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة	على الوري يتقيها البدو والحضر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم	وملكهم ياملك الارض فاعتبروا
ولا اصرح باسماء البلاد فقد	اسهبت والقائل المنطق يختصر
يغنيك اجمال قولي عن مفصله	في لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئه بالفتح

فتح سائر سوريا

وبعد فتح بيت المقدس سار صلاح الدين لفتح صور فجاء عكا فنزل فيها ونظر في
امورها ثم سار عنها الى صور في يوم الجمعة ١٥ رمضان فنزل قريباً منها وارسل لاحتضار
آلات القتال ولما تكاملت نزل عليها وقاتلها برّاً واستقدم اسطول مصر ليقاتلها بجرّاً ثم
ارسل من حاصره هوين فسلمت . اما الصوريون فارسلوا اسطولهم الى اسطول المسلمين
فاسروا منه خمس قطع وقتلوا كثيراً من المسلمين فعظم ذلك على السلطان وضاق صدره

وكان الشتاء قد هجم وتراكت الامطار. واستشارهم فيما يفعلون فاشاروا عليه بالرحيل
لنستريح الرجال ويجمعوا للقتال فساروا وحملوا من آلات القتال ما امكن واحرقوا ما
بقي منها وسارت كل جماعة الى بلادهم وسار صلاح الدين الى عكا
وبقيت الهدنة الى ان دخلت سنة ٥٨٤ هـ وعند ذلك نزلوا على حصن كوكب وكان
منيعاً فاخذوه بعد قتال شديد ثم سار السلطان الى دمشق وبقي فيها خمسة ايام ، ثم بلغه
ان الافرنج قصدوا جبيل فسار نحوهم ثم علم انهم رحلوا عنها فتوقف وسار قاصداً اتمام
فتح سوريا فجاء ترسوس في ٦ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ وكان قد انضم اليه رجال
من سنجار والموصل تحت قيادة عماد الدين زنكي ومظفر الدين بن زين الدين ففتح
ترسوس ثم سار الى جبلة ففتحها ومنها توجه الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى
فاخذها في يوم واحد الاقلعتها على انهما اضطررا اخيراً للتسليم . ثم رحل من اللاذقية
الى صهيون فنزل عاينها في ٢ جمادى الآخرة فصالحه اهلها على ان يدفع الرجل منهم
عشرة دنانير والمرأة خمسة والصغير دينارين . ثم سير من رجاله من استولى على عدة
قرى منها بلاطس وغيرها من الحصون المنيعه . ثم رحل عنها واتى بكاس وهي قلعة
حصينة على نهر العاصي ففتحها عنوة وهدم قلعتها وتوجه بعدئذ الى قلعة برزنة
الشهيرة ففتحها وفتح غيرها من القلاع

وفي ٣ شعبان ارسل اهل الطاكية يطلبون الصالح فصالحهم ثم توجه الى حلب في
ضيافة ابنه الملك الظاهر ثم الى حماه في ضيافة عمر ابن اخيه فبات في حماه ليلة واحدة
ثم سار على طريق بعابك ودخل دمشق . وسار في اوائل رمضان يريد صفد فخارها
واستولى عليها بالآمان وفي هذا الشهر سلمت الكرك ايضاً
ثم نزل في الغور واقام بالخيم بقية الشهر واعطى الجماعة دستوراً وسار مع اخيه
العاقل يريد زيارة القدس ووداع اخيه لانه كان متوجهاً الى مصر فدخل القدس في ٨
ذي الحجة وصلى بها العيد وسار منها الى عسقلان في ١١ منه ينظر في امورها فاخذها
من اخيه العادل وعوضه عنها الكرك . ثم مر على بلاد الساحل يتفقد احوالها ثم دخل
عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة ٥٨٥ هـ واصلاح امورها ورتب بها الامير بهاء الدين
قراقوش والياً وامره بعارة سورها وسار الى دمشق فدخلها في مستهل صفر واقام بها
الى ربيع اول ثم خرج الى شقيف اريون وهو موضع حصين نخيم في مرج عيون
بالقرب من الشقيف في ١٧ ربيع اول . واقام اياماً يباشر قتاله كل يوم والعساكر
تتواصل اليه فتضابق صاحب الشقيف فنزل الى صلاح الدين بنفسه وطلب الامان

ووعده ان يسلم السكان بشرط ان يعطى له موضع يسكنه في دمشق . لانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الصليبيين واقطاع تقوم به وبأهلها وشروطاً غير هذه . فاجابه الى ما طلب وفي اثناء ذلك وصله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليها اناساً يحاصرونها مدة سنة كاملة الى ان نفذ زاد من كان فيها فسلموا

ثم ظهر بعد ذلك للسلطان ان جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فسيره مهناً الى دمشق . ثم ظهر له ان الصليبيين قصدوا عكا ونزلوا عليها في ١٣ رجب سنة ٥٨٥ هـ فسار اليها حالاً ونزل فيها بغتة ليقوي قلوب من بها وارسل يستدعي النجيدات من الانحاء وكان عند الصليبيين نحو الف فارس و ٣٠ الف راجل . ثم تكاثروا واستفحل امرهم واحاطوا بعكا وحاصروها في آخر رجب فضاقت صدر السلطان لذلك ثم اجتمع في فتح الطريق اليها لتستقر السابلة بالنجدة فتدكن وانفتح الطريق وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكا وجرى بينه وبين الصليبيين مناوشات في عدة ايام . ثم تأخر المسلمون الى تل العياضة وهو مشرف على عكا . وفي هذه المنزلة توفي الامير حسام الدين طهان

وما زالت الحال كذلك والصليبيون يتشددون بما كان يأتهم من المدد بجزراً الى ان قوا على فتح المدينة ودخلوها والسلطان خارجها فعظم ذلك عليه جنة . ثم بلغه ان الصليبيين سيخرجون من عكا للاستيلاء على عسقلان فأتى السلطان الرملة وتشاور وذوي شوره في امر عسقلان وهل الصواب اخراجها ام بقاؤها فانفتحت ارواؤها ان يبقى الملك العادل قبالة العدو وان يسير صلاح الدين بنفسه لاجراها خوفاً من وصول العدو اليها فيأخذ بها القدس فسار وشرع باخراجها بكل نشاط رغم ارادته لانه قال « لأن افقد ولدي جميعهم احب الي من ان اهدم منها حجراً ولكن اذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصالحة المسلمين فما الحيلة » زهاجر اهالي عسقلان الى الشام ومصر وغيرهما حزاني تاركين اراضيهم وبيوتهم ومواسيهم بحالة يرثى لها . وبينما كان الاخبار قائماً اتى من الملك العادل ان الصليبيين تحدثوا معه بامر الصالح طالين جميع البلاد الساحلية . فرأى السلطان ان موافقتهم على طلبهم هذا افضل لما رأى من الغدير الذي خامر قلوب المسلمين من المشاق المتوالية فكتب اليه يأذنه في ذلك وفوض الامر الى رايه واصر على حريق عسقلان ففوض ذلك الى احد اولاده الافضل وسار الى الرملة ومنها الى اللد واشرف عليها وامر باخراجها واخراج قلعة الرملة ثم دار حول قلعة البترون وهي قاعة منيعة فامر باخراجها

وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بين صلاح الدين وكبير الصليبيين بعد مداولات ومخبرات بطول شرحها ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور . وكان يوماً مشهوداً سرّت به الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعادت التجارة وجعل الزائر يفتدون الى بيت المقدس من كل صوب . وتوجه السلطان الى تلك المدينة يتفقد احوالها . وسار اخوه الملك العادل الى الكرك وابنه الملك الظاهر الى حلب وابنه الافضل الى دمشق وبقي السلطان صلاح الدين في القدس مدة يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير الى الديار المصرية . وكان في عزمه السفر للحج لكنه لم يستطع

ولما سار ملك الصليبيين الى بلاده رأى السلطان ان يعود لتفقد القلاع السورية ففعل وسار منها الى دمشق فوصلها في ١٦ شوال وفيها اولاده الافضل والظاهر والظافر المعروف بالمشعر واولاده الصغار . وكان يحب تلك المدينة ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد . ثم قدم الملك العادل من الكرك قاصداً البلاد الفراتية . فنزل دمشق واجتمعت هذه العائلة على رغد وسلام . وقد نسي السلطان صلاح الدين عزمه الى مصر وعرضت له امور اخرى غير ما تقدم

وفاة صلاح الدين ومناقبه

على ان المنية مع عجزها عن مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين اولاده واخوانه . ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان للملاقاة الحج فعد الى منزله كسلاً ثم غشيته حتى صفاوية . ثم اصبح في اليوم التالي اكثر كسلاً وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوماً الى ان توفاه الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم . وكان عمره عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة في مصر و١٩ سنة مع سوريا . فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان مقرراً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص لانه لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة . ولم يجذوا في جميع صناديقه اثراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك بما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالاً كثيرة جاد بها على آله وذويه

ومن آثاره في العدل والرفق ان الاموال الجلالية كانت قد اعيدت الى مصر في اثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمسكوس . فلما تولى السلطان صلاح الدين امر باسقاطها وكانت مداخيلها عظيمة جداً تبلغ مائة الف دينار سنوياً الا انها كانت مضروبة على جميع انواع الاطعمة والالبسة والحلي وانات من ماشية وخيول وغيرها . وعلى الحوانيت والاشخاب والمصنوعات والمزروعات والابنية والاقشة الى غير ذلك . جميع هذه امر صلاح الدين بالغائها . ورأى ان كثيرين من الاهالي لا يزالون مثقلين بالديون بسبب تلك المظالم فبما سمحهم بما كان عليهم . وكان بالغاً قدرأ عظيماً جداً من الدنانير والغلال وكان بين اقارب السلطان صلاح الدين رجل يدعى عز الدين موسك كان من حفظة القرآن ومحبي اهل العلم فابتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ولما تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والصليبيين اباح لهم ان يستوطنوا مصر وكان هو اول من فعل ذلك فجاء منهم بعض الباعة واستوطنوا في جهات الموسكي لانها خارج سور المدينة وافتتحوا حوانيت لمبيع الادوات الافريقية . ثم اخذ شارع الموسكي بالظهور على تمادي الايام حتى وصل الى ما هو الآن

وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً . واثني واحدة اسمها مؤلثة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل فلما توفي صلاح الدين اقسّم اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية لان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء فتلقب اول اولاد صلاح الدين المدعون نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح غازي بالملك الظاهر غياث الدين فأخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل ياسر وعيراز ومنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر

ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحامية والدمشقية والمصرية . أما ما بقي من تلك العائلة فكانوا ولاية على بلاد اقطعهم ايها صلاح الدين الا انهم تحت سلطة هؤلاء الثلاثة . فسيف الدين ابو بكر الملقب بالملك العادل بن ايوب واخوه صلاح الدين كان حاكماً في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميراً على حماه والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه



ش ٦٥ : نقود صلاح الدين
« ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ »

ايضاً كان ملقباً بملك الرها . وشمس الدولة
طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن
بامر ابيه سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة .
وكان اخوه توغتن حاكماً فيها تحت اسم
الملك المعز



ش ٦٦ : نقود صلاح الدين «ضربت سنة ٥٨٤»

وترى في الاشكال ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ صور
النقود التي ضربت في ايام السلاطين صلاح
الدين على احدى وجهيها اسمه وعلى الوجه
الآخر اسم الامام الناصر الخليفة العباسي
لذلك العهد . فالصورة الاولى نقود ذهبية



ش ٦٧ : نقود صلاح الدين

ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ هـ والثانية نقود
نحاسية ضربت سنة ٥٨٤ هـ . والثالثة مثل
ذلك

سلاطنة الملك العزيز بن يوسف

من سنة ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ او من ١١٩٣ — ١١٩٨ م

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبه . وبعد يسير
نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة الانتقام منه لقهره اياهم . فلما لم
يستطيعوا ذلك في حياته قاموا على خلفائه واجمعوا على محاربتهم . فاتحد الايوبيون في
بادئ الرأي دفعاً لناهضينهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد اقياداً للمطامع
واصغاء لذوي المفاصد فاصبحوا بما بينهم في شغل عن دفع مهاجمهم
ففي سنة ٥٩٢ هـ رأى الملك العادل صاحب الكرك والشوبك ان حصته قليلة
ومنصبه حقير بالنسبة لغيره من الاسرة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان

مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عايبها وفعلاً ذلك بسهولة . ففر الملك الافضل من دمشق الى بغداد ماشحناً الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي . وكان كلاهما شاعراً ماجداً . فكتب الافضل الى الامام الناصر :

مولاي ان ابا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاء والده عليهما فاستقام الامر حين ولي
نخالفاه وحلاً عقد بيعته والامر بينهما والنص فيه جلي
فاجابه الامام الناصر بقوله :

وافي كتابك يا بن يوسف معلناً بالود يخبر ان اصلاك طاهر
غصبا علياً حقه اذ لم يكن بعد النبي له يثير ناصر
فابشر فان غداً عليه حسابهم واصبر فناصرك الامام الناصر

الا ان الملك العادل لم يلبث ان بكته ضميمه فاعاد الملك الى ابن اخيه الافضل وتنازل ايضاً عن حصته الاصلية . الا ان العزيز لم يتمتع بالملك مدة طويلة فتوفي في القاهرة في ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ وكان ملكاً مباركاً كثيراً الخير واسع الكرم محسناً الى الناس يقرب ارباب الخير والعساح . ولكنه كان ضعيف الرأي سهل الانقياد قليل التروي . وكان له عشرة من ذوي الخفة فاشاروا عليه يوماً ان يهدم اهرام الجيزة . فامر بهدمها حالاً وبعث اليها بالعملة فابتدأوا بالهرم الثالث منها وهو اقربها متانة ويعرف بالهرم الاحمر . قال عبد اللطيف البغدادي وقد زار مصر على اثر ذلك « وحينما شاهدت المشقة التي يجدها فيها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت لو بذل لكم الف دينار على ان تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؟ فاقسم بالله انهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم اضعافه » وقد شوها وجه الهرم تشوهاً ولم يهدموا منه الا قسماً صغيراً جعل في الهرم خرقاً لا يزال ظاهراً فيه

ثم ارثى الملك العزيز مشروعاً آخر جاء بنتيجة اقبح من تلك . وذلك ان ايام الفيضان في مصر وخصوصاً في القاهرة تعد من ايام الزهدة لجريان المياه في الترع والخلجان ولاسيما خليج مصر فانه يجري مخترقاً المدينة . فكان الناس يخرجون في ذلك الحين في صغار القوارب للزهة في مجاري المياه ليلاً ونهاراً يتمتعون بنعمة ربهم فيقيمون الولائم ويضربون الموسيقى . وكان الحاكم بامر الله قد حاول مرات عديدة ابطال هذه العادة فلم يقدر لان الناس ابوا الا التمتع بما وهبهم الطبيعة من اسباب السرور . فامر الملك

العزیز سنة ٥٩٤ هـ بالامتناع عن هذه الاحتفالات امتناعاً كلياً واستخدم لتنفيذ امره هذا طرقاً خشنة . فاسترحم الناس الغاء هذه الاوامر مرات عديدة فلم ينجحوا فجاهروا بالعصيان . ثم عاجلت المنية الملك العزیز فقطعت جهيذة قول كل خطيب ومما اتاه الملك العزیز في سلطنته من المظالم انه اعاد اليها المكوس الظالمة التي كان قد الغاها ابوه وزاد في شنائعها وزادت في ايامه المنكرات وترك الانكار لها وكثر شرب المسكر واباحه اولو الامر والنهي . وتفاحش الامر فيه الى ان غلا سعر العنب لكثرة من يعصره . واقامت في حارة المحمودية مطحنة لطحن الحشيش المزروا فردت برسمه وحيت بيوت المزور واقامت عليها الضرائب الكثيرة . فمنها ما انتهى امره في كل يوم الى ١٦ ديناراً . وحملت اواني الخمر على رؤوس الاشهاد في الاسواق فداهمهم غلاء الجبوب لوقوف زيادة النيل جزاء لفحشهم . وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزیزية من خبز ولحم بحيث لم يعد لهم ما يأكلون . وكثر فجيحهم وشكواهم فجعل الملك العزیز يغتصب الارزاق ويضمها الى اقتنيات عائلته . وصارت الاهالي في حال صعوبة زادها ارتكاب المنكرات والمظالم صعوبة . الى ان جاءت المنية منصفة المظلوم من الظالم وسبب موته انه توجه الى الفيوم فساق فرسه وراء صيد فتقطر به فاصابته الحمى فحمل الى القاهرة فتوفي في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هـ

سلطنة الملك المنصور بن العزیز

من ٥٩٥ - ٥٩٦ هـ او من ١١٩٨ - ١٢٠٠ م

وخلف العزیز ابنه ناصر الدين محمد وعمره ٨ سنوات فلقبوه بالملك المنصور ثم استقدموا عمه الملك الافضل من سوريا ليكون وصياً على ملكهم الجديد . فقبل وجاء القاهرة ونودي به اتابكاً اي وصياً على ابن اخيه الا انه لم يتمتع بهذا المنصب لان عمه الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبين حقوقه بالتوصية بناء على انه جد الصبي الحاكم وعمه وصيه . فحاول الافضل مقاومته فلم ينجح . فحاصره في قصره في القاهرة ثم فرّ راجعاً الى حكومته في دمشق مكتفياً بما قسم له



وترى في الشكل ٦٨ صورة النقود النحاسية التي ضربت على عهد الملك المنصور ابن العزیز

سلطنة الملك العادل بن ايوب

من ٥٩٦ - ٦١٥ هـ أو من ١٢٠٠ - ١٢١٨ م

ولما خلا الجول للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهراً . وتولى سلطنة مصر وسوريا بنفسه وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جاثهم ابن اخيه الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصاً الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد

جماعة سنة ٥٩٧ هـ

وفي السنة التالية حدثت بمصر المجاعة الشهيرة التي وصفها عبد اللطيف البغدادي في رحلته فقال « وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد واشعر اهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع والضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا ومزقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند نزول الشمس الحمل وبني الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث . ثم تمدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والاكل . ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد احضر الى دار الوالي معه رجل وامرأة زعم الناس انهما ابواه فامر باحراقهما

« ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فاكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم - ومثل هذا اعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح . وحين ما نشم الفقراء في اكل بني آدم كان الناس يتناقلون اخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعاً لامره وتعجباً من ندوره ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيمة ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له

« واقدرأيت امرأة مشججة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه واهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم ارفيهم من يعجب لذكر

ذلك او ينكره فعاد تعجبي منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق ان يتعجب منه . ورايت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد اخذ به شابان اقرا بقتله وشبهه واكل بعضه

» وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فينبأ هو الى جانبها اغتنت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه شيئاً . وحكى لي عدة نساء انه يتوثب عليهن لاقتصاص اولادهن ويحامين عندهم بجهدهن

» ورايت مع امرأة فطيماً لحماً فاستحسنته واوصيتها بحفظه فحكيت لي انها ينبتا تمشي على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى ادركها فزرس وطرده عنها وزعمت انه كان يهم بكل عضو يظهر منه ان يأكله وان الولد بقي مدة مريضاً لشدة تجاذبه المرأة والمفترس

» وتجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبئين في جميع اقطار البلاد وازقة الدروب كالجراد المنتشر ورجال الفقراء ونساءهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم في الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

» واكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما اظن العلة فيه الا ان النساء اقل حيلة من الرجال واضعف عن التباعد والاستتار . ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر انها اكلت جماعة فرايت امرأة قد احضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي فضربت اكثر من مائتي سوط على ان تقر فلا تحير جواباً بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فانت « اه

عود الصليبيين الى الحرب

وفي سنة ٥٩٨ هـ ارسل الملك العادل ابنه ابا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف مظفر الدين الى الرها فتمالكها ثم اضيقت اليه حران وكان الاشرف رجلاً محبوباً من الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ هـ حصات يئسه وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر له .

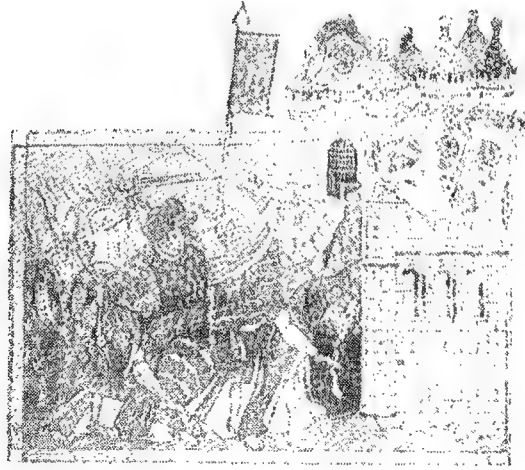
وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتصوا الفرصة لاعادة سلطتهم فاكثروا من الجند وجاهاروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم . وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيتهم الامدادات واملاك المسلمين منقسمة وكلمتهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنها لم تصل اليهم الا بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين خازنهم

فعادوا على عقابهم وقد حبط مسعاهم فتعقبهم نحواً من شهر فجاء مخبر يخبره بحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص واسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين . وهذه هي الزلزلة التي هدمت اسوار صور سنة ٦٠٠ هـ . وكانت تهدد مصر زلزلة اخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوه على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب العادل لهذين الخبرين فاسرع للملافة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن يافا ويسحب من كان في اللد والرملة من المسلمين فاجلى الصليبيون من مصر لكنهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الا ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماه والاستيلاء على ما بطريقهم اليها . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبرح مصر في جيش للمدافة عن حماه فحصلت بينه وبينهم مواقع كثيرة وبيناهم في ذلك جاء الخبر بقاوم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها البابا وحطت رحالها عند عكا وغيرها فهرع الملك العادل الى نابلس ليقم فيها حصناً فطردوه منها فرجع الى برج الصفر . فقتل الصليبيون المحاربين مع مصر حتى جاؤا على نهاية الحروب الصليبية في سوريا فحولوا اعتها الى مصر

حصار دمياط

فجاؤا اليها بحراً وحاصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ هـ وهم نحو ٧٠ ألف فارس و ٤٠٠ ألف راجل نفخوا نواجا في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقاً واقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجا منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواسلة في البحر المالح من الدخول الى ديار مصر في النيل . وكان البر الذي نزل عليه الصامبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة والبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة تمتد بين البرج والصور فحول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلين تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة اكسر ذلك الجسر فاغتم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وانزلوا اليه اقوى رجالهم واحسن عدتهم وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين . فلما رأى المسلمون ذلك تجمعوا من البرج والصور واخذوا برمي السهام والحراش والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين

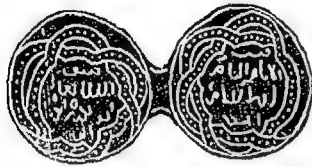
فلعبت النار به خفاف الذين فيه ثم انطفأت حالاً وتشدد الصليبيون حتى استولوا على
برج^٨ المسلمين وطعموا بالاستيلاء على دمياط



ش ٦٩ : دخول الصليبيين برج المسلمين عنوة

فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر
نفرج بن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بنجر نزول الصليبيين وأمر والي الغربية
بجمع العربان وسار هو في جمع كبير بن معه من العساكر بمنزلة العادية قرب دمياط
وامتدت عساكره إلى دمياط لتمتع الصليبيين من السور والقتال مستمر أربعة أشهر
والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء حتى تكملت عنده واشتد

خوفه من نزول الصليبيين على دمياط فرحل
من مرج الصفر إلى عالفين فزل به المرض
ومات في جمادى الآخرة فكنم الملك المعظم
عيسى موته وحمله في محفة وجعل عنده خادماً
وطبيباً راجعاً إلى جانب المحفة والشرابدار ش ٧٠ : نفوذ العادل وعليها اسم الخليفة الناصر



يصلح الشراب ويحمله إلى الخادم فيشر به ويوهم
الناس أن السلطان شر به إلى أن دخلوا به إلى
قلعة دمشق وصارت إليها الخزائن والبيوتات



فاعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان ش ٧١ : نفوذ العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق

وترى في الاشكال ٧٠ و ٧١ و ٧٢ صور



النقود التي ضربت في عهد الملك العادل بن
ايوب فالاولى والثانية عليهما اسم الملك العادل
من الجهة الواحدة والخليفة الناصر لدين الله
من الجهة الاخرى والثالثة لا يظهر عليها الا
اسم الملك العادل فقط

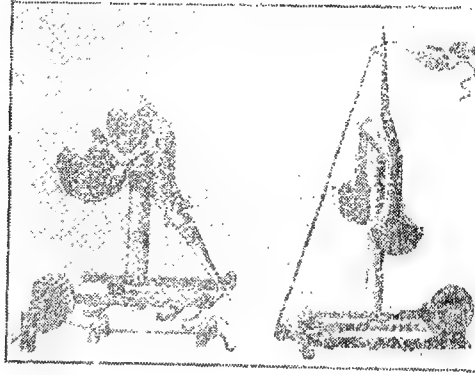
ش ٧٢ : نقود نحاسية للملك العادل

سلطنة الملك الكامل بن العادل

من سنة ٦١٥ — ٦٣٥ هـ او من ١٢١٨ — ١٢٣٨ م

وبلغ الملك الكامل موت ابيه وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون
فالخوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت
تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد . فنصب الملك الكامل
بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان
قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينيف على سبعين الف دينار
وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال
واعمال الحيلة في مكايده الاعداء فامر ان تفرق المراكب في النيل لئلا تمنع الصليبيين من
سلوكهم فيه فعمد هؤلاء الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً فخفروه
وعمقوا حفره واجروا فيه الماء الى البحر المالح واصعدوا مراكبهم فيه الى بؤرة على
ارض جزيرة دمياط مقابل المنزلة التي فيها السلطان ليقاتلوه من هناك . فلما صاروا في
البؤرة قاتلوه في الماء وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل . ولم يتغير على اهل
دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وابواب
المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر . وكانت العربان تنخطف
النصليبيين في كل ليلة حتى منعوهم من الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في
النصليبيين حتى صاروا يخطفونهم نهائراً وبأخذون الخيم بمن فيها . فكمن لهم الصليبيون
عدة كدء وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن ذلك . ثم ادرك الناس الشتاء وهاج

البحر على تخيم المسلمين واغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم والاح والافرنج في القتال حتى كادوا يملكون . كل ذلك والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ينادي باخوته مدداً ويستنجد اهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الافرنج ولا من محيب وفي اثناء ذلك ظهر في رجال الملك الكامل ثورة زعيمها عماد الدين احمد بن المشطوب احد كبراء رجاله على ان لا يقبلوا الكامل عاينهم سلطاناً بعد ابيه وكان ذلك باتفاق مع اخيه الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيرة وارجس خيفة على مركزه ولم يرَ من ينجداه فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طنناح (اشوم نطاح) فاصبح العسكر بغدير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يقفوا لاختذ شيء من خيامهم وذخائرهم واموالهم واسلحتهم



ش ٧٣ : منجنيقات لرمي الحجارة في الحرب كما ترمى القنابل بالدافع اليوم

كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ بلغهم ما كان من امر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين بغير منازع وغنموا ما في عسكر المسلمين مما تركوه من امتعتهم وغيرها خارج المدينة وكان شيئاً لا يحيط به الوصف وحاصروا دمياط واهلها يرمونهم عن اسوارها بالنبال وهم يرمون اسوارها بالحجارة الضخمة من المجانيق . فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله وهم عظيم وكاد ان يفارق البلاد لانه لم يعد يشق بنفسه ولا بمن حوله اما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها الحصار برّاً وبحراً وكانت سنة ليس اشد منها وطأة على المسلمين وقد اخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً . وهم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام تحت قيادة الملك المعظم عيسى اخي

الملك الكامل وكان قد تولى دمشق بعد أبيه العادل فلما علم بما حصل لجيوش أبيه بعد وفاته أتى في عدة من رجال الشام فاطلعه الكامل على صورة الحال سرّاً وأسرّ إليه أن راس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة إلى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج إليه فقال له «أريد أن أتحدث معك سرّاً في خلوة» وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويشق بهم وقال لهم «اتبعونا» ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعد عن المعسكر ثم قال له «يا عماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا» ثم أعطاه شيئاً من النفقة وقال لاولئك المجردين «تساموه حتى تخرجوه من الرمل» فلم يسعه إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال. ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ما جرى. ثم جهز أخاه الفائز المذكور إلى الموصل لاحتضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لآخر أجه من البلاد. فلما خرج هذان الشخصان من المعسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

وبعد يسير عاد الملك المعظم إلى دمشق لينظر في أحوال رعيته. ثم خشي من الصليبيين أن امتلكوا دمياط أن يمدوا يدهم إلى اورشليم فتقوى سلطتهم فأمر بهدم أسوارها حتى إذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار. هذا والصليبيون قد ضيقوا على دمياط ومنعوا القوت من الوصول إليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سورا. وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ويمالعونهم وقد غلت عندهم الأسعار لقلة الأقوات. والملك الكامل كان لا يزال في أشمون ينظر إلى دمياط وهي محصورة ولا يقدر أن يصل إليها. وخشي أخيراً أن يأس أهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب أحد الجندارية المدعو شمائل للدخول إلى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانقاذ. فكان يسبح في النيل إلى أن يصل إلى أهل دمياط فيوصل إليهم الاخبصار ويطمئنهم ويعود. وبقي على ذلك مدة فخطي عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنتسب خزانة شمائل بالقاهرة. وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس فهدمها المسلمون لثلاثين عاماً الصليبيون الاسكندرية من أجلها فيتخذونها حصناً لأنها كانت حصينة البناء كثيرة الأعمدة. وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال آثارها إلى هذا العهد بقرب باب القباري

فتح الصليبيين دمياط

ثم دخلت سنة ٦١٦ هـ وقد غلت الاسعار في دمياط بما يفوق الحد فباغت البيضة عدة دنائير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى اهل دمياط بحمل مختلفة مثل ان يأتوا بحمل ويشقوا جوفة ويملاوه فراخاً وفاكهة وبقلاً وغير ذلك ثم يخيطون عليه ويرمونه في النيل فيسير منحدراً مع الجرى فاذا جاء امام دمياط نزل من فيها اليه واخذوه واقتاتوا على ما في جوفه . وكان الافرنج احياناً يظفرون بهذه الحيلة فيأخذون تلك المؤن . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً . فدخلوها واحكموا السيف فيمن بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابجرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ما يلحق الاحياء بهم . وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعاً وليس من يسعى في دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

مدينة المنصورة

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل قبالة طاعنا على رأس بحر اشموه ورأس بحر دمياط لينزع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بجزراً وحيز في محلة المنزلة واقام معسكره هناك . اما الافرنج فحصبوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وبثوا رجالهم في القرى يقتلون ويهبنون وبأسروا وبعثوا جميع من اسروا من المسلمين الى عكا بجزراً . اما الملك الكامل فاخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق وصارت تدعى بعد ذلك الحين «المنصورة» اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الافرنج واخراجهم من ديار المسلمين اما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الان وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة الاف فارس . فقدم المسلمون شوانيمهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة . فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر انحاء القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان

الى القاهرة . ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحواف الشرقي فاجتمع
عالم لايقع عليه حصر . وانزل السلطان على ناحية شار مساح الف فارس في الاف من
العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على راس
بجر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر
وفي اثناء ذلك انت النجيدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك
الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقها الملك المعظم عيسى . فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم
عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الآخرة . وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش
المسلمين نحو اربعين الف فارس فخاربوا الصليبيين في البحر والبر واخذوا منهم ست
شوان واسروا منهم الفين ونيفاً . فتضعضع الافرنج وضاق بهم المقام فخاربهم الملك
السامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس
وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين
الا الشوبك والكرك لانهما اصبحتا ملكاً خاصاً له نالهما بالارث من السلطان صلاح
الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري
فأصر الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه
الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم
لهم بذلك . ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرّاً من وراء معسكر الصليبيين وتخرب سد
ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى اغرقت جميع الارضين
التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم
وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه . ولم يكن
باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون
طناسح فعبرت العساكر عليها وملك تلك الطريق فاضطرب الصليبيون وضافت
عليهم الارض

انسحاب الصليبيين من دمياط

وافق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة
والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفروا بها . فالتصل ذلك بالافرنج فزاد خوفهم
وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر
المصري جميعه ولا يطلبوا لئلا مقابلاً فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ
بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الصليبيون ملك عكا ونائب البابا رهناً واعطى

الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء . فسار الصليبيون الى دمياط وساموها الى المسامين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد اجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر . وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين . واما بلغ الصليبيون مكانهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى ابيه فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط وبخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم ثم طاد الى المنصورة وجلس في قصره فيها وبين يديه اخواه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب بلاد الشرق وغيرهما من اهله وخواصه وهم في سرور واحتفال وبين يديهم المغنون فامر الملك الاشرف جاريته فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه وجاء الى مصر ليفسد في الارض
اتى نحوهم موسى وفي يده العصا فاغرقهم في اليم بعضاً على بعض
فطرب الاشرف وقال لها بالله كرري . فشقت ذلك على الملك الكامل واسكنها
وقال لجاريته غني انت . فاخذت العود وغنت :

ايا اهل دين الكفر قوموا انتظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددنا
اعبّاد عيسى ابن عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمداً
وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة اولها (ابي الوجد الان ايت
مسهداً) فاعجب ذلك الملك الكامل وامر لكل من الجاريتين بجائزة
ثم نهض القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة . وكان من جملة
الجلساء وقال :

هنيئاً فان السعد جاء مخذلاً	وقد انجز الرحمن بالنصر موعداً
حبانا الله الخلق فتحاً لنا بدا	ميناً وانعاماً وعزاً مؤبداً
تهلل وجه الارض بعد قطوبه	واصبح وجه الشوك بالظلم اسوداً
ولما طغى البحر الخضم باهله الط	ساعة واضحى بالمرآكب مزبداً
اقام لهذا الدين من سل عزمه	صقيلاً كما سل الحسام المهنداً
فلم ينج الاكل شلو مجدل	ثوى منهم او من تراه مقيداً
ونادى لسان الكون في الارض رافعاً	عقيرته في الخفافين ومنشداً
اعبّاد عيسى ان عيسى وحزبه	وموسى جميعاً ينصران محمداً

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من احسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد

السلطان الى مقر ملكه في القاهرة . وانتقل من دارالوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن في قلعة الجبل واطلق جميع من كان في مصر من الاسرى . وكان منهم من له من ايام السلطان صلاح الدين . وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان اقاموا عنها ثلاث سنين واربعة اشهر و١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر واربعة وعشرون يوماً

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر اخرج زعماء الثورة منها وطهر البلاد منهم حتى لم يعد لديه من ينازعه في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتصباً فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنه من الاغتيال باخويه الذين لولاهما لم تقم له قائمة في مصر فاغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال باخيه الملك المعظم واستخراج دمشق من يده . فقدم هذا الامبراطور الى عكا فالتص به خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنعيب ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود مكانه . فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على الشوبك وبيت المقدس وغيرهما مما هو من مملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمه الاشرف وكان متسلطاً على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءه حالاً في جيش كبير ولكن بدلاً من ان يدافع عنه ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

اما فريدريك فسار توطاً من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح اولاً صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تخصماً انتهى بموت الملك الاشرف . تغللا الجؤ للملك الكامل واصبح الوارث لـكلا الملكين فأتى سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥هـ ودفن في قلعتها . وكان محباً للعظمة والافتخار متمسكاً بالسنة النبوية محباً للعلماء حسن الاعتقاد معاشراً لارباب الفضائل حازماً في اموره لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يبيت عنده كل

ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم كواحد منهم . تولى سلطنة مصر وخفف ضرائبها نحو الثلث واقام فيها الزينة وترى في الشككين ٧٤ و ٧٥ صور النقود

التي ضربت في ايام الملك الكامل بن العادل على احد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى



ش ٧٤ : نقود الملك الكامل
وعليها اسم المستنصر



ش ٧٥ : نقود الملك الكامل

الآخر اسم الامام المستنصر بالله الخليفة السادس
والثلاثين من بني العباس . فالاولى نقود ذهبية
ضربت في القاهرة سنة ٦٢٧ هـ والثانية نحاسية
ضربت في حلب

سلطنة الملك العادل بن الكامل

من سنة ٦٣٥ - ٦٣٧ هـ او من ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م

ولما علم المصريون ب وفاة الملك الكامل بايعوا ابنه سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك
العادل (الثاني) وكان قد استخلفه ابوه على مصر عند ما سار الى سوريا . واقاموا
الامير يونس الملقب بالملك الجواد اميراً على سوريا تابعاً لمملكة مصر الا ان امارته هذه
لم تطل لانه اتفق في السنة التالية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر
وكان اميراً على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات . فأتى الملك الصالح الى سوريا
وسار الامير يونس الى ما بين النهرين . وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة
الاقتراب من مصر والسعي في اختلاس الملك من اخيه فتنبأ الملك العادل بذلك
واوجس خيفة فسار بجيوشه الى بلبيس ليوقف سير اخيه اذا حاول الهجاء الى مصر . فلما
وصل بلبيس نزل فيها وما اصبغ الا وهو في قبضة امرائه مقيداً وذلك يوم الجمعة في ٨
ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ وفي الحال خلعوه واستقدموا اخاه الملك الصالح وبايعوه على
مصر فدخل القاهرة في موكب حافل واصوات الترحاب والدعاء مألثة الجو فانتهت
سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها سنتين



سلطنة الملك الصالح بن الكامل

من سنة ٦٣٧—٦٤٧ هـ أو من ١٢٤٠—١٢٤٩ م

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمه فيها فامر السنة التالية بالقبض على الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع اخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر امانتهم نحوه . ثم عزل الملك الجواد يونس من امارته وحظر عليه القدوم الى مصر فاغتاز لهذه المعاملة فالتجأ الى الصليبيين في عكا فقبلوه من اجل ثروته راجين التقرب بواسطته من اسماعيل امير دمشق . وقد كانت تلك فرصة ثمينة لهم فتحالفوا مع امير دمشق والملك المنصور ابراهيم امير حمص وامير الكرك وتعهدوا لهم بمحاربة مصر وقهرها على ان يأخذوا في مقابل ذلك مدن الصعيد والشقيف وطبرية وعسقلان واورشليم . ولما تم التحالف المذكور احتل الصليبيون تلك الاماكن واخذوا في ترميم حصون طبرية وعسقلان ثم اخذوا يهتقون بمحاربة مصر وفي خلال ذلك نشأ في شرقي سوريا مخاوف كثيرة سببها ان قبيلة الخوارزميين لما طردهم جنكيز خان من شرقي اسيا في اثناء فتوحه هناك جاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلاً عقدوا معهم صلحاً وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وامراء سوريا الذين على دعوتهم . فتجند الخوارزميون واخترقوا سوريا الى ان بلغوا غزة فحاربوا الصليبيين عند اسوارها والمجدهم سلطان مصر . من الجهة الثانية فانهم الصليبيون فتبعوهم حتى استولوا على غزة وبيت المقدس باسم الملك الصالح . فارسل هذا الى مصر شيئاً كثيراً من الاسرى ورؤوس القتلى . ثم جمع مدداً وسار الى اسماعيل امير دمشق والى امير حمص وحاصرها وحارب محاربات اخرى شغلته من سنة ٦٤٥ الى ٦٤٧ هـ وشفقت عن خضوع دمشق . اما حمص فكانت لا تزال تدافع الى ذلك العهد فضجر من طول هذه المحاربات فسار بنفسه لقيادة جندها ففاجأه مرض ثقيل وهو تورم في مابضه تكون منه ناصور ففتح وعسر بروءه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق . فجاءه منيئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر واخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت اليهم النجندات من اخوانهم في اوربا وكانت هذه التجريدة الصليبية السابعة على الاسلام . وكاني بهولاء الافرنج قد خجلوا لكثرة انكساراتهم امام جيش المسلمين بعد ان جردوا اليهم اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً فافروا المرة السابعة على تجريد قوة عظيمة يراسها ملك

فرنسا لويس التاسع وهي مؤلفة من خمسين ألف مقاتل ومعهم من العدة والسلاح شيء كثير وعدد عديد من المراكب المذخرة وضباطها انتخبوهم من اشد رجال اوروبا فلما علم الملك الصالح بقدوم الصليبيين وهو في ما تقدم من المرض لم يسمعه الا الخروج من دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طناح في اول سنة ٦٤٧هـ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاساحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجري على دمياط ما جرى في ايام ابيه . واعدت اسطولا من دار الصناعة بصرو جعل فيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الى جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد بقيادة حامية هذه المدينة الى الامير نحر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ففي صباح يوم الجمعة في ٢٠ صفر من تلك السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً يقول فيه :

« أما بعد فانه لم يخف عليك اني امين الامة العيسوية كما انه لا يخفى عليّ انك امين الامة الحمدية . وغير خاف عليك ان عندنا اهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وانا قد ابدت لك ما فيه الكفاية وبذلك لا نصبح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وادخلت على الاقساء والرهبات وحملت قدامي الشمع طاعة للصليبان لكنت واصلاً اليك وقائلك في اعز البقاع اليك . فاما ان تكون البلاد لي فياهدية حصلت في يدي واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة الي . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعدد هم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء »

فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب . « بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه اجمعين . اما بعد فانه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد ابطالك فتحزن ارباب السيوف . وما قتل منا فرد الا جددنا ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولورات عينك ايها المغرور حصد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منك الحصون والسواحل وتخربنا ديار الأواخر منكم والاولائل لكان لك ان تعض على اناملك بالندم ولا بد ان تزل بك القدم في يوم اوله لنا وآخره عليك فهناك تسمي الظنون وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا

فتكون فيه على اول سورة النحل اتي امر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة (ص) ولتعلمن نبأ بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبعيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام »

وفي اليوم التالي حصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين وفي المساء فرّ الامير نحر الدين لغير داع فتبعته بنو كنانة وخرجوا من المدينة ف تبعهم الاهلون في الليل على وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فخلت المدينة للصليبيين فدخلوها بآمان في ٢٢ صفر واستولوا على جميع ما فيها من المؤن والزخائر والاسلحة وعدة الحرب فخرس سلطان مصر بذلك خسارة لاتعوض . فاستشاط الملك الصالح غيظاً وجمع اليه بني كنانة وعنفهم لانهم زامهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان راينا الامير نحر الدين فارّاً ومن ورائه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

وفي ٢٤ صفر عسكر في المنصورة وحصنها الا انه لم يعيش بعد ذلك كثيراً فتوفاه الله في ١٤ شعبان وسنه اربعون سنة . وكان رجلاً ميبياً قليل التكلم يهابه من يجلس في مجلسه . وكان عنده عدد من المماليك لم يسبقه اليه احد قبله ولم يوص قبل موته بمن يأخذ السلطان بعده ولم يكن له من البنين الا غياث الدين طوران شاه وكان قد تركه في سوريا وكان من جملة جوارى الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدر مربية غياث الدين فتواطأت مع الامير نحر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها . ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام في اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفي الملك الصالح كتمت امر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة د ان السلطان يأمركم ان تباعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الامير نحر الدين انا بك لادارة الاحكام فبايع جميع الامراء . ثم ارسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد واعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مخنومة بتحم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حياً لكنهم عند ما علموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الرب

اما الصليبيون فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا في اثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي

تحت قيادة الامير فخر الدين غارب ببسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقاً اليها غير النيل . فأتى اليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة . وكان الامير فخر الدين في الحمام فأتته الاخبار بهجوم الصليبيين على المحلة فبغت ونادى في رجاله وخرج للدفاع فادركه بعضهم فقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا بماليتك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانتهت الواقعة وقد أعيا الفريقين التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادماً من سوريا فاشتد عزم المسلمين به وهاجموا النصارى في البر والبحر فاسروا منهم ٣٢ مراكباً . فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم طلبوا المصالحة على ان ياخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط . فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفذ زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط . وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ عزموا على التمهق فتمعق بهم المصريون حتى ادركوهم غربي فرسكور فاستلحموهم وأثخنوا في قتلهم . ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ ألفاً واسروا الملك لويس التاسع وكثيراً من ضباطه وكبار جيشه وكانوا قبل ان قبض عليهم قد فروا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

سلطنة الملك المعظم بن الصالح

من سنة ٦٤٧ — ٦٤٨ هـ او من ١٢٤٩ — ١٢٥٠ م

فلما تأكد الفوز للمصريين شهروا وفاة الملك الصالح ومبايعة الملك المعظم طوران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالاً لمبايعته وانتصاره معاً . ثم عزل كل من كان في يده ازمة الحكومة من المصريين وولى مكانهم رجالاً ممن جاؤا معه من بين النهرين لانه كان اشد ثقة فيهم فشغب الناس وتحدثوا في ذلك كثيراً . وفي فاية محرم ثار عليه المماليك وهموا بقتله وفي جملتهم مملوك يدعى بيرس . ففر الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد اقامه للحصار في فرسكور . فاحرقوا البرج فاتى بنفسه الى النيل لعله يجد قارباً يركبه فينجو بحياته . فادركه المماليك وقطعوه ارباً ارباً

وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من ملك من الاسرة الايوبية وبموته انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

دولة المماليك الاولى

من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ او من ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

منشأ المماليك ومبدأ امرهم في السلطنة

قد تقدم الكلام عن اصل استخدام المماليك الاتراك في الدولة في ايام المعتمد عند كلامنا عن مبدا الدولة الطولونية . اما السلاطين المماليك فلم يأتوا في منشئهم وذلك انهم من قفقاق من شمالي اسيا . وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عليها ولاة من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا . فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيز خان اخرجوا منها سكان الولايات القرونية والقوقاسية فتشتت قبائلهم وتفرقوا في القارة . فالتحوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وحطوا رحلهم هناك . اما ما بقي من تلك القبائل النائية فلم يجدوا لهم مقراً يقيمون فيه . فجعلوا يطوفون البلاد باولادهم ونسائهم لا يستقرون على حال وكانت تجارة الرقيق في ابائها فاعنت تجارتها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من ابناء اولئك المساكين اجملهم صورة واقواهم بنية وانورهم عقلاً ويبيعونهم بيع السلع . اما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا يندمجونهم . فاكثر امراء سوريا وملوكها من اقتناء اولئك الارقاء البيض ودعاهم بالمماليك

فالملك الصالح من سلاطين الدولة الايوبية كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولته وخاصة بطانته والمحيطين بدهليزه . ودعاهم بالحلقة اشارة الى ان لا يبرح محاطاً بهم كيفما توجه كما فعل الخليفة المعتمد العباسي بالاستكثار من المماليك الاتراك

وكانت ممالك الملك الصالح صفوفاً يميز كل منهم بعلامات خصوصية يجعلونها على ثيابهم واسلحتهم . فكانت علامة بعضهم الورد وعلامة البعض اشكال الطيور . وكانوا

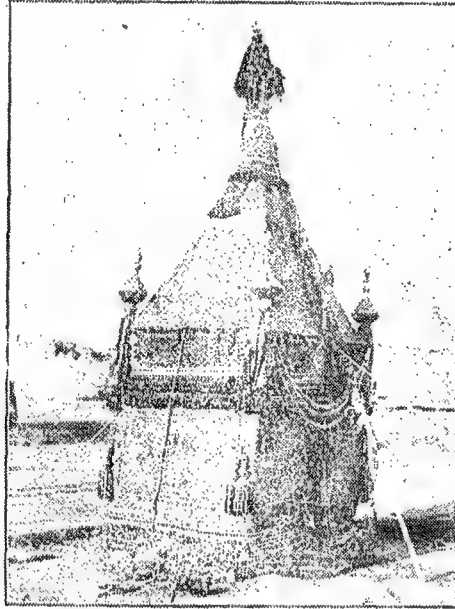
يتنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فتألف منهم جيش مخصوص تسبب عنه قلاقل في سائر المملكة المصرية . وقد كانوا بالواقع ميالين الى الاستقلال بالحكم لا يمكنهم الرضوخ لسلطان من السلاطين باختيارهم لانهم كانوا كثيري العدد والعُدد . وكانت اهم المناصب في ايديهم وامنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقراً لهم حتى اذا ضاقت ذرعاً عن الاحاطة بهم ابتنوا بامر الملك الصالح قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس . وقد زادها مركزها الطبيعي مناعة وجمالاً لان النيل يتفرع هناك الى فرعين . وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر اعظم اتساعه فسمي هؤلاء بالمهاليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزاً لها من دولة المهاليك الشراكية وكانت سطوة المهاليك البحرية تنتشر يوماً فيوماً الى انهم طمعوا بخلع السلطان وتولي الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم آخر سلاطين بني ابوب وكان على ما كان عليه من الاستبداد انفت نفوسهم من اعماله فسعوا بما سعوا الى ان قتلوه على ما تقدم . وكان الملك لويس التاسع والذين معه لا يزالون اسرى في البرج الخشبي الذي التجأ اليه الملك المعظم قبل قتله . ولما اجبت النار بالبرج فر الملك لويس ومن معه ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم واقبلوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم . ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاعي حاملاً قلب الملك المعظم واعطاه الملك لويس وطاب اليه ان يكافئه على قتل عدوه . وقال بعض المؤرخين ولا اراه في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طابوا الى لويس المذكور ان يتولى زمام الاحكام مكانه فرفض

سلطنة شجرة الدر

سنة ٦٤٨ هـ او ١٢٥٠ م

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها . وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامن شجرة الدر بعد ان رأت ما حل بالملك المعظم وتبصرت في امر من يجب ان يخلفه فرأت حزب المهاليك اعز جانباً من الجميع . ونظراً لكونها من ابناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل في الاسلام

ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع . وكيفية ذلك انها تواطأت مع ابيك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذاً وكان بينهما علاقات ودية منذ ايام الملك الصالح . ويقال انه من قتلة الملك المعظم فتمكن بذلك التواطؤ من مبايعة جميع الاعيان لها ولقبت بعصمة الدين ام خليل في ١٠ صفر . وكانت توقع بما مشاله « والدة خليل » ونقشت اسمها على النقود بما هو « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة امير المؤمنين » وخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة وهذه صورة الخطبة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح



ش ٧٦ : المحل المصري

نجم الدين ايوب » وعينت عز الدين اتابكاً عندها لتدير المملكة . ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينه وتمنعهم المناصب والرتب وتخفف الضرائب . الا ان جميع هذه المساعي لم تأت بها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها . فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في امر هذه الملكة . فكتب اليهم يقول : « من بغداد لامراء مصر . اعلمونا ان كان ما بقي عندكم

في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « لا افلح قوم ولوا امرهم امراة » فاستمسك بممالك مصر بهذه الفتوى ونار رفاقهم في دمشق وخلعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول وقتلوا كل من في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر . ومثل ذلك فعل اهل بعلبك وشميس وعجلون . فنشأ بسبب ذلك خصام بين ممالك سوريا وممالك مصر آل الى وقائع حربية . فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقه والجأ الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستفالت . وهي اول من ارسل الحمل من مصر الى مكة ولا يزال ذلك جارياً الى الآن

سلطنة ايبك الجاشنكير والاشرف بن يوسف

من سنة ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ او من ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م

وفي سنة ٦٤٨ هـ بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالح وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبه الى حزبه واحتفلوا بتوليته السلطنة على جاري عادتهم في الاحتفالات الكبرى فركب دواب شوارع وحملت على راسه القبة والطير ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب وجلس على سرير الملك وجميع الامراء قبلوا الارض بين يديه . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك والصالحين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ . ففاز الصالحون وطلبوا ان يكون السلطان عليهم من سلالة الايوبيين وقالوا « لا بد لنا من واحد من ذرية بني ايوب نسلطه علينا » وكان المنكلم يومئذ من الامراء الامير بلباي الرشيد والامير فارس الدين اقطاعي والامير بيبرس ركن الدين البندقداري والامير سنقر الرومي وغيرهم جماعة من المماليك البحرية فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز ايبك بان يحضروا بشخص من بني ايوب يقال له مظفر الدين يوسف من اولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق

فاعتزل ايبك السلطنة وبايع مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن وعمره نحو عشرين سنة فبايعه في ٥ جمادى الاولى وبايعه الناس ولقبوه بالملك الاشرف وتعين

عز الدين اتابكاً له غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشراف الاسماء
بلا رسم ومن الغريب تألف هذه السلطة المزدوجة من احد سلالة الاسرة الايوبية
واحد ممالكها . واغرب من ذلك ان يُخطب لها معاً

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ
بشار الملك المعظم فدعى اليه اقرباء امراء الاسرة الايوبية للتعاقد على ذلك وتأكيده
لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا على ان يعيده في
مقابلة ذلك بيت المقدس . فارسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهباً لعقد المعاهدة وانفذ
الى المماليك في مصر مندوباً يطلب اليهم التفاوض عن نكت المعاهدة التي عقدوها مع
الصليبيين وكان من مصلحتهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطالبيه
واطلقوا عدداً كبيراً من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وارققوهم بمندوبين
لتجديد المعاهدة . فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الثلاثة الاتي ذكرها وهي :
اولاً ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانياً ارجاع جميع الاولاد الذين كانوا قد اجبروا على الاسلام
ثالثاً التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة
المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوه فوقها فيلاً جليلاً وكان هذا اول فيل ارسل
الى فرنسا ووعدوه ان يعيدوا اليه بيت المقدس اذا تغلبوا على سلطان دمشق . فاتصل
امر تلك الحفارات بسلطان دمشق فانفذ عشرين الف مقاتل تحرك دون اتحاد الجيشين
فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاي
فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا . ثم تشدد السوريون ومادوا بمدد كبير تحت
قيادة شمس الدين لولو صاحب دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسه فالتقوا بالمماليك تحت
قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسية وتقاتلا
فانكسر المصريون اولا فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهزامهما نحو
سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجاله فقتلاه
وشتت ارجاله فاشتد ازرها فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرذمة
قائلة من الجند . اما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضطر
السلطان الى الفرار بنفسه فتم فتنعاه فلم يدركه فعادا الى مصر فرايا الجيوش السورية قد
دخلت القاهرة وخاف اهلها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا

ان الفقهاء لم يوافقوا على المبايعة شخصياً على انهم لم ينجحوا من انتقام ابيك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وابطلوا مبايعة ناصر الدين . اما هذا فلما رأى امر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه استئناف الحرب فصالح المصريين على ان يتخلى لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس وقد ربح من الجهة الثانية ما كان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين

خراب دمياط

ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من مسير الافرنج اليها مرة اخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ ومحيت اثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابنتها بعض الفقراء للسكن في قبتها ودعوا ذلك المكان المنشية . اما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتنيت على انقاض تلك فبلغت جمالاً فائقاً وقد ساعدها على ذلك حسن مركزها الطبيعي واهميتها للتجارة وقد بالغ المقريري في وصفها لانها كانت في ايامه ازهى واعمر مما هي الان فنظم في مدحها قصيدة اقتطفنا منها هذه الايات

سقى عهد دمياط وحياء من عهد	فقد زادني ذكراً وجداً على وجد
وبشنيها الريان يحكي متجاً	تبدل من وصل الاحبة بالصد
فقام على رجليه في الدمع غارقاً	يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الاقدام تحسب انه	لطول انتظار من حبيب على وعد
كان التقاء النيل بالبحر اذ غدا	مليكان سارا في الحجاقل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا	ولا طعن الا بالثقة الملد

وعظم الفارس اقضي في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقيه احزابه بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال جبل قربها بالعائلة الملوكية فاوجس ابيك شراً من نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى في التخلص منه وكان الفارس زعيماً لحزب من المماليك الصالحين وكانوا يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشراف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار بعد ذلك ملكاً . اما الفارس اقضي فقتله ابيك وهو داخل بسراي القاعة ثم خشي الوقوع في سراحه فامر باقوال القلعة وابواب المدينة ولبت يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى جاء الامراء الصالحون تحت رئاسة بيبرس وتجهروا على ابواب القلعة وغلجوا الفارس

اقطاعي وهم يحسبونه مأسوراً فرمى اليهم براسه من على السور فلما علموا بقتله ارتفعت
قلوبهم فعمدوا الى الفرار نحو باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم
شرذمة قبض عليهم واودعوا السجن
فلما تخلص الملك المعز ابيك من طائفة الصالحيين قبض على الملك الاشرف والقاء
في سجن مظلم مات فيه تعساً بعد ان حكم سنة وشهراً



ش ٧٧ : نقود الملك الاشرف

وترى في الشكل السابع والسبعين صورة
النقود التي ضربت على عهد الملك الاشرف بن
يوسف وعليها اسمه واسم الامام المستعصم بالله
العباسي . والاشرف آخر من ملك مصر من
الايوبيين . وحكم بعض افراد هذه العائلة في

دمشق وحلب وحصص وميافرقين . الا ان هؤلاء لم تمض عليهم عشرين سنين حتى انقرضوا
ولم يبق منهم الا فرع واحد في حماه بقي حاكماً فيها قرناً بعد انقراض جميع الدولة
وكانت سلطته ضعيفة لانحصارها في تلك الامارة الصغيرة وقد جاء من نسله ابو الفدا
المؤرخ المشهور سنة ٧١٨ هـ . وقد نسي كثيرون منا ذكر الدولة الايوبية وفتوحاتها
العظيمة ولكننا لم ننس ابا الفدا لانه ترك لنا ذكر لا يمحى بتأليفه المشهور

واستوزر ابيك شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد
الفائزي احد كتاب الاقباط وكان قد اسلم من ايام الملك الكامل وترقى في الكتابة وكان
طبيباً للسلطان الايوبي الخامس مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار
وذوي اليسار وارباب العقاقير اموالاً ورتب مكوساً وضمانات سموها حقوقاً ومعاملات
ولما استتب المقام لابيک وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانوا ينازعونه
الملك حسب الجلو قد خلا له وما دري ان شجرة الدر لاتزال واقفة له بالمرصاد بعد ان
صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها مع
علمه باستقلالها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقيد والسلطان في يده وهي
تمن عليه بانها سبب وصوله الى ذلك المنصب فجعل يبحث عن طريقة يتقننه من هذه
القيود مع علمه ان مكيدة النساء اشد وطأة من ملاقة الرجال . فادعى انها عقيمة لا يزوج
منها نسلأ فاقنتى عليها سراري اخريات فولدت له احداً من ولدأ دطاء نور الدين علي ثم
بلغها انه ساع في التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد امسك عن زيارتها
فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك نخافت ان تحل محلها

من العظمة فاقرت على الكيد به

وكانت شجرة الدر صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس سكرانة من خمرة العجب
فلما ضاقت ايبك نزل من القلعة وهو غضبان فبعثت تطلق به حتى عاد الى القلعة
فلاقته وقامت اليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضرعت له السوء
فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « اذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما
طلع الى القلعة اصطالح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة
الدر هناك دخل عليه اولئك الخدم وبايديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر
واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فاغلظ عليها بعض الخدم في القول وقال لها « ان
تركناه فلا يبقى عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقاً وقيل ربطوا محاشمه بوتر
وجذبوه حتى مات . فلما حلوه واخرجوه من الحمام اشاعوا انه قد اغمى عليه في
الحمام فوضعه على فراش الحمام واشاعت انه مات مصروعاً . وكان ايبك ظلوماً غشوماً
سفكاً للدماء

ولم تجسر شجرة الدر على تعاطي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فجاءت بخاتم
الملك الى اميرين من كبار الامراء وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان يستلما زمام
الاحكام قابيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر في القاهرة الى
الصباح التالي . فلما علم اصحابه من المماليك بما حل به اضرعوا الانتقام وكان سن ابنه
نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور
وكانت مدة ايبك في الاحكام عشرين سنوات واحد عشر شهراً شاد في خلالها بنايات
عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر
القديمة وربط لها دخلاً مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك
بقلعة الجبل

سلطنة نور الدين علي بن ايبك

من سنة ٦٥٥ — ٦٥٧ هـ او من ١٢٥٧ — ١٢٥٩ م

فالملك المنصور حالما بويغ قبض على قاتلة ابيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها
ضرباً بالقباقيب على راسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فاكلت الكلاب نصفها

ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة
فانتهت حياة هذين الخادعين شجرة الدر وايبك كما رايت فجوزي كل منهما بما
فعل لانهما قتلا الملك المعظم - اما نور الدين علي فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناصرة
وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره

وكان نور الدين قد استقر بالامير سيف الدين قطز المعزي نائب السلطنة بمصر
واتابك العساكر. وكان قطز شديد البأس صعب الخلق فقبض على الوزير شرف الدين
هبة الله وصادره واخذ جميع امواله ثم صلبه على باب القلعة وخلع على القاضي زين
الدين يعقوب بن الزبير واستقر به وزيراً عوضاً عن هبة الله
وفي ايام هذا السلطان بمصر هجم هولاكو التتري على مدينة بغداد وقتل الخليفة
المستعصم بالله وخرّب بغداد. ووصل الخبر الى مصر انه حامل على بلاد الشام ومصر
فخافوا وعقد قطز مجلساً من العلماء والقواد اقروا فيه ان الحالة تقتضي ان يتولى
السلطنة رجل حازم. فانزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ بعد ان حكم سنتين
وبايعوا سيف الدين قطز وكان نور الدين طائش العقل يلعب بالحمام مع الغلمان

سلطنة المظفر سيف الدين قطز

من ٦٥٧ - ٦٥٨ هـ او من ١٢٥٩ - ١٢٦٠

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود
شاه ابن اخي ملك خراسان فتح التتر بلاده فتشتت اسرته. ولما تولى سلطنة مصر لقب
بالمملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وامر بقتله فحاول وصيه
شرف الدين المدافة عنه فصلبه على باب القلعة

ثم لاح له ان دمياط بعد ان دكت اسوارها لم يبق ما يعيق مراكب العدو عن
المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فوضوا وقطعوا
كثيراً من الحجارة والقواها فيه حتى ضاق وتعدّر سير المراكب منه الى دمياط وهو على
ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فتقل البضائع منها الى
الجرود والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل او رمل متجمع هناك

محاربة التتر

وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تترى ناقلاً منشوراً من هولاكو ملك المغول حفيد جنكيزخان وكان التتر قد انتشروا في جميع اسيا الشمالية الشرقية . وكان هولاكو قد غزا العراقيين بجيش عظيم واستولى على مدينتي الموصل وحلب وقتل الخليفة المستعصم بالله كما تقدم . ونزل هولاكو على سوريا ففتح دمشق والسواحل البحرية حتى قصد مصر فبعث اليها منشوراً مضمونه : من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الاعظم ونعت فيه نفسه بالفاظ معظمة وذكر في الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على اهل البلاد منه ولا سيما ما فعله في بغداد وما جرى على اهلها منه الى ان قال « يا اهل مصر انتم قوم ضعاف فصوروا دماءكم مني ولا تقاتلونني ابدأ فتقدموا »

فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوح هذا التترى وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة . غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر وانفة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه قبائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشه نحواً من ستماية الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصقيع الاملاك وزكاتها واحداث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦٠٠٠ دينار سنوياً . ثم سار من القاهرة للملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ هـ وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالاً ليطالب بحقوق الوراثه . فعاد تاركاً في سوريا نحواً من عشرة الاف من نخبة فرسانه تحت قيادة نسييه ونائبه كتبغا لمحاربة قطز والتقىا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان وحصلت بينهما واقعة كبيرة شفت عن هلاك كتبغا وكل رجاله والقبض على ابنه . وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على ائمن ما نهبه هولاكو من اغنى المدن في اثناء فتوحه . فماد الملك المظفر الى القاهرة ظافراً ولم تتم سعادته لان المنية كانت في انتظاره على الطريق فقتله بعض رجاله الذين كانوا يترقبون فرصة لقتله فتمكنوا من ذلك يوم السبت في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ بعد ان حكم ١١ شهراً و١٣ يوماً

وتفصيل ذلك انه بينما كان عائداً بجيشه الى القاهرة مرّ من امامه ارناب بري وكان مولماً بالصيد فسار على اثره في عرض الصحراء حتى امعن فيها ثم عاد وحده ولا صيد معه فتقدم للملاقاة احد امرائه المدعو ركن الدين يبرس البندقداري فلما دنا منه هم

ليده كانه يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديه وطعنه بالآخرى في قلبه فسقط صريعاً
يخبط الارض . فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معه على هذه الفعلة فرفعوا جثة
سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خلف نخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموسى لحام
فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد . وكان الامتابك اذ ذاك في الصالحية مع
السواد الاعظم من الجيش فسار اليه قتلة قطوز واخبروه بما فعلوا فقال لهم « من
منكم ضربه الضربة الاولى » فاجاب بيبرس « انا هو » فقال له « فاحكم مكانه »
فبويع بيبرس للحال ولقب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابدله بالملك
الظاهر وازاد اليه ابا الفتوح وكان يلقب ايضاً بالعلائي وبالبندقداري نسبة الى سيده
الذي كان يدعى علاء الدين بندقدار

سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري

من سنة ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ او من ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م

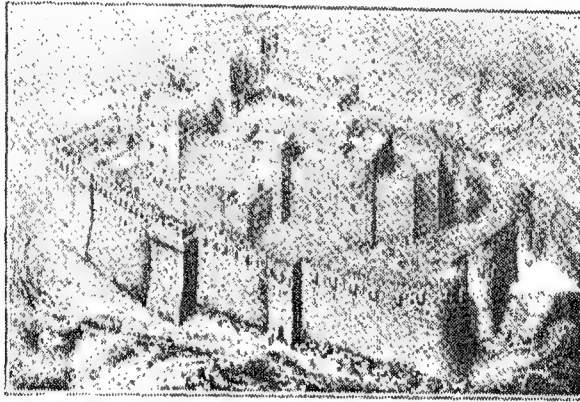
ولما تمَّ لبيبرس امر السلطنة سار الى القاهرة واستوزر بهاء الدين بن حنا واتخذ
بلباي (بيلي بك) الخازن دارو هو من اعزاصدقائه بل هو صنيعته وجعله نائب السلطنة وصار
صاحب الحل والعقد فيها . واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمنهم وضمهم اليه واطلق
من في السجون جميعاً بغير استثناء واكثر من العطايا لرجاله وابطل كثيراً من
الضرائب التي كان قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقويتها واخذ زكاة ثمنها في كل
سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك . واعلن امره هذا على اسان الخطباء في المنابر
على انه مع ذلك لم ينل رضا كل الرعية . فاهل الشام شقوا عصا الطاعة وابعوا
الامير سنجر صاحب حلب ولقبوه بالملك المجاهد وعضدهم على ذلك التتر اصحاب
هولاكو . فسار بيبرس حالاً الى دمشق لاجداد الثورة فخارب التتر وتغلب عليهم في ٣
وقائع متوالية . فمقط الدمشقيون من المساعدة فسلموا المدينة فدخلها وانتقم منها شر
الانتقام وما زال حتى اخضع بلاد الشام . ولما عاد الى القاهرة اخذ في اصلاح الداخلية
الحلفاء العباسيون بمصر

وفي سنة ٦٥٩ هـ قدم القاهرة رجل من بغداد قال انه من ذرية بني العباس واسمه
الامام احمد بن الخليفة الظاهر بامر الله بن الناصر بن المستنصر . فلما بلغ الملك الظاهر
قدومه خرج الى لقاءه . فلما وصل الى المطرية تلاقي هناك هو والامام احمد المذكور

وكان الامام احمد هذا اسمر اللون وامه ام ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ونزل الامام احمد عن فرسه ايضاً وتعانقا ثم ركبا ومرا في القاهرة ودخلا من باب النصر فزينت له القاهرة . وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القاعة طلع الامام احمد مع السلطان الى القلعة فانزله السلطان في قاعة الاعمدة فاقام بها اياماً . ثم ان الملك الظاهر اراد ان يثبت نسب الامام احمد بانه من ذرية بني العباس لان الخلافة كانت خالية من حين قتل الخليفة المستعصم فعقد مجلساً من القضاة والعلماء والمشائخ واثبتوا نسبه فاقامه خايضة في القاهرة ولقبه بالمستعصر بالله . فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين وقد ذهب نفوذهم الا من الوجه الديني وهو الذي كان الظاهر في حاجة اليه لتأييد سلطانه . فلما بويغ المستعصر ثبت الملك الظاهر في منصبه . ووافق نزول العباسيين في القاهرة فحط عم سائر القطر فتشام الناس بحلولهم . أما بيبرس فلم يأل جهداً في استجلاب الاقوات من جهات سوريا وغيرها وتفريقها في الناس فانفذ بلاده من ضيق عظيم

ثم اراد بيبرس ان يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستعصر بالله جنداً كبيراً لخراج التتر منها وتسليمها للخليفة المستعصر فلما قام التتر في الطريق حاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله . ثم الجى بيبرس الى تجريدة أخرى انتقاماً من فتح الدين رئيس قلعة الكرك . وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليه سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند فتح الدين وقاية لها مما كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ففكك بها بغير وجه الحق . فاتصل ذلك ببيبرس وكان قد تولى امور مصر فتأرفيه حب الانتقام . فجرد الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين . ثم تمكن بيبرس من القبض على فتح الدين احتيالا وسامه الى امرأته فقتلته على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر . فامست الكرك بغير رئيس . فسلمت وصارت جزءاً من مملكة مصر

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمناهضة الصليبيين وكانوا لا يزالون حاكمين في اماكن كثيرة من فلسطين فدارت الحرب بينهما سجالاتاً مدة سنتين (سنة ٦٦٣ و ٦٦٤) وانتهت باستيلاء بيبرس على قيصرية . وهو محاصر عكا الجى الى المسير لمحاربة التتر وكانوا قد استولوا على دمشق بمساعدة اهل ارمينيا وهددوا



ش ٧٨ : قلعة الكرك لما فتحها بيبرس

سائر سوريا . فأنفل حصار عكا وسار فلما وصل الى دمشق لم يجد عدوً الا ان هولاء كانوا قد ماتوا وتشنت جيوشه فسار بيبرس الى ارمينيا وكان عليها ملك مسيحي يقال له هينون فاستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها وتابع فتوحه الى الاناضول فهاجمه ريك خان بن هولاء وولي عهده فاعاده على اعقابها فرجع الى سوريا وفتح صفد وذبح اهلها . ثم رجع الى عاصمته بعد ان فتح ايلة على البحر الاحمر

الآداب العمومية

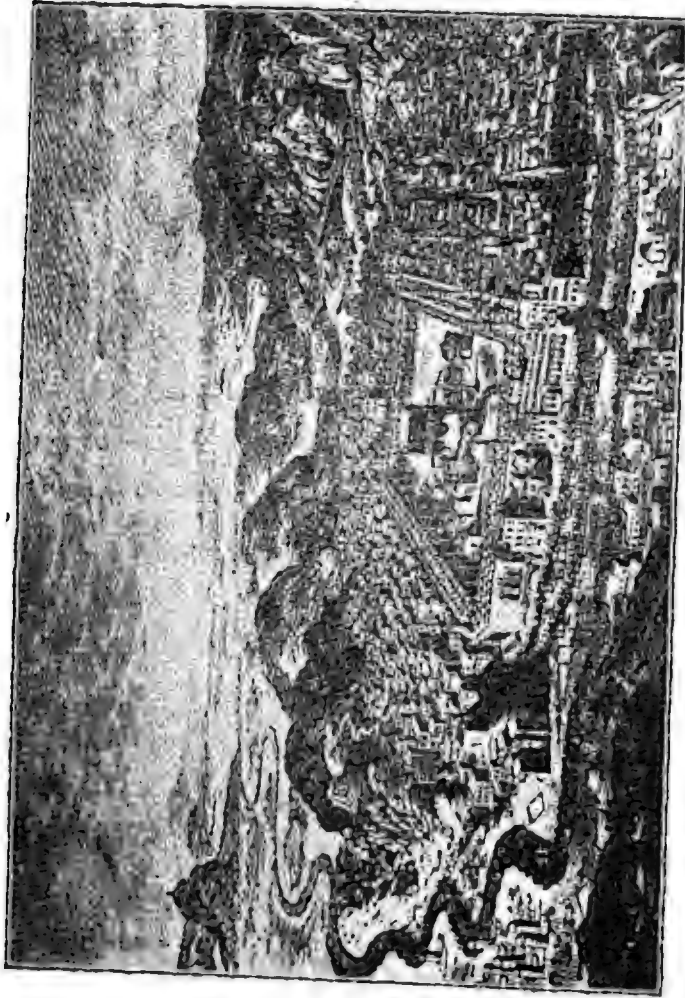
وقضى بيبرس سنة ٦٦٥ هـ في القاهرة يستعد لحرب جديدة وينظم داخلته فابطل ضمان الخشيش وجهاته وامر باراقة الخمر وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الخانات والحواطيء بجميع اقطار مملكة مصر والشام . فظهرت من ذلك البقاع وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال احد الشعراء المعاصرين :

ليس لابلis عندنا ارب غير بلاد الامير مأواه
حرقة الخمر والخشيش معاً حرمتا مأوه ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر بمنع النساء الخواطيء من التعرض للبغياء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب اهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعاً قرئ في المنابر . وعلم بعد ذلك ان الطواشي شجاع الدين غير المعروف بصدر الباز يشرب المسكر فشنته تحت قلعة الجبل . ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في

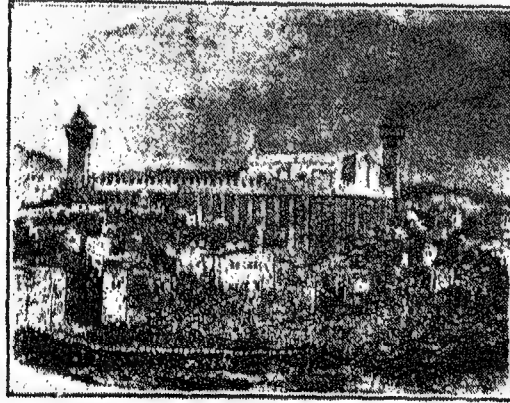
أبطال هذه المنكرات إلا لعلهم يقيناً أن استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد الهمة ويضعف عزة النفس ويغضب الله

وفي ٦٦٢ هـ بنى الملك الظاهر دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر في كل اثنين وخميس . وكان ينظر في أمر المتظلمين بنفسه فإذا كان لاحد مظلمة يأتي رأساً ويشكوها للسلطان وهو يأمر بصرفها



وفي سنة ٦٦٦ هـ استأنف الحرب مع فلسطين فاستولى على يافا والشقيف وطبرية وارصوف وانطاكية وبقراس والقرين وسافينا ومرقية وابباس وختم ذلك بفتح بغداد ثم احب بطريقه الى مصر ان يمر بالحج الى مكة مع ابنه بركة خان فمر بحلب فطرد التتر منها

ثم زار قبر ابراهيم الخليل في حبرون . وسار لزيارة بيت المقدس . ثم عاد الى مصر وقد اتم سياحته الجهادية والدينية معاً



ش ٨٠ : مسجد الخليل في حبرون

واصبح امر الشام يهمه فاشتغل في تسهيل المواصلات بينها وبين مصر فرتب خيل البريد فكانت اخبار البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين وقيل انه انفق على ذلك مالا كثيراً حتى تم له ترتيبه وكانت خيل البريد عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق وفيها خيول جيدة وعندها رجال يعرفون بالسواقين ولا يقدر احد يركب خيل البريد الا بمرسوم سلاطاني وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه المسافرين من زاد وعلف وغير ذلك

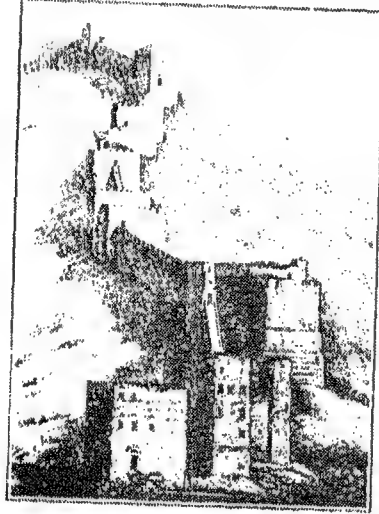
وكانت طريق الحج من مصر الى مكة عن طريق صحراء عيذاب يركبون النبل من ساحل القسطنطين الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون الى جدة ساحل مكة وهكذا يعودهم الى مصر . وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق ايضاً وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان امينة المسالك . وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى السنة التي زار فيها السلطان الملك الظاهر مكة وكساها وعمل لها مفتاحاً فصارت طريق الحج برّاً من ذلك الحين . أما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ هـ ومن ذلك الحين قلت اهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة

وفي سنة ٦٧٠ هـ سار بيبرس لمحاربة من بقي من طائفة الباطنيين . وكان هولاء قد اهلك السواد الاعظم منهم في جهات العراق . فافتتح بيبرس قلعة الاكراد وقتل من فيها من الباطنيين فتفرقت جموعهم وهكذا كان انقراض دولتهم
وفي خلال ذلك عاد التتر الى سوريا وحاصروا البيرة فتجند اليهم بيبرس وسارت معه فرقة تحت قيادة الامير قلاون الالفى فالتقى الجيشان عند البيرة واشتدت الحروب بين المسلمين والتتر وانتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على البيرة . ثم ساروا الى ارمينيا ففنيوها واغتبنوا منها غنائم كثيرة ثم عاد بيبرس الى مصر ففرشوا له القاهرة بالبسط والسيجاد الثمين احتفالاً بعوده ظافراً وحملت القبة والطير على راسه وقد قرض الباطنيين وغلب التتر

ثم ان ابغاخان بن هولاءو خان قدم سوريا وحاصر البيرة ثانية فلاقاه الامير قلاون بفرقة من الجيوش المصرية وارجعه على اعقابيه . فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته زوجة لابنه ليكون ابنه في المستقبل آمناً في حمى حميه . فامتت سوريا بعد هذه الانتصارات ولم تعد تخشى اغتيالاً فانفذ بيبرس الامير اقي سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ هـ لافتتاح بلاد النوبة فافتتح اصوان بعد ان استولى على جميع مصر العليا
موت الملك الظاهر ومناقبه واعماله

وفي سنة ٦٧٥ هـ انت الاخبار بان التتر زحفوا على البلاد فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتر فكسروهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتر ابغاخان فلما انكسر هرب فنبهه السلطان الى نحو الابستين فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو مائة الف انسان فانكسر ابغا وهرب فنبهه السلطان بنحو زبيد . ثم رجع السلطان من هناك الى قيسارية وحاصر اهلها فارسلوا يطلبون منه الامان فارسل لهم الامان على يد الامير بيسري فسلموا المدينة فدخلها السلطان وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً . فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين وحكم بين الناس واقام بها اياماً ثم رحل الى دمشق وحلب سنة ٥٧٦ هـ فتوعدك واخذته الحمى فسقاه الحسكاه مسهلاً فافرط في الاسهال وثقل عليه المرض فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق فمات في بعض ضياعها . فلما مات كتم موته عن العسكر وحمل في محفة الى ان دخل دمشق فدفن هناك ليلاً . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ٦٧٦ هـ ومات وله من العمر نحو ستين سنة وكان ملكاً عظيماً جليلاً مهيباً كثير الغزوات خفيف الركاب يحب السفر والحركة في الشتاء والصيف وكان مشهوراً بالفروسية في الحرب وله اقدام وعزم في القتال وله ثبات عند انتقاء الجيوش وكان يلقب

بابي الفتوحات لكثرة الفتوح في ايامه وكان له موكب بمصر وموكب بالشام وكان شعاره الاسد اشارة لشجاعته وقوة بأسه وكان كريماً سخياً على الرعية باسط اليد يفرق الغنائم التي تحصل من الفتوح على الرعية ترغيباً لهم في القتال وقت الحرب وكان محباً لجمع الاموال كثير المصادرات لاجل الغزوات والتجاريـد وينفق ذلك على العسكر. وكان حسن الوجه طويل القامة مستدير اللحية الغالب في لحيته البياض . وكان مبهجاً في موكبه كفوؤاً للسلطنة منقاداً للشريعة يحب العلماء والصالحين ويحب فعل الخير وله برٌّ ومعروف وآثار اهمها رده الخلافة لبني العباس بعد ان كاد ان تنقطع عنهم



ش ٨١ : اسوار انطاكية

وخائف من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد ملك بعده وسلامش وهذا ملك بعده ايضاً والمسعود خضر . وترك من البنات سبعة . ومما استولى عليه من ايدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبقراس والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب . وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وترسوس وادنة والمصيصة وغيرها من المدن في بر الاناضول . وصار الي يده مما كان في يد المسلمين دمشق وبلعبك وعجلون وبصرى وصرخد والسلط وحمص وتدمر والرحبة وتل ناشر وصهيون وبلاطس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخواني والرافقة ومصيف والقلعة والكرك والشوبك . وفتح بلاد النوبة وورقة

ومن أعماله الماثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببית المقدس وزاد في اوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبيسة وبعابك والساط وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص . وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وقد جمعه الفرساويون عند مجيئهم الى مصر قلعة . وهو البناء القديم في شارع الظاهر جعلته الحكومة مخازن للاقوات ويعرف بجامع الظاهر . وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشره بنفسه وبني هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة واعاد اليه الخطبة وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر وبني القصر الابلق في دمشق . ومن آثاره في القاهرة ايضاً قناطر السباع قرب ميدان الجبل والبرج الكبير في القلعة

وكان محباً لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشأ ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له ايضاً الميدان الاسود وميدان العبد والميدان الاخضر وميدان السباق وكان شاعراً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي

تحت الجبل الاحمر . وبني فيه مصطبة سنة ٦٦٦ هـ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية . وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك . فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فابقي امير ولا يملك الا وهذا شغله . وما برح من بعده اولاده ومن بعدهم يمارسون في هذا الميدان جميع الالعاب الحربية

وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال وقام يسلب الاهالي من المال فوق ما اعتادوا دفعه من



ش ٨٢ : نقود الملك الظاهر بيبرس

الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعد كثيرًا في النفقات هذه هي اعمال الملك الظاهر بيبرس قد تركت له اثرًا يبقّي ذكره دهوراً طويلاً وترى في الشكل الحادي والثمانين صور نقود الملك الظاهر بيبرس وعليها صورة اسد

سلطنة بركة خان بن بيبرس

من سنة ٦٧٦ — ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٧ — ١٢٧٩ م

فلما توفي بيبرس اقر الامراء على مبايعة ابنه البكر محمد ناصر الدين بركة خان . ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة طويلاً على ان يكتبوا وفاة بيبرس لثلاث بطمخ فيهم العدو فارسوا جنته سرّاً الى دمشق واشاعوا هناك انه مريض فنقلوه الى القاهرة في محفة ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت وحلما ادخلوا الجثة الى القلعة بايعوا ابنه البكر بركة خان ولقبوه بالملك السعيد . واقاموا الامير بلباي اتابكاً وكان بلباي في الاصل مملوكاً ابتاعه بيبرس بثمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار امين خزائنه ونائبه كما تقدم . ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة ان يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة . وكان للملك السعيد ثقة كبرى في بلباي حتى انه اتى اليه كل مهام الدولة فسمعت مصر في بادئ الرأي لكنها ما لبثت ان تعكر كأس صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم . ولم يكن الملك السعيد يشق باحد من امرائه ليعهد اليه مهام الامة . وكان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختياره على اق سنقر فاتح النوبة فولاه الاتابكية وبعد يسير خنقه في احد ابراج الاسكندرية فتباعده الامراء عن هذا المنصب وارادوا بالسلطان سوءا لكنهم شغلوا عنه بشورة الدمشقيين . وذلك ان شرف الدين سنجر الملقب بالاشقر كان والياً على دمشق تحت رعاية بركة خان فادعى الملك لنفسه فبايعه اهلهما ولقبوه بالملك الكامل فاسرع بركة خان الى دمشق ونزل بجيشه في القصر الابلق الذي كان قد بناه ابوه وبعد التحري عن اسباب تلك الثورة علم انها دسيسة من امرائه . فلما علم هؤلاء بظهور امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المماليك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتيهم بركة خان فامتنعوا عليه وعجز عن قهرهم لكثرتهم فالتجأ الى قلعة الجبل فحاصروه فيها وشددوا عليه الحصار فسلم فانحط قدره عندهم وهموا بقتله فتمنعهم الخليفة الحاكم

بامر الله العباسي لكنهم اصرروا على خلعه نخلعوه في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر فبعثوه الى قلعة الكرك منفياً وجبسوه فيها ثم عادوا الى قتله فانفذوا اليه من يقتله ثم بلغهم انه سقط عن جواده ومات

سلطنة سلامش بن بيبرس

من سنة ٦٧٨ — ٦٧٨ هـ لو من ١٢٧٩ — ١٢٧٩ م

فبايعوا اخاه بدر الدين سلامش وسنه سبع سنوات وبضعة اشهر ولقبوه بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفي وصياً عليه ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور وهو لقب ثاني سلاطين هذه الدولة

سلطنة الملك المنصور قلاون

من سنة ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ او من ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م

وهو من مماليك اق سنقر الكامي رقدته الى الملك الصالح فاعتقه سنة ٦٤٧ هـ فلما تولى السلطنة قرب انصاره وانعم عليهم واستوزر نجر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وبعث الامير طرناطي الى دمشق لاجتماع ثورة اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاه الملك الكامل ودافع دفاعاً حسناً ولكنه الجيء في سنة ٦٨٠ هـ الى التسليم فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة واودعوه سجناً مظلماً وولوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

وفي سنة ٦٨١ هـ عاد التتر الى الشام بجيشين الواحد تحت قيادة ابغا خان والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيه منجوتيمور (منكوتر) فخار بهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجوتيمور وفر ابغا خان الى حمدان فسمه اخوه الثالث تيكودار اوغلان وتولى الحكم بعده ثم اعتنق الاسلام ولقب باحمد خان . وكان اسلامه وسيلة لحقن الدماء لانه خابر قلاون بخبرة سامية وتعهداً على حفظ الولاء . وما زال ذلك مرعياً الى ما بعد قتل احمد خان وتولية ارغون مكانه . فكانت مصر في خلال ذلك

مطمئنة في خارجيتها فشأت القلاقل في داخليتها بسبب تمرد بعض العامة . فغضب السلطان غضباً اعمى بصره وامر بمأيكه ان يضعوا السيف فيهم ولم يعد يميز المجرم من البري فساق الجميع بعضا واحدة واعمل فيهم السيف ثلاثة ايام متوالية حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالاً ونساء واولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخفون من غيظه ويدينون له وجه عسفه . فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فندم ندماً لا مزيد عليه وتكفيراً لذلك امر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام . ومن اجل ذلك ايضاً بنى المستشفى الشهير بالبيارستان المنصوري بخط بين القصريين (في شارع النحاسين) وكان في الاصل قاعة لست الملك بنت العزيز بالله ولها تاريخ ذكره المقرئ في صفحة ٤٠٦ ج ٢

ملابس الممالك

وكان الممالك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جاههم كانت كلوتاتهم (للرأس) من الصوف الازرق الغميص وهي مضربة عريضة بغير شاش . وكانوا يربون ذوائب من الشعر خلفهم يجعلونها في اكياس حرير احمر او اصفر وكانوا يشدون في اوساطهم بنوداً بعلبكية عوضاً عن الحوائص . وكانت خفافهم برغالي اسود . وكانوا يشدون فوق قماشهم ابريم جلد وفيه حلق نحاس . وفي ذلك الابزيم ملعقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة . وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح ايديهم . فلما تولى الملك المنصور قلاوون امر العسكران يغيروا هذه الملابس الشنيعة ويدخلوا في الهيئة المطبوعة . وكانت خلع المقدمين من العنتابي فامر لهم بالخلع الخمل الاحمر والاخضر بالفرو والسمور . ثم سار الى حصن مرقند فحاصره ٣٣ يوماً فسلم . وفي سنة ٦٨٤ هـ افتتح قلعة الكرك وقبض على سلامش لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر فقاده الى القاهرة واودعه سجناً مظالم مكث فيه الى ما بعد وفاة قلاوون

موت قلاوون وآثاره

ولما اطمان باله في داخلته عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولي حتى اقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ فبقي على دسيتها زمناً طويلاً . ثم اوصى قلاوون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح (الثالث) واخذ منذ ذاك الحين في تدريبه على الاحكام وادارتها على ان يستخلفه عليها اذا طرأ عليه ما يستدعي غيابه عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تقديره لان علياً اصيب بحمى شديدة ذهبت بحياته سنة ٦٨٧ هـ فحن قلاوون حزناً شديداً وكثرت هواجسه حتى كره الاحكام . ثم رأى ان

يجرد حملة لافتتاح طراباس الشام تساية له عن هواجسه . وكانت في حوزة الصاييين
منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها . فسار اليها قلاون واقتحمها وذبح من فيها
واخر بها ثم اعاد بناءها وجعل عليها حامية
ولما عاد الى القاهرة جاءه وفد من قبل الفونس ملك ارغون عقدوا معه معاهدة
في ١٣ ربيع اول . غير ان ذلك لم يكن ايشغله عن احزانه وما زال كثيراً حتى قضى
يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنائزه احتفالاً حضره جمع غفير من جهادية
وملكية وشيعوه الى البيارستان حيث واروه التراب ولا يزال مقامه هناك الى هذا العهد
وكانت مدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر و ٦ ايام



ش ٨٣ : بقايا البيارستان المنصوري

ومن آثاره الباقية الى هذا اليوم جامع الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء
البيارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين شمالاً بعد ان يتجاوز خان الخليلي ولا
تزال هذه الابنية قديمة العماد تتجلى فيها العظمة والقوة الا البيارستان فانه اصبح اقرب
الى الاثر من العين . وقد زرت مقام هذا السلطان فرأيت فيه كما رأيت في غيره من امثاله
جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض قد جاؤا يطلبون الشفاء
وهم يأتون غالباً في ايام السبت ولهم في ذلك اساليب مختلفة . فرايت بعضهم يضع الطفل

المريض تحت الحراب وبجلس مصلياً متضرعاً وآخر يأتي بقطعة من اللبون الحامض
يمرح بها جدار الحراب او ما يقاربه ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء . ورأيت آخرين
تفعلون غير ذلك

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ربع القامة دري اللون . وكان قليل الكلام
بالعربية . وكان شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب مغرماً بمشترى الممالك حتى قيل انه
تكامل عنده اثنا عشر الف مملوك وقيل سبعة آلاف مملوك . وبما يدل على علو همته
وحسن اعتقاده عمارة البيمارستان المذكور

وقد كان قلاون سبياً لاجراج السلطنة من نسله كما كان الملك الصالح الايوبي
باستكثاره من الممالك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته
وكان يلقب بعضهم بالالفي اي المبتاع بالف دينار
وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك
وترى في شكل ٨٤ صورة نقود الملك المنصور
قلاون مضروبة في حلب



ش ٨٤ : نقود الملك المنصور قلاون

سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك القاهر بيدرا

من سنة ٦٨٩هـ - ٦٩٣هـ او من ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م

وتولى بعده على سلطنة مصر ابنه البكر صلاح الدين خليل واقب بالملك الاشرف
فاستوزر علم الدين سنجر وجرد للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠هـ حتى اتى
عكا فحاصرها . وكانت الحصن الوحيد الذي بقي لهم فخصوه تحصين اليأس لكنه
لم يمتنع على جيوش المسلمين فهدموه ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً . وفي
سنة ٦٩١هـ عاد الى القاهرة واخرج سلامش . نفياً الى القسطنطينية لانه كان سبياً
للقلاقل . ثم سار الى ارمينيا وفتح ارضروم فداع صيته حتى اربح اعداءه فعاد الى
القاهرة ليستريح من الاسفار فمأجأته المنية على فراشه . وسبب موته ان احدى نساءه
تواطأت مع مملوك له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في جوفه في شهر محرم سنة ٦٩٣هـ
بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام . والى جهاز كس الخليلي احد المنسوين
اليه بتسب الخان المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاهرة . وكان في مكانه قبل

بنائه مدافن الخلفاء الفاطميين فبنى على انقاضها . و اضاف الغوري الى بنائه في القسم العلوي كما يفهم ذلك مما هو مكتوب فوق مدخله . وفي اخلان تباع الآن جميع انواع الاقمشة السورية والهندية وما شاكل من طنافس ومطرزات واوان نحاسية وغيرها ومن آثاره البنائية قاعة الاشرفية التي بقلعة الجبل والمدرسة التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة

وبويع بعده بيدرا ولقب بالملك القاهر الا انه لم يحكم الا يوماً واحداً ثم قتله المماليك اخذاً بثار سلطانهم السابق . و يابغوا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وعمره ٩ سنوات ولقب بالملك الناصر

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولاً)

من سنة ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ او من ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م

وسلطنة هذا الملك اكثر اهمية من سلطنات سلفائه لكثير ما حصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة . ونظراً لصغر سنه اقاموا له وصياً يدعى زين الدين كتبغا الملقب بالنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاون . فما استتب له الوصاية حتى تاقّت نفسه الى السلاطة وكان معه وزير آخر هو علم الدين سنجر وكانت تحدّثه نفسه بمثل ذلك ايضاً فاختلفا وتخاصما وانتهت الخصامة بقتل سنجر . ولما خلا الجو لكتبغا ولم يعد من ينازعه عمد الى الملك الناصر نخله وتولى مكانه سلطاناً على مصر ونفاه الى الكرك ولم يحكم هذه المرة الا سنة واحدة

سلطنة الملك العادل كتبغا

من سنة ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ او من ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ هـ بويع كتبغا واقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب به قبله سلامش بن بيبرس الاول واستوزر نحر الدين وزير قلاون . ولما كان هذا الاختلاس داعياً لتراكم المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها فداهمها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءاً كبيراً من اهلها ثم جاءت الحرب تمة لهذه الضربات وذلك ان قبيلة المغول التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولاكو

اصبحت بعد وفاته تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربنده بن ايغاني فتخوفت منه طائفة من رجاله عرفوا باسم الاويراتية وفروا من بلاده الى نواحي بغداد . فزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هناك وبعثوا الى نائب حلب يستأذنه في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فأذن لهم وعبروا الفرات الى مدينة بهنا فآكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوقة والضيافة فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبغا فاستشار الامراء في ما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام اكابرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثمائة من اكابرهم الى القاهرة وفرق الباقيون بالبقاع العزيرية وببلاد الساحل . ولما قرب الجماعة الى القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقاءهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للفرجة عليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طبلخانة واجرى عليهم الرتب وانزلهم بالحسينية . وكانوا على غير الدين الاسلامي فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم باتواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم وكان اذ ذاك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الامر على الناس . وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف عنا العذاب فانا قد تلفنا في الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانصلقنا وانطبخنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سنة ٦٩٥ هـ لم يصم احد من الاويراتية فأعلن السلطان بذلك فاني ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد . وكان مراده ان يجعلهم عوناً له فبالغ في آكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعه بهم لان الاويراتية كانوا من مواطني كتبغا وكانوا مع ذلك جملي الصورة فافتتن بهم الامراء وتنافسوا فيهم وبالغوا في تقربهم حتى بعثوا الى البلاد الشامية استجلبوا طائفة كبيرة منهم فتسكاثروا في القاهرة . واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين أهل الدولة حتى آل الامر بسببهم وباسباب أخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا وذلك في صفر سنة ٦٩٦ هـ



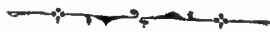
سلطنة الملك المنصور لاجين

من سنة ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ أو من ١٢٩٦ - ١٣٩٩ م

وبويع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون فاذن لكتبغا ان يخرج الى صرخد في سوريا وقبض على طرغاي .مقدم الاويراتية وعلى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها . ثم قتلهم وفرق جميع الاويراتية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار اهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن . وما برحوا ايضاً يوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان . وكانوا يعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ويؤثر عنهم حكايات كثيرة . وكانت الحسينية قد فاقت عماوتها على سائر اخطاط مصر والقاهرة

اقطاعات القاهرة

وكانت ارض مصر ٢٤ قيراطاً يختص السلطان منها باربعة والاجناد بعشرة وكان الامراء يأخذون كثيراً من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء . وكان يصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتشور بها الفتن وتمنع منها الحقوق الديوانية وتصير طعمة لاعوان الامراء ومستخدميههم ومضرة على اهل البلاد التي تجاورها . فعند ما تولى الملك المنصور لاجين راك البلاد ورد تلك الاقطاعات على اربابها واخرجها باسرها من دواوين الامراء وجعل للامراء والاجناد احد عشر قيراطاً وافرد تسعة قراريط ليعخدم بها العسكر او يقطعهم اياها . ثم رتب اوراقاً بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط واقتصد قيراطاً لزيادة ما عساه يطلب زيادة اقله متحصل اقطاعه . وافرد لبطانته عدة اعمال جليلة فتشكرت قلوب الامراء وحقدوا عليه وما انفكوا حتى قتلوه في ١١ ربيع آخر سنة ٦٩٨ هـ فبقي كرسي السلطنة خالياً ٤١ يوماً تمكن في خلالها الامير سيف الدين طقجي من دعوة الناس الى حربه فالتف عليه جماعة كبيرة فبايعوه ولقبوه بالملك القاهرة كما لقب بيدرا قبله وكان حظه من الملك كحظ سمية فلم يحكم الا يوماً واحداً ثم ذبحه المماليك



سلطنة الملك الناصر بن قلاوون (ثانية)

من سنة ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ او من ١٢٩٩ — ١٣٠٨ م

ففكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقروا على استقدام الملك الناصر بن قلاوون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر لبيايعوه . فبعثوا اليه وفدأ يبايعه ذلك القرار فقدموا اليه في الكرك . وكانت والدته عنده فلم تسمح بسفره معهم لئلا يكون تحت اقوالهم مقاصد خطيرة . فالحوا عليها وأكدوا لها صديقهم ثم جئوا امام الملك الناصر وبيايعوه فتأكدت اخلاصهم فاذنت بمسيره معهم فساروا حتى اتوا القاهرة فحاول بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم هددوا فبايعوه

وكان غازان خان ملك التتر قد عاد ثانية الى افتتاح سوريا فجرد اليه الملك الناصر سنة ٧٠٠ هـ جيشاً جراراً واسرع حتى التقى به في حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله وامدهم بالعدة والرجال واستأنف الحرب . وكان التتر قد حسبوا ان الفوز تقرر لهم فوضعوا ايديهم على سوريا وضربوا عليها الضرائب واخذوا في ادارة احكامها . وبينما هم في ذلك وصل الملك الناصر بجيشه الى مرج الصفر بقرب دمشق فخرج اليهم التتر وانتشب القتال بين الفريقين فغلب المصريون في بادئ الامر ثم ارتدوا على صفوف التتر كالسيل الهاطل بعزم اشد من الجبال فقرقوا جوعهم وأنخنوا فيهم مررباً بالسيف حتى تطهرت الشام منهم فعاد الملك الناصر الى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم

ولما لم يبق ما يشغله في سوريا عكف على اخضاع قبائل العربان الذين شقوا عصا الطاعة في مصر العليا فجرد اليهم فدانوا له واغتنم منهم خمسة آلاف فرس ومائة الف رأس غنم وثلاثين الف من المواشي الكبيرة كالبقر والجاموس وعدداً وافراً من الاسلحة . فلما كانت سنة ٧٠٢ هـ داهمت الشرق زلزلة قوية اخربت قسماً عظيماً من سوريا ومصر واخرجت المياة من الآبار الى سطح الارض وطافت الابحر على اليابسة فاغرقت خلقاً كثيراً . والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي اثر في اخلاق المصريين فانقسموا احزاباً يضاد بعضها بعضاً ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انه لا يقوى على دفعهم وخاف على حياته فترك القاهرة مظهراً للحج وسار مع بطانته الى الكرك وكان له فيها ثروة تبلغ ٢٧ الف دينار ومليون وسبعمائة الف درهم فاستولى عليها

وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحاً بتنازله ومفوضاً لهم تولية من ارادوا

سلطنة بيبرس الجاشنكير

من سنة ٧٠٨ — ٧٠٩ هـ او ن ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م

فوصل كتابه اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هـ فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس



الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقبوه بالملك المظفر وهو من ممالك الملك المنصور قلاوون ومما يؤكد ذلك انهم وجدوا بين اسلحته سيفاً منقوشاً عليه اسمه مع لقب « المنصوري والسيفي » كما ترى في الشكل الخامس والثمانين



وفي اواخر هذه السنة قدم الصليبيون بموافقة صاحب قبرس لغزو دمياط بجرأ فاتفق الامراء في القاهرة على انشاء

جسر يمتد من القاهرة الى دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين ش ٨٥ : اسم بيبرس على سيفه بجرأ في ايام الفيضان فيتعذر الوصول الى دمياط فكتبوا بذلك الى العمال ان يخرجوا بالرجال والابكار لاتمام ذلك فاجتمع ستمائة راس بقر و ٣٠٠ الف رجل وباشروا العمل واتموا في شهر واحد . فكان طوله من دمياط الى قلوب وعرضه اربع قصبات من اعلاه وست قصبات من اسفله تمشي عليه ستة رؤوس من الخيل صفاً واحداً . ومن آثاره في القاهرة جامع المعروف بجامع جاشنكير في الجمالية مبني على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجداً الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالته وتخليه عن مقاليد الاعمال لاحد ممالكه فجعل يترقب فرصة لتسليق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ هـ برح الكرك مستخلفاً عليها ارغون احد ممالكه المقربين وجاء دمشق فبايعه امراؤها فجنده الى مصر ومعه رجال عديدون . وكان الامير برك احد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعه كثيرون من نخبة رجاله فتشجع الناصر وقدم القاهرة . اما بيبرس فخاف ولم يرسيلاً لنجاته الا بالتنازل فاستقال واخذ معه مبلغاً مقداره ٣٠٠ الف دينار وكثيراً من

الجمال والخيول وخرج الى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها فلاقاه خارج القاهرة سرب من الاسافل اوسعوه شتاً ورجاً فرشقهم بما كان معه من النقود وسار حتى جاء اخميم فنزل فيها

سلطنة الملك الناصر بن قلاوون (ثالثة)

من سنة ٧٠٩ — ٧٤١ هـ او من ١٣٠٩ — ١٣٤١ م

وفي غد خروج بيبرس من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة الثالثة لتوليّه . وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطة ولبس خلعة السلطنة وهي جبة سوداء وعمامة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوي . فجلس على سرير الملك وجميع الامراء من كبير وصغير قبلوا الارض بين يديه وهو جالس في الايوان الاشرفي . ثم خلع على سائر الامراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستقرار . وخلع على الخليفة المستكفي بالله سليمان والقضاة الاربع وارباب الدولة من اصحاب الوظائف ثم تتبع الهاربيين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوه . وفي جملة الذين قتلهم الاميرسلار النائب وضبط امواله سنة ٧١٠ هـ فكان في جملتها صناديق افرنجية مصفحة بنحاس فيها فصوص ياقوت احمر بهرمان رطلان وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص زمرد بابي عشرون رطلاً وفصوص الماس وعين الهر ثلثماية قطعة ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا الف دينار . ومن الفضة اربعمائة الف درهم وواحد وسبعون الف درهم . وفي يوم الاثنين سابع عشره وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون الف دينار ومن الفضة مليون درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان . ووجد له مصاغ من ذهب ما بين خلاخل واساور وزن اربعة قناطير مصرية . ووجد عنده طاسات فضة واطباق واهوان ذهب وطشوت فضة ستة قناطير . وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر وجد له من الذهب العين خمسة واربعون الف دينار ومن الفضة ثلثماية الف وثلاثون الف درهم ووجد عنده طلعات فضة للمسناجق وقطريات فضة ثلاثة قناطير — وغير ذلك شيء كثير ذكره ابن اباس في تاريخه مفصلاً مما يدهش لكثرة

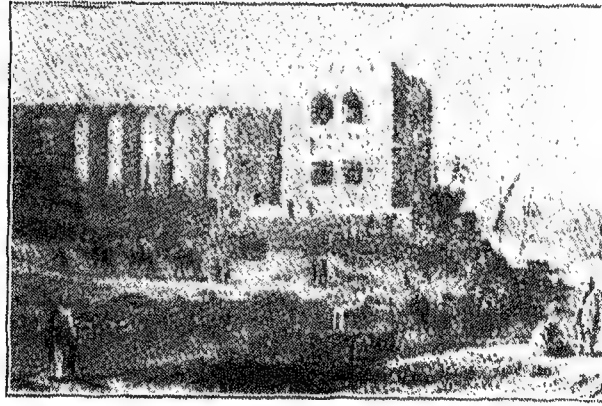
وكان سن الملك الناصر لما تولى للمرة الثالثة ٢٥ سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال

حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمه في الملك فكان ذلك بمثابة الامثلة له فمكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٣ سنة وكان النصارى الى ايام هذا الملك يقيمون احتفالاً سنوياً في ٨ بشنس في ناحية شبرا من ضواحي القاهرة يسمونه احتفال عيد الشهيد زعماء منهم ان النيل لايفي الا اذا القوا فيه تابوتاً من خشب فيه اصبع من اصابع ابائهم المائتين . فكانوا يجتمعون من سائر القرى افواجاً على اختلاف الدرجات والتزيمات ويكثرون بسبب ذلك من الغناء وشرب المسكر . فكانوا يتفقون مبالغ فاحشة في هذا السبيل . وكان فلاحو شبرا يركنون في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الحُر في ذلك العيد . فامر الملك الناصر بابطال هذه العادة . وابطل كثيراً من الضرائب الظالمة كزكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ابدأ ولو عدم منه واذا مات يؤخذ من ورثته . وابطل ما كان يجبي من اهل القاهرة وضواحيها اذا حضر بمشرب بفتح حصن او نحوه فانهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على قدر طاقته . وكان يجتمع من ذلك مال كثير . وابطل ما كان يجبي من اهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد في كل سنة وكانت العادة اذا كان وفاء النيل ان يجبوا من التجار والباعة ديناراً من كل واحد قياماً باحتفال كانوا يقيمونه عند المقياس يكثرون فيه من الشوى والحلوى والفاكهة فابطل الجباية وامر بصرف ذلك من بيت المال

اعماله

أما اعماله فاكثرها بناء وترميم فقد بنى في سنة ٧١٧ هـ جسراً بين بولاق وميت شيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان وكانت الارض واطية ولم يكن فيها شيء من البناء فاذا ارتفع النيل جرى على مسافة قصيرة من المقس (تمن الازبكية) فلما بنى الجسر كف الماء الا يسيراً فتكوّن هناك جزيرة دعوها جزيرة بولاق فاقبعت فيها المساكن ثم اتصلت بالبر الحقيقي فاصبحت جزءاً منه فاتخذوها مرسى للسفن الواردة الى مصر ولا تزال كذلك الى اليوم وهذا ما يعبر عنه الآن بتمن بولاق

ومن آثاره البنائية جامعته المسمى الجامع الجديد عند موردة الخلفاء . ويقال انه نقل حجارته من صنم عند قصر الشمع اسمه السرية عمل منه قواعد للاعمدة الكبار وعمر القصر الابلق بالقلعة . وجر الماء الى قلعة القاهرة سنة ٧١٨ هـ في مجراة على قناطر مبنية بالحجر وركز للمياه آباراً وجعل عليها سواقي نقالة من عدة اماكن وهي الباقية الى الآن تعرف بالسبع سواقي عند فم الخليج وتمتد منها نحو القلعة قناطر



ش ٨٦ : مجراة الماء والسبع سقايات

تفصل بين القاهرة ومصر القديمة . وعمر الحوش الكبير في القلعة زرع فيه بستاناً نقل اليه الاشجار من الشام وغيرها . وبني قناطر عديدة في اماكن مختلفة والبركة الناصرية . وكان في القلعة ايوان يسمى الايوان الاشرفي فهدمه وبناء وعقد فوقه قبة عظيمة وكان يعمل فيه المواكب العظيمة والقصر الكبير عند البركة الناصرية . وعمل باب الكعبة من الخشب السنط الاحمر المصفح بالفضة

وكانت مدة حكم الناصر هذه المرة كلها سكونية وسلاماً خارجاً وداخلاً ولم يخرج من مصر كل هذه المدة الا مرتين لزيارة الحرمين ولم يتخبر مع دولة اخرى الا التتر وذلك بشأن تزوجه بابنة ازبك خان سنة ٧٢٠ هـ فكان معتكفاً بكليته الى ترقية شأن البلاد فاقام فيها ولا سيما في القاهرة مشروعات كلية الاهمية منها نزع الخليج المدعو باسمه (الخليج الناصري) سنة ٧٢٧ هـ وقد انشأ سنة ٧٢٨ هـ سبعة جسور وفي السنة التالية انشأ مرصداً في الميدان وشاد قصراً على انقاض قصر الاشرف فانهى منه في سنة ٧٣٤ هـ واقام جسور شيبين سنة ٧٣٥ هـ وابنى عدا عن الجامع الناصري المتقدم ذكره جامعاً آخر بجانب جامع ابيه في شارع النحاسين يشاهد فيه عند الدخول اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاوون جاء بها من عكا تذكراً للظفر . وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالح سنة ٦٩٨ هـ والمقرئ يقول ان بناءه تم سنة ٧٠٣ هـ وان الملك العادل كتبها هو الذي وضع اساسه ايام السلطنة . وشاد الناصر داراً كبيرة دعاها دار العدل وانشأ عيونا كثيرة ومدارس عالية متعددة

ومن اعماله الحميدة انه ابطل جميع الضرائب الظلمة التي كانت تؤخذ على ما يباع ويشترى من حيوانات ونبات وعقار فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته . فاستقبت الراحة وعمر الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الا تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاء حسماً للمشاكل

وفي سنة ٧٤٠ هـ توفي ابنه انوك فحزن عليه حزناً شديداً اورثه مرضاً رافقه حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الآخر الا ان تنصيبهم وخامهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال . فكانت مدات حكمهم قصيرة جداً

وتزايدت نفامة ملك ابن قلاون في آخر حكمه وكثرت مماليكه حتى صار راتبه وراتب مماليكه كل يوم من اللحم الضاني ستة وثلاثين الف رطل . وبالع في مشترى المماليك حتى قيل بلغت مماليكه اثني عشرة الف مملوك . وهو اول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والاقبية المفتوحة واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطه بالذهب والاقبية القاقم . ورتب المواكب في القصر ترتيباً حسناً . ورتب شرب السكر بعد السباط في القصر والامراء مجتمعون ورتب وقوف الامراء في المواكب على قدر منازلهم وكذلك ارباب الوظائف من المتعنين . وقد طالت ايامه في السلطنة بخلاف من تقدمه من الملوك وصفا له الوقت وصار اكثر الامراء والنواب مماليكه أو ممالك والده قلاون ولا يعلم لاحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه حتى قيل قد تزايدت في ايامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العماز مقدار النصف

من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العماز والانشاء .

وترى في الشكل ٨٧ صورة نقود الملك الناصر بن قلاون النحاسية



ش ٨٧: نقود الملك الناصر بن قلاون



سلطنة اولاد الناصر وهم ابو بكر وكجك واحمد واسماعيل

وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين

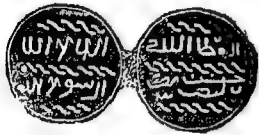
من سنة ٧٤١ - ٨٧٦٢ او من ١٣٤١ - ١٣٦٢ م

فاول من تولى بعد الملك الناصر ابنه البكر سيف الدين ابو بكر ولقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يوماً عزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء ابيه واهانوهن ونهبوا متاعهن . فبويغ اخوه علاء الدين كجك وله من العمر ست سنوات فقط ولقب بالملك الاشرف

وبعد خمسة اشهر اي في رمضان من تلك السنة خلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويغ اخوه شهاب الدين احمد وكان متغيباً في السكرك فاستقدم وبويغ ولقب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ هـ اعيد الى السكرك منفاه الاول . فبويغ اخوه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسى السلطنة اكثر قليلاً من اخوته السابقين اي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . واهم ما حصل في ايامه انه اعاد منصب الوزارة الى حكمه سنة ٧٤٤ هـ وكان قد الغاه ابوه كما رايت . وانه قتل اخاه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٦ هـ وكان منفياً في السكرك ثم انتهت سلطته بموته في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ هـ . فبويغ اخوه الخامس زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل ولكنه لم يكن اسماً على مسمى فابغضته الرعية وهجاء الشعراء . ومكث حاكماً سنة وبضعة اشهر وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٧ هـ عزل . فبويغ اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (الثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فلم تطل مدة حكمه اكثر من سنة وثلاثة اشهر فذبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ هـ فبويغ اخوه السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيره في الملك ما كان لابيه فخماً ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبه الامير الطمش وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ هـ وسجن في قلعة القاهرة . فبويغ اخوه الثامن صالح صلاح الدين واقب بالملك الصالح وكان على وزارته الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون او شيخو في الصليبية غربي الرملة ويقال له خائقاء . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و ١٤ يوماً وفي سنة ٧٥٤ هـ دهم القطر طاعون وانتشر حتى عم البلاد واختطف الامام

الحاكم بامر الله (الثاني) وصي الخلافة فبويع عمه المعتضد بالله
وفي اوائل سنة ٧٥٥ هـ رفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفضلة بما للنصارى
من الاملاك الموقوفة للأديرة فاحيات هذه التقارير الى ديوان الاحباس فوجد ان
لنصارى اوقافاً تبلغ ٢٥ الف فدان من الطين كلها موقوفة للكنائس والاديرة . فعرضت
على الامير شيخوخو والامير صرغتمش والامير طاز وكانوا قائمين بتدبير الدولة فقرروا ان
ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وهدموا للنصارى عدة كنائس . وفي اواخر
رجب من هذه السنة خرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن الكوراني وكان
والياً على القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر فهدم كنيسة للنصارى واخذ
منها اصبع الشهيد في صندوق واحضره الى الملك الصالح فاحرق بين يديه في الميدان
وذرى رماده في البحر حتى لا ياخذ النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذ . وكان
من المترشحين للوزارة وزيران قبطين مرتدان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها
والضم الى كل منهما احزاب فانتهي الخصام بخلع الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ هـ
وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من اخيه الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين
وكان الناصر مسجوناً ففاض بمراده وخلع اخاه فأخرج من السجن وبويع وبقي الملك
الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام
بمساعدة الامير تاج الدين فولاه الوزارة مكافأة لمسهاء . وفي ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ هـ
قتل بمكيدة من كبار امراءه

ومن آثاره الباقية الى هذا العهد جامع في الرملة مقابل قلعة الجبل في القاهرة
وهو المعروف بجامع السلطان حسن او بجامع الحسنية وهو من اجمل جوامع القاهرة
وانقضى لبنائه ٣ سنوات انفق عليه في خلالها ما يساوي ثمانية جنيه كل يوم وقد
جاء بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليه الكتابات السكوفية والعربية
فزادته رونقاً وجالاً وقد اصبح الآن وعلى وجهه ملامح الشيخوخة لكنها لم تزد الا
عظمة ووقاراً



وترى في الشكل الثامن والثمانين صورة النقود
الذهبية للملك الناصر ناصر الدين حسن

ش ٨٨ : نقود الملك ناصر الدين حسن

سلطنة محمد بن حاجي

من ٧٦٢ - ٧٦٤ هـ او من ١٣٦٠ - ١٣٦٢ م

ولما قتل السلطان حسن بويج ابن اخيه محمد بن الملك المظفر حاجي وسنه ١٤ سنة
ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان سنة ٧٦٤ هـ اضطر الى التنازل
عن الملك لابن عمه شعبان بن حسن وسنه عشر سنوات فيبويج ولقب بالملك الاشرف
(الثالث)



وترى في الشكل التاسع
والثمانين صورة النقود الذهبية للملك
المنصور محمد ضربت في القاهرة
سنة ٧٦٤ هـ

ش ٨٩ : نقود الملك المنصور ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤

سلطنة شعبان بن حسن

من سنة ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ او من ١٣٦٢ - ١٣٧٦ م

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة ايام معظمها سكينه وسلام وفي
السنة الثالثة من حكمه اصبحت مصر وسوريا بقحط ضيق على الناس حتى اكلوا
الكلاب والقطط واكل بعضهم اولاده من شدة الجوع . واستقر الامر كذلك في بعض
الاماكن ٣ سنوات وما كانت السنة الحادية عشرة من حكمه اصاب البلاد حروب اهلية
اشد وطأة من الجوع . وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائباً للملك . ففي
سنة ٧٧٦ هـ سطت عليه عصابة من مماليكه في قصره فقتلوه وساروا يريدون مثل ذلك
من السلطان نفسه فردهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فتشتتوا فولى على النيابة
الحاجي اليوسفي وكان طماعاً فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدته فنال منها ثروة
عظيمة فقويت شوكرته وكثر اشياعه فطمع بالسلطة فقتل زوجته المذكورة وتواطأ
مع قاتلي يلبغا على قتل السلطان فهاجموه فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعاً كبيراً وتبعهم
رجالهم حتى اغرقوهم في النيل . ولم يكذب يطمئن من هذا القبيل حتى اجتمع عليه اعداد

يريدون قتله فتربصوا ينتظرون فرصة حتى اذا كان عائداً من زبارة الحرمين كمنوا له في مضيق العقبة فقتلوا من معه من الحاشية ولم يقفوا للسلطان على اثر فظنوه قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٢٦٣ هـ ان يبائع من يشاء فكتب اليهم « اختاروا من ينسكم من تشاؤون وانا اصادق على بيعته » ثم علم الامراء ان الاشرف لا يزال حياً مختبئاً في القاهرة فقبضوا عليه وخنقوه في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ



وترى في الشكل التسعين نقود الملك الاشرف شعبان

ش ٩٠: نقود الملك الاشرف شعبان

سلطنة علي بن شعبان

من سنة ٧٧٨ - ٧٨٣ هـ او من ١٣٧٦ - ١٣٨١ م

وباعوا ابنه علاء الدين علي وسنه - مع سنوات فسر بذلك المنصب لصغر سنه ولم يعلم انه مدفن ابيه ولا يلبث حتى يلحق به . فلقبوه بالملك المنصور (السادس) واقاموا له الامير لاين بك وصياً . ثم ابدل لاين بالامير قرطاي ثم ابدل هذا بالامير برقوق . وهو الذي اتى على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة وكانت هذه مقاصده منسند ولي الوصاية لكنه بقي محافظاً على ولاء مولاه الى ان توفاه الله في شهر ربيع اول سنة ٧٨٣ هـ وكانت مدة حكمه اربع سنوات واربعة اشهر

سلطنة حاجي بن شعبان

من سنة ٧٨٣ - ٧٨٤ هـ او من ١٣٨١ - ١٣٨٢ م

فبويح اخوه زين الدين حاجي وسنه ست سنوات ولقب بالملك الصالح ولم تمض على مبايعته سنة ونصف حتى مل برقوق من اخفاء مقاصده فخلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستام مقاليد الملك . وكان الملك المنصور هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية او التركمانية فانقرضت دولتهم بعد ان حكمت نحواً من مائة وست وثلاثين سنة اولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية او الشراكسة.

دولة المماليك الثانية

من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ هـ اذ من ١٣٨٢ — ١٥١٧ م

منشأ المماليك الشراكسة

دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضا كركس أو جركس أو كركغز. وهم لم ينشأوا في اسيا العليا انما جاؤا اليها من سيبيريا ونواحي بحيرة بيغال منذ القرن السادس لليلاد . ثم هاجروا الى غربي بحر قزوين يحملون من بلادهم للاتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الاخير عدداً وافراً فضلاً عن المماليك البحرية اقتداءً بأسلافه . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكنهم في الابراج فلقبوا بالبرجية . وما زالوا يزدادون عدداً وقوة ومنعة حتى تآقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك يجعلونه ارنأ لنسلهم . وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي ابن شعبان وبيعوا برقوق

أما برقوق فهو ابن مرتد شركسي اسمه انس من قبيلة كسا استملك في شركاسيا وقيد الى القرم فاشتراه رجل مسلم يقال له عثمان وجاء به الى مصر سنة ٧٦٢ هـ وباعه للامير يلغا فجعله في عداد مماليكه الا ان نباهة برقوق وجماله ومهابته استلفتت انتباه سيده فبالغ في ترفيته حتى ادخله في بطانته ولقبه بالشيخ اشارة الى براعته بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعله في مصاف الامراء وكان يلقب بالعثماني واليلغاوي . وما زال في خدمته الى ان قضى الله على يلغا بما قضى وتشتت مماليكه فبقي برقوق وامير آخر يقال له بركة لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلوا في خدمة منجك صاحب دمشق . ثم عادا الى مصر بطاب الملك الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولاهما ولقب باتابك الجيوش . وتولى رفيقه بركة رئاسة الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خلع الملك الصالح حاجي . فتمكن برقوق بمساعدة احزابه ان يتسلق كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ كما رايت

سلطنة الملك الظاهر برقوق

من سنة ٧٨٤ — ٨٠١ هـ أو من ١٣٨٢ — ١٣٩٨ م

فاقر الخليفة المتوكل على الله على تولية برقوق وبايعه جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوه بالملك الظاهر وهو لقب اعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني به ركن الدين بيبرس البندقداري . واول شيء خالف فيه اسلافه انه ابطل حمل القبة والطير على رأس السلطان عند توليه وابطل ما كان يعمل في يوم النيروز اول السنة القبطية . ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية انه كان يجتمع السواد الاعظم من الناس الاسافل فيقفون على ابواب الاكابر من اعيان الدولة فيكتب امير النيروز وصولاً بالجمل الثقال وكل من امتنع عن الاعطاء من الاكابر سبوه سباً قبيحاً ولا يزالون قائمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرؤون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه امير النيروز . فيأخذون منه ذلك غصباً ويمضون . وكان ذلك السواد الاعظم العياق يقفون في الطرق ويتراشون بالماء المتنجس ويتراجمون بالبيض النقي في وجوههم ويتصافعون بالانطاع والاحفاف ويقطعون الطريق حتى يمتنع الناس من الخروج الى الاسواق وتغلق في ذلك اليوم ايضاً اسواق القاهرة ودكاكينها وكل من ظفروا به في الطرق سبوه

وكان تيمورلنك القائد التتري الشهير اذ ذاك قد ملأ الارض بافتتاحاته حتى سمع دوشها في سوريا اذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق في جيش عظيم فاوقفه عند حده لكنه لم يكده يتخلص منه حتى ظهر له عدو في بيته نعني به الخليفة المتوكل على الله فانه دعا الى خلع برقوق فالتفت حوله دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشايخ والائمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة نخلعه وحبسه في القلعة سنة ٧٨٧ هـ ونصب عمراً اخا ابراهيم ولقبه بالوائق بالله . ثم توفي الواثق في ١٩ شوال سنة ٧٨٨ هـ فنصب ابا يحيى زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله . وهذا لم يلبث طويلاً لانه اساء السلطان برقوق نخلعه في جمادى الاولى سنة ٧٩١ هـ واعاد المتوكل على الله لكنه ندم بعد ذلك لما رأى من سعيه في خلعه فحاول تنزيله ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمي منطاش على خلعه ووافقها سائر الامراء ورجال الدولة نخلعوه بعد ان حكم سنت سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وارسلوه منفياً الى قلعة الكرك منفي السلاطين في تلك الايام واستقدوا السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك



ش ٩١ : تيمورلنك القائد التتري

البحرية وهو الذي خاعه برقوق . فبايعوه في ٦ جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ . وكان يلقب بالملك الصالح فابدله بالملك المنصور لكنه لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل ومنطاش بعد ان سعي في توليته ندما فائزلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ فتعلم برقوق هذه المرة كيف يستبقي الملك في يده فبادر حالاً الى المنصور حاجي واماته وقتل كل من كان على دعوته منعاً لدسائسهم . ثم عمد الى الخارجية فوطد الامن في انحاءها ولم يكن يشق بمقاصد اعوان الخلفاء فدخل في احزابهم متحد تارة مع هؤلاء وطوراً مع هؤلاء ليدوم الشقاق بينهم فلا يتفقوا على خلعه

وفي سنة ٧٩٤ هـ اهداه قرا يوسف امير فارس مدينة تبريز فبعث اليه برقوق خلعة وفوض اليه ان يفتح ما استطاع من المدن على ان يكون والياً عليها . لكنه ما لبث ان جاء القاهرة في السنة التالية مع احد محالفيه احمد بن اويس فارين من وجه تيمورلنك وكانا قد التجأ الى منويل امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانه كان في ريب من امره مع دولة اخرى قارب صبحها الانفجار - وهي الدولة العثمانية نسبة الى عثمان الغازي اول سلاطينها . وجرى ذلك في عهد بيازيد بن مراد رابع سلاطين هسنة الاسرة الظاهرة . وكان قد غزا معظم ايلات المملكة الرومانية الشرقية (مملكة الروم)

واعظمها حتى هدد القسطنطينية بخاء التتر من ورائه بقيادة تيمورلنك فاوقفوه عن مقصده واصبحت قارة اسيا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبيازيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فارتعدت لهما افريقيا واضطربت مصر من دويهما

وطمحت النظر هذين الفاتحين الى مصر فبعث كل منهما وفداً الى القاهرة فطلب وفد بيازيد الى برقوق ان يعاهده على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة ان يقرب بيازيد رسمياً على سلطنة الاناطول فاجابهم الى ما طلبوه . اما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة اخرى لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في اقوالهم ومطالبهم فطلبوا اليه ان يسلم لهم قرا يوسف واحمد بن اويس اللذين قد التجأ اليه . فطيب برقوق خاطرهم واخذهم بالماليسة فازدادوا فجوراً فأمر بقتلهم . فشق ذلك على تيمورلنك فساق جيشه وقدم للان مقام فر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فاتكى فيها . ثم توقف عن مسيره لغرض في نفسه ليسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكذب هذه التأهبات حتى ادركته الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وعمره ستون سنة فاسف عليه الناس اسفاً شديداً لما كان من عدله ويقظته ورفقه برعيته

اعماله

ومن ادلة ذلك انه خفف ضرائب الجبوب وابطل الضرائب التي كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الواردة عن طريق بولاق . وكان كثير التصديق على الفقراء محبسا للعلم والعلماء فبنى مدرسة دعاها المدرسة الظاهرية نسبة اليه . وابنى جامعاً لا يزال معروفاً باسم جامع السلطان برقوق بجانب جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وكان له ولم خاص في اقتناء الاسلحة والخيول الجياد والاستكثار من المالك الشراكسة فنظم منهم فرقة يركن اليها عند الحاجة . وقد رتب مراتب الدولة في ايامه على هذه الصورة :

١ اتابك العساكر

٢ رأس نوبة الامراء

٣ امير السلاح

٤ امير المجلس

٥ امير الياخور

٦ دوا دار

٢ رأس النوبة الثاني

٨ حاجب الحجاب

٩ النائب

وكانت مقاليد الحل والعقد بيد هؤلاء التسعة فاذا اجتمعوا على امر انفذوه ولا مرد لقضائهم

وبما انشاء في ايامه من العمائر جسر الشريعة بالغورية وجدد بناء خزائن السلاح بشعر الاسكندرية وجدد عمارة زربية البرزخ بشعر دمياط بعد ان ظهر منها عظام الشهداء وبني سوراً على مدينة دمنهور وعمر قنطرة العروب بالقدس وجدد عمارة الجمرات التي تجر الماء من بحر النيل الى قلعة الجبل

سلطنة فرج بن برقوق (اولاً)

من سنة ٨٠١ — ٨٠٨ هـ او من ١٣٩٨ — ١٤٠٥ م

فلما توفي السلطان برقوق بايعوا بكر ابنائه فرج زين الدين الملقب بابي السعادات وسنه ست وعشرون سنة واقبوه بالملك الناصر . وفي اول حكمه ثار الاتاك ابتش ونتم الفرسانى حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع يلبغا السالمى حاكم حلب فاستولى على مضائق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها . الا ان حدسه لم يتحقق فأخذت منه المضائق وضويق عليه حتى قيد اسيراً وقتل هو وكل دعاته . ولم تكد تنجو مصر من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة اشد وطأة واصعب مراساً . فان تيمورلنك بعد ان اتم حروبه في الهند وبعناد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ هـ امعن في سوريا فاستولى على حلب وحصص بعد حروب شديدة . وفر فرج الى مصر فجمع اليه رجاله وتأهب للدفاع فبلغه ان عدوه شغل عنه بمحاربة بيازيد في الاناطول فسكن روعه ثم جاءته الانباء بفوز تيمور وانكسار بيازيد واسره سنة ٨٠٤ هـ في وقعة انقرة فخارت قواه ويأس من الفرج . فبعث اليه تيمورلنك فيلاً هندياً وطلب اليه ان يبايعه ويبعث اليه باحد وقرا يوسف حالاً . فلم يسمع فرج الا الاذعان لقضاء الله . فاجابه الى طلبه صاغراً واهداه زرافة حبشية وبايعه واعترف بسيادة التتر على مصر وانه قائم باحكامها بالنيابة عنهم . اما احمد وقرا يوسف فقال انهما احتميا به وحقوق الضيافة تمنعه من تسليمهما

فيكون هو الجاني عليهما لكنه وعد ان يستجيبا عنده فاستقرت سيادة تيمور على مصر وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر بقصور النيل فدهى اهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف حتى انه مات في مدينة قوص وحدها ١٧ الف انسان ومات في مدينة اسيوط ١١ الفاً ونحو ذلك في مدن اخرى . وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتخاصم ابناؤه على الملك فتخلصت مصر من سلطة التتر وذهب الخدر عن احمد وقرأ يوسف فافرج عنهما فصارا الى بلادهما

ثم اخذ فرج بالتأهب لاسترجاع سوريا بنفسه فلم يكذب الاستعداد حتى ضيق عليه في قصره . لانب المصريين لما راوا اذعانه لتيمور وتسليمه بسيادته حسبوا ذلك خيانة وضعفاً وايقنوا انه لا يصلح لادارة الاعمال فاقروا على خلعه وتولية اخيه عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منه . فاجتمعوا تحت لوائه وساروا لمحاصرة اخيه في قصره في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ وما زالوا يهددونه حتى تنازل حفيظاً لحياته وقد حكم ست سنوات وخمسة اشهر و ١١ يوماً

وكانت ايامه كثيرة الفتن والشرور فقد طرق الشام فيها تيمور لنك كما رايت فاخرها واحرقها وعمها بالقتل والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتفرق اهلها في جميع اقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الارض اقليلاً وعظم الغلاء والفناء فباع اهل الصعيد اولادهم من الجوع وصاروا ارقاء مملوكين وشمل الحراب الشنيع عامة ارض مصر وبلاد الشام من مصب النيل عند الجنادل الى حيث مجرى الفرات

سلطنة عبد العزيز بن برقوق

من سنة ٨٠٨ هـ ٨٠٩ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤٠٥

ثم خرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم فظن الناس انه قتل من الضوضاء والازدحام فبايعوا اخاه ولقبوه بالملك المنصور . ولم يمض شهران على توليته حتى تحققوا خيبة ظنهم به فلوا من طاعته ومالوا بكليتهم الى سلفه فاصل ذلك بفرج نخرج من خبائه فتقدم اليه الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبه فعاد في جادي الاخرة ونفى

اخاه عز الدين الى الاسكندرية فعاش فيها اشهرأ قليلة وتوفي في ٢ ربيع آخر
سنة ٨٠٩ هـ

سلطنة فرج بن برقوق (ثانية)

من سنة ٨٠٩ - ٨١٥ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤١٢ م

فلما عاد فرج الى منصبه وجه انتباهه خصوصاً الى استرجاع ثقة الاهلين فيه
فغزا دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية تخيم الامن
وسكنت القلوب . فاذا كانت سنة ٨١٣ هـ ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهبت بجيانه .
وذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا نصر الملقب بالشيخ الحمودي الظاهري نسبة
الى سيده الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق . وكان الملك الظاهر قد اعتقه
ووعده بالمناصب الحربية فطمعت ابصاره الى السلطنة فاستخدم لهذه الغاية الخليفة
المستعين بالله وكان قد ولي الخلافة بعد الخليفة المتوكل على الله منذ خمس سنوات . وكان
الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وانتقلهم الى القاهرة لا يخرجون
في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالايمة . فاسر الشيخ
الحمودي الى المستعين انه يقدر ان يعيد السلطة السياسية كما كانت لاسلافه وقال له « ان
الناس ميالون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتك وتنفيذ اوامرهم » . فتنبه في قلب
الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ الحموي . وكان فرج اذ ذاك في دمشق فانفقا على
استقدامه فانفذا اليه اولا ان يتنازل عن الملك فاجاب ان لا جواب عنده غير السيف
واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ الحمودي وتقدم
الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر امراً بتوقيعه فجاء بما لا يجيء به السيف ونصه
« من الامام ابي الفضل المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر . اعلموا اننا قد
خلعنا فرج بن برقوق عن سلطنة مصر والشام لان سيدهما الحقيقي انما هو الخليفة
خليفة الرسول (صلعم) فويل لمن خالفه »

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبق له نصير فحاول الفرار فلم
ينجح فقبض عليه وقيد الى الخليفة فانتحل له ذنباً يستوجب عليه المحاكمة — وهوانه كان
قد اضطر لكثرة ما انفق في محاربة التتر ان يضرب ضرائب فوق العادة فرفعت عليه

عرافض التشكي الى مجلس الائمة والفقهاء انه اختلس الاموال وخرب البلاد وانه تمرد على الخليفة ظل الله على الارض فاتخذ الخليفة ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على دمنة هناك

سلطنة الامام المستعين بالله

من سنة ٨١٥ — ٨١٥ هـ او من ١٤١٢ — ١٤١٢ م

فاجتمعت السلطانان الروحية والسياسية للمستعين بالله فبايعه الامراء وقواد الجند ولقبوه بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي اتابك العساكر ومدير المملكة . واخذ في اصلاح الاحوال ووجه انتباهه الى ما يكتسب قلوب الرعية فاعاد الامن الى البلاد بمقاصدة المعتدين واظهر لياقته لما عهد اليه فشرع في تنظيم الاحكام وانصاف المظلومين وبذل العطاء قاحبه الناس . اما الشيخ المحمودي فانه قام بهذه الثورة خدمة لاغراضه وليس للخليفة فرأى انه اصبحت آلة بيده فاضمر له شرًا ونوى على خلعه لكنه استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفاً من الوقوع في شر اعماله فعمل على توطيد العلاقات الودية بينه وبين امراء الممالك والتقرب منهم واقناعهم تحت طي البساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئاً من ضعف الراي والتحول فضلاً عن كونه غريباً عنهم . فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم فاخذ يشكو من منصبه فولاه الخليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ ما ربه وما زال ساعياً الى مطمح انظاره حتي كثرت احزابه واصبحت ازمة البلاد في يده فاجبر الخليفة على مشاركته في السلطة فاجاب ولقبه بالملك المؤيد ثم خطا خطوة اخرى نفخ الخليفة وجسه في بعض غرف القصر

سلطنة الشيخ المحمودي

من سنة ٨١٥ — ٨٢٤ هـ او من ١٤١٢ — ١٤٢١ م

فلم يستطع المستعين بالله مقاومة لكنه كتب سرًا الى نوروز احد اصدقاء القدماء وكان قد ولاء سوريا يستنجبه فقدم نوروز مسرعاً الى القاهرة في جيش فرأى انه

يقصر عن مناوأة المحمودي فاعزأ الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية . وكان الشيخ المحمودي في دمشق فاصدر منشوراً بخلعه فاغتم المشائخ والامراء فرصة غيابه وجأهروا بخلعه . وبلغ ذلك الشيخ المحمودي فاسرع الى القاهرة تخافه المشائخ والعلماء وانكروا خلعه وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الخلع والحوأ على معاقبته لانه تمرد على سلطانهم فخلعوه من السلطنة والخلافة وسجنوه ثم نفوه الى الاسكندرية سنة ٨١٨ هـ واقاموا اخاه داود خليفة مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله . فعاد الشيخ المحمودي الى كرسي السلطنة واخذ يسمى في اكتساب ثقة الاهلين فاتبع خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فأمنت الرعية وسعدت البلاد . وما زالت الحال كذلك ثمانى سنوات وخمسة اشهر وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ توفي السلطان الشيخ المحمودي . وكان محباً للعلماء يكرم مشواهم . وله بنايات جميلة من جملةها الجامع المسمى جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة وقد جدد بناؤه وهو كثير النقوش ولم يبق من البناء القديم الا ليوان القبلة . وبعد وفاته عادت الامور الى مجراها الاول من القلاقل فتولى السلطنة بعده ثلاثة سلاطين لم يحكموا الا مدة قصيرة

سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين ططر ثم محمد بن ططر

من سنة ٨٢٤ - ٨٢٥ هـ او من ١٤٢١ - ١٤٢٢ م

اولهم ولده شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلى عن الملك لوصيه وحبيه سيف الدين ططر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبويج ابنه ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعه وصيه سيف الدين برس باي فقضى باقي حياته في الشقاء

سلطنة الملك الاشرف برس باي

من سنة ٨٢٥ - ٨٤١ هـ او من ١٤٢٢ - ١٤٣٧ م

وبعد خلعه اختلفت الامراء في من يخلفه فتنحى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضاً فالتهم السلطنة غنيمة باردة . فبويج في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ هـ ولقب

بالمك الاشرف وقد كان برس باي مملوكاً احبه سيده الملك الظاهر ططر فاعتقه ورقاه حتى جعله وصياً على ابنه . وفي اول حكمه فاض النيل حتى غمر الارض بالخيرات فكثرت الجبوب وشبع الفقراء . وكان برس باي كاشيخ المحمودي حكمة ورفقاً وقد رهم عدة . مدن وشاد في القاهرة عدة بنايت منها الجامع المعروف بجامع الاشرفية تجاه سوق العطارين ابتداءً في بنائه سنة ٨٢٦ هـ . وقد تمكن برس باي لحسن سياسته وحزمه من استبقاء السلطة بيده مدة طويلة والبلاد في سكينه الا في سنة ٨٢٧ هـ اذ ثار الامير بليق النجاشي نائبه في دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلت وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنخي يقال له عبد الرحمن فولاد برس باي على سوريا بدلاً من النجاشي وكانت هذه الثورة اول الفلالق وآخرها في ايامه

اما محارباته مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانه جرد على الافرنج عدة تجريدات وتغلب عليهم فاختضع جزيرة قبرص وحمل الملك جان لوسينيان الثالث على الاعتراف بسلطانه واداء الجزية . وعقد مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان اذ ذاك مراد بن محمد معاهدات سلمية تدل على عظيم شوكته . فكانت مصر في ايامه سعيدة داخلاً وخارجاً وقال بعض المؤرخين ان الملك الاشرف برس باي اجدر المملوك الشراكية بالمدح لانه كان اعلام همه واشدهم عزيمة واكثرهم تدرباً في الاحكام . ومما يمتدح عليه انه ابدل جميع التذلات التي كانت تقدم للملوك قبله بتقبيل اليد فقط . لكنه اصاب في اواخر ايامه بمرض في عقله كما اصاب الحاكم بامر الله فاصدر اوامر غريبة منها انه امر بنفي الكلاب الى براجزية . فصار كل من امسك كلباً يأخذ نصف فضة من صيرفي باب السلسلة فامسك العياق من الكلاب نحو الف كلب فنقوها الى براجزية . ثم انه امر بان لا تخرج امرأة من بيتها الا باذن من الحكومة فكانت الفاسلة اذا ارادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب تجعلها في راسها وتمشي في السوق . ثم انه نادى في القاهرة بان لا يلبس الفلاحون زمطاً مطافاً فامتنل الناس امره . ثم انه رسم بتوسيط الحكماء فوسط الرئيس خضر . ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف واستمر على امثال ذلك الى ان مات بعد ان حكم ١٧ سنة و٨ اشهر و٦ ايام . قضى يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وعمره ستون سنة

سلطنة يوسف بن برس باي

من سنة ٨٤١ — ٨٤٢ هـ او من ١٤٣٧ — ١٤٣٨ م

فبويغ ابنه جمال الدين يوسف الملقب باي المحاسن ولقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة شهر من مبايعته تخاصم بماليكه وسيف الدين جقمق اتابك جيشه خصاماً انتهى بعزله بمبايعه جقمق في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ

سلطنة الملك الظاهر جقمق

من سنة ٨٤٢ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذ ذاك ٦٩ سنة ولقب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمه اصيبت مصر بطاعون نفشى في انحاءها . وفي سنة ٨٤٦ هـ توفي الامام المعتضد بالله وكان باراً تقياً واولى بالخلافة بعده لاختيه بالرحم فبايعوه ولقبوه بالمستكني بالله وكان صديقاً للسلطان جقمق وبعد ثمانى سنوات من خلافته توفي سنة ٨٥٤ هـ وكان كاختيه تقياً وبراً حتى تخاصم الاعيان والكبراء في المسابقة الى حمل نعشه وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانه حمل به على منكبيه . فبويغ اخوه ولقب بالقائم بأمر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايراً لسير اسلافه فابغضه السلطان وخاف دسائسه وكان قد تجاوز الثمانين من سنه ولم تبق فيه عزيمه على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطة لابنه نغر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧ هـ وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد الثاني القسطنطينية

سلطنة عثمان بن جقمق

من سنة ٨٥٧ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٥٣ — ١٤٥٣ م

وبويغ نغر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور اما الخليفة فلم ينفك عن دسائسه طمعاً

بالسلطة فدعا اليه زمرة من الامراء وحملهم على نبذ طاعة الخليفة على امل ان يتال بذلك ما ناله المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة شهر ربيع آخر من تلك السنة بعد ان حكم شهراً و يوماً . اما الخليفة فخاف انتظاره وحبطت مساعيه فغادرته الاحزاب وباعوا مملوكاً مسناً اسمه ابو النصر اينال ولقبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف اينال

من سنة ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ او من ١٤٥٣ - ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسه ان هذا السلطان شيخ فلننتظر وفاته انه لا يلبث ان يصيب حتفه . فانتظر ست سنوات فلم يمت فعمد الى الدسيسة فانصل ذلك بالوزير بلجيوئي فاعلم السلطان بامرهم فاستحضر الخليفة وقرعه ثم امر بخلعه عن الخلافة . فقال الخليفة « من ابن لك ان تخلع الخلفاء ولهم وحدهم ان يولوا ويعزلوا » فلم يجبه الا بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فباعوا يوسف اخا المعتضد بالله ولقبوه بالمستنجد بالله وكان حكيماً معتدلاً وعاش السلطان اينال بعد ذلك سنتين وولى وعزل في اثنا عشر عاماً من الوزراء ثم توفي يوم الخميس ١٥ جمادي الاولى سنة ٨٦٥ هـ بعد ان حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

سلطنة احمد بن اينال

من سنة ٨٦٥ - ٨٦٥ هـ او من ١٤٦٠ - ١٤٦١ م

فتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح وكان قد تعاطى الاحكام في



ش ٩٢: نقود ابي الفتح
والاشرف

اخر ايام ابيه . وترى في شكل ٩٢ صورة نقود مضروبة في عهد شهاب الدين احمد يوم كان يتعاطى الاحكام في حياة ابيه فلما بوبع لقب بالملك المؤبد ولكنه لم يحكم الا اربعة اشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبوبع سيف الدين خورش قدم ولقب بالملك الظاهر

سلطنة الظاهر خوش قدم

من سنة ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ او من ١٤٦١ - ١٤٦٧ م

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانه يوناني الاصل وبالناصرى لانه كان من ممالك الملك الناصر وكان محباً للاداب اليونانية محافظاً عليها . وكان حكيماً باراً حليماً محباً لرعيته ساهراً على راحتهم ولم يكن يستوزر الا الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فاجبته الرعية واجمعوا على طاعته والاخلاص له . ويقال بالجملة ان هذا السلطان من افضل سلاطين مصر وقد اقتدى به رجال دولته . اما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطته الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفي في ١٠ ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ وسنه ستون سنة فاسف عليه الناس كثيراً

وكان حسن الشكل معتدل القامة مترك الوجه احمر اللون مستدير اللحية ضخم الجسم شائب اللحية فصيح اللسان بالعربية وكان ماشياً على النظام القديم تابعاً لطريقة الملوك السالفين في اقامة المواكب في القصر الكبير والمبيت به في كل ليلة . وكان سائراً على خطة استأذنه الملك المؤيد شيخ في كسر السد بنفسه ولبس الصوف في المطعم وكان كثير الرمايات في كل سنة ويشق في القاهرة المواكب الجليلة . وكان يطيف المحمل في كل سنة في رجب وتسوق الرماحة على جاري العادة اربعين يوماً ثم يلبسون الاحمر وتزين القاهرة ثلاثة ايام ويخرج الناس في ذلك عن الحد بالقصص والخلاعة وكانت ايامه كلها ملهوا ولم يجيء في ايامه الطاعون بمصر ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية . وكان مناناً في ملبسه فصنع ركبا ومهايمز من ذهب . وكان يلبس السمر الاسود بلون الحبر وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ويبطنه بالمحمل الاحمر الكفوي

سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمرغا

من ٨٧٢ - ٨٧٢ هـ او من ١٤٦٧ - ١٤٦٧ م

فبايعوا ابا سعيد بلباي ولقبوه بالملك الظاهر فكان سميّاً لسابقه بالاسم لا بالفعل فجاء من السيئات اكثر مما جاء من الحسنات لانه كان مستبدّاً عاتياً لا يغادر كبيراً ولا

صغيراً فكرهته الناس ولم يمض ٦٦ يوماً من توليته حتى خلعوه وذلك في ١٧ جمادى الأولى من تلك السنة وبايعوا الأمير أبا سعيد تمر بغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الظاهر أيضاً فكان حظه من الملك كحظ سلفه لأنه خلع بعد شهرين من توليته وبايعوا الأمير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري ولقبوه بالملك الأشرف

سلطنة الملك الأشرف قايت باي

من سنة ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ من ١٤٦٧ - ١٤٩٥ م

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ هـ أربعة سلاطين . أما السلطان الأخير فكث على سرير السلطنة مدة طويلة رغم ما كانت عليه البلاد من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكاً محرراً من ممالك جقمق وكان لهوهمته وحسن سياسته قابضاً على أزمة الأحزاب فكانت البلاد آمنة مطمئنة إلا أنها اضطربت بخبر انتصار محمد الثاني العثماني على أوزون حسن ملك الفرس . وكان بين الفرس والمصريين تحالف فتنبأ قايت باي أن ذلك التحالف سيكون سبباً لعزم العثمانيين على فتح سوريا . فأرسل حامية كبيرة إلى الحدود فاجل العثمانيون عزيمهم لاشتغالهم بحروبهم في أوربا . أما قايت باي فخاف سوء العقبى ولم ير سبيلاً لرفع التبعة عنه إلا بالتنازل عن الملك فأدرك الأمر شدة احتياجهم إليه في مثل تلك الأحوال فاجبروه على قبول السلطنة . ولم يكديعوا لها حتى جاءته الأنباء بانتصار محمد الثاني على الأفرنج وعزمه على فتح سوريا وذلك سنة ٨٨٥ هـ لكنه لم يخرج من برا الاطول حتى داهمته المنية في مدينة طيقور جابر . وتخاصم ابنائه بيازيد وجم (أوزيزم) على الملك فشغلا عن الفتح فاغتم قايت باي تلك الفرصة والسحب بجيشه إلى مصر

وما زال الخصام يتعاضم بين ابني محمد حتى كانت بينهما واقعة يكي شهر فانهزم جم حتى أتى مصر فالتجأ إلى قايت باي فأكرم وفادته ثم علم أن ذلك الأكرام يهيج حاسة الانتقام في بيازيد . فقال في نفسه « إذا كان لا بد لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجرين أولى من أن نكون مدافعين » فجعل يناوئ الأتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة للحجاج إلى الحرمين حتى قبض على وفد هندي مرسل في مهمة سياسية إلى

بيازيد واستولى على اذنة وترسوس وكاتنا في حوزة العثمانيين . أما بيازيد فكان واقفاً بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجرة المصريين فجاءت تلك الاجراءات طينة على عجيبة الا انه رأى ان يأتهم من باب الحزم فانفذ اليهم رسلاً في طلب التعويض عما سببوه من الخسائر والاضرار . فارجع قايت باي الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمانية فقاومتها اشد مقاومة وارجعت جيشه الى ملاطية فانجدهم قايت باي بخمسة آلاف رجل فعادوا الى العثمانيين وهم في مضائق الجبال فهجموا عليهم بغتة وذبحوا منهم عدداً كبيراً وفر الباقون وتحصنوا في ترسوس واذنة . فاتصل ذلك بقايت باي فارسل الامير الازبكي في نجدة لاجراج العثمانيين من تينك المدينتين فسار وحارب وفاز فشقي ذلك على بيازيد وآلى على نفسه الا ان يسترجع ترسوس واذنة فانفذ جيشاً كبيراً تحت قيادة صهره احمد وهو ابن امير البوسنة . ولد في البانيا ثم اسلم واخذ يرتقي في اعمال الدولة حسب استحقاقه حتى تمكن مع صغر سنه وكونه غير مولود في الاسلام من قيادة هذه الحملة لمحاربة الجيوش المصرية . فلما وصل الى معسكر الازبكي اقتتل الجيشان فهجم احمد هجمة قوية لكن رجاله لم يستطيعوا الثبات ففازت الجيوش المصرية واسر احمد بعد ان جاهد جهاداً حسناً فعاد الازبكي باسيره الى مصر ظافراً بفنى جامعته المشهور المعروف بجامع الازبكية وكانت في ايامه بركة يتجمع اليها الماء في ايام الفيضان وستأتي كيفية تحويلها الى ما هي عليه الآن

فلما بلغ بيازيد ما كان من انكسار جيوشه استشاط غضباً وجند جنداً كبيراً جعله تحت قيادة علي باشا لمحاربة المصريين فسارت تلك الحملة من الاستانة فعبرت البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ ونزلت في قرمان . فاتصل خبرها بقايت باي فاجس خيفة فعمد الى المصالحة فانفذ الى بيازيد صهره احمد واسطة لعقد شروط المصالحة . فرفض بيازيد ذلك رفضاً كلياً وسار حتى التقى بالمصريين في اذنة وترسوس فخاربهم وفاز عليهم واسترجع المدينتين الواحدة بعد الاخرى بعد ان اهرق دماء غزيرة . ثم سار الى ارمينيا واخضعها وحاصر عاصمتها فافتتحها بعد ان دافعت دفاعاً قوياً واسر حاكمها وارسله بعد ذلك الى مصر بدلاً من الامير احمد . فبعث قايت باي الازبكي ثانية لدفع العثمانيين فواقعهم في ترسوس فغلبوه اولاً ثم عاد اليهم وفاز بهم واعادهم القهقري وعاد الى القاهرة ظافراً بنجاح عليه قايت باي . ثم رأى ان يفتح كونه ظافراً لمصالحاة العثمانيين فبعث الى بيازيد في ذلك فاجابه مهديداً وطلب اليه ان يتنازل له عن ترسوس واذنه وانه اذا لم يفعل يدعو الناس الى الجهاد فيجتمع تحت لوائه

كل من يدعو لآل عثمان فيجيء مصر ويفتحها فتحاً ميبناً . تخاف قايت باي وتنازل عن المدينتين اكتفاء باهون الشرين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ
 وطاش قايت باي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد ان حكم ٢٩ سنة واربعة اشهر وعشرين يوماً فبكاه الناس . ومن آثاره جامعته المعروف باسمه الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة . وفيه مقام قايت باي وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة . وبني قايت باي جامعاً في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

سلطة محمد بن قايت باي ثم قنسوخمسمئة ثم قنسو ابي سعيد
 ثم قنسوجانبلاط ثم الملك العادل طومان باي

من سنة ٩٠١ — ٩٠٦ هـ او من ١٤٩٥ — ١٥٠١ م

وتولى بعد قايت باي ابنه ابو السعادة محمد ولقب بالملك الناصر ولم يجلس على سلطنة مصر رجل اقل لياقة لها منه فانه كان احق جيبصاً وحشياً لا يدن له الا الانعام في المذات الحيوانية ولو كلفه ذلك ارتكاب شر الآثم . وقد زادت قبحته حتى سلخ جلد احد مماليكه حياً فثار عليه المماليك وخلعوه بعد ان حكم ستة اشهر . وبايعوا الامير قنسو الملقب بخمسمئة لانه اقبل بالاصل بخمسمئة دينار ولقبوه بالملك الاشرف . وبعد خمسة اشهر تنازل عن الملك عجزاً فاعادوا الملك الناصر محمد ثانية لكنه لم يبق الا ١٨ شهراً ونصف فذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ هـ وبايعوا عم قنسو واسمه قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الخطر الا بالرغم عنه . وبعد عشرين شهراً وبضعة ايام عزلوه وبايعوا قنسو الثالث جانبلاط ولقبوه بالملك الاشرف ولم يحكم الا سبعة اشهر ثم خلع في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ فقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوه بالملك العادل . فوافقهم امراء القاهرة على ذلك . وبعد ثلاثة اشهر اضر له المماليك مكيدة يقتلونه بها فعلم هو بذلك ففر طلباً للنجاة فأوى الى مكان ظنه مأجراً حصيناً مكث فيه اربعين يوماً ثم اكتشف عليه المماليك وقتلوه في ذي القعدة سنة ٩٠٦ هـ ثم اجتمع المماليك

والايعان وارباب الدولة وتداولوا فيمن يجب ان يختاروا ليحكم فيهم . من اهل اللياقة فاقروا على الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان هو ايضاً من مهاليك قايت باي وكان رجلاً تقياً محضاً محترماً عفيفاً غير عالم بما كان يتخاصم عليه الامراء وما كانوا يدسونه من الدسائس . فلما بلغه امر مبايعته انذهل ورفض قائلاً للذين انتخبوه « لا اخالف لسكم امراً انما اراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم اعتد معاناة الاحكام والامر والنهي » فاجابوه ان صدق نيته واخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاقه هذا المنصب . فلم يردّأ من القبول لكنه قال لهم « اكون في غاية السرور اذا جثمتوني يوماً تنبثوني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » فولوه في غرة شوال من تلك السنة ولقبوه بالملك الاشرف ايضاً

سلطنة قنسو الغوري

من سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ لو من ١٥٠١ — ١٥١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام واخص في الحكم فاطمأت البلاد وسكن حالها فآخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعاً ومدرسة ينسبان اليه وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كل منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة ويابها الى الجنوب مدفن فيه مقام بعض اهله . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليه انه هائل وهو مبني على مثال جامع قايت باي وعلى القبلة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الآثار والى الشمال سبيل جميل . ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان يقصده من البناء والتحسين فان البرتغاليين استولوا على بعض بلاد الهند اثقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جاء كركود اخو السلطان سليم بن بيازيد « سليم الاول » الى مصر ملتجئاً اليها بعد ان تخاصم مع اخيه على الملك كما حصل بحجم وبيازيد المتقدم ذكرهما فرحب به قنسو الغوري ترحاباً عظيماً وجهزه بمشرين بارجة بحرية لافتتاح

القسطنطينية فذهبت هذه العمارة غنيمة اراكب اورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الا اثاره غضب السلطان سليم على مصر فجزأها وابتدأ بافتتاح الحدود السورية واصل الى مصر رسائل التهديد . فالتحق الغوري مع مالك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الا ان الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشنت الجيوش واي تشنت . فعمد قنسو الغوري الى مخايرة العثمانيين بامر الصالح على اي وجه كان وبعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى اتوا السلطان سليم فخرروا ساجدين وخاطبوه بامر الصالح فقال لهم وقد استشاط غيظاً « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى سلطانكم وقولوا له ان الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها انا ذاهب الى القاهرة فيستعد للدفاع ان كان له اهلا » فعادوا واخبروا بما كان فجمع اليه رجاله وسار للاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك وظهر الغوري بسالة واقداماً عظيمين حتى اوشكت رجاله ان تستظفر فتعنتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الا الرماح والحراب والسيوف فنشوش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائد جناحهم الى العثمانيين وكان الغوري قائداً لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحول شكيمة جواده فسقط عنه لشدة الازدحام وذهب قتيلاً تحت ارجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد ان حكم ١٥ سنة وتسعة اشهر و ٢٥ يوماً

سلطنة الملك الاشرف طومان باي

من سنة ٩٢٢—٩٢٣ هـ او من ١٥١٦—١٥١٧ م

وكان السلطان قنسو الغوري قبل خروجه من القاهرة هذه المرة قد استخاف عايبها ابن اخيه طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوه ايضاً بالملك الاشرف وكان حازماً باسلاً . فلما وصلت بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة امر باعداد حملة اخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي ان الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الا ان الامر لم يكن كما ظن لانه لم يكذب اعداءه حتى اتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصه :

« من السلطان سليم خان بن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باي الشركسي

الحمد لله . اما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوقي . اما قنسو الكافر الذي حملته القعدة على مناواة الحجاج فقد نال جزاءه منا ولم يبق لدينا الا ان نتخلص منك فانك جارٌ معاد والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعال الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا »

فلما قرا طومان باي الكتاب وما في ذيله من التهديد المستمر استشاط غيظاً واصر على المقاومة وكان عالماً بعجزه لكنه فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما امكنه جمعه من الرجال وسار للملاقاة العثمانيين حتى اتى الصالحية فعسكر هناك . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيعة . ثم علم بمقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيه من العزم على المدافعة لشدة اليأس فخرج بجيشه تاركاً الصالحية عن يمينه وسار حتى اتى الخانكة على بضع ساعات من القاهرة

فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشه لمهاجمتهم من وراء فاتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ واقتلا طويلاً والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففر المصريون الى القاهرة وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليه طومان باي عدداً كبيراً من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم يئل هذه المرة غير ما نال في المرات الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزاد في حصونها واستحكاماتها وحسن القلعة تحصيناً عظيماً واقام في كل شارع وفي كل بيت طابية للدفاع وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للمدافعة عن الوطن . ولكن رغم كل هذه الاعدادات وماعما اظهره طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليه امرؤه لم تنج القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوة وامنعوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً واستلموا القلعة

اما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجزيرة ثم سار منها قاصداً الاسكندرية فقبض عليه بعض العربان الرحل وابعوه للعثمانيين . فاستحضره السلطان سليم مغلولاً ونظر اليه فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجهه القنوط لما حل

بيلاده من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فامر بان تحمل قيوده وان يؤذن له بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في امر البلاد فكان يسأله مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة ايام وفي اليوم العاشر رأى السلطان سليم انه لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فامر بشنقه في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاّب من حديد كان باقياً هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية بعد ان تسلطوا نحو ١٣٩ سنة واصبحت مصر احدى الايالات العثمانية الكبيرة . وبقيت جثة طومان باي ثمانية ايام معلقة ليراها الناس

تم الجزء الاول

من تاريخ مصر الحديث



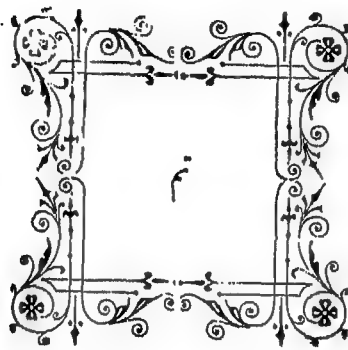
فهرس الجزء الاول

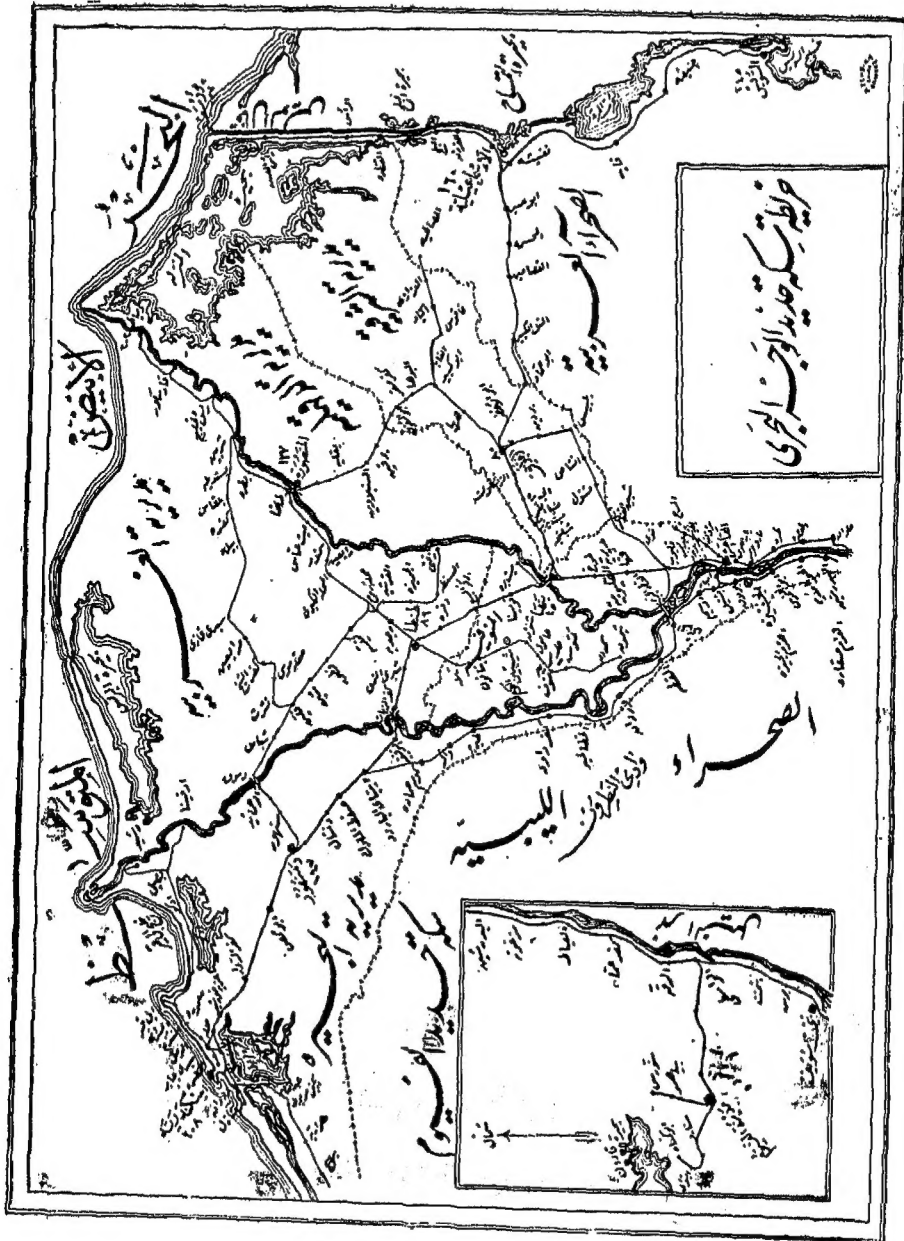
من تاريخ مصر الحديث

صفحة		صفحة	
١١٤	خلافة يزيد بن معاوية	٣	المقدمة
١١٥	« مروان بن الحكم	٩	اقسام تاريخ مصر العام
١٢٠	« عبد الملك بن مروان	١١	مصادر تاريخ مصر القديم
١١٩	« الوليد بن عبد الملك	١٥	جغرافية مصر القديمة
١٢٠	« سليمان بن عبد الملك	١٨	ديانة المصريين القدماء
١٢١	« عمر بن عبد العزيز		فدلكة تاريخ مصر القديم
١٢٢	« يزيد بن عبد الملك	٢٣	الدولة الملكية الاولى
١٢٣	« هشام بن عبد الملك	٢٨	« « الوسطى
١٢٤	« الوليد بن يزيد	٣٥	« « الاخيرة
١٢٥	« مروان بن محمد	٥٣	« « الفارسية الاولى
	الدولة العباسية للفترة الاولى	٥٧	« اليونانية — والبطالسة
١٢٧	خلافة ابي العباس السفاح	٦٥	« الرومانية
١٢٨	« المنصور بن محمد	٦٧	الدور المسيحي
١٣٠	« محمد المهدي		تاريخ مصر الحديث
١٣٢	« هارون الرشيد	٦٩	مصادر تاريخ مصر الحديث
١٣٥	« محمد الامين	٧١	جغرافية مصر الحديثة
١٣٧	« عبد الله المأمون		دولة الخلفاء الراشدين
١٤١	« محمد المعتصم	٧٥	خلافة عمر بن الخطاب
١٤٢	مبدأ الدولة الطولونية	١٠٠	« عثمان بن عفان
١٤٤	خلافة الواثق	١٠٥	« علي بن ابي طالب
١٤٦	« المنتصر بن المتوكل		الدولة الايوبية
١٤٧	« المستعين بن محمد		خلافة معاوية بن ابي سفيان
١٤٨	« المعز بن المتوكل	١١٣	

صفحة		صفحة	
٢٣٥	خلافة الأمر بن المستعلي	١٥١	خلافة المهدي والمعتمد
٢٣٨	» الحافظ بن محمد		الدولة الطولونية
٢٤٠	» الظافر بن الحافظ	١٥٤	أحمد بن طون
٢٤١	» الفائز بن الظافر	١٧٢	خارويه بن أحمد
٢٤٢	» العاضد بن يوسف	١٧٥	جيش بن خارويه
	دولة الإيوبييه	١٧٧	هارون « «
٢١٦	سلطنة صلاح الدين الأيوبي	١٧٩	شيبان بن أحمد
٢٨٩	« العزيز بن يوسف		الدولة العباسية للمرة الثانية
٢٠١	« المنصور بن العزيز	١٧١	خلافة المكتفي والمقتدر
٢١٢	« العادل بن أيوب	١٨٢	» القاهرة
٢١٦	« الكامل بن العادل	١٨٢	مبدأ الدولة الاخشيدية
٣٠٣	« العادل بن الكامل	١٨٣	خلافة الراضي
٣٠٤	« الصالح بن الكامل		الدولة الاخشيدية
٣٠٧	« المعظم بن الصالح	١٨٥	محمد الاخشيد
	دولة المماليك الاولى	١٨٩	أنوجور بن الاخشيد
٣٠٨	منشأ المماليك	١٩٠	أبو الحسن بن الاخشيد
٣٠٩	سلطنة شجرة الدر	١٩١	كافور الاخشيد وأبو الفوارس
٣١١	« إيبك والاشرف		الدولة الفاطمية
٣١٥	« نور الدين بن إيبك	١٩٢	خلافة المعز لدين الله
٣١٦	« المظفر سيف الدين	٢٠٣	» العزيز بالله
٣١٨	« الظاهر بيبرس	٢٠٧	» الحاكم بأمر الله
٣٢٦	« بركة خان بن بيبرس	٢١١	» الظاهر بن الحاكم
٣٢٧	« سلامش بن بيبرس	٢١٢	» المستنصر بن الظاهر
٣٢٧	« المنصور قلاون	٢٣١	» المستعلي بن المستنصر
٣٣٠	« خليل بن قلاون والقاهر		
٣٣١	« الملك الناصر بن قلاون أولاً		

صفحة		صفحة	
٣٥٠	سلطنة فرج بن برقوق ثانية	٣٣١	سلطنة الملك العادل كتبغا
٣٥٠	« الامام المستعين بالله	٣٣٣	« المنصور لاجين
٣٥١	« الشيخ المحمودي	٣٣٤	« الناصر بن قلاوون ثانية
٣٥٢	« احمد بن المحمودي وغيره	٣٣٥	« بيبرس الجاشنكير
٣٥٢	« الملك الاشرف برسباي	٣٣٦	« الملك الناصر ثالثة
٣٥٤	« يوسف بن برسباي	٣٤٠	« اولاد الناصر
٣٥٤	« الظاهر جقمق وابنه عثمان	٣٤٢	« محمد بن حاجي وشعبان
٣٥٥	« الاشرف اينال وابنه احمد	٣٤٣	« علي بن شعبان وحاجي اخيه
٣٥٦	« الظاهر خورش قدم		رواة المماليك الثانية
٣٥٦	« بلباي وتمربغا		
٣٥٧	« الاشرف قايت باي	٣٤٤	منشأها
٣٥٩	« محمد بن قايت باي وغيره	٣٤٥	سلطنة الملك الظاهر برقوق
٣٦٠	« قنسو الغوري	٣٤٨	« فرج بن برقوق اولاً
٣٦١	« الاشرف طومان	٣٤٩	« عبد العزيز بن برقوق





تسم الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني والأخير

هذه السلسلة تضم :

- ١- فتح العرب لمصر
- ٢- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣- الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل
- ٦- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ٧- ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا
- ٨- تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا (مجلدات)
- ١٠- فتوح مصر وأخبارها
- ١١- تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم (ج ١) (ج ٢)
- ١٢- قوانين الدواوين
- ١٣- تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤- الحكم المصري في الشام
- ١٥- تاريخ الخديوي محمد
- ١٦- آثاء الزعيم سعد

Bibliotheca Alexandrina



0354359

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ Tel 5756421 6 Talat Harb SQ